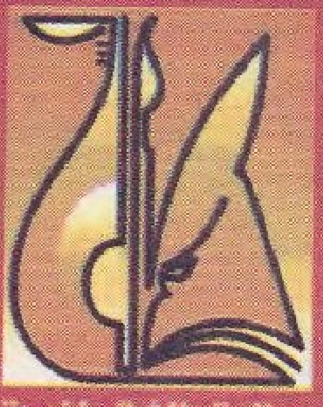


محمد عبد الحميد الحمد

حضارة طريق التوابل





سعر النسخة داخل القطر ٢٨٠ ل.س في الأقطار العربية مايعادل ٥٦٠ ل.س

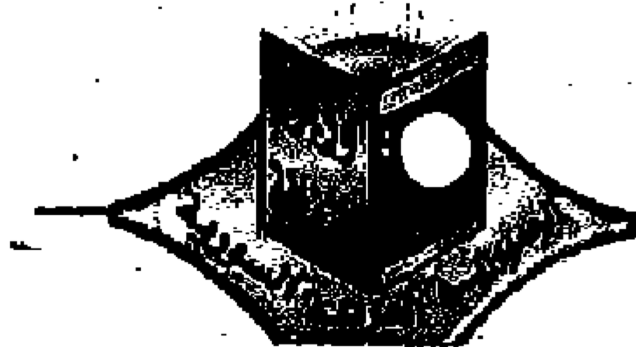
٢٠٠٧

حضارة

طريق التوابل

محمد عبد الحميد الحمد

حضارة طريق التوابل



منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ٢٠٠٧

حضـــــارة طريــق التوابـــل / محمد عبد الحميد الحمد .- دمشق :
وزارة الثقافة ، ٢٠٠٧ .- ٤٥٦ ص ؛ ٢٤ سم .

١- ٩٣٠ ح م د ح ٢- ٣٨٨,١ ح م د ح
٣- العنـــوان ٤- الحمـــد
مكتبة الأسد

المقـدمـة

بقلم الدكتور علي القيّم

معاون وزير الثقافة

أن تكتب مقدمة لكتاب ضخم عن حضارة طريق التوابل، عليك أن تدرك دور هذا الطريق ودور السلع التجارية التي ألقت بظلالها خلال تاريخ طويل على محطات ذلك الطريق، والوقوف على أهميته التي اصطبغ الطريق بها، ووسائل النقل عبر هذا الطريق الطويل، ومن كان يقف وراء نشوئها، وما هي العوامل المتحكمة في مساره واتجاهاته، ودور مدن القوافل في التواصل الحضاري، وصلة الجزيرة العربية ببلاد الشام...

هذا ما فعله الصديق الباحث الأستاذ محمد عبد الحميد الحمد، الذي أراد من كتابه «حضارة طريق التوابل» أن يبيّن أن كل حضارة هي جزء من مسارها التاريخي الطويل، وكان طريق التوابل أفضل شاهد على التواصل الحضاري بين أوروبا والعرب، لأن العرب قد تمثلوا كل الخبرات ومعطيات الدين والفن والسلوك والعادات والقيم، وكل ما كان يرافق السلع والبضائع..

لقد شكلّ طريق التوابل والبخور، الجسر الذي انتقلت عبره التأثيرات المختلفة منذ بداية تشكّل المدن في حضاراتنا القديمة.. في ماري وإيبلا وتوتول وأوغاريت وتدمر وبصرى الشام وغيرها... لقد اتخذت القوافل

التجارية من أسواق هذه المدن السورية القديمة محطّات تجارية، وكان تجّار هذه القوافل ينزلون المناطق والأماكن التي يتوفر فيها الماء والطعام والراحة، وسرعان ما تحولّت معظم هذه الأماكن والمحطات إلى حواضر سكنية وتجارية واقتصادية، وهذا يعني أن التأثير الاقتصادي والتجاري والاجتماعي والثقافي لهذا الطريق كان قوياً وكبيراً وحيوياً في حياة المدن وفي تطورها وازدهارها وتقدمها..

لقد كان لمرور قوافل التوابل والبخور بالحواضر والمدن السورية القديمة أثر هام في قيام الأسواق المحليّة والموسمية، حيث توفرت في هذه المدن الشروط الأساسية لقيام الأسواق التجارية المتمثلة في وجود مواضع خصبة تتوفر بها مصادر مياه قريبة من المراكز الحضرية والتجمعات السكنية، كما وفرت لها القوافل السلع المطلوبة من قبل سكانها وسكان الحواضر المجاورة، إذ كان يرتادها أبناء البادية والمناطق المجاورة لشراء ما يحتاجون إليه من توابل وبخور وعطور ومنسوجات ومنتوجات وأدوات زراعية وصناعية، ويبيعون فيها ما جلبوه معهم من منتوجاتهم ومحاصيلهم الزراعية، ومع مرور الزمن ظهرت وتشكلّت هذه الطرق وأصبح لها مسارها المعروف في تاريخ الحضارات القديمة، فكان في سورية القديمة ما عرف بطريق التجارة الشمالية، التي كانت تمتد من تخوم نهر الفرات، باتجاه مدينة حرّان شمالاً، وتذهب بإتجاه هضبة الأناضول، وطريق التجارة الجنوبية، التي تمتد من مدن الفرات الشهيرة المعروفة في التاريخ القديم منذ الألف الثالث قبل الميلاد بأسماء «ماري وتوتول وإيمار» نحو الجنوب بإتجاه إيبلا وقطنة وحاصور بإتجاه البتراء وغزة ووادي النيل، أو بإتجاه

المدينة المنوّرة ومكة المكرّمة وصنعاء، وهذا هو طريق التوابل والبخور والعطور العربية..

من هنا تبدأ رحلة البحث عن حضارات هذه الطرق، حيث يقوم المؤلف الأستاذ محمد عبد الحميد الحمد بدراسة أولى مدن القوافل في سورية في ماري «تل الحريري» وتوتول «الرقة» وحرّان وإيبلا وأوغاريت «رأس الشمرا» على الساحل السوري، وبصرى الشام، وتدمر، والرُّها مدينة الثقافة المسيحية، وهيرا بوليس «منبج الحالية» والبتراء ودولة الأنباط، ومدينة الحضر ودولة الحيرة، وتاريخ العديد من المدن والأمصار العربية الأخرى التي كان لها علاقة بطرق القوافل وحضارة التوابل والبخور والعصور العربية.

محمد عبد الحميد الحمد، أراد من خلال بحوث وفصول هذا الكتاب الضخم والممتع القول أن الحضارات والمدن والأمصار لا تولد من فراغ، وإنما هي نتيجة الحوار والتواصل والتسامح والتلاقح الحضاري والثقافي والفكري الذي يتم بين الشعوب والأمم (قديماً وحديثاً)، وهذا ما تم على أرض سورية العربية منذ أقدم الأزمنة والعصور، فعلى أرضها أينعت وازدهرت وتطورت الحضارات والصناعات والثقافات والعلوم، وفي طرقها ووديانها وأحواض أنهارها سار الإنسان منذ عصور البداوة والتوحش، إلى عصور التمدن والكتابة والفنون والعلوم المختلفة..

لقد قدّمت لنا مكتشفات المواقع الأثرية القديمة في سورية، والتي كانت محطات هامة على طريق التوابل والبخور والحرير، حقائق كثيرة لا خلاف حولها عن الريادة السورية في تطور معارف وعلوم وآداب البشرية،

فعلى أرض سورية كانت بداية التفكير بالاستقرار وإنشاء القرى الزراعية والمدن الكبرى، وكانت بداية التفكير بعبادة الأجداد، وبداية الرسوم التشكيلية، وبداية الكتابة التصويرية والمسمارية والأبجدية، وبداية التفكير بتدوين الموسيقا، وبداية تدجين الحيوانات وتربيتها، واستنبات الحبوب، واختراع العَجَلة والدولاب وصناعة الفخّار والخزف، وكان أهل سورية أول من عملوا بتعدين وصهر المعادن وطرقها وصناعتها واستخدامها في الأدوات المنزلية، وأول من عرفوا عصر النحاس ثم البرونز ثم الحديد، وبفضلهم تقدّمت صناعة الحلي والبرونز والخزف والعاج وبلغت مكانة عالمية كبيرة، تم نقلها إلى شعوب العالم عن طريق الحرير والتوابل والبخور.

محمد عبد الحميد الحمد، شكراً لك لأنك استطعت وبنجاح كبير، وعلمية فائقة أن تسجّل التجربة الإنسانية السوريّة القديمة، بكل أبعادها ومضامينها وأهدافها وغاياتها من خلال «حضارة طريق التوابل».. لقد اجتهدت وأصبت ووفرت لكتابك كل عناصر الدقة والمعرفة والإدهاش والأسلوب الممتع، فجاء بحق ليسد ثغرات، وليؤكد معلومات قيمة ورائعة عن تاريخنا وحضارتنا ودورنا الريادي في وقت نحن أحوج ما نكون إليه إلى الدفاع عن أصالتنا وهويتنا وتراثنا العظيم، في زمن العولمة والمتغيرات الدولية المتسارعة..

* * *

المدخل

نشوء المدن والحضارات

انطلقت الحضارة الإنسانية من أعماق المدينة، من هنا لا يمكن التفريق بين مصطلح الحضارة والمدنية Civilization، لأن الحضارة صدرت من أعماق المدينة، عندما اخترعت الكتابة، واغتنت اللغة، وتشكل الأدب الشفوي والمكتوب، ودونت الأساطير بغية تفسير الطبيعة. وكان لكل مدينة ثقافة خاصة بها، عكست رؤية أهل تلك المدينة للعالم الاجتماعي والطبيعي المحيط بهم. وعن طريق التواصل بين المدن، تكونت الحضارة، من ثقافات المدن المجاورة والبعيدة. والسؤال المطروح: كيف تكوّنت مدن الهلال الخصيب؟ أوما هي العوامل التي أسهمت في تكوينها؟

يخيل إليّ أنه بانحسار العصر الجليدي، وبداية العصر المطير، تغير المناخ، وخرج إنسان الكهوف، وصار يتجول بحثاً عن القوت. كان الإنسان القديم ضعيفاً، لضعف أدواته التي كانت مقتصرة على العصا. وتكونت العائلة التي صارت تصيد وتلتقط وتقطف لتتغذى. وكان نمط المعيشة يقوم على آلية بسيطة «من اليد إلى الفم» فكانت عيشة العائلة القديمة عيشة كفاف. واستمرت هذه الحالة آلاف السنين، وكانت العائلة تتجول في محيطها، حسب الفصول.

في الألف التاسع قبل الميلاد، استقرت بعض العائلات على ضفاف الأنهار، أوحول الينابيع، وصارت تخزن المؤونة من فصل إلى آخر. وبدأت تدجن الحيوانات، وتسرح بها في المراعي، ثم بنت لها حيرة (حفرة في الأرض محاطة بأوتاد خشبية) ثم بنى الإنسان لنفسه منزلاً مستديراً، نصفه تحت الأرض، وجعل الموقد وسط الحجرة التي يسكنها، وبذلك تشكلت القرية الأولى في موقع تل المريبط في الألف التاسع قبل الميلاد، وسمي ذلك العصر بالعصر النطوفي، وكانت الأدوات معظمها من الحجر الصوان.

ظهرت هذه القرى الأولى في منطقة الهلال الخصيب، في الهلال الممتد بين سيناء وأطراف الهضبة الفارسية. وكانت بدايات الإنتاج الاجتماعي، وصنع الأدوات من أجل التأقلم مع البيئة. وظهرت أنماط أخرى للمعيشة، إلى جانب نمط الصيد، ظهرت تشكيلة الرعي، وكانت العائلة ترافق القطيع في البادية، وكان مسكنها الخيمة المصنوعة من الجلود أومن الشعر والصوف. واستطاع الإنسان تدجين الكلب والثور، والضأن والماعز والجمل. وظهرت مدن على أطراف الأنهار ارتبطت معيشتها على الزراعة، وكانت أدواتها العصا المقساة بالنار (المنكاش) والمنجل والجرن والرحى. وصار الإنسان يحسّن أدواته، وطوّر استخدامه للنار ولأدوات الطهي، وبنى المنزل المستطيل والمربع، واهتم بزينة المنزل، وضع أدوات، هي تماثيل صغيرة، تدل على الأساطير والدين. يقول العالم الأثري جاك كوفان: «في المجتمعات الأكثر بدائية، يظهر بعض الإفراد الملهمين (كهنة أوسحرة) تؤمن لهم وظيفتهم تفوق طبيعي على أقرانهم، ويمارسون وظيفتهم في ظروف محددة.»[1].

---

(١) الألوهية والزراعة ص١٨٨، جاك كوفان. ترجمة: موسى ديب الخوري. وزارة الثقافة، دمشق ١٩٩٩م.

في الألف الخامس قبل الميلاد وفي موقع تل أبي هريرة، ظهرت الثورة الزراعية الأولى، عندما هجر الإنسان نمط معيشة صيد الغزلان الذي استمر لمدة ثلاثة آلاف سنة. في هذا الموقع صار الإنسان ينتج غذاءه، من الزراعة ومن تدجين الحيوانات، وانتخب الإنسان سلالات الحليب واللحم، واستورد الماعز من هضبة الأناضول ومن جبال زاغروس، ولم يعد يرافق القطيع في البراري وصار يعلف الحيوانات.[٢]. أطلق العالم الأثري جوردن تشايلد على هذه المرحلة اسم الثورة الزراعية الأولى. وبدأ اقتصاد الوفرة، وجرى تحوّل في حياة الإنسان، وظهرت التجارة البعيدة، وحصل التقايض بين القمح النشوي الذي لم يكن معروفاً في منطقة الفرات الأوسط. استورد القمح والشعير منَ منطلقة القفقاس بالعدس والحمص والفول. واستورد مع القمح حجر الأوبسيديان البركاني، والنحاس من منطقة براكين الأناضول قرب بحيرة وان Van، وعن طريق تبادل البضائع نقل التصورات والأساطير، وتمت المثاقفة بين الشعوب في تلك المرحلة.

صار الإنسان يحاول السيطرة على الطبيعة، عن طريق الرمز الإلهي، وساهم ذلك في بناء المعابد الأولى، ويمكن أن نسمي ديانة الإنسان الأولى ديانة الثور. يعلل جاك كوفان هذه التسمية الغريبة بقوله: «لأن صورة الثور، كانت تنتشر في كل المواقع القديمة، وكانت غالباً، مرتبطة بإله بشري "مذكر" وإن كان الثور رمزاً للإله، لأن الثور رمز القوة الإخصابية، وقوة العاصفة،

---

(٢) المصدر السابق ص١٦٣.

والقوة الحربية، وظلت هذه الصورة في عصور تالية، في العصر البرونزي، للإله بعل في أوغاريت، وصورة الثور تعني البطل المحارب وحامل للحضارة.»[٣]

الطرق وقيام المدن:

يرى معظم الباحثين في تاريخ الحضارات، أن المدن تكونت وازدهرت بفضل الطرق التجارية ووسائل المواصلات التي ربطت هذه المدن مع بعضها، وأسهمت في تكوين ثقافة الشعوب الذين يقطنون هذه المدن. ومع مرور الزمن تخصصت بعضها للتجارة الخالصة، وبعضها الآخر مدن للحج.

مدن القوافل التجارية:

توضعت هذه المدن على الطرق البرية، ذات التجارة الرابحة، وكانت هذه الطرق تساير الوديان الغنية بمنابع المياه. وقد كيّف الإنسان القديم الطرق لكي تتلاءم وأغراضه، وتجنبه المشاق في الصيف أوالشتاء، وهذا اقتضى توسيع الطرق في الممرات الضيقة لكي يكون اختراقها أسهل، وهذا على طرق الحجاز واليمن. أما في طريق البادية السورية فقد وضعت المسالح لخفر الطرق وحفظها من قطاع الطرق، كما بنيت عليها الخانات أودور الضيافة للمسافرين على طرق التوابل والحرير.

---

[٣] المصدر السابق ص١٩٧.

مدن الحج:

ذكر المؤرخ الروماني بليني ملاحظة جديرة بالاعتبار، قال: «الينابيع المعدنية في الجزيرة العربية، تصنع المدن وتخلق الآلهة.» هذه المقولة تنطبق على مدن الحج في الهلال الخصيب والجزيرة العربية معاً. مثل بابل وحران ومنبج (هيرابوليس) وتدمر ومكة. وشعوب هذه المدن من أصل واحد، هي الشعوب السامية، ذات الثقافة واللغة، والدين واللباس والعادات والتكوين النفسي والحاجات المعاشية المتشابهة، مما زاد في قابليتهم على تبادل المنافع والبضائع والأفكار ووجود المعابد والأسواق المشتركة، وكان في كل مدينة حج هيئة لحماية البائع والمشتري، ودور الضيافة المزودة بالطعام والشراب ووسائل المتعة. وكانت المرأة تشترك في البيع والشراء. وكانت ترافق الأسواق، المراكز الثقافية ينشر فيها الشعراء شعرهم، ويقدم الخطباء خطبهم، ويقدم الفنانون مسرحياتهم. وكانت حران ومنبج وتدمر ومكة مدن للحج منذ العهد البرونزي، وقد زالت ولم تبق سوى مكة مدينة للحج العالمي، لأنها المكان الذي بني على التقوى.

تحليل فصول كتاب حضارة طريق التوابل:

قسمت الكتاب إلى أربعة فصول، شملت مدن بلاد الرافدين وسورية والجزيرة العربية، وأرّخت لتلك المدن وما أفرزته من حضارة وثقافات عبر آلاف السنين وكونت الحضارة الإسلامية التي نعيش اليوم في ظلها.

الفصل الأول: الهلال الخصيب هومهد الحضارة الإنسانية

عرّفت في هذا الفصل بمصطلح «الهلال الخصيب» وما كان يشمله من بلاد الرافدين وبلاد الشام، وهوما يعرف بسورية الطبيعية، وكان سكانه يتكونون من شعوب ذات أصل مشترك، يتكلمون لغة ذات جذر مشترك، ما عدا الشعب السومري الذي كوّن أول إمبراطورية في التاريخ القديم، وهم الذين أمّنوا التواصل بين الشرق والغرب، وأعطوا للعالم أعظم الأساطير، كأسطورة الخلق التي تصور خلق الإنسان الأول من الطين الصلصال من وجه الأرض ونفخ فيه الإله مردوخ نسمة الحياة لكي يعمّر الأرض ويعيده، لهذا علمه اللغة وأسماء الحيوان والنبات والحراثة، وقد أنجز الإله مردوخ العالم في سبعة أيام.

وهناك قصة أخرى

وشرب دون أن يعبأ بالموت الذي صار يتهدده في كل لحظة.

وجدت هذه الأساطير مكتوبة باللغة السومرية الأولى التي هي من تشكيلة اللغات القفقاسية (الشركسية) واللغة الأكادية والبابلية وهي من جنس اللغات السامية. وقصة الرجل الصالح أوت ـــ نابنتشيم الذي أوحى إليه رب الحكمة (آي) أن العالم فسد وعليه أن يضع فلكاً كبيراً ويأخذ معه عائلته ومن الحيوان من كل نوع زوجين، لأن العالم سيغمر بمياه الطوفان.

وجدت هذه الأساطير مكتوبة على ورق البردي في بلاط أمنحوتب الرابع (أخناتون) وصلت إلى مصر من أرض الرافدين مع البضائع التجارية، وامتزجت بالفكر التوحيدي في الأدب التوراتي وانتقلت إلى الديانتين المسيحية

والإسلامية. وكل ما جرى عليه من تغير لأن الاسم صار قصة الرجل الصالح نوح (عليه السلام).

عرف اليونان قصة نوح باسم (دوكاليون) ذكرا ديودورس الصقلي في تاريخه عن العالم الطبيعي، تحدث أن أهل جزيرة ساموثراقيا كانوا يتحدثون أنه حدث في منطقة الهلسبونت Hellspont في منطقة البحر الأسود فاض البحر وتضخم بمياه (الدون والدينيبر) وأغرق جزءاً من آسيا، وقد أوحى الإله زيوس للرجل الصالح دوكاليون فلكاً لينجومن هلاك الطوفان. يعلق جاك كوفان على هذه القصة: «إن الفرضيات المؤسسة على تفسير الأساطير القديمة، خطرة بالنسبة لعلم الآثار، لأنه يرفضها، في حين أن تاريخ الديانات الذي يستغني عن بعض المعطيات الموضوعية، ويكمل سرد الأسطورة ويقبل صيرورتها وتشكلها.»(٤) لأن ذلك حدث بإرادة الله.

كانت الأساطير البابلية تصور الصراع بين عالمي الخير والشر، أوبين إله النور مردوخ وإلهة الظلام تيامات، ونتيجة الصراع يتم الفصل بين السماء والأرض، ويخلق مردوخ الإنسان والماشية ويبني المدن، وتبدأ الحضارة بإعطاء الإنسان الشرائع وتعليمه الكتابة، ويبدأ تنظيم الحياة بتطبيق العدل، ووضع القواعد الأخلاقية لتحريم الزنا، وتوضع حدود للرجل والمرأة.

وعن طريق التجارة التي شملت الهند وبلاد الرافدين وسورية ومصر والجزيرة العربية، على الطرق البرية، وما قام به الفينيقيون في البحر المتوسط والبحر الأحمر والخليج العربي، انتقلت البضائع والأفكار معاً.

---

(٤) الألوهية والزراعة ص٣١٤.

الفصل الثاني: حضارة بلاد الشام والحضارة السورية.

عرّفت في هذا الفصل بمصطلح بلاد الشام، ومتى ظهر مصطلح سورية، وتكلمت عن طرق التجارة القديمة:

١ ـ طريق التجارة الشمالية:

التي كانت تمتد من تخوم الفرات، باتجاه مدينة حران شمالاً، وتذهب باتجاه أورشوم، باتجاه (هضبة الأناضول).

٢ ـ طرق التجارة الجنوبية: التي تمتد من مدن الفرات (ماري وتوتول "الرقة" وإيمار) نحوالجنوب باتجاه إيبلا وقطنة وحاصور في فلسطين باتجاه البتراء، وغزة ومصر أوباتجاه يثرب ومكة وصنعاء. وهذا هوطريق التوابل والعطور العربية.

وتكلمت عن أولى مدن القوافل وابتدأت بمدينة ماري، ذكرت تاريخها السياسي والثقافي والتجاري في العالم القديم، وما قدمته هذه المدينة للحضارة العربية، خصوصاً في زمن ملكها الرحيم زمري ليم، ثم بيّنت نهايتها الحزينة على يد الإمبراطور حمورابي (١٧٤٠ق.م) الذي وحّد بين أطراف الهلال الخصيب وبلاد ما بين النهرين.

وتكلمت عن مدينة توتول (مدينة الآبار) وعن مسارها الحضاري، وعن زراعتها وأنواع تلك الزراعة (المرويّة بالراحة أوبالدلوأوبالغمر أوبالزراعة البعلية). وعن عبادة الإله داجان (إله الخصب والمطر) هذا الإله الإقليمي الذي جعل من مدينة توتول مدينة حج في العالم القديم قبل أن تنتقل هذه الصفة إلى مدينة حران.

وتكلمت عن مدينة إيبلا، مدينة القوافل البعيدة، وما قدمته هذه المدينة لعلم الآثار، حيث كشفت أرشيفها الملكي الذي ضم ١٧ ألف رقيم. وعن نشاط هذه المدينة التجاري والزراعي والحرفي، وعن الديمقراطية التي كانت سائدة، وأثر ذلك على الفن والأدب والديانة، وعن التواصل الحضاري بينها وبين مصر وأوغاريت وديلمون (البحرين) والهضبة الأفغانية من أحجار اللازورد، وقد أثرت في التوراة. جاء في إحدى الصلوات: «يا سيد الأرض والسموات، يوم لم تكن الأرض موجودة، فأنت خالقها، ويوم لم يكن لنور النهار وجود فأنت خالقه.» مثل هذا الابتهال نجده في سفر التكوين.

وفي هذا الفصل تكلمت عن تاريخ أوغاريت كبوابة للحضارة السورية على المتوسط وصلاتها التجارية الواسعة التي تمتد من جبال طوروس شمالاً إلى بصرى الشام جنوباً وإلى ماري شرقاً، وتحدثت عن حكامها المؤلهين، وحكمهم الديمقراطي، وعن التنظيم الاجتماعي والسياسي للمدينة، كما تحدثت بإسهاب عن اللغة والأدب والفن، خصوصاً ملاحمها وأساطيرها، وأثرها في الأدب اليوناني، كأسطورة الملك كيرت بن إيل وملحمة الملك دانييل، وأسطورة بعل الكبرى، والراعي الصالح تموز (دوموزي) حبيب الإلهة عشتار وقتله من قبل الإله موت، وأسطورة بعل والإله يم (إله البحر) والصراع الأبدي بين البحر والشاطئ.

وتحدثت عن معابد أوغاريت العديدة، وعن حرية الدين والفكر، وعن أثر الديانة الأوغاريتية في التوراة العبرية.

الفصل الثالث: دور مدن القوافل في التواصل الحضاري العربي

تحدثت في هذا الفصل عن القبائل الآرامية والعربية، ووشائج القربى بينهم، وعن حران مدينة الأعراب، وعن شهرة معبدها معبد الإله سين (القمر) وعن علاقة حران بالجزيرة العربية منذ أيام الملك الكلداني بنونيدس، الذي كان يقضي معظم أيامه في مدينة تيماء شمال الحجاز، وتفضيله عبادة الإله سين على عبادة الإله مردوخ (إله الشمس) مما أغضب كهنة مردوخ وتآمروا عليه وسلموا مدينة بابل إلى كورش الأخميني ٥٣٨ق.م.

كانت حران مدينة للحج والديانة الحنفية وللعبادة العرفانية، عبادة الإله عزوز (القرى)، وظهور الأدب الآرامي كقصة أحيقار.

وتحدثت عن مدينة الرُّها مدينة الثقافة المسيحية، وعن تاريخها الذي تلفه الأساطير. أما تاريخها الحقيقي فإنه يبدأ منذ غزوالإسكندر المكدوني ٣٣٣ق.م عندما أطلق عليها المكدونيون اسم إديسا Eddisa أي المحبوبة، وأصبحت مدينة تجارية، ثم خضعت لحكم الفرثيين (الفرس) وإن كان حكامها الأباجرة من العرب وهم الذين أسهموا بتطوير تجارة التوابل والعطور والحرير أيام الملك الأرمني ديكران الكبير (٨٥ ــ ٦٥ق.م)، وهوالذي نظم طريق التجارة وأدخل الجمال في القافلة، وصارت الجمال تسير من البتراء إلى أرمنية آمنة.

وفي عهد السيد المسيح آمنت الرُّها بالسيد المسيح، وظهر فيها الأديب الآرامي ماره بن سرابيون السميساطي، والفيلسوف برديصان الرُّهاوي الذي ترك أثراً خالداً في الفكرين المسيحي والإسلامي.

وفي العهد العربي خرجّت الرُّها عدة علماء ومفكرين من أشهرهم مار يعقوب الرُّهاوي، وجرجس أسقف العرب وغيرهم.

وتحدثت في هذا الفصل عن مدينة منبج (هيرابوليس) مدينة الحج الثانية بعد حران. وحاولت تكوين صورة تركيبية لتاريخها القديم الذي يلفه الغموض. ولأنه لم تجر تنقيبات في الموقع ذكرت في المصادر الأكادية باسم (باميسا) وسميت في المرحلة اليونانية باسم هيرابوليس نسبة للإلهة هيرا زوجة زيوس، وصار معبد آشور باسم معبد هيرا.

وأغلب الظن أن اسمها في المرحلة الآشورية كان أورشوم، وكانت مركزاً تجارياً، ومصدراً لتجارة الحبوب والخمرة والزيتون.

ثم سكنتها قبائل آرامية وعربية، واعتمد على كتابات لوقيانوس السميساطي (١٢٥ ـ ٢١٠م) في وصف شعائر الحج، وما كانت تقام في المعبد من ممارسات تخالف الحشمة، إنه العهر المقدس الذي كان يقام في بابل.

وتحدثت عن تدمر مدينة الحج الثالثة في سورية. وحاولت تكوين صورة عن المدينة من خلال موقعها. وقد أشار الأثري جاك كوفان إلى أن موقعها كان مشغولاً بالسكن منذ الألف السابع قبل الميلاد. وعلل سبب ذلك بوجود نبع أفقا المقدس. ومنذ الألف الرابعة قبل الميلاد ظهرت فيها أعمال جماعية. عرفنا ذلك من اللقى الأثرية التي تعود إلى عصر الأوروك.

سكن العرب والآراميين هذا الموقع منذ القرن السادس قبل الميلاد، ولكن لمع اسمها في العصر الروماني منذ عام ١٠٦م، عندما أصبحت مستقلة يديرها مجلس للشيوخ مكوّن من قبائل تجارية متعددة، وفي عهد الإمبراطور هدريان منحت الحرية كاملة، وأعفيت من الضرائب، وصارت أكبر مركز تجاري على طريق التوابل وأصبح شيخها أذينة بن الحيران حاكماً لكل ولاية سورية الفينيقية (حوران والعلمون) وأصبحت إمبراطورية في زمن الملكة

زنوبيا (٢٨٦ ــ ٢٧٢م) عندما سيطرت على تجارة الشرق، وامتدت سلطتها على الطرق الجنوبية من حدود الإسكندرية، وعلى طريق الحرير من الحضر إلى الرُّها.

ازدهر الأدب والفلسفة في تدمر. علّم فيها لونجينوس الفيلسوف اليوناني، وهوالذي أطلق على الفيلسوف العربي مالك (مالكو) لقب فرفوريوس، أي المجلل بالأرجوان. وعندما دخلت المسيحية إلى تدمر فقد معبدها العظيم (معبديل) لإله الشمس، مكانته وتحولت عنها قوافل الحج، ولم تعد إلا مكة مدينة للحج علي طريق التوابل.

وفي هذا الفصل تحدثت عن مدينة البتراء ودولة الأنباط، الدولة التي أصبحت المعجزة التجارية، ووصلت شهرتها تعم الدولة الرومانية والفارسية، مما عجّل في نهايتها، عندما أمر الإمبراطور تراجان عام ١٠٦م بتهجير سكانها إلى بصرى الشام وإلى تدمر، وزالت تلك الدولة العربية التي تركت آثاراً حجرية تدل على المستوى الفني الذي بلغته.

أما مدينة الحضر، المملكة العربية التي تكاد مجهولة عند العرب، كانت تقع على الطريق القديم، الطريق الملكي (طريق الحرير)، وقد أسهم في تكوين هذه المدينة نهر الثرثار، الذي جمع قبائل عربية، وعرفت المنطقة باسم (باعربايا) أي ديار العرب.

كانت الحضر على طريقي التوابل والحرير، وقد ازدهرت تحت حماية الدولة الفارسية، وأخذت دين الفرس وآدابهم، دين زرادشت، ولأنها متعددة الأعراق واللغات، أصبحت كذلك متعددة الأديان. عرفنا ذلك من كثرة معابدها وتنوعها. وكان يطلق علي ملك الحضر اسم الضيزن. وقد خلف ملوكها كثيراً من التماثيل موجودة الآن في متحف بغداد.

وتحدثت عن دولة الحيرة، وكان سكانها عرب من الآزد تحالفوا مع غيرهم وشكلوا حلف تنوخ، واعتنقوا المسيحية، وقويت صلاتهم مع الدولة الفارسية ووقفوا ضد الروم والغساسنة، ومن ملوكهم المشهورين النعمان بن المنذر (٥٨٣ ــ ٦٠٥م) الذي حبسه كسرى وانتصرت له قبائل بكر وشيبان وانتصروا على الفرس في معركة ذي قار. وكان شاعر المناذرة النابغة الذبياني، وقد خلدهم في شعره.

وتحدثت عن تاريخ بصرى الشام عاصمة الغساسنة، وتحدثت عن تاريخهم وعن معاركهم مع ملوك الحيرة، وكانوا حلفاء الروم (البيزنطيين) على طريق التوابل يذودون عنه ضد المناذرة. وكانت تجارة الصيف مع مكة ويثرب.

بعد زوال مملكة الغساسنة ظل العرب يذكرونهم بالطيب والأعمال الحسنة، وكان شاعرهم حسان بن ثابت.

الفصل الرابع: صلة الجزيرة العربية بالهلال الخصيب

تحدثت في هذا الفصل عن تجارة وأسواق العرب في الجزيرة العربية، وحاولت أن أبيّن صلة عرب الشمال وعرب الجنوب بالهلال الخصيب منذ العهد السومري، وعن صلاتهم بمصر الفرعونية، وذكرت ما دلّت عليه التنقيبات الأثرية الحديثة، وما ذكر عن العرب في المصادر الكلاسيكية (اليونانية والرومانية).

دلت تلك المصادر على سعة التواصل الحضاري بين الجزيرة العربية وبلاد الشام. ذكر الشاعر اليوناني هوميروس (القرن ٩ق.م) اللّبان والمر والبخور والصمغ العربي في الإلياذة. ولأهمية السلع التي تأتي من الجزيرة

العربية، أرسل بطليموس فيلادلفيوس (٢٨٥ ــ ٢٤٥ق.م) أسطولاً مصرياً لاستكشاف سواحل الجزيرة العربية، من أجل السيطرة على تجارة التوابل.

وتكلمت عن الجغرافيين والرحالة والمؤرخين اليونان الذين كتبوا عن أقسام الجزيرة العربية، وتعرضت لجغرافية بطليموس الكلوذي (٩٠ ــ ١٦٨م) وما ذكره عن العرب من معلومات ذات قيمة تاريخية، وعن أهمية الطرق التجارية والسلع التي كانوا يتاجرون بها، والمعارف والخبرات التي كانوا ينقلونها ويرددونها.

وتحدثت عن تاريخ مكة وعن دورها التجاري البارز على طريق التوابل، وتكلمت عن أهمية بناء البيت العتيق الذي أقام أركانه إبراهيم الخليل (١٧٥٠ق.م) بالقرب من نبع زمزم المقدس.

وتحدثت عن مجتمع مكة القبلي والأحلاف التي تكونت بعد استيلاء قريش على مكة، وعن تنشيط قريش لديانة الأحناف باعتبارها دين إبراهيم الخليل وعن الديانة الوثنية وعن أوثان مكة، وعن النصرانية، وعن مجيء الرسول محمد (ص) ولكن مشركي قريش هجّروه إلى يثرب.

وتحدثت عن تاريخ يثرب (المدينة المنورة) التي كانت مجتمعاً أكثر رقياً من مجتمع مكة، حيث كانت تسود ثقافة توحيدية هي الديانة اليهودية، وكان الأوس والخزرج يدين بالدين اليهودي، وكان هناك بعض الأحناف.

استقبل عرب المدينة (يثرب) الرسول بالترحاب، وكتب الرسول صحيفة عهد بين المهاجرين والأنصار، وكانوا يهوداً، وأشاع بينهم حرية الاعتقاد (لا إكراه في الدين) وأشرك الرسول جميع أهل المدينة في قافلة تجارية واحدة، وحاول قطع طريق التوابل عن أهل مكة، وقام بغزوة بدر عام ٦٢٣م وأذلّ قريش وانتقم منهم. وتراجعت مكانة مكة التجارية، وقويت شوكة

الإسلام. وصار أهل المدينة يعملون تحت شعار (وأمرهم شورى بينهم) وسيطر مناخ الحرية الدينية ودخل أهل المدينة في الإسلام، وتراجعت مكانة الديانة اليهودية، وبدأ الصراع الحنفي والتحمت مصالح اليهود ومصالح مشركي قريش، خصوصاً بعد معركة أحد، عندما ثأرت قريش لقتلاها في بدر. وصار الصراع يظهر للعلن، وهنا تغير الخطاب القرآني (إن الدين عند الله الإسلام) وصار الرسول يشن حملاته على قلاع اليهود حول المدينة ففتح (خيبر وفدك وتيماء) وصار اليهود ذمة عند المسلمين.

بعد فتح مكة ٦٣٢م صارت تجارة طريق التوابل كلها بيد المسلمين، وساد العدل المجتمع المدني، ولكن الرسول لم يعلم أتباعه شيئاً عن أصول الحكم، ولم يضع له خليفة، وتوفي عليه السلام، وقام الحكم الراشدي.

في الحكم الراشدي، فتح المسلمون فارس وسورية ومصر، وتزحت القبائل العربية باتجاه البلاد المفتوحة، مما أضعف الحركة السكانية، وضعفت أسواق الحجاز مثل (سوق عكاظ) وتحولت المكانة التجارية للجانب الشرقي على الخليج العربي (عمان ـــ البصرة) وحلّ سوق المربد بدلاً من سوق عكاظ، وسيطر العرب المسلمون على تجارة الهند البحرية، وظهرت عدة موانئ هامة (عمان ـــ مسقط ـــ هرمز ـــ سيراف ـــ البصرة) وصارت البصرة حاضرة الإسلام ومنها ظهرت الفلسفة وعلم الكلام (المعتزلة) وتدوين اللغة والنحو.

وفي القرن الثالث الهجري تدهورت أحوال الطرق البرية في أرض الجزيرة العربية، ولم يبق سوى طريق الحج، الذي صارت الأعراب تقطعه، بل لقد تجرأت فرقة القرامطة وأخذوا الحجر الأسود، من أجل أن يقيموا مكاناً

للحج في البحرين ولكن الدولة العربية والشعوب الإسلامية لم ترض بذلك، فأعادوه إلى مكة بعد غياب ٢٢ سنة.

وتحدثت عن تاريخ عمان ومسقط، وظهور الدولة الأباضية (خوارج). وتحدثت عن تاريخ مدن مثل هرمز الذي صار سكانها خليطاً من العرب والفرس، يوحدهم الإسلام. وقامت جاليات هندية غنية، وقامت مدينة سيراف وتحدثت عما أفرزته تلك الموانئ من أفكار وحضارة، وما كتبه الرحالة مثل المسعودية والإدريسي، وما كتبه الرحالة كالتاجر بزرك بن شهريار وكانت رحلته تبشر بأدب مثل أدب ألف ليلة وليلة، وقصة السندباد البحري. وتحدثت عن البصرة وعن تاريخها، وعن دورها الحضاري، وما قدمته في مجال علوم اللغة وعلم الكلام وما قدمته من ترجمات لعلوم الأوائل (الفلسفة والفلك والرياضيات والطب). وفي الأدب ظهرت رحلة ابن وهب القرشي كشاهد على ثقافة ذلك العصر، ومدى اتساع صلة العرب بالصين والهند. واختتمت تاريخ البصرة العريق بالرحلة الاستكشافية للرحالة الدنمركي كارستن نيبور الذي زار الجزيرة العربية وكتب ورسم خرائطاً لسواحلها وكان وصفه أفضل شاهد على التواصل الحضاري بين أوربة والعرب على طريق التوابل.

قصارى القول:

أراد كتاب (حضارة طريق التوابل) أن يبيّن أن كل حضارة هي جزء من مسارها التاريخي الطويل، فهل استطاع الكتاب تحقيق غايته؟

يخيل إلي أن الكتاب نجح في ذلك، لأن العرب قد تمثلوا كل الخبرات ومعطيات الدين والفن والسلوك والعادات، وكل ما كان يرافق السلع والبضائع، ولأعطيك مثلاً ملموساً على ذلك مدينة يثرب، كانت محطة ثانوية

تجاه مكة، وعندما هاجر إليها الرسول (ص) نقل إليها فكراً جديداً، هوالإسلام، وأقام مجتمع العدالة والحرية، فازدهرت التجارة وأصبح التجار الأوائل هم المسلمون وتأخر دور اليهود، وتراجعت مكانتهم الاقتصادية والاجتماعية، فأضمروا العداوة للرسول وللمسلمين، وأقاموا تحالفات مع المؤلفة قلوبهم يبغون طرد المسلمين من المدينة، ولكن الرسول أدرك خطرهم وأنزل الله قوله: «ولتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا) المائدة ٨٢.

لقد تطورت المدينة وأصبحت عاصمة الدولة الإسلامية الصاعدة، وزاد غنى الطبقات التجارية، وانتقلت قريش إلى المدينة، وسيطروا على قوافل التجارة.

وعندما فتح العرب القدس وذهب عمر بن الخطاب لاستلام مفتاح مدينة القدس من الأسقف صفرونيوس سنة ٦٣٦م، نبهه إلى خطر اليهود وإلى صلاتهم بالدولة البيزنطية، ونصحه بإجلائهم عن المدينة وما حولها، فأجلاهم عمر بن الخطاب إلى بلاد الشام ومصر وعمان.

وبعد أن ازدهرت الدولة العربية في زمن الأمويين، تراجع دور طريق التوابل وكذلك تراجع المركز الإداري والسياسي، وأصبحت مدينة ثانوية دون مركز دمشق أوالبصرة أوالكوفة، وتحولت المكانة التجارية والدينية لمكة المكرمة مدينة الحج الوحيدة التي بقيت عند العرب والمسلمين إلى أن يرث الله الأرض وما عليها.

لقد تم الكتاب بعون الله ومنّته.

محمد عبد الحميد الحمد

الرقة ١٥/ ٣/ ٢٠٠٥م

المدخل:

نظرة عامة في تاريخ الحضارات

الإنسان المجرد من الصفات التي اكتسبها، خلال أجيال عديدة من التقدم والرقي، هو أقرب إلى الحيوان المتوحش، لِمَ هذا القول؟! لأن الإنسان تطوّر في وسط اجتماعي، وتمثّل من مجتمعه اللغة والدين والعادات والأخلاق، وصنع لنفسه تاريخاً وحضارة. وتتفاوت المجتمعات فيما بينها باختلاف أساليب المعيشة؛ فالمجتمع الزراعي يفرز إنساناً فلاحاً، وكذا البادية تفرز راعياً، والمجتمع الحرفي والتجاري. وهكذا يؤدي الإنسان سلوكاً ونشاطاً يتفق والمستوى الثقافي الذي بلغه مجتمعه خلال آلاف السنين.

إن الكتاب الذي وضعته دعوته (حضارات طريق الحرير) لاعتقادي أن كل حضارة لا تولد من فراغ وأنها نتيجة الحوار والتواصل بين الشعوب والأمم، واحتكاك الشعوب مع بعضها البعض، يتم عن طريق التجارة، والتبادل والإقناع، أوعن طريق القهر والحروب، وكلها تستخدم الطرق. ونتيجة هذا التواصل السلبي والإيجابي تخلق سمات حضارية جديدة.

إن موضوع الكتاب يتعلق بانتقال البضائع والأفكار عبر الطرق التجارية، المؤدية إلى المدن المختلفة. والمدن قد تكوّنت بعد أن هيّأت الطبيعة لها مواقعها، واختار الإنسان الموقع في مكان حصين وآمن، فيه المياه والتربة الصالحة، وهكذا تكونت المدن وتمت بواسطة تواصلها مع غيرها، عبر الطرق. ولكن الظروف السياسية، خوفاً من الغزو أدت إلى حفر الخنادق

وإشادة الأسوار. وفي داخل المدينة قام أول حوار ثقافي. والمدن كانت مكان جذب للرعاة والبدو، الذين يأتون باستمرار ويسكنون في المدينة، ويتحضرون. كتب العالم الفرنسي آرابوس Arabos في كتابه الرعي: «إن تقدم المدينة لم يزد على أنها استغلت الظروف الطبيعية استغلالاً اقتصادياً، وخلقت شروط حضارية جذبت إليها سكان البادية. هذه الحقيقة يؤيدها القائلون أن حضاراتنا تسير نحو التناسل والتزايد باستمرار».

ولتسهيل أفكار المدخل، سأفكك العنوان وأحصل على المحاور التالية:

١ ـــ الطرق التجارية وأنواعها.

٢ ـــ اللغة والحضارة.

٣ ـــ الأسطورة والحضارة.

٤ ـــ الدين والحضارة.

٥ ـــ الموت في الحضارة.

٦ ـــ تاريخ الحضارة ـــ تقدم أم تدهور؟

٧ ـــ ضرورة حوار الحضارات.

١ ـــ الطرق التجارية وأنواعها:

كانت الطرق التجارية القديمة، لتبادل المعادن (الكهرمان والفضة والارتواز والمرجان والفضة والذهب والحديد والحرير والتوابل والبخور) وكانت تأخذ أهميتها من اهتمام الناس بالأسواق، وطبيعة السلع، وحالة الطرق ووسائل المواصلات والأوضاع السياسية في ذلك العصر. وكانت هذه الطرق ذات وظيفة مزدوجة لتبادل المنافع وطرق الغزات معاً. وقد وجدت الطرق الطويلة منذ أيام الإمبراطوريات الأولى، منذ أيام السومريين والآكاديين

والبابليين والمصريين القدماء والهنود والصينيين. وفي أيام الإمبراطورية الفارسية (الأخمينية) عرفت الطرق الملكية الطويلة. وكانت هذه الطرق ذات أغراض متعددة، منها التجارية والدينية (الحج) والسياسية والعلمية، فهي الشبكة التي توحد البلاد، بل هي حياة البلاد، ولولاها ما كانت هناك حضارة، لأن الحضارة هي التواصل بين الشعوب والأمم. يخيل إليّ أن الدول لم تنشأ لوحدها من فراغ، أعني دولة المدينة Polis، بل بما تحمله إليها الطرق باستمرار، والطرق هي الشرايين التي تغذي الدولة القومية أوالإمبراطورية.

الطرق البرية:

بعض الطرق البرية تعود إلى عصور ما قبل التاريخ. نستدل على ذلك من وجود النصب الحجرية على الطريق القديمة، في مختلف أنحاء العالم. قال جورج بُري Bury «لو رسمنا خريطة لتوزيع النصب الحجرية، لوجدنا توافقاً، عجيباً بين تلك النصب، ومصادر الأحجار الكريمة والملح والذهب والتوابل. وإذا تساءلنا عن اسم هذا الشعب الذي أقام هذه النصب في العصور التاريخية، لم يكن هذا الشعب سوى الشعب الفينيقي الذي سار في البر وركب البحر.».

كان طريق الحرير القادم من الصين يقطع كثيراً من الوديان التي تمد المسافرين بمواد الماء، الوحيد لهم في تلك الفيافي، وفي واحات حوضي نهر سيحون وجيحون في خوارزم. وأحياناً توجد أودية جافة ولكنها غنية بعيون الماء المتواجدة على طول الطريق. لم يكن الناس سلبيين تجاه الطرق القديمة التي يرتادونها باستمرار، فهم يكيّفون الطرق ويجعلونها ملائمة لأغراضهم المختلفة، حتى ولو وكانت طرقاً قديمة، فهي تعدل وتصلّح لكي يتفادون

الأخطار، ويتجنبون المشاق. لأن الطرق تختلف باختلاف السرعة التي يتوخاها التاجرُ والمسافر، وبأدوات المواصلات التي يستخدمونها، فإذا كانت الطرق بطيئة، فلا بأس من شق طرق ضيقة بين الجبال والمنحدرات كما هو الحال في ممر خيبر أوممر دريال. أما إذا كان المسافر يتوخى السرعة في السهوب فلا بد أن يكون الطريق متسعاً. وقد يحتاج مهارة وخبرة هندسية لبناء جسر أومعبر على الأنهار أوالأودية، كما هو الحال في طريق الحرير الذي ينطلق من مدينة سارويس إلى الصين عبر جبال الهندكوش.

الطرق الصحراوية:

كانت هذه الطرق لتبادل المعادن (الملح والذهب) لأن الملح كان مادة مرغوبة. وكانت على هذه الطرق عدة مدن وقرى الملح. وكان التجار العرب والبربر هم الذين يشرفون على تجارة الصحراء الكبرى، وكانوا يحتكرون تجارة الملح والرقيق والذهب، وكانت القافلة تضم حوالي خمسة آلاف جمل تتقاطر بين طرابلس وبنغازي والقيروان باتجاه تمبكتو وخليج غانة. بينما كان التجار الأتراك يسيطرون على تجارة صحراء تركستان. وكانت تجارة الوكالات حيث يخزن الوسطاء البضائع في مدن كوش وقندهار ثم يفرضون على تجار القوافل السلع التي يخزنونها من بضائع كالحرير والملابس والروائح والبخور والسكر والورق والجواري الحسان. وكانت حمولة القافلة تصل إلى حوالي ٥٠٠ طن. أما في الجزيرة العربية حيث كانت التوابل والمرّ واللبان والقرفة والمسك والطيب، وقد تعددت الأسواق مثل سوق عكاظ. وكانت هذه الأسواق تضمحل أوتزدهر حسب الأوضاع السياسية الدولية.

الطرق المائية:

كانت الأنهار طرقاً تجارية جيدة. وقد استعملت منذ فجر التاريخ. وقد لعبت في تجارة الدول المحاذية لشواطئ الأنهار الكبرى (الفرات ودجلة والنيل والغانج والنهر الأصفر، والدانوب) لنقل البضائع والمسافرين. وكانت المكُوس تجبى في المدن، وتعد ثروات طائلة. وهذه الطرق أكثر أماناً من الطرق البرية. وكانت السفن النهرية مختلفة الأشكال، وهي تختلف بين نهر وآخر.

وكانت البحار والمعابر المائية لعبت هي الأخرى دوراً هاماً في التواصل التجاري والحضاري، وقد لعب البحر المتوسط والبحر الأحمر والخليج العربي دوراً هاماً في التواصل الحضاري. وأسهم المحيط الأطلسي بعد اكتشاف أمريكا بالتقدم الصناعي. وارتبط المحيط الهندي والمحيط الهادي، وصارت أمريكا بعد عام ١٤٩٢ العالم الجديد الذي يقود العالم حالياً.

يقال أن الطرق البحرية القديمة كانت أكثر فائدة ولكنها كانت تقتضي الجرأة والجسارة على ركوب البحر. وكان الفينيقيون أفضل من مخر عباب البحر المتوسط. أما المحيط الهندي فإنه يقتضي معرفة الرياح الموسمية ويقتضي السفر الطويل لعدة أشهر. وأفضل البحارة كانوا عرب عُمان، وهم الذين قاوموا القرصنة البرتغالية في القرن ١٦م.

وقد دلت الحفريات في سلطنة عمان على التواصل الحضاري بين الجزيرة العربية وحضارة الهند والصين. منذ أمد قريب اكتشفت على ساحل أوسترالية رسوم تشبه الرسوم المصرية الفرعونية، مما حيَّر المؤرخين، الذين لا يؤمنون بحقيقة هذا التواصل.

الطرق الدينية والثقافية:

كان الإنسان القديم تدفعه نوازعه الدينية إلى قطع المسافات الشاسعة، من أجل الوصول إلى أماكن مقدسة معينة. ومن تلك الرحلات الدينية في الجزيرة العربية نحو مكة، وفي بلاد ما بين النهرين والجزيرة نحو حران ومنبج وبابل، وفي اليونان في دلفي والأولمب، وفي الهند نحو بنارس. وكانت الجموع تحتشد في مواعيد معينة في أماكن الحج، وكانت على هذه الطرق تقام المعابد ودور الضيافة والأسواق. وكان الحجاج يرافقهم التجار والكهنة والعلماء وطلاب العلم. وكانت الطرق الرومانية القديمة مرصوفة بالحجارة وهي صالحة لسير العربات. وأشهر هذه الطرق الطريق الروماني (لاستراتا) أوالصراط المستقيم من البتراء إلى الرصافة، ويمتد نحو الجنوب نحو مكة والمدينة، وقد ذكر في القرآن الكريم. ومن ضوابطه منذ أيام هيدريانوس وبعد استيلائه على تدمر (٢٧٣م) ولا يسمح بالسير عليه إلا بإذن (إيلاف) خاص، وكان من يسيرون عليه هم التجار والحجاج المتوجهين لتدمر أولمنبج (هيرابوليس) أومكة. وهؤلاء المسافرون هم الذين أنعم الله عليهم، والويل لمن يضل أويتيه في البادية.

أما الحج إلى روما (الفاتيكان) فقد كانت الطرق إليه معبدة ومرصوفة بالحجارة وكانت الأديرة والجامعات على هذه الطرق، وقد كانت لهذه الطرق وظيفة مزدوجة، وظيفة دينية ووظيفة ثقافية، بل إن بعض الباحثين يربطون بهذه الطرق صناعة الأجراس الدينية الكبيرة، وصناعات النسيج والخمور، وقيام الجامعات العلمية.

٢ ـ مكونات الحضارة

ليست مهمة المؤرخ هي الكشف عن حالة سابقة للعالم الذي عشناه، وإنما إعطاء الواقعة معنى، يربطها بمراحل حضارية. فإذا كشف المنقّب الأثري عن رقم كتابي، فعلى مترجمه، أن يسلمه للمؤرخ الذي يقع على عاتقه تفسيره وربطه بالمملكة التاريخية، فيصبح الرقم رسالة حيّة من الماضي، تخاطبنا بلغتها الخاصة، لا باعتبارها بقية من بقايا ميتة من ذلك الماضي السحيق، وعلى العالم اللغوي والمؤرخ أن يجعلوها تنطق، وتفهم بلغتنا الحاضرة، وإلا بقيت أعمال المؤرخ كتاباً مغلقاً.

وعلى مؤرخ الحضارة إعطاء الأشلاء المبعثرة شكلاً جديداً من خلال الصورة التركيبية، لكي تعبر عن روح العصر الذي مضى، وتعطينا في الوقت ذاته صورة حية، لا واقعة مخبطة نضعها في المتاحف. يقول فريدريك شيجل: «للتاريخ مهمة مزدوجة، فهو يفسر الماضي، ويستشرف حدود المستقبل، ويغدولنا حافزاً في حياتنا الفكرية والاجتماعية، وهذا لا يتم إلا إذا أحسن المؤرخ نقطة انطلاقه.» وإلى هذا ذهب فريدريك نيتشه (١٨٤٤ ـ ١٩٠٠) حين قال: «لا نستطيع أن نفسر الماضي إلا بأرفع مستوى ما في الحاضر، وهكذا لا يفهم تاريخ الواقعة الماضية إلا من خلال التاريخ الكلي للعالم.» يبدو لي أن هذه النظرة هي السائدة في دراسة تاريخ الحضارة وأفضل من عبّر عنها الفيلسوف الإيطالي بنديتوكروكشة (١٨٦٦ ـ ١٩٥٢)، فهو يرى أن للتاريخ مهمة هي الحقيقة كلها، لا منطقة محدودة من مناطق العالم، وفكرته قائمة على أن التاريخ كله هو التاريخ المعاصر، وهناك تماثل بين الفلسفة والتاريخ، وهذا يقودنا إلى فلسفة الحضارة، والحضارات كلها تتشابه بمعطياتها، وتختلف بلغات شعوبها.

٣ ــ اللغة والحضارة:

اللغة عرف اكتسب مع الزمن ما يشبه القداسة، لاسيما وأنه أنزلت بها الكتب المقدسة، وبها كتبت روائع الأدب الإنساني. واللغة هي بالأساس نظام عرفي لرموز صوتية، استعملها الناس أداة تواصل فيما بينهم، وفي العصر الحديث يرى بعض علماء اللغة أن اللغة وليدة اقتراض الحضارات بعضها من بعض وتقليد بعضها لبعض. ويرى آخرون أن وجود أوجه الشبه التي نلحظها بين اللغات إنما ترجع إلى الطبيعة البشرية، لأن اللغة مصطلح يعود إلى الكلمة اليونانية اللوغوس Logos التي توحي دائماً بفكرة التماثل الأساسي بين عمل الكلام وعمل الفكر، ودليلهم على ذلك العلاقة بين النحو والمنطق، وإن كانا من فرعين مختلفين من فروع المعرفة رغم تماثل المادة فيهما فهما يعودان إلى اللغة. يؤكد ستيوارت ميل (١٨٠٦ ــ ١٨٧٣) أن النحو هو الجزء الأولي من المنطق لأنه بدء تحليل عملية الفكر، وأن مبادئ النحو وقواعده هي الوسائل التي تصبح بها صور اللغة مماثلة لصور الفكر الكلية العامة، بل إن تركيب كل جملة هو درس في المنطق. قال أبوسعيد السيرافي (٩٠٣ ـــ ٩٧٩): «النحو منطق ولكنه من العربية، والمنطق نحو ولكنه مفهوم باللغة، وإن الخلاف بين المنطق والنحو. أن اللفظ طبيعي والمعنى عقلي ولهذا كان المعنى ثابت على الزمان.»

وعن أصل اللغة افترض العالم الألماني شوشارت، أن بين اللغات اشتراك يرجع إلى مصدرين:

أولهما: أن هناك فصائل لغوية تنتمي أفراد كل فصيلة منها إلى أصل لغوي موحد كالفصيلة (الهندية ـــ الأوربية) وقد كانت هذه اللغة سائدة منذ خمسة آلاف سنة.

وثانياً: هناك تشابه محدود بين لغات البشر يمكن أن نعزوه إلى الفطرة الإنسانية.

وإلى هذا ذهب القرآن الكريم، وهو أن الله علم آدم الأسماء كلها، وأن الناس كانوا يتكلمون لغة واحدة. وذهبت التوراة إلى أن اختلاف الناس في لغاتهم يعود إلى أيام بناء برج بابل، وهذه القصة لا يقبلها إلا المؤمنون، وينكرها العقل الإنساني. قال عثمان بن جني (٩٤٦ ـــ ١٠٠٥م) ذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعة كدوي الريح، وخرير الماء، ونعيق الغراب ونحو ذلك. ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد. وهذا عندي وجه صالح ومذهب متقبّل».

ويُجمع علماء الحضارة اليوم على أن اللغة نشأت في الجماعة المتكلمة لغة واحدة، من حاجات الناس. فالألفاظ تصاقب المعاني، وإذا قيل أن للغة علاقة بالطبيعة نقول لهم أن ليس للإنسان طبيعة وإنما له تاريخ، لأن الإنسان يحيا في أعماق التاريخ، وفي وسط الطبيعة، ومنهما يأخذ سماته وأفكاره. فالبدوي لأن حياته ارتبطت بالجمل فله عند البدوي أكثر من ألف اسم.

٤ ـــ الأسطورة والحضارة:

الأسطورة هي شكل من أشكال الشفاهية، وهي حكايات تولدت في المراحل الأولى للتاريخ، وقد دارت قصصها حول حياة الآلهة والأبطال. وتروي الأسطورة حوادث خارقة تتغلب فيها الشخصية الأسطورية على

الطبيعة. وهذه أول تطلعات الإنسان للسيطرة على الطبيعة، وهذا من أسباب استخدامها في المسرح. وقد بيّنت أن الأسطورة كانت منقسمة إلى فعاليات متنوعة، وذات اتجاهات مختلفة، وتسعى إلى غايات مختلفة أيضاً. وإذا بدت لنا الأسطورة والشعائر الدينية والمعتقدات البدائية من جنس واحد، وضحنا أنه من المستحيل ردّها إلى مقام مشترك، ولا بد لنا من نظرة تركيبية تؤدي إلى وحدة العملية الإنسانية الخلاقة. وقد قام الفلاسفة المعاصرون بالكشف عن المعنى الرمزي للأسطورة.

بدأت الأساطير الأولى في بلاد ما بين النهرين. ومن تلك الأساطير، قصة الخلق، وقصة جلجامش وأنكيدو، وقصة الطوفان، وقصة الحكيم آدابا الذي راح يبحث عن الخلود، ثم رفضه. لقد نقلت معظم الشعوب السامية هذه الأساطير، وأدخلتها إلى موروثها الديني وحولتها إلى شكل أدبي يتفق وذوقها العام. كما فعل العبريون الذين لم يكن لديهم موروث أسطوري، فنقلوا الأساطير الرافدية والفرعونية، وادّعوا أنها جاءتهم من الوحي الإلهي. وبما أن أي دين استحوذ على الحقيقة وامتلكها وصارت لا يأتيها الباطل، غدت تلك القصص من الوحي الإلهي إلى نبي الله موسى. وصدقنا ذلك إلى أن كشف علماء الآثار تلك القصص والأساطير وعرفت حقيقتها.

ما هي الأسطورة، وإلى ماذا ترمز؟!

اختلف الباحثون في مغزاها. يقول مالينوفسكي: «أعتقد أن كل أسطورة تحتوي على ظاهرة طبيعية، هي لبها أوحقيقتها، ولكنها نسجت نسجاً محكماً، في قالب حكاية، حتى تكاد تلك الظاهرة تحتجب عنا، وأن الرجل البدائي قد قطّر شرابه الأسطوري من الكواكب السماوية والآثار العلوية جميعاً.».

وهناك بعض الباحثين قد فرّقوا بين الفكر العلمي والأسطوري؛ فهما حتماً لا يسيران في طريق واحد، غير أنهما يبحثان فيما يبدو، عن شيء واحد هو حقيقة الطبيعة. يقول جيمس فريزر: «إنه لا ثمة حدود فاصلة تفرق بين الفكر الأسطوري والسحري، فكلاهما من أساليب الفكر العلمي. وأن السحر وإن كان خالياً ووهمياً في وسائله، فإنه علمي في غاياته. فأحداث الطبيعة من الناحية العلمية، تتلو الحادثة الأخرى بالضرورة، دون تدخل من أية قوة روحية. فاتجاه الطبيعة هو ضمن القوانين الثابتة، وتعمل على أساس آلي. ولكن الطبيعة في الأسطورة أوفي السحر تتأثر بأهواء وعواطف الكائنات الآدمية. وكان السحر عقيدة ضمنية في نظام الطبيعة ووحدتها، ولكنها إلى ذلك هي عقيدة ثابتة وواقعية.». إذن ما تدرسه الأسطورة طابعه الفراسة وليس طابعه الموضوعية. إنها عالم مفعم بالانفعالات العاطفية، كالحزن والخوف والألم، حين تتحدث عن الأشياء من خلال التجربة الإنسانية والإنسان البدائي لا يعبّر عن مشاعره وعواطفه برموز مجردة، وإنما يعبر عنها بطريقة محسوسة مباشرة. وأن دوافع الأسطورة ليست هي الطبيعة، بل المجتمع، وأن الطبيعة في الأسطورة هي صورة للعالم الاجتماعي.

يقول ليفي برول (١٨٥٧ ـــ ١٩٣٩) في كتابه العقلية البدائية: «تظهر الطبيعة للإنسان البدائي الذي يعيش في وسطها، تحت مظهر مختلف جداً؛ فكل الأشياء والمخلوقات فيها محتواة ضمن شبكة من الأفكار وكلها شؤون خفيّة، وهذا هو الدين البدائي، وإذا ما اقتربنا من هذا الميدان، أصبحت القوانين، حتى قانون القضاء، من قوانين الفكر العقلي البدائي.».

وفي ديانة الإنسان البدائي، يصبح اسم الإله جزءاً مكملاً للطبيعة. وإذا لم ينادِ الرجل البدائي إلهه باسمه الصحيح، أصبحت صلاته ودعاؤه عديما التأثير.

بدأت حضارة بلاد ما بين النهرين في تسجيل مغامرة العقل الأولى. وكان المجتمع يمور بمخلوقات عجيبة لا تعرف السكون. لذا ابتكروا مخلوقات عجيبة، وصاغوها في أساطيرهم، ثم ورثوها لمن جاؤوا بعدهم مثلما ورثوهم صناعة الفخار والرقم المكتوبة.

٥ ـ الدين والحضارة:

بدأت الشعوب القديمة تؤمن بأن وراء هذا العالم عالم آخر، وهناك تعيش عدة آلهة تدير مصير هذا الكون. ويرأس مجلس هؤلاء الآلهة إله كبير، عبدوه من خلال تماثيله التي توضع في المعبد للتقديس، وكان رأس هؤلاء الآلهة في بلاد ما بين الرافدين الإله مردوخ إله الشمس وتعاونه زوجته عشتار وولده سين إله القمر، وهذا هو الثالوث المقدس وإن اختلفت أسماء الآلهة فيه.

عرف الكنعانيون الإله الأكبر باسم (ايل) وجعلوه يقطن فوق هذا العالم ولم يضعوا له تماثيل في قدس الأقداس، ونسبوا إليه وصايا وتعاليم في التحليل والتحريم. سرت هذه التعاليم لدى كل الشعوب السامية. يقول روبرتسون سميث: «إن حراماً واحداً قد تسري عدواه في كل العالم، وقد يطهّر الإثم بالماء الجاري أوقد يحوّل الإثم إلى حيوان أوطير. وفي الديانة اليهودية نظام المحرّم من المحرمات أخذوها عن جيرانهم الكنعانيين. وأول قواعد القداسة هي فكرة الطهارة والنجاسة. وهذه لا يمكن فصلها عن

المحرمات لدى الإنسان البدائي ولا يمكن الفصل بين المقدس والنجس في أحيان كثيرة.». ولكن الديانة اليهودية جعلت أبناءها يعتقدون أنهم المميزون عن الشعوب المجاورة، لأن ربهم (يهوه)، رب العدالة، عندما أعطى موسى الوصايا العشر، وأنزل عليه التوراة، لم يكن التحريم أمراً صادراً من العقل الإنساني بل هومتعلق بالوحي الإلهي من عند الرب، وارتبطت فكرة التحريم بفكرة الواجب الأخلاقي الذي لولاه لم تكن هناك أخلاق.

أما الديانة الزرادشتية فكانت معظم أبحاثها تدور حول مشكلة الخير والشر، وهناك إلهان (أهورامزدا)، الرب الحكيم؛ وهو الإله الأعلى، رب الخير، ونقيضه أوقرينه (أهريمان) إله الشر. ولا يوجد في الميثولوجية الفارسية تعدد للآلهة، وكل الوصايا تصدر عن الإله الأول والحاكم المطلق، وهي تحذر بالابتعاد عن الشر، وتنسب للطبيعة حكمة تعرف بـــ(الآشا) وهي تعكس حكمة خالقها الرب الحكيم، ونظامها العام الخالد لا يعتريه الباطل. والآشا تحكم العالم وتتحكم بالأحداث كلها كمجرى الشمس والكواكب ونمو الحيوان والنبات، واتجاه الريح والسحب. كل هذا تحفظه الآشا لا بقوى مادية أخرى. ويصبح العالم دراما أخلاقية كبرى، يلعب كل من الإنسان والطبيعة فيها دوره. وحياة الإنسان كلها كفاح لا ينقطع من أجل الاستقامة، ويلعب مثلث الأفكار دوراً هاماً في الديانة الزرادشتية (الفكر الخيّر، والقول الحسن، والعمل الصالح). لقد جاء في أحد نصوص الأفستا أن الإلهين (أهورامزدا وأهريمان) اللذان كشفا عن نفسيهما للبشر من خلال الرؤيا، فإذا هما توأمان، الخير والشر، وبينهما يحسن الحكماء الاختيار، أما الجهلاء فلا يحسنون. والإنسان العامل (الفلاح والحرفي) يؤدي واجباً دينياً لأنه يهيئ لانتصار قوة الخير (أهورامزدا) على خصمه إله الشر (أهريمان) وهذا الأمر لا يتم إلا

بالإرادة الحرة، وبها يصبح الإنسان المؤمن حليف الله، وبهذا الاختيار يقرر الإنسان مصيره الذي سيلاقيه في يوم الحساب..

نلاحظ أن المؤمن في الديانات السامية من يطيع وصايا الرب دون معاناة. أما في الديانة الزرادشتية، فعلى الإنسان أن يختار وأن يعاني نتيجة هذا الاختيار.

أما الديانة الإغريقية، فإنها لم تستطع أن ترتفع عن مستوى الأساطير القديمة، فالعناية الإلهية هي التي توجه الإنسان وتتحكم في مصيره، وهذه الفكرة التي وضّحها زينون الأكتيومي (٣٣٦ ــ ٢٦٤ ق.م) وكان من أصل آرامي، أدخل في الرواقية التي جاء بها فكرة العناية الإلهية (Pronoia) التي تهدي العالم والإنسان، وعلى الإنسان، كونه عاقلاً واعياً، أن يعمل للحصول على هذه العناية، ويتصور أنه يعيش مع الآلهة في جبل الأولمب لا بوصفه متفرجاً، بل بوصفه خالق نظام العالم، (الإنسان عالم أصغر)، ولم يكن باستطاعة الإنسان بلوغ هذا كله إلا بفكره وشعوره الديني ببطء مستمر، وهذا لا يتم إلا بالتدرج الروحي لا بطفرة فجائية، أي بمعاناة.

كانت الديانة اليونانية قد مرت بثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: (عصر الجهل)

هذه المرحلة كانت قبل مجيء زوس كبير الآلهة، ليزعج عقول الناس بأوامره. هذه المرحلة عن الإنثرو بولوجيين كانت سائدة في كل ناحية من نواحي العالم القديم. ولكن ذات طابع إغريقي، فهي الطبيعة لكل دين، عندما لم تكن هناك وصايا وتعاليم تحلل وتحرم.

المرحلة الثانية: (المرحلة الأولمبية)

أصبح الإنسان اليوناني يرى الطبيعة من منظار الأساطير اليونانية، وظهرت شخصيات إلهية مثل زوس كبير الإلهة وزوجته هيرا وأولاده

الكثيرون. لقد تضعضع الشعور بوحدة الإنسان والطبيعة، ولم تعد هناك قرابة تربط الإنسان بالنبات، وظهر زوس إلهاً للطبيعة، ومعبده فوق القمم الجبلية، وأصبح حارس العدالة وحاميها، وكما جاء وصفه في أشعار هوميروس وهسيود أكثر قدرة من الإنسان، وهو إله خالد لا يطاله الموت، وأصبح اتكال الإنسان عليه مطلقاً.

المرحلة الثالثة: (انحدار الآلهة)

انحدرت مكانة الإله زوس السامية، وبدأ الشعراء والفلاسفة يرسلون عليه سهام نقدهم، مما خلق شعوراً دينياً جديداً، يدعو إلى التوحيد، وإن ظلت بعض الخصائص الإنسانية منسوبة إلى الآلهة كالسرقة والزنا والغدر. ثم انتقل هذا التصور للآلهة الرومانية.

وصارت الحضارة الرومانية بما ورثته من الثقافة اليونانية أكثر إدراكاً لذاتها، من حيث معالجتها لمشكلة الحرية والقوانين الاجتماعية وتمثلها الأدب اليوناني مما خلق نماذج من الأدب استمر إلى أيام الثورة الفرنسية.

وباعتبار الديانة اليونانية خالية من الأوامر والنواهي الإلهية، أصبح الفلاسفة أكثر حرية في إبداء آرائهم في المسائل الوجودية ولا يجدون من يضطهدهم كما هو الحال في الديانات السماوية.

في الديانة المسيحية:

إن فكرة الله داخلة في صميم حياتنا، بوصفها فكرة جوهرية لعبت دوراً جوهرياً في تاريخ الكائن البشري. وهذه الفكرة الجوهرية هي التي تدور حولها كل الحضارات حتى ليمكننا القول بأن الإنسان بطبعه، كائن متدين، لأنه لا يستطيع أن يستغني عن الإيمان بالله فهو خالق العلم، وبه تفسر حوادث الطبيعة، وإن كان بعض الملاحدة يفسرون حوادث الطبيعة بالعلم بدلاً من الله.

وإن اختلفت الديانات الموحّدة في تصور الله، فالديانتان اليهودية والإسلامية لهما تصور بأن الله مفارق لهذا العالم ومنزه عنه. بينما تضيف الديانة المسيحية رباً جديداً، فالله قد تأنسن باتخاذه صورة يسوع المسيح، الذي عاش وعانى ومات في الصلب، ثم قام بعد ثلاثة أيام من أجل خلاصنا.

أما في الفلسفة الحديثة فقد استبدل الفيلسوف الألماني فيورباخ (١٨٠٤ ـــ ١٨٧٢) عبارة (لتكن مشيئة الله) بعبارة (لتكن إرادة الإنسان) لأن الله هو من صنع خيال البشر. حتى الراهب بليز باسكال (١٦٢٣ ـــ ١٦٦٢) وهو الفيلسوف المؤمن، له تصور يختلف عن اللاهوت المسيحي القديم، لأن الإبهام هو عنصر الدين. ووصف سورين كير كجارد (١٨١٣ ـــ ١٨٥٥م) الحياة الدينية بأنها قائمة على التناقض العظيم، وأن السعي لتقليل هذا التناقض هو نفي للحياة الدينية وتحطيمها ويظل الدين لغزاً حتى على المستوى الأخلاقي. وإن كان الدين يزعم أنه يملك الحقيقة المطلقة، إلا أن تاريخه تاريخ أخطاء وضلالات وهو يعدنا بعالم بعيد جداً عن تجربتنا الإنسانية، إنه يعد بيوم المعاد. ومع ذلك يظل الدين إنسانياً في جوهره وطابعه، لأن الإله واحد في كل الديانات البشرية، وإن تعددت الشعائر والطقوس وتغيرت الرموز، إن ذلك لا يؤثر في شكل الشعور الديني، وفي الوحدة الداخلية للفكر الديني. وإن التفسيرات الدينية التي يبديها بعض المفكرين لها تأثير على الذهنية الدينية. فقد رأى أبو منصور الحلاج أن الأديان واحدة لأن الرب واحد. وكان ابن عربي يرى أن الله قد حلّ في كل شيء، وأن كل المخلوقات تعبر عن وجوده، من هنا قال:

أدين بدين الحب أنّى توجهت ركائبه فالحب ديني وإيماني

ولباسكال آراء صوفية هي دخيلة على اللاهوت المسيحي، ذكرها في كتابه الخواطر: «في الحق أنت الإله المحتجب، لأن الطبيعة هي كذلك تدلنا، أن هناك إلهاً مختفياً في داخل الإنسان وخارجه، من هنا يصعب على الإنسان إدراك ذاته ومعرفة ذلك السر الخفي الذي هو الله، وأن إله المسيحية، يسوع المسيح، إله محبة وعزاء، وكان يبغي من الدين أن يعرف الإنسان نفسه.»

مثل هذا الفكر صرنا نجده عند مفكري النهضة. يقول جاليلي جاليلو(١٥٦٤ ــ ١٦٤٢): «حقاً إن العقل الإلهي ليعرف ويخترق عدداً من الحقائق الرياضية غير محدودة أكثر مما لدينا، ولكن بالنظر لليقين الموضوعي، نجد أن الحقائق القليلة التي يعرفها العقل الإنساني، معروفة تماماً كما هي معروفة لدى الله نفسه.»

هكذا ساوى الإنسان نفسه بالله، جاعلاً العقل الرياضي هو حلقة الوصل بين الله والإنسان والكون، لأن العقل الرياضي يسمح لنا بالانتقال من أحدهما إلى الآخر دون عائق، فالعقل الرياضي هو المفتاح الصحيح لكي نفهم النظام الكوني والأخلاقي فهماً صحيحاً. وهذا ديدرو(١٧١٤ ــ ١٧٨٤) العالم الفرنسي وصاحب الموسوعة والداعية إلى الفلسفة التجريبية، كان يتوقع علماً جديداً ذا صبغة محسوسة، ومؤسسة على ملاحظة الحقائق أكثر مما هو مؤسس على افتراض المبادئ الرياضية العامة. فهل تحققت نبوءة ديدرو؟ لا. لقد فاته حسن التقدير في التقليل من شأن العلم الرياضي. ولكن الرياضيات الحديثة التي جاء بها جاوس وريمان ولوباتشيفسكي وبوانكاره أدت إلى انتصارات مذهلة في علم الفضاء. ومع ذلك فإن جانباً من نبوءة ديدر وكانت صائبة. فاكتشاف الذرة قد انتزع مكاناً له في القمة إلى جانب العلم الرياضي، وصار العالم الرياضي والفيزيائي على عرش علم الطبيعة.

أما علم الأحياء فكان له دور كبير في مقارعة الدين عندما نشر القس تشارلس داروين (١٨٠٩ ــ ١٨٨٢) كتابه أصل الأنواع. إذ قدّم أهم خطوة في أفول التصور العضوي القديم. فالحياة العضوية انطلقت من المصادفة، ثم بدأت الحياة تتطور من الخلية الأولى، وبعد أن تكونت الأنواع بدأت بالصراع من أجل البقاء. وبذلك حطّم داروين الصورة القديمة للحياة العضوية التي تبنتها كافة الديانات وهي أن الأنواع ثابتة منذ خلقها الله، وأصبح التصور الجديد أن ليس ثمة أنواع متباينة، وإنما هناك تيار واحد مستمر غير منقطع من الحياة.

ومما ورثّته الحضارة اليونانية للحضارة المسيحية، التسامح والقدرة على الإقناع. قال أفلاطون: «إن خلق عالم متمدن هو انتصار الإقناع على القوة.» وبهذا انتشرت الديانة المسيحية بالإقناع، في العالم الذي تسوده الثقافة اليونانية (سورية ومصر ورومة) خلال القرن الأول الميلادي.

وعندما فتح العرب المسلمون سورية ومصر وآسية الصغرى احتكوا بالديانة المسيحية، والأصح بالحضارة المسيحية، فاقتبسوا عنهم العلوم والفلسفة مع احتفاظهم بطاقاتهم الفكرية التي استمدوها من القرآن، لذا تراهم حسّنوا علم الكلام وطوروا علم الرياضيات والطب وطوّروا معارفهم بإمكاناتهم الخاصة ونفوا السحر والخرافات على العكس من الديانة المسيحية، فهي رغم اقتباسها الفلسفة اليونانية فقد ظلت فيها رواسب الديانة البدائية. يقول جيمس فريزر: «إذا نظرنا إلى تاريخ المدينة الأوروبية، وجدنا أن الاعتقاد بالسحر لم يتزعزع في أكثر المراحل تقدماً، حتى أن الدين المسيحي سمح لهذا المعتقد بالبقاء إلى حد ما، لأنه سمح للسحر الأبيض بالبقاء واعتبره غير ضار حتى من أنبل المفكرين في عصر النهضة. (جيوفاني بيكو الميراندولي)

يقول: «ليس ثمة علم يؤكد العنصر الإلهي في المسيح أقوى من السحر والتصوف.»

المسيحية والفلسفة:

إذا كانت المسيحية والفلسفة الرواقية قد انطلقتا من مبدأ واحد، وهو أن الإنسان غاية الكون، ولكنهما قد افترقا فيمن يتحكم في مصير الكون؟ من هذه المسألة بدأ العداء بين النظريتين، رغم انطلاقهما من مبدأ واحد. أكّدت الرواقية استقلال الإنسان المطلق، واعتبرت هذا الاستقلال هو الفضيلة الكبرى. بينما رأت المسيحية أن هذا الاستقلال هو وخطيئة الإنسان الكبرى، وإذا استمر الإنسان في هذه الخطيئة لن يجد له طريقاً للخلاص. لأن الخلاص يتم عن طريق الإيمان المطلق بالمسيح، لأنه هو الحياة الأبدية وهو الطريق لهذه الحياة. وقد ورّثت الرواقية للفلسفة الحديثة الفكرة القائلة: (إن عقل الإنسان هو المتحكم في مصيره) هذه الفكرة الزرادشتية تناقضها الفكرة المسيحية القائلة: (إن العناية الإلهية هي المدبرة لحياة الإنسان).

يعتبر القديس أوغسطين (٣٥٤ ــ ٤٣٠م) الموجه لعلم اللاهوت المسيحي الغربي والمدافع عن الوحي الإلهي، وقد اعتبر كل فلسفة ظهرت قبل تعاليم المسيح هي عرضة للخطأ، لأنها جعلت العقل أسمى من الإيمان. والإنسان يجهل أن العقل من أكثر الأشياء التي يثور حولها التساؤل والغموض في هذا العالم إلى أن جاء الوحي الإلهي فكشف له عن هذه الحقيقة، وهي أن العقل الإنساني مزدوج الطبيعة فقسمها، فالله خلق الإنسان على صورته، وفي أحسن تقويم قبل هبوط آدم وارتكابه الخطيئة الكبرى، وضل السبيل. من هنا لا يستطيع العقل العودة إلى جوهره الأول (وجود بلا

خطيئة) بجهوده الخاصة. ظل هذا الاعتقاد سائداً إلى أن وصلت فلسفة ابن رشد إلى الجامعات الأوروبية وتحولت إلى تيار فلسفي يدعى (الرشديّة). وحاولت هذه الفلسفة إعادة القيمة للعقل، وقام أنصار اللاهوت المسيحي كالقديس توما الأكويني (١٢٢٥ ــ ١٢٧٤) وبدأ يهاجم الفلسفة الرشدية، ولكنه أعلى قيمة العقل أكثر مما أولاه القديس أوغسطين، ولكن العقل ظل عنده عاجزاً عن استبصار طريقه إلا بعون الله وعنايته. وقام أنصار الرشدية يدافعون عن العقل، وقالوا: «إن خلاص الإنسان يتم بواسطة العلم الذي استطاع كشف قوانين الطبيعة وجعل الإنسان يعرف أسرارها وعرف حدودها النسبية ثم سيطر عليها، وتخلص من قهر الضرورة الطبيعية».

وعندما جاء كوبر نيكوس (١٤٧٢ ــ ١٥٤٣) قلب نظرية بطليموس وجعل الشمس هي مركز الكون، وأبعد الأرض عن مركز الكون، وبالتالي أبعد تصورات الكنيسة، ونادى تلميذه جوردانوبرونوبأن يعيش خارج حدود الكون اللامحدود، وجعل معراجه العلم الطبيعي بدلاً من الوحي الإلهي، وبدأ الصراع بين الفلسفة الأوروبية الحديثة وعلم اللاهوت المسيحي القديم. وصار علم اللاهوت يدلنا على أن هناك إنسانين، أحدهما كان قبل الهبوط، والآخر بعد الهبوط، إنه آدم. وكان يرجوللإنسان أن يبلغ الهدف الأسمى إلا أنه خسر مقامه، وضيّع بالهبوط قوته وانحرف عقله وإرادته. وعندما دعا سقراط (اعرف نفسك) قال باسكال: «معناه أيها الإنسان أصغ إلى الله واسمع لسيدك، لتعرف نفسك.»

لم يعد علم اللاهوت يتعالى على العلم بل صار يعترف له بالاستقلال والريادة.

فكرة الموت في الحضارة:

الزمان والشر حدين مهلكين للوجود البشري. والموت هوا لحد النهائي الذي يتحدى القيم. لذا كان حلم الإنسان القديم القضاء على الموت. وكان برناردشو يزعم أنه لن يموت لأن ليس ثمة ما يبرر موته، مستنداً إلى حجة أبيقور: أنه ليس للموت وجود بالقياس إلينا، لأنه طالما كنا أحياء فليس ثمة موت، وبمجرد ما يوجد الموت فإننا لن نكون أحياء. وقد دأب الناس منذ القديم إلى نسيان الموت أوتناسيه بشتى الأساليب والحيل. قال الأسقف بوسويه: «إن اهتمام الناس بدفن أفكارهم عن الموت، لا يقل شأناً عن اهتمامهم بدفن موتاهم.» والسؤال الملح: لماذا يخشى الإنسان الموت؟ هذا السؤال طرحه الإنسان البدائي على نفسه، وكان شعوره بوحدة حياته صلب، لذا لا يعتبر الموت أبداً ظاهرة طبيعية، وحدوثه عارض، إنه من عمل الكهنة أوالسحرة. يقول إرنست كاسيرو: «لا تقبل الأسطورة ولا الدين البدائي، أي برهان على حقيقة الموت، لأنها تنكر إمكان الموت، حتى ليمكننا بمعنى من المعاني أن نفسر الفكر الأسطوري بأنه إنكار عنيد وثابت لظاهرة الموت.»

أما المؤرخ جيمس هنري برستيد، فقد درس تطور الدين والفكر في مصر القديمة وأبدى الرأي التالي: «إنه لا ترد كلمة الموت في نصوص الأهرامات إلا منسوبة إلى عدو، ونسمع التأكيد، على أن الأموات يحيون، ويذكر الشيوخ جيل الشباب أن أرواح أسلافهم على أهبة العودة من العالم الأدنى.». ومما أورده إدوارد تايلور في كتابه الحضارة البدائية، أن الإنسان البدائي يخاطب الميت: «لقد أحببناك دائماً وعشنا معاً تحت سقف واحد، مالك تهجرنا اليوم؟ عد إلى بيتك، فقد نظفناه لك، ونحن الذين أحببناك أبداً، لقد أعددنا لك الخبز والماء، عد إلى البيت، عد إلينا.»

لم يكن إنكار الموت عند المصريين والساميين لوحدهم، فقد كان هذا الإنكار شائعاً عند الصينيين، من خلال عبادتهم للأسلاف. يصف لنا دي جروت De Groot في كتابه عن الدين الصيني بقوله: «يدل الدين الصيني على أن روابط العائلة لا تنفصم بالموت، ويظل الموتى يمارسون سلطتهم وحمايتهم لأحفادهم، لذا تراهم يقدمون البخور لأرواح أجدادهم، لحمايتهم ضد الأشباح، ويخلقون بذلك البركة، ويمنحهم ذلك الثروة والصحة، لذلك ما يملكه الصيني هو وملك الموتى في الحقيقة. وعلينا أن نعتبر أن عبادة الأسلاف جوهر الحياة الدينية والاجتماعية لدى الشعب الصيني.».

حاولت الديانات إماطة اللثام عن سر الموت. وقالوا: «إن الموت ينقلنا من الحياة الفانية إلى الحياة الأخرى، الحياة الخالدة. ومع ذلك ظل الموت سراً غامضاً. ولكن فيثاغورس قال بانتقال روح الإنسان بعد الموت إلى جسد كائن حي آخر، ويتم ذلك بالتناسخ. ووافقه أفلاطون على ذلك. ولكن أرسطو نفى التناسخ وقال إن الروح تفنى بفناء الجسد، وتخلق معه، وأن الإنسان مهدد بالموت في كل لحظة، لأننا نحمل الحياة والموت في صميم وجودنا. ولكن جان بول سارتر له رأي آخر: «إن الموت ليس إمكانية باطنة في صميم الوجود الشخصي للإنسان، وإنما هو حدث غريب مجهول يرد إلينا من عالم خارجي، لا ندري من أمره شيئاً.».

اختلفت الديانات الشرقية (الصينية، والكنفوشية والبوذية) بأن يعمل الإنسان من أجل جنازة، لكي يظل ذكره، وأن لا حياة أخرى غير هذه الحياة. وردّت عليها الديانات السماوية بأن على الإنسان أن يعمل الخير من أجل الحياة الباقية، في عالم الغيب والشهادة. ولكن الشاعر العربي حبيب بن أوس الطائي، أبو تمام له حكمة خالدة، أن الزمان وأهله فانيان. قال:

ومضت تلك السنون وأهلها   فكـأنها وكأنهم أحـلام

تاريخ الحضارة ــ تقدم أم تدهور؟

يصادف الباحث في تاريخ الحضارة آراء متناقضة. وهنا تلعب ميول الباحث في وضع خطة عامة لبناء بحثه. ومن خلال خطة البحث، ينظم تلك الحقائق ويرتبها، فينجز في النهاية بحثه مرتباً، حسب هواه. وكما قيل (كل امرئ يفضحه هواه).

الحضارة كما أعتقد، إحدى المفاهيم العامة التي يصعب تعريفها تعريفاً جامعاً مانعاً. ولا بد أن يرافق التعريف أمثلة محسوسة، كأن نقارن بين حضارة بدائية وأخرى متحضرة. وفي كل الحضارات نلمس: الحقيقة والجمال والفن والمغامرة والسلام. وقد أشكلت على الباحثين ثلاثة مصطلحات هي: (الحضارة، والمدنية، والثقافة). قالوا: الحضارة والمدنية: Civilisation لهما معنى واحد، فهما يغلبان الجانب المادي من التراث، ولا يمكن الفصل بينهما، لأنهما يشتملان على المظاهر المعنوية والمادية والمعنوية معاً، ولهما صفة التراكم Accumulative ولهما صفة التوريث من جيل إلى آخر، كالصناعة أوالتقنية التي هي في تقدم دائم وكل جيل يضيف خبرته إلى خبرة الجيل السابق. وللحضارة بهذا المعنى قابلية الانتشار والاتساع في الزمان والمكان.

أما الثقافة Culture، فهي نظرة عامة إلى الوجود والحياة والإنسان، وتتجسد بالدين والأخلاق والتشريع والقيم العامة السائدة في مجتمع معين. ويصعب انتشارها، وإذا انتشرت فهي تنتشر ببطء. وكل حضارة تنطوي تحتها عدة ثقافات. كالحضارة الإسلامية تنطوي تحت جناحها الثقافات العربية والفارسية والتركية والإندنوسية... الخ.

واختلف الباحثون حول كيفية انتشار الحضارة، وكيف تتطور. هل تسير بخط صاعد باستمرار؟ أم أن لكل حضارة منطقها الداخلي، وتظل تنمو حتى تستنفذ طاقتها وتموت كالكائن الحي؟

من هنا عليّ البحث في فكرتين:

فكرة تقدم الحضارة:

كل حضارة تحيا في أعماق التاريخ. ولكل شعب لغته وديانته وثقافته الخاصة التي يتميز بها عن الشعوب الأخرى. وتقوم بين الشعوب صلات تبادل تجارية وعلمية، وتندمج الخبرات لتشكل مركباً متجانساً، في نسق من الأفكار والرموز بواسطة اللغة. وأحياناً تزول الشعوب وتتلاشى ضمن حضارة شعب وريث لها كلها، كشعوب الهلال الخصيب (السومريون والبابليون والأكاديون والآراميون والآشوريون والكنعانيون والأقباط) كلهم اندمجوا في الشعب العربي، وأصبحت اللغة العربية هي المعبِّرة عن ثقافاتهم. ولم يبق من هذه الشعوب إلا السريان لارتباطهم بالدين المسيحي، فالدين من الثوابت الحضارية.

والسؤال المطروح: هل التقدم الحضاري دائماً نحو الأعلى؟! والجواب: لا. هناك فترات صعود وفترات نزول، كعمليات الهدم والبناء في جسم الكائن الحي. وهذا ما تقتضيه طبيعة العمران البشري، كانتقال البدو إلى المدن واندماجهم في الحضر، ومع مرور الأيام تزول ثقافتهم، وتبقى ذكريات تحفظها اللغة.

لكن التراث الفكري والحضاري يظل متقدماً باطراد، وقد تنتقل ثقافات إلى حضارة أخرى كما فعل العرب عندما ترجموا ثقافات الأمم السابقة

والمجاورة إلى ثقافتهم ودمجوها في حضارتهم الإسلامية، والتي انتقلت بدورها إلى أوروبا عن طريق الأندلس عام (٧١١ ــ ١٤٩٢) فكانت الفلسفة والعلوم الإسلامية الأساس لعصر النهضة وأساس اكتشاف العالم الجديد (أمريكا). وأصبحت الحضارة الغربية اليوم هي الحضارة المركزية التي تدور حولها كل الحضارات العالمية الأخرى.

فكرة تدهور الحضارة:

قلنا من قبل أن الحضارة كالكائن الحي، تنشأ وتتموثم يدبّ الانحلال في أوصالها عندما تبلغ النضج، وفجأة يداهمها الخطر الخارجي وتزول، كما حصل للحضارتين الفارسية والبيزنطية عندما تغلبت عليهما الحضارة العربية ــ الإسلامية. وتأخذ الحضارة الجديدة الأقل نمواً، في نقل الموروث الحضاري القديم وتمثله، وتتكون خصائص حضارية جديدة، شريطة أن تملك الحضارة النامية عقلية متفتحة، وتكون لديها القابلية لتمثل الجديد. يقول هوايتهيد: «هذه الانتقالات السريعة إلى أنماط حضارية جديدة، لن تتم دون أن يسبقها فكر حضاري لدى القوم يدفعهم نحو مغامرة الخيال، من أجل هدف معين هو بناء دولة جديدة صاعدة.»

كتب أزوالد أشبنجلر كتابه انحلال الغرب تحت مناخ سياسي كان يسود أوروبة، صعود النازية والفاشية، وقيام الشيوعية. وبدا له الوضع العالمي ينذر بحرب عالمية جديدة. وكان اشبنجلر يتصور أن لكل حضارة دورة مقفلة. قال: «إن أصدق تقسيم يجعل الحضارات الكبرى تسير في مدارات مقفلة، كدورات الكواكب في المذهب البطليمي، وإن الحضارات الحالية تدور في تلك الحضارة الأوربية وريثة الحضارتين اليونانية والرومانية، وأصبحت

اليوم تحتل مكاناً متميزاً بإزاء حضارات الصين والهند وفارس ومصر والعرب، وكل حضارة من تلك الحضارات ذات وجود ديناميكي لا تقل مكانته عن الحضارة اليونانية الكلاسيكية. وإذا تأملناها من حيث اتساقها، نجدها تتفوق على الجميع من حيث العظمة الروحية والقوة الفياضة.»

ولكنه يرى أن الحضارة الغربية اليوم في حالة تدهور لأنها استنفذت كل ما فيها من إمكانات. وعدد أن كل حضارة تمر في خمس دورات حيوية، تبدأ بالطفولة والشباب، ثم النضج والشيخوخة، وأخيراً الموت. ثم فصّل في هذه الدورات متمثلاً الحضارة اليونانية.

١ ــ دورة الربيع: بداية الحضارة عندما تكون مدعومة من النظام الإقطاعي، وتكون الثقافة السائدة هي الأسطورة والدين، والفن المزدهر فيها هو التلقائي. عند اليونان أشعار هوميروس وهسيود.

٢ ــ دورة الصيف: هي فترة الثقافة الرفيعة التي ترعاها الأرستقراطية النبيلة وفيها يظهر كبار رجال الفن والأدب، الذين ينتجون أعمالاً رائعة. عند اليونان أعمال أفلاطون وأسخيليوس، أثناء حكم بيركليس الديمقراطي.

٣ ــ دورة الخريف: تتميز ثقافة هذه الفترة بسيادة التفكير العقلي التحليلي الهادئ الرزين، وضخامة الإنتاج الفلسفي والرياضي، وفي هذه المرحلة يشتد الجدل في الفن، مما يستنفذ طاقة الحضارة الداخلية. وتتميز الدورة فيها من الناحية الاجتماعية بأنها ديمقراطية تحكمها الجماهير، ويسيطر عليها رأس المال الاحتكاري، وتتغلغل القوى الاقتصادية فيكل مظاهر الحكم والسلطان. عند تأسيس الإسكندر للإمبراطورية المكدونية.

٤ ــ دورة الشتاء: هي فترة المدنيّة، حيث تتوسع الحضارة في إمكانياتها، وتمتد وتنتشر الحروب، وتصبح هذه الفترة ذات طابع قيصري (عسكري) وتتغلب القوة على المال، وتسود الإمبراطوريات لحكم الشعوب المقهورة، ولكن الشعوب المقهورة ستثور، لتحطيم الإطار الحضاري القديم. كما فعل الرومان عندما حكموا اليونان عام ١٦٨ ق.م.

٥ ــ مرحلة التدهور والانحلال: فيها تستنفذ الحضارة كل مقوماتها، وتبدأ بالانحلال والتلاشي، وتبدأ دورة حضارية جديدة ولكن عند شعوب ناشئة حلت محل الحضارة القديمة، عندما احتل الرومان سورية ومصل عام ٦٤ق.م.

إن تحليل اشنبلجر السابق تصور فيه الحضارة اليونانية القديمة في كل مراحلها، ويعتبر تحليله متشائماً ورجعياً. وليته يكون صحيحاً وتنحل إمبراطورية أمريكا المتغطرسة في زمن حضارة العولمة.

ضرورة حوار الحضارات:

حوار الحضارات مقولة حديثة، كان الدافع لوجودها مقولة (صراع الحضارات) التي ظهرت عام ١٩٩٥. والحضارات تقوم وتزدهر ثم تهرم وتضمحل، ولكن ما يبقى من الحضارة اللغة والدين والتاريخ، وهي أجزاء جوهرية ثابتة ومكوّنة للفكر البشري. وإن الحوار يزيد الفهم بين الشعوب المتجاورة، ويقوم على أساس المبدأ القرآن (يا أيها الذين آمنوا إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم). فالحوار غايته جمع الشعوب في مواجهة العنصرية ونفي الآخرين.

والثقافة تسعى لتنمية الفكر وترقيته وتنمية الحس الجمالي والفني، وغرس القيم الدينية والأخلاقية، وأحياناً يقوم بعض المتعصبين في الدين إلى خلق ذهنية دينية، تنفي الآخر إن لم يكن دينه إلى ديني دانٍ، وأحياناً تكفر ضمن الدين الواحد، إن لم يكن يؤمن الآخر بما أؤمن به، هذه الذهنية المتعصبة ندعوها بالأصولية، هي توجد في كل الأديان، وهي قنابل موقوتة قابلة للانفجار.

يرى صموئيل هنتنجتون أن الحرب القادمة إن حدثت ستكون حرباً بين الحضارات ويرشح لتلك الحرب الحضارتين الغربية والإسلامية، وأن العرب والمسلمين اليوم تخلفوا عن إنتاج وسائل حضارية، وهم يسترجعون، ويجترون ماضي حضارتهم، ومشروعهم الحضاري الجديد، يكون الإسلام في جوهره دون الأخذ من الحضارات الأخرى، وهذا يؤدي إلى ذهنية أصولية تنفي وجود الآخرين.

يؤيد الباحث المصري حسين أحمد أمين حكم هنتنجتون على الحضارة الإسلامية، ويرى أن السلفيين ذوو الأفكار الجامدة ينجم عن تفكيرهم ثلاث عواقب:

الأولى: أن المعرفة عندهم لم تعد عنصراً ديناميكياً في الفكر، بل كتلة جامدة، ما أسهم في قهر كل نشاط فكري حر، بدعوى مخالفته لأحكام السلف الصالح.

الثانية: اعتبار المعرفة دائرة مغلقة ثابتة، يجعل من المحال إطراح شيء من المعارف المقبولة، متى ثبت خطؤها، أوعدم مسايرتها لأحوال العصر، ويجعل من الصعب تقبل المعارف الجديدة ما لم تجد لها سنداً في فكر الأقدمين.

الثالثة: أن صار سبيل اكتساب المعرفة هو تجميعها من كتب الأسلاف، ومن الكتب القديمة القائمة على كتب الأسلاف بدون تحليل أواستنباط، والتجربة والفكر الحر.

كل العواقب المذكورة، خلقت عند غير المسلمين اقتناعاً بأنه لا يمكن للإسلام أن يكون له مستقبلاً ما دام هو عاجز عن مسايرة التطور.

استغل الغرب الأصولية الإسلامية، عندما جنّد أسامة بن لادن والأفغان العرب في محاربة القوات السوفياتية في أفغانستان وضد الروس في الشيشان، ولما أن قضى منهم مأربه، انقلب عليهم، وحدثت الأعمال الإرهابية في الاعتداء على مركز التجارة في نيويورك في ١١ أيلول عام ٢٠٠٢م، وعلى أثرها شن الأمريكان الحرب على أفغانستان والعراق، وشن شارون الحرب على الفلسطينيين، وصارت صورة الإسلام تثير الرعب في الغرب، مما دفع عقلاء المسلمين للدعوة لحوار الحضارات.

قصارى القول:

إن تاريخ الحضارة علم ناشئ، لم يبلغ مرحلة الاستقرار بعد، ولا زال الكثيرون به مختلفين، لأن الحضارة لها صلات مع بقية العلوم. ولكن الكتاب الذي وضعته يتعلق بتاريخ التواصل الحضاري على طرق الحرير. وقد قسمت الكتاب إلى عدة فصول.

الفصل الأول: الصين كانت هي بداية طريق الحرير.

الفصل الثاني: الهند كانت أول محطات طريق الحرير.

الفصل الثالث: الفرس كانوا العروة الوثقى في الطريق.

الفصل الرابع: دور الأرمن في حضارات الشرق الأوسط.

الفصل الخامس: الحضارة اليونانية إحدى أسس الحضارة الغربية.

الفصل السادس: الحضارة الرومانية كانت الوريث للحضارة اليونانية.

الفصل السابع: العرب المسلمون كانوا التجار المسيطرين على طريقي الحرير والتوابل.

الفصل الثامن: الحضارة الغربية قامت على تجارة التوابل.

ومن خلال هذه الفصول، حاولت تفسير كل حضارة طبقاً لمنطقها الداخلي، وبما كانت تتبادله من بضائع وأفكار مع الحضارات الأخرى. ثم بيّنت كيف كانت تعدّل مسارها طبقاً لما تقتبسه من الحضارات الأخرى.

تمّ الكتاب بعون الله.

محمد عبد الحميد الحمد

الرقة ١٥/ ١/ ٢٠٠٥

مراجع المدخل

نظرة عامة على تاريخ الحضارة

١ ــ الأرض وتطوّر الجنس البشري ص٥٢٥، لوسيان فيفر، ترجمة: محمد السيد غلاب ــ الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٥٧م.

٢ ــ المصدر السابق ص ٤٨١.

٣ ــ مدخل إلى فلسفة الحضارة الإنسانية ص٣٠٣، إرنست كاسيرو، ترجمة: إحسان عباس، دار الأندلس، بيروت ١٩٦١م.

٤ ــ المصدر السابق ص٣٠٤.

٥ ــ الإمتاع والمؤانسة جــ١ ص١٥٤، أبو حيان التوحيدي، تحقيق: إبراهيم الكيلاني، دمشق ١٩٧٨م.

٦ ــ اللغة بين القومية والعالمية ص١٣، إبراهيم أنيس، دار المعارف بمصر ١٩٧٠.

٧ ــ كتاب الخصائص جــ١ ٢٤٦، ابن جني، نشر مطبعة دار الكتب المصرية.

8 – Malinowski. Myth inprimitive Psyenology p12, Newyork 1926.

9 – Frazer J., The Golden Bough, p61, Macmilan, London 1900.

١٠ ــ العقلية البدائية ص٨٣، ليفي برول، ترجمة: محمود قاسم، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥١.

11 – Robertson – Smith, Lectures on The Religion of Semites p134, London 1889.

12 – Jevons F. An Introduction to The History of Religions p10, Londn 1902.

13 – Dhall M. History of Zoroastrian p52, Newyork 1938.

١٤ ــ مغامرات الأفكار ص٩٠، ألفريد نور هوايتهيد، ترجمة: أنيس زكي حسن، مكتبة النهضة، بغداد ١٩٦٠.

١٥ ــ مشكلة الإنسان ص١٧٩، زكريا إبراهيم، مكتبة مصر، القاهرة ١٩٥٨.

١٦ ــ مدخل إلى فلسفة الحضارة الإنسانية ص١٤١.

١٧ ــ كتاب الخواطر لباسكال خاطرة، رقم٥٥٦.

١٨ ــ حوار في النظامين العظيمين في الكون جــ١ فـ٧ ص١٢٩، جاليلي جاليلو.

١٩ ــ الغصن الذهبي ص٧٥، مصدر سابق بالإنكليزية.

٢٠ ــ مدخل إلى فلسفة الحضارة الإنسانية ص١٥٩.

21 – Breasted J. Dephelopment of Religion in Anchient Egypt p91, Newyork 1912.

22 – De Groot J. The Religion of Enimies p67, Newyork 1910.

٢٣ ــ مشكلة الإنسان ص١٣٠، زكريا إبراهيم، مكتبة القاهرة، مصر ١٩٦٠.

٢٤ ــ مغامرات الأفكار ص٣٧٤.

25 – Spengler O, Declaine of The West, ,vol I p18, London 1948.

٢٦ ــ الإنسان والحضارة ص٤٨ – ٤٩، فؤاد زكريا، مركز كتب الشرق الأوسط، القاهرة ١٩٥٧.

٢٧ ــ الإسلام والغرب ص١٣٦ –١٣٧، حسين أحمد أمين، كتاب العربي، الكويت ٢٠٠٢م.

الفصل الأول

الهلال الخصيب هو مهد الحضارات الإنسانية

- التعريف بمصطلح الهلال الخصيب.
- الحضارة السومرية والأكادية.
- الأساطير والدين.
- التشريع عند حمورابي.
- وضع المرأة الرافدية.
- التواصل الحضاري في الشرق القديم.
- مراجع الفصل الأول

المدخل للبحث

من سمات كل حضارة أنها تتمثل معارف العالم المعاصر لها، هذه السمة تنطبق على حضارة الهلال الخصيب التي أعطت للحضارة العالمية الكتابة الأبجدية، ومهّدت بذلك لتقدم الجنس البشري.

والسؤال المطروح: ماذا نقصد بحضارة الهلال الخصيب؟

نقصد بأرض الهلال الخصيب الأرض الممتدة من وادي النيل غرباً إلى نهري دجلة والفرات شرقاً، وهي تتضمن الأراضي الخصبة التي تعرف بوادي ما بين النهرين. وكانت هذه الأراضي تحتوي على ثروات طائلة كامنة تحت تربتها، وهي بحاجة إلى جهود جبارة لاستخراجها واستغلالها.

كان الهلال الخصيب في عرف الجغرافيين يشمل العراق وبلاد الشام أو سورية الطبيعية. وقد عاشت على هذه البقاع شعوب ذات لغة واحدة ولكن بلهجات متعددة، وأطلق عليها المستشرقون مجموعة اللغات السامية، وهي البابليّة والآشوريّة والكنعانيّة والعبريّة والعربيّة والآراميّة، وكلها ذات جذر لفظي مشترك يبقي من دون تغيير في تصريف الأسماء وتكوينها. وبين هذه الشعوب عاش الشعب السومري وكان ذا لغة مختلفة ويظن أنه جاء من الشمال من نواحي البحر الأسود، إلا أنه كان ذو تأثير هام في حضارات الشعوب التي تلته.

الحضارة السومرية:

عاش هذا الشعب في السهل الذي يمتد ما بين النهرين (دجلة والفرات) مسافة أكثر من ألف كم من المنحدرات الجنوبية لهضبة أرمنية (منابع نهري دجلة والفرات) شمالاً إلى الخليج العربي جنوباً.

عاش الشعب السومري في مدن مستقلة وكان الحاكم يدعى (لوجال) وكان حكمه ثيوقراطياً، أي أنه يستمد حكمه من الإله، بل هو ممثل الإله على الأرض. وبمرور الزمن تجمعت لدى الملك السلطتان الدينية والمدنية، وصار تمثال الملك يوضع في المعبد إلى جانب تمثال الإله المعبود، وإن كان يطلق عليه (أشكاك) أي المستأجر لأرض الإله. وبعض الملوك الأقوياء إذا ماتوا أصبحوا آلهة.

أسس السومريون عدة سلالات تصنّف تاريخياً:

سلالة أورا الأولى (٣٠٠٠ ــ ٢٥٠٠ق.م)

كانت بداية حكمهم من مدينة أور، ثم كانت حضارة لاغاش التي حكمت على كيش وأوروك وتمتعت هذه المدن بازدهار تحت حكم أول ملوك أور المدعو Mes – Anne – Pada وكان يسمى ملك كيش. ومن أهم ملوك هذه السلالة لوغال زاغيري ملك أوروك (٢٢٨٩ ــ ٢٢٦٤ق.م) وهو الذي ادعى أن أنليل العظيم قلده الحكم على مشرق الشمس (أرض عيلام) إلى مغربها (أرض سورية) وفي زمنه ازدهرت تجارة قوافل الحمير التي كانت تصل إلى مصر غرباً وجنوباً وإلى هضبة آسيا الصغرى شمالاً، وإلى الهضبة الأفغانيّة شرقاً. وعلى هذه الطرق سارت جحافل سرجون الأكادي

(٢٢٦٧ ـ ٢٢٢١ق.م) الذي شكّل أول إمبراطورية في التاريخ، ولم يكن سرجون سومرياً، بل كان من أصل أكادي، ولكنه ورث معطيات الحضارة السومرية.

سلالة أور الثانية (دام حكمهم ٩٠ عاماً)

هي السلالة التي شكلها سرجون الأول الأكادي، وقد دام حكمه ٤٦ عاماً. قام خلال حكمه الطويل بحملات على سورية، وعندما استولى على مدينة توتول (الرقة حالياً) ادعى أن الإله داجان (إله الخصب) وهبه هذه البلاد مع بلاد الغرب حتى البحر الأعلى (الساحل السوري).

وفي زمن حفيده نارام ـ سين (٢١٩٧ ـ ٢١٦٠ق.م) أغار على الغوتيين وعلى بلاد بابل، والخليج. ودام حكم هذه السلالة ٩٠ عاماً، وأصبحوا في أحد الرقم «كالطوفان جاء العيلاميون، فدمروا كل شيء قائم، فإلى أي يا سومر بدلوا حياتك؟! لقد شتتوا السلالة المقدسة، ونفوذها من المعبد، إنهم هدموا المدينة، وهدموا المعبد من الأساس.».

في هذه المرحلة أسهم السومريون بالمعرفة العلمية والأدبية، وطوّروا مبادئ الحقوق وكتابة العقود، وخلقوا شريعة مدوّنة تتضمن حقوق المواطنين في الزراعة والري ونظموا الأسفار والتجارة، واستخدموا العربات في نقل البضائع قبل استخدام المصريين لها بألف عام، وصارت قوافلهم تنقل البضائع والمواد الخام. جاء في إحدى الرسائل الملكية: «إن الذهب موجود في أرض مصر، بوفرة التراب» لهذا السبب كتب آرام ـ سين إلى فرعون مصر: «أرسل لنا أي بنت جميلة وقل أنها ابنتك، وجهّزها، فلن يعرف أحد هنا الحقيقة.»

ونتيجة الأسفار والحروب، تطورت علوم الفلك والرياضيات، وانتقلت طريقة العد الستينية إلى معظم مدن العالم القديم، ولا زالت شائعة إلى اليوم: فاليوم يقسم إلى ٢٤ ساعة، والساعة إلى ستين دقيقة والدقيقة إلى ستين ثانية، وتقسم الدائرة إلى ٣٦٠ درجة. وكان النظام العشري يجعل (المائة) وحدتهم الأساسية والعدد (ألف) الوحدة التي تلي المائة، ولهم نظام آخر استنتجوه من ضربهم العدد (٨٠) بالعدد (٦) وجعلوا (الستين) الوحدة التي تلي العشرة، ومن تكرار ضرب العدد (٦٠) بالعدد (مائة) فوصلوا إلى العدد (٣٦٠٠) كوحدة رابعة. وجعلوا هذا العدد أساساً لتقسيم الملكية الزراعية وفي الفرائض والمواريث وللمساحة والحجوم، ولكن طريقتهم في كتابة الأعداد كانت معقدة، وكانوا يستخدمون الكسور وأوجدوا الشكل الأولي للجبر والمقابلة، واستطاعوا حل معالات من الدرجة الثانية، ونالوا تقدماً في المساحة وتوزيع الحقول الزراعية، وبناء السدود والقناطر، وابتكروا وحدات الأوزان والمقاييس واستخدموها في قياسات الطول والوزن والسعة، وعنهم أخذها الهنود والفرس.

استخدم السومريون المزولة الشمسية لتقسيم الأوقات في النهار، والساعات المائية في الليل والنهار. وكان الشهر يبدأ بالهلال وصار يدعى في الأكادية والبابلية (ورخو) وهو إما ٢٩ يوماً أو ٣٠ يوماً. ومن تلك التسمية جاءت كلمة التأريخ باللغة العربية. واسم الشهر في الآرامية (شهروا). وكانت السنة تبدأ من شهر نيسانو ومدتها ستة أشهر ثم تبدأ السنة الثانية من شهر تشرينو (تشري قامايا) أي تشرين الأول. وكانت السنة ٣٥٤ يوماً، لكي توافق الدورة الزراعية، وكان شهر الحصاد يدعى (إيتي شيفورتو). وأسماء الأشهر بالأكادية هي:

نيسانو وأيارو، وسيمانو (حزيران) ودآوزو (تموز) وآبو وأولولو (أيلول) وتشرينو دارفي سما (تشرين الثاني) وكيسليمو (كانون أول) وتبيتو (كانون ثاني) وشباطو وآدارو.

سلالة أور الثالثة:

أسس هذه السلالة حمورابي، وهو من جنس الشعب العربي (العموري) وفي عهد حمورابي (١٧٢٨ ـ ١٦٨٦ق.م) أعيد إنتاج الثقافتين السومرية والأكادية فأعيدت كتابة الملاحم والأساطير باللغة البابلية وبالكتابة المسمارية، وهي الكتابة التي اخترعها السومريون باستخدامهم الطين الطري الناعم، والكتابة عليه بريشة القصب (cuniform) وكانت بداية الكتابة المسمارية الأولى تصويرية، أقرب إلى الكتابة المصرية، ثم تحولت مع مرور الزمن إلى رموز، وأصبح كل رمز يمثل كلمة واحدة، فكلمة ثور في بداية الكتابة تصور هكذا ( ) ثم تطورت الصورة إلى الرمز ( ) وفي المرحلة البابلية في عهد حمورابي ( ) أما في المرحلة الآشورية ( ) هذا التطور شمل الأسماء الجامدة. فكيف كتبوا الأفعال والحركات؟

في البداية وجدوا صعوبة، ولكنهم عندما ربطوا الرموز بالأصوات والأشياء التي صوروها هان الأمر عليهم. وارتبطت اللغة السومرية بالكلمات ذات المقطع الواحد، وابتكروا في البداية حوالي ٤٠٠ رمزاً من الرموز الكلامية، وحوالي ١٠٠ علامة مقطعية، من الرموز الصوتية.

كانت الكتابة السومرية تبدأ من اليسار إلى اليمين، وكانت العقود القانونية هي التي دعتهم للكتابة. وكان كل عقد يختم بخاتم أسطواني ثم تشوى الرقم وتصبح فخاراً. في العهد البابلي أعيد تدوين المعارف والعلوم والعقود

باللغة البابلية التي هي لغة اشتقاقية. قال شنايدر بوجود عناصر آرامية تعيش في عهد سلالة أور الثالثة، وكانوا بدواً ذكروا في وثائق ماري في أيام حمورابي واستوطنوا الفرات الوسط، وساهموا في تطوير الكتابة، عندما سيطروا على طرق التجارة ما بين وادي ما بين النهرين، والمتوسط والأناضول وجنوب الجزيرة العربية ومصر والتي كانت تتجمع في إيبلا وحلب (يمحاض).

متى كان أول ذكر للعرب في الوثائق السومرية؟

جاء في وثيقة يعلن فيها نارام ــ سين الملك الأكادي (٢١٩٧ ــ ٢١٦٠ق.م) انتصاره على سيد آرام وعم هرشمتكي (لعله هرثمة) وقبائل عمو التي وردت كذلك في المصادر الفرعونية، على أنها قبائل بدوية عربية تسكن بلاد الشام وسيناء والصحراء الشرقية. يقول كوبر: «كانت حركة البدو نحو مناطق العمران والحضر متصلة ومستمرة، وأنه لمن الصعب التمييز بين هذه العشائر (الآرامية ــ العربية) لأنها تتكلم لهجات متقاربة، وأن القبيلة الأكثر عدداً والأشد بأساً هي التي كانت تفرض اسمها دون غيرها، ومع مرور الزمن تنشأ علاقات بين سكان المدن الحضر ومع سكان البادية الذين يتعاملون معهم.».

إذاً كانت بداية ظهور القبائل البدوية (العبيرو) قبل عصر آشور ناصربال الثاني (٨٨٣ ــ ٨٥٩ق.م) ثم تحول اسم العبيرو إلى اسم الأخلامو، ثم تغلّب اصطلاح أرمايا وأصبح الاسمان مترادفان (أخلامو ــ آرمايا) حتى عصر سنحاريب. ويرى أوكلاغان: أن اصطلاح أخلامو وتعني الأخ أو الصديق، من جذر الكلمة العربية (خلم) بمعنى مرابض الغنم. ولكن سباتينو

موسكاتي يرى غير ذلك: وهي أن الأخلامو مجموعة من القبائل البدوية المتحالفة، ويقرأ المصطلح (أحلامو) من جذر الكلمة العربية (حُلم) بمعنى القوة أو الحلم بمعنى العقل.

كيف حلت أسرار الرموز المسمارية؟

عثر الرحالة الدانمركي كريستن ينبور على كتابة مسمارية في مدينة برسيبوليس (عاصمة الدولة الأخمينية) وبدأ يفك رموزها عام ١٧٩٨م. وأكمل عمله العالم الألماني جورج غروتنفند عام ١٨٠٢م. تعرف في البداية على الرمز الذي يعني (الملك) ثم تعرف بعد ذلك على الألقاب والصفات التي تلي الأسماء في اللغات البابلية والعيلامية والأخمينية (الفارسية القديمة التي كانت تكتب بالحروف الآرامية).

تابع مهمة فك الرموز العالم سير هنري رولنصن الذي استطاع فك رموز صخرة بهيستون في عام ١٨٤٦م. واستطاع ترجمة نصاً باللغات الثلاث السابقة ومضمونه: «يوجه الملك دارباوش (داريوس): أنتم يا من في الأيام المقبلة سترون هذه الكتابة التي دونت على الصخر بمطرقة، لا تمحوها ولا تخربون واتركوها دون مسّها.» ومما سهّل قراءة الكتابة المسمارية النصوص والرقم التي اكتشفت في نينوى عام ١٨٦٧م من مكتبة آشور بانيبال من القرن ٧ق.م. وكانت المواضيع متعددة، نصوص دينية وقانونية وأدبية.

الديانة السومرية ـ البابلية:

كان المعبد السومري يتألف من أكمة هرمية متدرجة العلو (زقورة) في أعلاها يقام معبد الإله (قدس الأقداس)، يصل إليه الملك والكهنة بواسطة سلم

طويل. وفي كل (هيكل أمنوبح) يعلل بعض الباحثين أن ذلك انتقل مع السومريين من موطنهم الأصلي من مناطق الجبال. أما المعبد البابلي فقد ورث المعبد السومري إلا أن قدس الأقداس صار مقراً لتمثال الملك. وفي قدس الأقداس كانت تقام التراتيل الدينية.

كانت الآلهة السومرية كثيرة العدد وكان كبير الآلهة آنو Anu ومقره في مدينة أوروك (الورقاء حالياً) وكان ينافسه على السيادة إله العواصف إنليل Enlil ومقره في مدينة نيبور (نفر حالياً)، وفي العهد البابلي صار كبير الآلهة يدعى مردوخ ومقره في مدينة بابل وإلى جانبه الإله إنكي Enki ومقره في بلدة أريدو، وهو ابن إله السماء آنو وكان مرتبطاً بالماء. ولهؤلاء الآلهة نساء أكبرهن آنتو Antu زوجة آنو وهي عشتار إلهة الخصب.

هذه هي بداية التثليث الإلهي (مردوخ وزوجته عشتار وابنه إنكي) وصار هذا الثالوث المقدس يحكم السماء والأرض والماء. وفي مرحلة تالية صارت عشتار إلهة للحب وارتبطت بكوكب الزهرة وزوجة تموز الابن البار للإله مردوخ الذي مثّل بالقمر. صار تموز إله النبات والخضار وكان في العهد السومري يمثل الراعي الصالح الذي أحبته عشتار ولكن خنزيراً برياً قتله في منتصف شهر تموز (دأوزو)، فأقامت عشتار حوله المناحات ومجالس العزاء والحزن، وزارته في العالم السفلي (عالم الموتى) وأعادته إلى الحياة ثانية (قام من بين الموتى). وللبابليين أشعار كثيرة في نزول عشتار إلى العالم السفلي، وأقيمت الأفراح بعودته وصار اسمه أدونيس عند الكنعانيين، ووصلت عبادته عن طريق التجار إلى مصر، واندمجت في الثالوث المصري. (إيزيس وأوزيرس وحورس)، ثم انتقل هذا الثالوث إلى اليونان (زوس

وإيليوسيس وهيرا) وإلى الرومان من بعدهم في عبادة الثالوث المقدس (جوبتير وفينوس وباخوس) ومنهم إلى فلسطين الكنعانية في عبادة الثالوث المقدس (الآب (الله) والابن (يسوع) وروح القدس) واستبدل اسم مريم بروح القدس. هذه التحولات جرت عبر آلاف السنين وضمن طقوس متوارثة.

إذا كان الثالوث المقدس قد ظهر في مرحلة حضارية همجية بالنسبة للمراحل الحضارية التي تلته، فما سبب هذا التواصل؟

ظهرت عبادة التثليث لدى الإنسان البدائي، منذ أن بدأ يدفن الموتى منذ الألف العاشر قبل الميلاد، عندما أصبح الإنسان يؤمن بخلود الروح. وكان الإنسان في البداية يعظم المظاهر السماوية (القمر والنجوم والشمس) وصار يقدم لها القرابين البشرية، ثم قدم لها القرابين الحيوانية، ثم قدم لها بواكير الثمار، ثم تهذبت هذه العبادة في الألف الرابع قبل الميلاد لدى السومريين والمصريين ثم استمرت هذه الطقوس تتواتر لدى الشعوب المتحضرة (الفلاحين) ولدى الرعاة وهذبت لدى الشعوب الأكادية والكنعانية والعبرية الذين دمجوا الأساطير البابلية (أسطورة جلجامش وخلق آدم وأسطورة الطوفان) وانتقلوا في عبادتهم بالجنس البشري متمثلين التوحيد الفرعوني إلى ديانة سماوية كان لها تأثيراً كبيراً في تطور الديانات السماوية الموحدة، وظلت الديانة الوثنية القديمة في الفكر الصابئي المندائي (جنوب العراق) وفي عبادة أهل حران عبادة القمر والزهرة.

ولأهمية الأساطير البابلية التي مهدت للأساطير العبرية، سأذكر الأساطير الثلاثة.

أسطورة خلق العالم:

وجدت هذه الأسطورة في أنقاض مدينة أريدو السومرية، وهي تقص علينا كيفية خلق العالم. حيث كان كل شيء مغطى بالماء، ثم جفت الماء، وعندئذ خلق الإله الأكبر (مردوخ) الآلهة الأخرى والنبات والحيوان والبشر.

كيف خلق الله الإنسان؟ تقول الأسطورة: خلق الله الإنسان الأول، من طين صلصال من وجه الأرض، خلقه لحاجة الإله إليه كي يعبده، ولكي يعمل في الزراعة ويعمر الأرض، فعلّم الإنسان كيفية الري والحرث وعلّمه مسميّات الأشياء كلها دفعة واحدة.

وجدت أسطورة الخلق على سبعة ألواح طينية في أنشودة تقول:

«وجد قبل خلق السماء والأرض بزمن طويلة آلهة اسمها تيامات Tiamet وزوجها أبسو Apsu، ومن زواجهما جاءت الآلهة الأخرى. وقد قتل الإله مردوخ الإله تيامات في معركة نشبت بينهما، وجعل جسمها قسمين: قسم صنع منه السماء، والقسم الآخر صنع منه الأرض التي خلق عليها البشر وأوجد فيها مدينة بابل.

وفي اللوح الخامس، تذكر الأسطورة: أن الإله مردوخ خلق في اليوم الأول النور، ثم خلق الشمس والقمر في اليوم الرابع ومعهما خلق الليل والنهار.»

هذه المعلومات التي وصلتنا عن طريق التنقيب الأثري الحديث، جاءتنا معلومات من قبل عندما كتب الكاهن البابلي بيروسس (برعشتا) حوالي عام ٢٥٠ق.م ثلاثة مجلدات عن تاريخ بابل.

وفي التنقيب الأثري في بلدة أريدو ظهرت كتابات الكاهن البابلي آدابا Adapa الذي قدّم لنا قصة حسابه أمام الإله مردوخ، لارتكابه بعض الآثام. ونتيجة الحساب رأت الآلهة منحه الخلود. ولكن آدابا رفض الخلود وفضّل عليه أكل الخبز وشرب ماء الحياة وبذلك حرم من نعمة الخلود، وعاش يأكل من ثمر الدنيا دون أن يخشى الموت الذي كان يتهدده في كل لحظة. وهذه هي سمة الإنسان الفاضل الذي ينتظر الموت دائماً ويستعد له بالعمل الصالح.

وجدت في تل العمارنة أربع نسخ من أسطورة خلق العالم وقصة الحكيم آدابا مكتوبة على ورق البردي، ومصدر هذه الرسائل من بابل جاءت من فلسطين إلى أمنحوتب الرابع (أخناتون) ملك مصر، وهذه أول إشارة مادية تظهر لنا التواصل الحضاري المستمر بين الهلال الخصيب ومصر. وأخناتون كما يعتقد أول ملك موحد، وكان موسى على عهده وهو الذي هرب بالعبريين (الموحدين) من أرض مصر إلى سيناء.

وفي المرحلة البابلية، كان الناس يؤمنون بوجود عالمين:

ـ عالم سموه (أرالو) وهو بمثابة دار العقاب، فالدنيا سجن المؤمن، وجنة الكافر.وفي دار العقاب أرواح الموتى، وتقدم القرابين من أجل راحة نفوسهم.

ـ وعالم الحياة، وفيه يعيش الناس ويعمرون الأرض ويقدمون الصدقات والنذور من أجل حياتهم الأخرى. وكان الكهنة يستغلون المؤمنين بكثرة أعمال السحرة.

وفي العهد الآشوري في الألف الأولى قبل الميلاد صار الملك يمثل الآلهة، وهو مستجاب الدعوة. جاء في أحد الأدعية: «فلترض عني الآلهة عندما أرفع يدي إليها، ولتمنح حكمي الرخاء وأعواماً مليئة بالأمطار والثروة،

ولتعاونني على الخروج من الحروب سالماً، ولتخضع لي كل الأقاليم المعادية، وكل الملوك و الأمراء الذين أعلنوا الخصومة ضدي، ولتسبغ الآلهة بركاتها عليّ وعلى نسلي من بعدي.»

يرى صموئيل نوح كريمر أن المفكرين السومريين كانوا يعتقدون أن الإنسان خلق من الطين من أجل غرض واحد، ذلك هو أن يعبد الآلهة ويخدمها. وهذه النظرة التي رددها من بعدهم اليهود والمسيحيون والمسلمون، وهو أن آدم خلق من الطين من أجل أن يعبد الله، وأن يعمر الأرض وهو حر الإرادة لأنه شبيه بالإله، ليحق عليه الثواب والعقاب.

ومن المبادئ الفلسفية الهامة التي دخلت الفكر التوحيدي هي قوة الكلمة الخالقة. كان الإله يقول الكلمة ويخلق الشيء المرادف لها كن فيكون، وهذا استنتاج قياسي مثله مثل الملك السومري الذي كان ينجز ما يريده بإصدار أمره الشفوي، وهكذا توحدت الكلمة والشيء المرادف لها.

أسطورة جلجامش:

تعد هذه الأسطورة أطول الملاحم السومرية، وهي أول الملاحم البشرية المكتوبة. ابتكرها شعب زراعي متحضر، عبّر فيها ضد الظلم، ورفعت القساوة عن عيون الجهلة والمغفلين، وكانت غايتها تحرير الكرامة الإنسانية. وهذه الأسطورة تروي قصة ملك أوروك (جلجامش) الملك الظالم. كتبت على اثني عشر لوحاً، عثر عليها في العهد الآشوري في مدينة نينوى، وقد ترجمها العالم الأثري العراقي طه باقر عام ١٩٧١م.

تبدأ الملحمة بمقدمة: تخبرنا كيف أن الإله العظيم مردوخ خلق جلجامش وخصه بالقوة والجمال، وخصه الإله آدد (حدد) بالبطولة والشجاعة،

وجعلته بقية الآلهة كامل الأوصاف. كان طوله ١١ ذراعاً وعرض صدره ٩ أشبار وكان ثلثه إنسان وثلثه إله والثلث الأخير نسر جارح، وكانت هيئته لا نظير لها بين البشر.

وفي نص الملحمة: كان جلجامش ملك أوروك الملك القوي الحكيم والظالم معاً، لم يترك عذراء لحبيبها، ولم يترك ابناً طليقاً لأبيه، فاشتكى شعبه لرب السماء (آنو) Anu وبمساعدة الإله أورورو خُلق له نظير هو أنكيدو البطل الصنديد، وكان من نسل ننورتا، يكسو الشعر جسمه، وشعر رأسه غزير كشعر المرأة، كان يأكل مع الظباء العشب وثمار البرية، ومع الحيوانات يستقي موارد الماء، تستدرجه العاهرة (شمخة) إلى أحضانها، وحرضته على عدوها جلجامش، فجرت مصارعة بين البطلين، لم ينتصر فيها أحد على الآخر، فيعترف جلجامش لأنكيدو بالبطولة ويصبحا صديقين وينطلقا معاً في مغامرات صيد في غابات الأرز المسحورة (في سورية) تلك الغابات التي يحرسها العفريت (خمبابا). واستطاع البطلان الانتصار عليه بمساعدة الإلهة (شمش) ويعودان إلى أوروك. وبينما هما في الطريق تعترضهما الإلهة (عشتار) التي أحبت جلجامش من أول نظرة، ولكنه يتجاهلها، مما أغضبها فقال: أي خير سأناله إذا أخذتك زوجة؟ ما أنت إلا الموقد الذي تخمد ناره في البرد، أنت قصر يتحطم في داخله الأبطال، أي من العشاق الذين اخترتهم وأخلصت لهم على الدوام؟

غضبت عشتار والتجأت إلى إله السماء آنو ورجته أن يخلق لها ثوراً يهلك جلجامش، وإلا فتحت باب العالم السفلي على مصراعيه، فيقوم الموتى ويأكلون الأحياء.

هاجم الثور السماوي جلجامش، ولكنه أخطأه وطعن أنكيدو وقتله. حزن جلجامش حزناً شديداً على صديقه وراح يرثيه: أنكيدو يا صاحبي وأخي الأصغر، تغلبنا معاً على الصعاب، قهرنا خمبابا في غابة الأرز، وتغلبنا على الثور السماوي الذي قتلك، فأي نوم هذا الذي غلبك وتمكّن منك؟

نزل جلجامش إلى العالم السفلي، وصار يتأمل عالم الموتى، وأدرك سر الموت وجعل هدفه البحث عن الخلود، وسمع من أحد أسلافه المدعو (أوت ــ نابشتيم) أنه قد نجا من الموت، فسأله جلجامش: كيف دخلت مجمع الخالدين؟ فأخبره بسر الخلود، وعرّفه بالغرسة العجيبة التي تنمو في قاع البحر، والتي فيها سر الخلود. نزل جلجامش إلى أعماق اليم ووجد النبتة، وعاد بها ولكن حية سرقتها منه، وعاد جلجامش إلى (أوت ــ بابشتيم) حزيناً وقص عليه ما جرى، ولكي يعزيه أو نابشتيم قص عليه قصة الطوفان. فما هي تلك القصة التي جلبتها لنا التوراة من بابل؟ إنها قصة نوح عليه السلام.

قصة الطوفان:

تقول الأسطورة: «غضبت الآلهة على بني البشر واعتزم آي إله الحكمة أن ينجي رجلاً وامرأته لأنهما صالحان، ويحفظان سر الخلق وهما أوت ــ نابشتيم وزوجته. وبينما كان أوت ــ نابشتيم نائماً جاءه صوت الإله آي في الحلم يقول له: انهض يا من أطعت الآلهة، وحفظت العهد، انهض واهدم بيتك واصنع فلكاً من خشب، وخذ معك بذرة من كل شيء حي لتحميها كما نحميك وأهلك من الطوفان الذي سيطهّر الأرض من الظلم والفساد.

نفذ أوت ــ نابشتيم ما أخبرته به الآلهة في الحلم، وصنع سفينة طولها ١٢٠ ذراعاً وارتفاعها ستة طوابق وعرضها ٩ أذرع وطلاها بالقار، ووضع

فيها كميات من الخمر والزيت وأكواماً من كل أنواع الحبوب، وزوجين من كل حيوان يدب أو طير يطير. وبعد أيام قليلة انهمرت الأمطار الغزيرة، من سحابة سوداء يسوقها الإله رامان مطلقاً الرعود، وأخذت الآلهة أورجال ونابو ومردوك تفتح كل طاقات السماء. تراكض الناس يبحثون عن ملجأ من الطوفان، فلجؤوا إلى قمم الجبال كي تعصمهم من الماء. واستمر الطوفان ستة أيام، وقضى على كل من في فمه نسمة حياة من أنس وبهيمة، ولم يبق حياً إلا من حمله الفلك. وفي اليوم السابع بدأت المياه تنجاب عن الأرض، وأطل الرجل الصالح من طاقة الفلك، وصرخ عالياً لمرأى الناس غرقى في الطين وفي وحول المستنقعات، ولم يعد هناك شيء حي، فبكى وأهله، وظل الفلك يسير على سطح الماء، وبدأت المياه تتناقص، وظهرت قمة جبل نازير، وأرسل أوت ــ نابشتيم غراباً يستطلع حال الأرض، ومضى ولم يعد واستمر بنهش جثث الموتى. وبعد سبعة أيام أخرى أرسل العبد الصالح يمامة (حمامة) فأبصرت أشجاراً خضراء، وعادت بغصن زيتون أخضر، واستقر الفلك على الأرض، وما إن خرج من الفرك حتى خرّ ساجداً للإله مردوخ، ثم بنى مذبحاً وقدم عليه قرابين الشكر من أعواد المر والبخور. وجاءت إلى المندى (المعبد) عشتار وقالت: باسم جواهر الآلهة التي تحيط بعنقي لن أنسى هذا اليوم أبداً. جاء تناقص الطوفان والخلق الجديد من خلال الرقم الطينية المكتشفة في بابل ونينوى وحران. وقد وصلتنا من قبل عن طريق سفر التكوين. وقد نقلها العبريون من قبل من بابل بعد السبي، وجاءتنا بوحي إلهي في القرآن الكريم في قصة نوح عليه السلام.

كيف استمرت هذه القصة بين البشر آلاف السنين؟ لأنها أسطورة والأساطير هي تفسير لطبيعة الكون. يقول صموئيل نوح كريمر: «تتألف

أساطير العالم القديم غالباً من قصص الأرباب والأبطال من حيث مولدهم وموتهم وحبهم وبغضهم، وانتصاراتهم وهزائمهم، وأعمال الخلق والتدبير كملحمة جلجامش والخلق. وهناك غير قليل من الأساطير القديمة، فيها ما يتعلق بالخلق ونظام الكون، وشكل الإنسان وإقامة الحضارة وهي وإن اختلفت من حيث دافعها وبما يتعلق بخلق الشعب الذي أنتجها ومزاجه وتاريخ مستوى الحضارة.».

ومن الأساطير الشائعة التي وصلتنا من العهد البابلي:

أسطورة الراعي دوموزي (تموز):

تقول الأسطورة: هبطت عشتار إلى العالم السفلي لإنقاذ الراعي الصالح دوموزي الذي ينحدر من قبائل المارتو الذين هاجموا أوروك، وكانوا يحيون في خيام تتلاعب بها الرياح والأمطار، ويأكلون لحماً غير مطبوخ، ولا قبور لهم حين يموتون. وبما أن مدينة أوروك كانت تعيش من اقتصاد مركب (زراعة ورعي) وجدت بينهم أسطورة الراعي الصالح. كان دوموز ينتابه شعور دائم بأن موته وشيك، فكان قبله مملوء بالهم والحزن، فخرج إلى السهل وانطلق بالنواح وأطلق العويل بين ضفادع النهر، وقال: من يعتني بأمي يوم أموت؟ وشعر بالنعاس، فرأى حلماً واستدعى مفسّرة الأحلام وأخبرها برؤياه قائلاً: رأيت من بين القصب، ارتفت أشجار عالية مخيفة، وعلى موقدي صبّ الماء، ومني سقطت عصاة الراعي، وقبضت بومة عليّ، وقبض صقر على حمل في مخالبه، وبدأت عنزاتي تعفّر لحاها بالتراب، وتحطمت الكأس ومخضّة اللبن، وسمعت قولاً لا حياة لدموزي بعد الآن. قالت مفسرة الأحلام: آي أخي، إن حلمك غير حميد. فيختفي دوموزي، بين

القصب، وتفتش عنه العرّافة ولم تجده. رجع دوموزي إلى المدينة كي لا تقبض عليه الجالا (مخلوقات لا تاكل ولا تشرب) ولكن قبضت عليه الجالا وحملوه ‘لى العالم السفلي، ولكن زوجته إنانا حولته إلى غزال فهرب من الجالا، ولاذ بالفرار ولجأ إلى دار السيدة الحكيمة (بليلي) العجوز، وطلب منها شربة ماء، ولكن الجالا قبضوا عليه وحملوه إلى العالم السفلي، وانتهى إلى نهاية محزنة. وتتطور الأسطورة السومرية في المرحلة البابلية، عندما تتبعه عشتار وتخلصه من الموت وتقيم له الأفراح.

هل يوجد لأسطورة الراعي دوموزي أصل سومري؟ نعم ولكن لم تكن بصفتها التي عرفت بها في الأصل البابلي والآشوري اللذين كتبا الأسطورة بلغة سامية، وبفكر يدعو إلى وجود عالمٍ آخر بعد الحياة الدنيوية المعاشة.

قصة الحكيم البابلي آدابا:

هذه القصة تعود إلى المرحلة الأكادية، ومنذ ذلك الوقت انتشرت في العالم القديم، وقد تعدّت حدود وادي الرافدين إلى سورية ومصر، ثم دونت في بابل وهي تصور حكمة آدابا Adaba الابن البار بوالديه والطاهر اليدين الذي يعيش في أريدو. وفي أحد الأيام أبحر في الخليج لصيد السمك حيث هي حرفته. فماذا حدث له؟ وإذا بعاصفة تهب من الجنوب فغمرته المياه وسفينته، فنطق آدابا الحانق على رياح الجنوب وتضرع لآي إله الماء، فكسر جناح العاصفة، ولم تهب الرياح بعدها سبعة أيام، ولما عجزت الرياح عن الهبوب سأل آنو إله السماء عن سبب المشكلة، فحدثه وزيره (أبرات) بما حدث فنهض عن عرشه وصاح: فليحضروا آدابا إلى هنا!

جاء آدابا ليقابل الإله آنو، وسأله الحارسان: لماذا تلبس ثياب الحداد؟ ولمَ تترك شعرك أشعث؟ فقال: إنه يندب إلهين أختفيا من الأرض. فسأله الحارسان: من هما؟ فقال: إنهما تموز وجيشتريدا. وكان الحارسان يماثلانه الحزن، فنصحا آدابا، عندما تصل بين يدي آنو لا تأكل لأن طعامه يؤدي بك إلى الموت، ولا تشرب لأن شرابه شراب الموت.

ولكن آدابا لم يحرص على تنفيذ الوصية، ففقد فرصته الذهبية في الخلود، وصار ضحية العلل والأمراض، وإن ساعدته ربة الشفاء نيكاراك.

اكتشفت ثلاثة رقم تقص حكاية آدابا الحكيم البابلي في مدينة نينوى في المرحلة الآشورية وهذه القصص ذات سرد مختلف عن الأصل الأكادي.

ـ في القصة الأولى: تصور آدابا وهو يبحث عن نبات المولد.

ـ في القصة الثانية: تصور آدابا بطلاً لأسطورة (آرا) إله الوباء.

ـ وفي القصة الثالثة: تصور آدابا رفيقاً لإيشوم إله النار.

والطريف في حياة آدابا ما ورد في القصة الثانية، حين يغادر مردوك بابل يدعو آرا إله الوباء، فجاء عند غياب الشمس، وقال له آنو إله السماء لا تخرج من البيت الذي دخلته، وبإخلاص لا تقبل صلوات سود الرؤوس حين يناجونك، وسوف أقضي عليهم، وأجعل المدائن كلها أتلالاً، وأنسف الجبال، وأهلك القطعان، وأجتث القصب والغابات وأذل الإنسان، وأزيل كل الكائنات الحية. ولكن آدابا الحكيم نجا بفضل حكمته.

وفي القصة وجدت رقية تقول: وبعد أن أعاد آنو رب السماء والأرض خلق العالم من جديد، ظهر الدود في المستنقعات، وتقدم الدود بالبكاء بين يدي الإله شمش والإلهة أيا (إلهة الماء) وقالت الدود:

ماذا تعطيني طعاماً؟ وما تعطيني شراباً؟ قالت (آيا) سأعطيكم التين الناضج والمشمش! قالت الدود: مالنا وللتين الناضج والمشمش؟ دعينا نسكن بين أسنان الإنسان نمتص الدماء، ونأكل من اللثة جذورها. وهنا ينتهي النص الملحق بقصة آدابا الحكيم. ويلحق بالنص قول لطبيب الأسنان: «بأن يدخل الإبرة ويقبض على قدم الدودة (الذي هو وجذر السن) ويخلط جعة وزيتاً ويضعها على الجذر.»

ما هي خلاصة الأساطير البابلية؟ وإلى ماذا أدى الاعتقاد بها؟

في محصلة الإيمان بتلك الأساطير، ورثت للإنسانية فكرتين مهمتين هما:

ـ الاعتقاد بالله وبالآخرة.

ـ والصراع بين مملكتي النور والظلام.

الاعتقاد بالله وباليوم الآخر:

في المرحلة السومرية، لم يكن الاعتقاد باليوم الآخر قد تم وتبلور. فالصلوات وتقديم القرابين، لم تكن للحصول على النعيم في الحياة الآخرة بل هي لنيل الخيرات في الحياة الدنيوية. وعقيدتهم أن الإنسان ما دام يعمل صالحاً، فقد استحق رضى الآلهة وعاش حياته سعيداً. أما إذا مارس الإنسان الإثم فإن الآلهة ستتخلى عنه، ويتردى في الرذيلة التي هي عار في الدنيا. وإذا أراد الإنسان التخلص من الرذيلة عليه أن يلجأ إلى السحر، ويحفظ تمائم وتعاويذ خاصة هي من علم الإله آنكي، وعلى الإنسان أن يحفظها عن ظهر قلب. وكان الكهنة يعلمونها للناس لقاء المال.

وفي المرحلة البابلية، تطور اعتقاد الناس وصاروا يؤمنون بوجود عالمين، عالم الأرض التي يعيشون عليها، وعالم آرلو (دار العقاب) تذهب

إليه نفوس الموتى. من هنا وجدنا في الآثار أن المقابر كانت تحتوي على كل مستلزمات الحياة، من طعام وشراب ووسائل المتعة الأخرى، وأصبحت القرابين تذهب إلى موائد الكهنة من أجل راحة نفوس الموتى أيضاً. وفي العهد الأكادي المتأخر صارت المعابد تبتز المؤمنين بكثرة الصدقات والنذور.

في المرحلة السومرية تميزت السماء والأرض بكثرة الآلهة. فآنو إله السماء وأب للآلهة، وهو مانح الحياة ومحيي الموتى في العالم السفلي (آرالو)، وإنليل إله الأرض، ومعناه في السومرية سيد الريح، وصار في المرحلة البابلية سيد الأرض، يساعده في الحكم ولده سين إله القمر في إلقاء الشبكة، وآنكي إله الماء، ويساعده ولده نرجال إله القدر والحكمة ورب العقل والفنون وهو الإله الذي يستلهمه الصناع، وهو الذي استنجد به مردوك في المرحلة البابلية في خلق الإنسان الأول. وفي آخر المرحلة البابلية تمت السيادة للإله مردوك على كافة الآلهة، وسكن مدينة بابل عاصمة الأرض كلها وأصبح هو الإله المدافع عن الوطن، وصار يصوّر راكباً على عربة ومتجهاً نحو كوكب المشتري وإلى جانبه عشتار آلهة العشق والهوى ومقرها كوكب الزهرة وهي ابنة سين إله القمر ورفيقة مردوك· الذي تساعده في تحديد مصير البشر في يوم القيامة.

الصراع بين مملكتي النور والظلام:

كان التصور للكون في المرحلة السومرية أنه لا يوجد سوى المحيط الأزلي (الأبسو) وهو يتكون من المياه المالحة التي تعود إلى (تيامات) إلهة المياه المالحة. ولم يكن في البداية لا سماء ولا أرض ولا إله ولا بشر، لا شيء سوى الفضاء والمحيط أو المياه الممتدة إلى ما لا نهاية. وكل ما في

الكون يعيش في اضطراب وفوضى. وتعاقبت الأزمان حتى جاء زمن اختلط فيه المحيط بالفضاء، ومن اختلاطهما خرجت أشياء، أخذت تمور وتتخذ لها أشكالاً غريبة وعديدة ثم ظلت ترتفع حتى استقرت في الأعلى وكان منها (آلهة النور).

أطلت تيامات إلى المخلوقات الجديدة ملأها الفزع فهي لم تعرف في حياتها سوى الظلام والفوضى والاضطراب، أما الذين يعيشون في الأعلى فلا يريدون سوى النور والنظام والاستقرار، وكان هذا من أسباب حقدها على آلهة النور، فأخرجت تيامات من جوفها وحوشاً مخيفة مفترسة ومنها الثعابين ذات السم، وعلى سطح الماء برزت رؤوس التنين البشعة تثير الرعب، وخرجت من جوف تيامات كلاب مفترسة لا مثيل لوحشيتها، وكذل كعقارب مخيفة سوداء كالمردة، وكانت كل هذه الوحوش تتحرك تحت إمرة الوحش العملاق (كنجو) الذي وعدته تيامات بالزواج منه إذا تغلب على آلهة النور.

كان أول من عرف بنوايا تيامات الإله آي الذي حمل الخير إلى الإله أنصار رسول الإله آنو الذي أرسله إلى تيامات ليسألها عن سر تحديها لآلهة النور. ولكن الوحش كنجو هاجمه بعنف وجنون فولى رسول الإله آنو الأدبار هرباً.

اجتمعت آلهة النور برئاسة كبيرهم مردوك وقرروا منازلة الوحش الجبار، ونتيجة المصارعة قهروه، ومنح الإله مردوك السلطة السماوية كاملة وصار حكم الكون كله له. ولكن تيامات لم تذعن لحكمه فسلطت عليه تعاويذها السحرية. ولكن مردوك ألقى بشبكته الهائلة وجذب إليه تيامات وأطلق من فمه ريحاً عاتية، دخلت جوفها فانتفخ وضربها برمحه الهائل،

فخرج منها صوت صاخب كالرعد، وسقطت ميتة وصارت وحوشها تصرخ وهي هاربة من شبكة مردوك ولكنهم وقعوا في الأسر في نهاية الأمر.

انحنى مردوك على جثة التنين فأخذ منه حبوب القدر والقضاء الذي أعطته له تيامات، تلك الحبوب التي تمنح النفوذ والسلطان لحاملها، وعندما عاد مردوك إلى السماء نثر على صفحتها الكواكب والنجوم المضيئة للزينة، ولكن لتجري في طريق مرسوم من قبل. وجعل السماء مقراً دائماً للثالوث المقدس (آنو وإنليل وآي) ووزع بقية الآلهة على الكواكب لإنارتها، ثم قسّم السنة إلى شهور، وجعل لكل شهر ثلاثة كواكب، وجعل لسين إله القمر حكم الليل ومنحه في كل شهر يوماً ليستريح فيه، ومنحه الشبكة الهائلة التي انتصر فيها على تيامات ومعها قوس، وجعل للرياح التي ساعدته في القضاء على تيامات جعل لها كوكباً، واحتفظ مردوك لنفسه بأعظم الكواكب (الشمس) مصدر النور كله. أدرك مردوك أن الآلهة بحاجة لمن يعبدها ويصلي لها فخلق من الطين الإنسان الأول الذي جاءت منه البشرية لتقوم على خدمة الآلهة، ولكن مع مرور الأيام ازداد الشر بين بني البشر، وظهر على الأرض صنفان من البشر:

ـ أحدهما لا زال متصلاً بالآلهة.

ـ والاخر قطع صلته بآلهة النور، فامتلأت الأرض بالشر مما أحزن الآلهة. ولكن الاعتقاد بأن روح الإنسان تتطهر بعد الموت في العالم السفلي (آرالو) Arallu، وهو عالم مناظر لبابل، يعيش فيه البشر حياة رتيبة كئيبة، ولا يمكن تخفيف هذه العذابات إلا بالقرابين والأعمال الصالحة التي يمارسها البشر في هذه الدنيا الفانية.

تبقى الأرواح تعيش على شكل أشباح تحوم حول بيوت ذويهم إلى يوم الحشر، ولا يتكلمون عن وجود ثواب أو عقاب فيه.

كان لذكر أسماء الآلهة دور كبير في اعتقاد أهل بابل. جاء في ملحمة الخلق: «عندما كانت السماء من فوقنا بلا أسماء، ولم يكن تحتها اسم لمسكن، ولم يكن لأي شيء اسم ما.» لقد انتقل هذا الاعتقاد إلى مصر الفرعونية. جاء في كتاب الموتى: «لم أمت ولم يمت اسمي.» فالاسم هو البديل عن الوجود في هذا العالم. وقد اقتبس العبرانيون الاعتقاد بأهمية الاسم من بابل أثناء السبي. جاء في سفر التكوين: «أن الله استدعى الحيوانات بعد خلقها، أمام آدم لكي يعطيها أسماءها وبذلك أضفى عليها وجودها.» سفر التكوين: الإصحاح الثاني.

أصبح الاسم قوة دالة على حامل الاسم، وكان على الفرد أن يحترس من جعل اسمه معروفاً، ولذلك أخفى العبرانيون اسم الإله يهوه في البداية. هذه الفكرة لا زال المسيحيون يعملون فيها، فهناك اسم يعطى للفرد في العماد وله اسم آخر يعرف به في الحياة العامة.

انتقل الحذر من معرفة اسم الله الأعظم في الديانات العرفانية وفي المذاهب الصوفية. فمن حاز على معرفة اسم الله الأعظم، فدمه مهدور إن أباح به.

ومن الأفكار السومرية التي لم تزل سائدة في الفكر اللاهوتي اليهودي والمسيحي والإسلامي هي: أنه في زمن ما كانت السماء والأرض متحدين، ثم فصلت السماء عن الأرض، وحصل بينهما الماء والهواء، ثم خلق الإنسان والماشية والغلة، بفضل إنليل العظيم الذي لولاه ما شيدت الزرائب والحظائر، ولما أقيم ملك ولا ولد كاهن، ولما بنيت المدن ولا أقيمت المواطن. إنليل

العظيم الدائم الحركة والراعي القائد لكل حي، في المساء هو الأمير الأول الباسط يده على كل شيء. إنه الإله إنليل، أو الله سبحانه وتعالى في اللاهوت التوحيدي.

الحياة العامة في المدن الرافدية:

تعني كلمة سومر بالأكادية (البلاد السيدة). وكانت مدينة أور Ur تبلغ مع ما يتبعها من قرى حوالي ٢٥ كم[٢]. وكانت لكل مدينة سومرية ضواح تضم البساتين وحقول النخيل والمراعي. وبعض المدن يبلغ عدد سكانها حوالي ٥٠ ألف نسمة، وكانت شوارع المدن ضيقة يقطعها الناس مشياً على الأقدام حفاة وبعضهم ركوباً على الحمير. إلا أن هناك الشارع الرئيس وهو شارع المعبد والقصر الملكي، فهو شارع واسع تقام فيه احتفالات الأعياد.

وكانت المدن البابلية ملكاً خاصاً للإله، والملك وكيله أمام الشعب، وكانت البيوت تبنى من اللبن إلا المعابد فهي مبنية من الآجر المشوي. وكانت واجهة قصر بابل مزينة بحيوانات أسطورية ملونة. وكان المنزل البابلي يتألف من باحة حولها تتوزع البيوت والمنافع، وهي تتفاوت في الكبر والصغر حسب الحالة المعاشية للسكان الذين كانوا ثلاث طبقات.

١ ــ العاميلوم Amilum أو الأحرار ومعظمهم من رجال الدين وكبار موظفي الدولة.

٢ ــ المشكينو Muskinu وهم أبناء الفقراء وأصحاب الحرف من فلاحين ومعلمين وأطباء ومهندسين وعمال بناء.

٣ ــ الواردوم Wardum طبقة العبيد الأجراء.

وكانت الأراضي المحيطة بالمدينة مقسمة إلى ثلاثة أقسام:

١ ــ أرض الرب، وهي تخص المعبد ولكن ملكيتها الفعلية للملك وكبار الكهنة، وكانت تعرف بـ(جاناني أنانا) أي جنة الآلهة أنانا. والعمل بها سخرة.

٢ ــ وأرض القوت (جانا كودا) وهي من نصيب الكهنة والنبلاء (العاميلوم) والعمل فيها مأجور.

٣ ــ أرض المحراث (جانا ــ آين ــ لا) وتعطى للفلاحين حسب نظام المقاسمة ويعمل فيها العبيد وأحياناً يأخذ القصر سبع المحصول.

اشتهرت بابل في العالم القديم بأسوارها الضخمة، والتي بقيت المثال المحتذى في بناء مدن المشرق لأكثر من أربعة آلاف عام. فللوصول إلى المدينة لا بد من اجتياز خندق واسع مملوء بالماء، يليه سور خارجي يدعى (نيمئي بعل) سمكه وسطياً ٣,٧٠م وكان بين كل ٢٠ م ينتصب برج بارز. ثم يأتي الفصل وهو ساحة لإيواء الحيوانات وعمل الحرفيين. ثم يأتي السور الداخلي (امكرر ــ بعل) أعلى من السور الأول وضعف سماكته ٧,٥٠م وأحياناً يبنى سور ثالث.

كان الخندق الخارجي في بابل يملأ بمياه من نهر الفرات، من قناة تدعى (بعل ــ هاغالا) ومعناها الخير العميم، بناها نبوخذنصر وقد قال عنها: «إن قناة بعل ــ هاغالا الواقعة شرقي بابل، كانت خراباً، وقد ملئ مجراها ببقايا أنقاض، وبحثت عن مجراها الأصلي، وبنيت لها من شاطئ الفرات مجرىً، وأوصلته إلى الشارع الرئيس (إيبور ــ شابو) ومعناه ــ أن لا يتضايق أبداً ــ وجعلت المجرى من الآجر المشوي والمطلي بالقار، ونصبت جسراً على القناة طوله ٢١م في اتجاه المجرى وعرضه ٩م، وجعلته معززاً بألواح من الخشب.»

وبالفعل عثر المنقبون في آثار بابل على سبعة دعائم معززة بالخشب تتطابق والوصف السابق، كما عثروا على قناة جر وإن بطول ٢٨٠ م وعرض ٢٢ م كانت تقطع مجرى نهر صغير عليه خمسة قناطر ذات أقواس، ومدعمة بأعمدة حائطية. أما زقورة بابل الشهيرة (برج بابل) فهي لا زالت مكونة من تل صناعي ملفح بالآجر مكونة من سبعة طبقات من اللبن يزيد ارتفاعها عن سبعين قدماً وأبعاد الطبقة الأولى ٢٠٠ ×١٥٠م، وعن هذه الزقورة يقول نبوخذ نصر: «وجلبت لها أحسن الخشب، خشب السدر الذي جلبته من غابات لبنان، لبناء سقفها المقدس (سقف أبكوا).» وكان أهل بابل يتصورون العالم سبعة طباق، يحيط به البحر المر (أي المحيط) مع ثمان جزر كريمة، وكانت بابل هي مركز الكون..

كان الباب الرئيسي لقدس الأقداس، يتكون من دهليز إلى جانبه غرفة تستخدم للحراسة، ويتلوه باب ثان لاستقبال الزائرين وإخضاعهم للتفتيش. وقد عثرت البعثة الألمانية في أسوار الرافقة بمدينة الرقة على باب مماثل لأسلوب هذا الباب عثر عليه العالم الأثري ميخائيل ماينكة عام ١٩٨٨م.

المدارس العامة في بابل:

كانت المدارس العامة شائعة في وادي الرافدين وتعرف المدرسة البابلية باسم (بيت الألواح) وفي كانت تعلم الكتابة على الطين الطري بأعواد القصب الحادة، وكانت العلامات المسمارية حوالي ٥٠٠ علامة، وكانت كافية لتعليم الرياضيات والأدب. وقد عثر على لوح تعليمي في مدينة نيبور: «أيها التلميذ، أين ذهبت في الصباح الباكر؟ لقد ذهبت إلى المدرسة. ماذا صنعت في المدرسة؟ سمَّعت لوحي وأكلت غداي وحضّرت لوحاً جديداً، وأنهيته

الظهر. وعيّن لي المعلم وظيفة جديدة ثم انصرفنا إلى البيت. وفي اليوم التالي: قلت لوالدي، ادعُ المعلم إلى بيتنا فدعاه وجاء، وأجلسوه في مكان الصدارة، وقدّم له والدي النبيذ وطعام الغذاء، وأعطاه هدية. وقبل أن يخرج المعلم قال: لا تهمل وصاياي. وأملي أن تصل إلى قمة فن الكتابة لكي تصبح رجل علم.» هذا اللوح نشره العالم إدوارد كيير عام ١٩٢٤ وترجمه إلى الإنكليزية العالم فكشتاين عام ١٩٤٧. وهذا لوح ترجمه العالم الأثري طه باقر جاء فيه: «تطلعت إلى النجوم في الشرق، ورفعت عيني وتطلعت إلى النجوم في الغرب، وحدقت بالطالع السعيد المرموق في السماء، وعرفت علامات النذر في السماء، رأيت سأنفذ النواميس الإلهية بعد دراسة إرادات الآلهة.» وجاء في لوح آخر: «ذكر لكلمة الإنسانية (ناملولو) إذا كنت لم تذهب إلى مكان، فلماذا تتكاسل؟ يا بني، اذهب إلى المدرسة ولا تتسكع في الشوارع، ودع أخاك الكبير يكتب لك لوحاً جديداً، إن كل المخلوقات التي خلقها الإله آنكي لم يخلق فناً أصعب من الكتابة، وحسب القدر الذي سنّه إنليل للإنسان، أن يتبع الابن عمل أبيه.» ويختم الأب قوله: «بالليل والنهار أتعذب بسببك، ولك جمعت الثروة ولكنك أصبحت سميناً، وقريبك ينتظر سوء طالعك، وسيفرح لأنك لم تنظر إلى إنسانيتك.» إن كلمة إنسانية من مفردات اللغة السومرية، (ناملولو). كان بجانب كل معبد مدرسة لتخريج طبقة من المتعلمين الكهنة أو من أصحاب العلوم الدنيوية الذين يلبّون حاجة المجتمع.

لقد كانت للكتابة مكانة مرموقة في حضارة وادي الرافدين، ولم يكن بوسع الحكام والكهنة الاستغناء عن خدمات الكتاب الذين كانت وظائفهم تتسم بطابع علماني، ولم تكن مرتبطة بنشاط الكهنة كما هو الحال في مصر الفرعونية. وكان كاتب المعبد في المقام الأول موظفاً مهمته لا تقتصر على

ممارسة الأعمال الكتابية، بل كان عليه أن ينجز العمليات المالية والتجارية للمعبد، فكان يجمع إيجارات الحقول والبيوت الوقفية ويسلم المواد الغذائية كقرابين غير ذبيحة..

تدريس مادتي الحساب والفلك:

قام المؤرخ الفرنسي تورو ــ دانجان، بدراسة الرقم الرياضية، ونشر أبحاثه في عدة أجزاء، بيّن فيها أن البابليين استخدموا النظام العشري والنظام الستيني معاً، وكانت الرياضيات تقوم على نظام المعاملات التجارية.

أما في علوم التنجيم والفلك، فكانوا يعتمدون على رصد الكواكب رصداً مباشراً لتحديد أيام الأعياد وفصول السنة وبداية الأشهر القمرية، وكانوا يستخدمون المزولة الشمسية، والإسطرلاب، وقسموا سمت الشمس إلى قطاعات دائرية، وجعلوا اليوم ٢٤ ساعة وظهرت منطقة البروج التي تعطي كل علامة جزءاً من اثني عشر جزء من الدائرة الكاملة التي هي ٣٦٠ درجة والجزء هو ٣٠ درجة. كان السومريون قد رمزوا للمثلث برأس مسمار، كما رمزوا لمتوازي الأضلاع برأس ثور، وحلّوا المعادلات الجبرية من الدرجة الثانية، وقد وردت عندهم المسألة التالية: ما هي أبعاد المستطيل التالية: إذا ضربت الطول بالعرض حصلت على المساحة، وإذا جمعت الطول والعرض والمساحة كان الناتج الكلي للأبعاد الثلاثة هي تسعة. فما هي أبعاد المستطيل؟

وتسهيلاً لعمليات الحساب، نظموا العديد من الجداول التي تحتوي على الخطوات اللازمة للعمليات الحسابيّة المختلفة، وكانت الجداول ضرورية للقياس والكيل والوزن، وكانت تقاس بالإصبع والذراع، وتعتمد على التجربة

أكثر مما هي نظرية، ولكنها كانت أساس علم الرياضيات عند الآشوريين والفرس الذين أتقنوا حل مشاكل المسح ورسم المخططات.

كان البابليون يرسمون مخططات مدنهم المساحية بدقة متناهية، وكانوا يرسمون حدود الحقوق ويضعونها في المعابد، ويرسمون خرائط للبلاد والطرق ويزودون بها التجار والسواح.

وفي مجال التاريخ والأدب نقل لنا الكاهن البابلي بيروسوس (برعوث) عام ٢٦٥ق.م ما وصل إليه من علوم البابليين مدوناً على الرقم الطينية كتبها باللغة البابلية، ومن تلك النصوص الأدبية قصة الرجل الصالح المعذب وهي قصة إنسان نزل إلى القبر، ثم عرجت روحه إلى السماء، ثم عاد إلى الحياة ثانية وأخبر عما صادفه في السماء وما مر به أثناء عروجه إلى سدرة المنتهى (المكان المقدس)، وقد مر بسبعة أبواب:

١ ــ باب الكوثر، وفيه وصف للجنة.

٢ ــ باب الملائكة أو الجن الصالحين.

٣ ــ باب السلام.

٤ ــ باب الشمس.

٥ ــ باب الوحي.

٦ ــ باب المطهّر (البرزخ بين السماء وجهنم).

٧ ــ باب اللعنات (باب جهنم).

وبعد مروره بهذه الأبواب وصل مجمع الآلهة (أي عرش مردوك) وقدّم للإله الأكبر تضرعه. هذه الرحلة الخيالية هي التي عرفت في الإسلام بقصة المعراج.

شريعة حمورابي في بابل:

اكتشف علماء الآثار في بلدة سوزا في بلاد فارس حجراً أسود لماعاً مكتوب عليه شريعة تعود إلى الملك العظيم حمورابي، وقد نقل الحجر من بلدة سيبار، وقد نقشت على الحجر ثمانية آلاف كلمة، في ٢٨٥ مادة قانونية. وهذه الشريعة هي اختصار لثلاثة شرائع قبلها، وما هو جديد في تلك الشريعة أن الدولة هي الداعمة للشريعة، وأن الملك ممثل للإله مردوخ. عكست هذه الشريعة القوانين التي تنظم الحياة الاجتماعية والاقتصادية.

كان التشريع في بابل بيد الكهنة (الباتيسي) وصار رجال الدولة يراقبون الناس بواسطة هذه القوانين. وأساس هذه الشريعة المعاملة بالمثل، العين بالعين والسن بالسن، وكان العقاب بالجروح والجلد وأحياناً الموت غرقاً في نهر الفرات. وكان الزواج والطلاق ينظم بواسطة عقود موثّقة من قبل الكاتب بالعدل.

نالت المرأة الحرة مكاناً مرموقاً في شريعة المجتمع، وكانت تميز المرأة الحرة عن المرأة الأمة بلبس الحجاب، فالأمة إن وجدت واضعة للحجاب على رأسها ينزع عنها، ويشهّر بها، وإذا زنت المرأة الحرة المتزوجة داخل أسوار المدينة ترمى في النهر وهي مقيدة اليدين، أما إذا زنت خارج المدينة فإن غريمها هو الذي يرمى بالماء وهو مقيد اليدين.

تضمنت الشريعة أجور العمل ومقاسمة المواسم، وأجرة الطبيب والمهندس ومعاقبة من يسيء استخدام مهنته.

كانت التجارة (تامكارو) تلعب دوراً بارزاً في الاقتصاد البابلي المتطور، وكانت الدولة تدعم التجار وتأخذ نصيباً من أرباحهم، وقد أمنت

الدولة طرق التجارة الخارجية، وصارت قوافل الحمير تسير آمنة من بابل إلى مصر أو إلى آسيا الصغرى، وكذلك التجارة البحرية في الخليج، وإذا أسر تاجر في بلد بعيد، فإن ممثل القصر يدفع عنه الفدية ويفك أسره.

كان الترجار يرسلون قوافلهم مع ممثلين معنهم (شامالوم) وله الحق في عقد الصفقات التجارية وكيلاً عن التاجر المقيم في بابل. جاء في إحدى الرسائل: «كلف التاجر بيلاتوم ممثله المدعو آخوني لشراء مصراعي باب من خشب الأرز (من سورية) وبعد إنجاز مهمته عليه أن يعود وأن يقابل سيده.» وفي رسالة أخرى: «كلف التاجر بيلاتوم وكيله أن يشتري له خمراً جيداً من سورية.»

كانت النسوة يمارسن الأعمال التجارية، ومنهن بعض الكاهنات (ناديتو) في مدينة سيبار ، كن يعقدن الصفقات الخاصة بهن ويشترين البيوت والحدائق ويقرضن الفضة، ويرسلن ممثلين عنهن إلى البلاد النائية. وكانت التجارة مع المدن السورية وبلاد ما بين النهرية رائجة، والنقل يتم في البر والنهر. كان التاجر في الكنعانية يدعى Makkaru بمعنى البائع، أما في الآرامية أصبح البائع والمشتري Taggara.

كانت الزراعة تلعب الدور الرئيس في الاقتصاد البابلي، وتشكل الأساس في حياة المجتمع، لأن الأمطار كانت قليلة فقد اعتمد على الري الصناعي، بناء السدود وحفر الأقنية. وهذا أدى إلى قيام حكومة مركزية قوية كما حال الزراعة في أيام حمورابي الذي كان يفتخر بأنه وفر مياه الري الغزيرة لسكان بلاده. ومن ألقابه فلاح بابل وساقي الحقول. كتب حمورابي رسالة إلى حاكم مدينة لارسا (جنوب بابل): «حالما تنتهي من كري الأنهار وتطهيرها من الرواسب، طهّر فرع الفرات الآتي من لارسا إلى أور من

الأوحال». لأن تطهير النهر يقوم على عاتق الدولة بينما تطهير القنوات داخل الحقول تقع المسؤولية فيه على عاتق الفلاحين.

جاء في المادة ٥٣ من شريعة حمورابي: «من أهمل صيانة حقله، ومن لم يقم بتقوية سدّه، وحدثت فيه فجوة أو بثق أدى إلى تسريب المياه، وتسبب بإحداث أضرار للحقول الأخرى، ينبغي عليه أن يعوض ما تسبب من خسائر.» كما جاء في المادة ٦٤ من الشريعة: «وإذا لم يستطع أن يعوض ما تسبب به من خسائر للغلال، فسيباع هو وممتلكاته بالنقد ليعوض بهما ما أصاب الحقول من أضرار.»

كيف كانت ملكية الأرض الزراعية؟

كانت الأراضي للدولة تؤجرها حسب نظام الخراج. جاء في المادة ٤٢ من شريعة حمورابي: «إذا استأجر شخص أرضاً لزراعتها، ولم تعط محصولاً بسبب عدم قيامه بالأعمال المطلوبة، فإنه يدان، وعليه أن يدفع ما يعادل كمية المحصول الذي أنتجه جاره.» فإن الإيجار بالمثل كان سائداً منذ الألف الرابع قبل الميلاد.

كانت الخبرة الزراعية متطورة، حيث كان الفلاح يتبع الدورة الزراعية ويترك الأرض المزروعة تستريح ثلاثة مواسم، كي لا تضعف الأرض، وكانت الأرض إذا زادت ملوحتها يقوم الفلاح ببزل المياه الزائدة، وغسل الأرض، وكانت أدوات الحراثة بدائية، المحراث الخشبي الذي تجره الثيران. وكان موعد زراعة الحنطة والشعير يبدأ في تشرين الثاني. والحصاد يبدأ في أوائل أيار، أما زراعة الخضراوات تبدأ في أواخر الربيع وأوائل الصيف. وكانت الأشجار المثمرة كالنخيل، الشجرة الرئيسة في بلاد ما بين النهرين والزيتون والكرمة والتين في سورية، من حدود ماري باتجاه الغرب، وهناك

الأشجار المثمرة الأخرى كالرمان والمشمش. وهناك زراعة الحدائق والزهور والأعشاب التي تستخدم في الأودية إلى جانب زراعة القطن والكتان في بداية شهر نيسان. وكان الفلاح البابلي يعيش في اقتصاد متنوع (زراعة وتربية المواشي والدواجن) وهناك حرفة الصيد (صيد السمك والصيد البري). وكانت هناك تربية النحل الذي يكثر في ماري والمدن السورية الأخرى. وكان الفلاح البابلي يحسن تربية الخيول والحمير والبغال. وكان الحمار البابلي ذا عظام قوية ويستخدم في القوافل البعيدة التي تصل إلى حدود أفغانستان.

وكانت الخيول البابلية تهدى إلى فراعنة مصر. جاء في أحد الرقم عن تربية الحصار: «دعه يجري منطلقاً، ثم أدخله النهر واغسله بالماء ودعه ينتفض، وإذا جلبته إلى البيت دلّكه جيداً بالزيت ثم دعه يستريح وقدم له العلف من الحبوب والعشب.» وينصحه بمعالجة القروح بالقطران.

الأعياد السومرية والبابلية:

كان السومريون ومن بعدهم البابليين، يستخدمون التوقيت الشمسي، وتبدأ أعيادهم في فصل الربيع في شهر نيسان. وكان اليوم يسمى عند السومريين (أود) وعند الأكاديين والبابليين يسمى (يومو) والشهر يدعى عند الأكاديين (ورخو) وعند الآراميين (شهرو) وكانت السنة تبدأ في اليوم الأول من شهر نيسان، وهذا يحدد من قبل الملك في احتفال مهيب. وكان الاعتقاد السائد أنه إذا لم يحتفل بهذا العيد، اليوم الأول من نيسان (عيد الأكيتو)، فقد تحتل البلاد أو يموت الملك، وتجري الاحتفالات في شهر نيسان في كافة مدن المملكة.

متى وكيف تبدأ الاحتفالات بالأعياد؟

تبدأ منذ بداية شهر نيسان وتستمر حتى اليوم الحادي عشر فيه.

١- الاحتفال بعيد رأس السنة (عيد الأكيتو): يعلن الملك براءته من أعماله التعيسة والمصائب التي أحدثها، ويقف وسط المعبد، ويتلقى صفعة على خده من رئيس الكهنة، مع جره من أذنيه، ويأمره الكاهن الأكبر بتأدية كل الواجبات الدينية والطقوس تجاه مردوخ إله بابل، وتحرق كل الدمى التي تمثل الشر، وتقدم عاهرات المعبد نفوسهن للغرباء تكريماً للآلهة عشتار التي تبتهج بقيام حبيبها دوموزي من بين الأموات.

ويستغل التجار هذا اليوم ويعرضون بضائعهم حول جدران المعبد وفي الشارع العريض، وتباع الدمى والحلويات بكثرة.

٢ – عيد الثاني من نيسان:

ينهض الكاهن الأكبر قبل الفجر بساعتين، ويغتسل بماء الفرات الجاري ثم يدخل قدس الأقداس، وعليه ثوباً من الكتان الأبيض، ويتلو الصلوات السرية، ثم يفتح باب المحراب ويدخل بقية الكهنة، ثم تصدح الموسيقى (الدفوف والمزامير) وترتل الأغاني والأدعية، ويرد الجميع المزمور التالي:
أيها الرب العظيم، تطلع إليّ وتقبل تنهداتي، واغفر آثامي. (تردد سبع مرات).

أيها الرب العظيم، اغفر خطاياي وسأتضع أمامك، ليهدأ قلبك كقلب الأم التي رزقت بمولود، وليهدأ قلبك كقلب أم رزقت بطفل، وقلب أب رزق بمولود.

٣ – عيد الثالث من نيسان:

تتلى الصلوات المخصصة أمام تمثالين خشبيين مجللين بالملابس الحمراء، وبالذهب والأحجار الكريمة، التمثال الأول على شكل ثعبان، والثاني على شكل عقرب وكلاهما مقيدان بحبل من ليف.

٤ - عيد الرابع من نيسان:

تبدأ الصلوات في هذا اليوم قبل طلوع الشمس، ويبارك كبير الكهنة الجموع الحاضرة من علية القوم، وفي المساء يقدم عشاء رباني، ويتلو الكهنة مقاطع من ملحمة الخلق، ثم يزاح الستار عن تمثال الإله آنو والإلهة إنليل، مع القيام ببعض الحركات الخاصة.

٥ - عيد الخامس من نيسان:

ينظف الكهنة المعبد، ويقدمون كبشاً كقربان، وتلطخ جدران المعبد بالدم، والجموع الحاضرة تنظر دون حراك، ثم يتركون المعبد ويذهبون بعد الظهر إلى السهول المحيطة بالمدينة ويقضون اليوم يأكلون ويشربون تحت أشجار النخيل الوارفة، وعند الغروب يعودون إلى داخل المدينة، ويتجمعون حول المعبد ويشاركون في تلاوة الفروض والصلوات ويقدمون البخور، ويطهر الهيكل، ويرمى الكبش المذبوح في النهر، ولا يحضر كبير الكهنة رمي القربان، وينوب عنه بعضهم، وتحضر مأدبة على شاطئ القناة، بانتظار وصول تمثال الإله نابو من بورسيبا إلى بابل في مركبة فخمة، وهنا ينحر ثور أبيض، وتحرق أحشاؤه على حافة جورة في فناء الهيكل.

٦ - عيد السادس من نيسان:

يخرج أهل المدينة إلى الريف يأكلون ويشربون ويرقصون ويغنون ويتصدقون على الفقراء.

٧ - عيد السابع من نيسان:

تطوف في المدينة مواكب احتفالية (كرنفالات) تتمثل عودة دوموزي إلى الحياة ويقطع رأس التمثالين (الأفعى والعقرب) ويرميان في إحدى مجامر الهيكل، وينزع الكاهن الأكبر تاج الملك ويضعه أمام تمثال الإله آنو ثم أمام

الإله مردوخ، ثم يصفع الملك على خده ويركع أمام تمثال الإله مردوخ قائلاً: (يا إلهي لم أخطئ تجاه الآلهة، ولم أنس طقوس عبادتك) ويقوم ويضع الكاهن الأكبر التاج الملكي على رأسه، وتهلل الجماهير وتنهمر دموع الملك من الفرح أو من خشية الإله مردوخ.

٨ – عيد الثامن من نيسان:

يدخل تمثال الإله مردوخ إلى المدينة في احتفال مهيب، وتخرج عربات مزينة وعليها فتيات حسان، وتتجه نحو قناة الإله آرتو شرقي مدينة بابل (وتدعى قناة بعل ـ هاغالا) عن طريق الباب المقدس (الإيساجيل) وحينما يصل التمثال إلى جادة (إيبور ـ شابو) التي معناها (فليحمنا الإله من الهزيمة) ثم تتجه العربات نحو البرج ذي الطوابق (الزقورة). وعند الدخول من بوابة عشتار باتجاه قناة (بعل ـ هاغالا) على نهر الفرات، يخرجون نحو بيت الأكيتو (بيت الصلاة) ويظلون على شاطئ النهر يرتمون (يغطسون) بالماء الجاري حتى اليوم الحادي عشر.

عيد الحادي عشر من نيسان:

يوم الرجوع إلى بابل، في المساء، يعودون على ضوء المشاعل والشموع وهو يوم عودة تماثيل الآلهة إلى البلدان التي جاءت منها. ويمثلون عيد زواج الإله مردوخ، حيث تنام في غرفته (قدس الأقداس) فتاة عذراء جميلة تمثل زوجة الإله مردوخ.

وتنتهي أعياد السنة بانتظار العام القادم، علماً أن شهر نيسان لا يتطابق مع شهر نيسان الحالي بل يتأخر عنه بثلاثة عشر يوماً.

كانت العائلة تلبس الجديد في الأعياد، وكان لباس الرجال يختلف عن لباس النساء، وكان لباس المرأة يتألف من ثوب داخلي وفوقه تلبس المرأة

ثوب الحشمة (الجلباب)، ويمكن تزيينه بالتطريز الملون، ثم تلبس المرأة السراويل الطويلة كاللباس الهندي والفارسي. أما ألبسة الملوك والكهان والحكام فهي مزينة بشكل مفرط لافت للنظر. وكانوا يضعون وشاحاً فوق الكتفين وفوق الصدر، وقد ثبت بالدبابيس في طياته.

الوضع الاجتماعي للمرأة في وادي الرافدين:

اخترت الكتابة عن أوضاع المرأة الرافدية وأحوالها الشخصية كمقياس لتقدم المجتمع، ولكي أعكس التحولات الاجتماعية والثقافية. كتبت عن تاريخ المرأة في فترات متباعدة، وسأختار المحاور التالية:

١ ـ المحور الأول: الزواج والطلاق:

كان المجتمع الرافدي في جميع عصوره، مجتمعاً ذكورياً، والنسب فيه للأب Partrirchal وكانت الأسرة قائمة على أساس الزوجة الواحدة Monogamy. وكان المجتمع يطلب من الزوجة أن تصون عفتها، وأن لا تعرض نفسها للزنا.

كانت الفتاة الرافدية لا تتزوج إلا برضى وليها. وعلى الزوج أن يدفع لها المهر المتفق عليه ترخاتو Terhatu، وعلى العريس أن يقيم حفلة زفاف ويقدم الهدايا للزوجة. وكان عقد الزواج يوثق من قبل الكاهن الذي يأخذ خمس شقلات فضة، وكاتب العقد يأخذ شيقلاً واحداً، ويسكب الزوج الزيت المعطر على رأس العروس ويدعو الكاهن للزوجين وتقول العروس: «تعال يا جلجامش، وكن عريساً لي، وامنحني ثمرتك، فتكون أنت زوجاً لي، وأنا زوجة لك.» وبذلك يتم عقد الزواج. كان هذا العقد في المرحلة السومرية والأكادية، وكان المثل الشائع عندهم: «أنا لا أختار فتاة عمرها ثلاث سنوات

كما يفعل الحمار.» أي أنه يختار الفتاة في الثامنة عشرة من عمرها لتعين الزوج بأعمال البيت والحقل معاً. ومن أمثالهم: «هنيئاً لرجل لا يعيل زوجة ولا طفلاً، ويعيش حراً بلا قيود.» لأن المرأة كانت منتجة، لذا كانوا يقولون عنها: ماذا جلب الزوج؟ وماذا خسر الأب؟ وإذا لم تكن المرأة ذات صفات حميدة يقولون: رغب فتزوج، ولما فكر طلق! وكان للبنت حق رفض العريس إذا لم تكن تحبه أو كان غير كفء لها.

وكانت المرأة البابلية تمتهن الكتابة ولها حق فتح متجر أو حانة، أو العمل في ورشات غزل الصوف ونسجه. وفي العهد الآشوري وصلت بعض النسوة إلى منصب حاكم مقاطعة Sakintu أو منصب إشراف على السوق أو القرى أو وظيفة محتسب Amminae. ومن النساء من كن وصائف في القصر. ومن جهة ثانية، خسرت المرأة حريتها، فلم يعد لها حق الخروج من بيت زوجها حاسرة الرأس- أو تخرج من بيتها دون إذنه. جاء ذلك في المادة ٤٠ من الشريعة الآشورية. سبب هذا الانحطاط في المنزلة الاجتماعية عندما زاد الاختلاط بين الأقوام الغريبة نتيجة السبي ونقل الأقوام من بلد إلى بلد آخر. وعندما صار التاجر يبتعد عن منزله في التجارة أو وفي الحرب ويترك زوجته وأولاده في بيت والده أو أخيه. من هنا صار للزوج المغترب حق الزواج الثاني (زواج المتعة) ويحق له تطليق زوجته والعودة إلى بلده. عثر في كبادوكيا على رقم طيني يحلل زواج المتعة مراعياً الحاجات الإنسانية، كي لا يقع الرجل في الزنا الذي تحرمه القوانين الآشورية. وقد تدنت منزلة المرأة، فجاء في أمثالهم: «ليت الآلهة مسختك امرأة.». كانت شريعة أوركاجينا (٢٣٧٨ ــ ٢٣٧١ق.م) في العهد السومري تحض على الزواج الأحادي وتحرم الزواج بأكثر من امرأة. وترجم الزوجة التي يثبت أنها

متزوجة بأكثر من رجل في وقت واحد. وكان البغاء من القيم والصفات المرذولة. ولكن المومس إذا تابت توبة نصوح يحق لها الزواج. عثر على رقم طيني في مدينة نوزي: «أن رجلاً تزوج من مومس (حريمتو) ودفع لها مهراً يعادل ٤٠ ساقلاً من الفضة»، وهذا يعادل مهر فتاة محترمة في بابل.

كان الطلاق شائعاً في وادي الرافدين. والطلاق هو تنازل الرجل عن حقوقه الزوجية ومفارقته لزوجته. وقد منح المشرّع حق الطلاق للزوج ولكن بشرط أن يكفل عيشة مطلقته وأولادها. تنص المادة ١٣٧ من شريعة حمورابي: «إذا قرر الرجل أن يطلق زوجته من صنف شوكيتوم (أي أمة أو جارية) وقد ولدت له أولاداً، عليه أن يطلق زوجته الكاهنة (ناديتوم) التي زودته بتلك الأمة، وعليه أن يعيد لها بائنتها بأن يعطيها نصف محصول الحقل أو المزرعة أو الأموال المنقولة، وعليه تربية أولادها. وبعد تربيتها لأولادها عليهم أن يعطوها حصة وريث واحد من كل شيء أعطوه لأولادها.وبعدها عليها أن تأخذ الزوج الذي ترتضيه.» وكان هذا الحق محرماً في العهد السومري، الذي كان يتشدد في أمر الطلاق. أما في العصر الآشوري، فقد أصبح للرجل الحق في طلاق زوجته لأتفه الأسباب، وذلك لانحطاط المرأة.

٢ ـ المحور الثاني: زواج المحارم:

هناك خلاف في نظم الزواج بين المجتمعين المصري والرافدي. حيث أجاز المجتمع المصري (الفرعوني) زواج المحارم بينما ذلك محرم في وادي الرافدين. جاء في شريعة حمورابي المادة ١٥٤: «إذا جامع رجل ابنته فعليهم أن يطردوا ذلك الرجل من المدينة.» كما حرمت شريعة حمورابي زواج

الحمو من زوجة ابنه الحقيقي أو المتبنى. جاء في المادة ١٥٥ من شريعة حمورابي: «إذا اختار رجل عروسة لابنه، وضاجعها ابنه، وقبضوا بعد ذلك على الأب وهو نائم في حضن زوجة ابنه، فعليهم أن يوثقوا هذا الرجل ويرموه في الماء ليموت.»

كما حرمت شرائع وادي الرافدين اتصال الابن جنسياً بوالدته، المادتان ١٥٧ و١٥٨: «إذا نام رجل بعد وفاة والده في حضن أمه (أي ضاجعها) فعليهم أن يحرقوا كليهما. أما إذا قبض على رجل بعد وفاة والده في حضن زوجة أبيه (مربيته) التي ولدت أولاداً لأبيه، فيجب طرد هذا الرجل من بيت أبيه.»

ولكن الأقوام الرافدية في العهد الآشوري، مارسوا زواج الضيزن، أي زواج الابن من زوجة أبيه، وعنهم نقل العبريون هذه العادة بعد سبي بابل، أو ربما قبل ذلك. أخذوا هذه العادة من الفراعنة. جاء في العهد القديم في سفر صموئيل الثاني ١٦: ٢٠ ــ ٢٣ «قصة زواج أبشالوم من إحدى سراري والده الملك داود، قال أبشالوم لأخيتوفل: أعطوني مشورة ماذا أفعل؟ قال: ادخل في سراري أبيك، فتشد أيدي الذين معك. فنصبوا لأبشالوم الخيمة على السطح، ودخل أبشالوم إلى سراري أبيه أمام جميع إسرائيل، وكانت مشورة أخيتوفل التي كان قد أشار بها في تلك الأيام، كمن يسأل بكلام الله.»

وهناك قصة أدونيا مع أبشيع زوجة أبيه الملك داود، الملوك الأول، الإصحاح الثاني ١٢ ــ ٢٥: «جلس سليمان على كرسي داود أبيه، وثبت ملكه، ثم جاء أدونيا بن حجيث إلى أم سليمان: قالت: للسلام جئت! نعم ولكن لي معك كلمة! فقالت: تكلم! فقال: أنت تعلمين أن الملك كان لي وقد جعل جميع إسرائيل وجوههم نحوي لأملك، ولكن الملك صار لأخي، فولي سليمان

وأنا أطلب أن يعطيني أبشيع زوجة، فدخلت على سليمان لتكلمه عن طلب أدونيا، فقام لها سليمان، وجلست على يمينه، وقالت: لا تردني. فقال لها: اسألي لأني لا أردك، فقالت: لتعطي لأدونيا أخيك أبشيع امرأة أبيك داود.»

وعن اليهود انتقل إلى عرب الجاهلية زواج الضيزن، ولكن الإسلام حرّم هذا الزواج، قال تعالى: «ولا تنكحوا ما نكح أباؤكم من النساء إلا ما قد سلف، إنه كان فاحشة، وساء سبيلا» سورة النساء: ٢٢. وقد جاء في تفسير هذه الآية: نهى الإسلام عما كانت عليه الجاهلية من نكاح الأبناء نساء آبائهم إذا ماتوا، إلا ما قد سلف، قبل نزول هذه الآية المدنية، وكانت في الجاهلية تدعى زواج المقت أي ستزوج الرجل زوجة أبيه إذا مات عنها.

٣ ـ المحور الثالث: تحريم الزنا وتحليل البغاء المقدس:

جاء في مقدمة شريعة جمورابي، أن القوانين وجدت لتوطيد العدل في البلاد، وتقضي على الشر والخبائث، وتمنع القوي من استعباد الضعيف، وقد نالت الأسرة الاهتمام في ظل قوانينه. جاء في المادة ١٣٠: «إذا باغت رجل زوجة رجل آخر وضاجعها عنوة، وقبض عليه، فإن هذا الرجل يقتل، ويخلى سبيل المرأة المغتصبة، وإذا زنت امرأة برضاها في خارج أسوار المدينة، وادعت أن الرجل اغتصبها، فإن الرجل يقتل» أما إذا جرى فعل الزنا في المدينة، كما جاء في المادة ١٢٩: «إذا ضبطت زوجة رجل مع رجل آخر، فعليهم أن يربطوهما معاً ويرموهما في الماء، وإذا رغب الرجل في الصفح عن زوجته، فللملك الحق في الصفح عن الرجل المتهم.»

ولكن الزنا كثر في العهد الآشوري وأصبحت بابل مدينة البغايا نتيجة السبي وكثرة الاختلاط، ووجود جاليات تجارية من كل المدن في العالم القديم.

وأصبح البغاء ظاهرة اجتماعية، وأصبح البغاء مهنة وصارت البغي تدعى Kar – Kid تملك داراً خاصة Gagu بيتاً تمارس فيه الدعارة تحت رعاية الدولة، ولهن رجلاً خاصاً يجبي الضريبة.

ألم يكن البغاء مسموحاً به قبل المرحلة الآشورية؟

نعم. كان المجتمع السومري والأكادي لكي لا تخسر العائلة ممتلكاتها، كانت تشجع الفتيات على الرهبنة، وصارت هناك نوعان من الرهبنة:

ـــ الراهبة المنذورة للمعبد Antu وكان عليها أن تبقى عفيفة مدى العمر ولا تمارس أي علاقة جنسية، وتسكن في المعبد.

والراهبة التي تمارس البغاء المقدس وتدعى Naditu وكان لها الحق في العمل، بإدارة حانة، وتقدم هذه المرأة نفسها للغريب لقاء المال، وتدفع جزءاً منه للمعبد لقاء رعايتها والسكن في البيوت المحيطة بالمعبد. وصارت هذه المهنة متوارثة في المجتمع السومري والأكادي. وشمل هذا العهر الرجال المخنثين. ولكن في المجتمع البابلي اختفت، في عهد حمورابي. ثم ظهر في العهد الآشوري وصار الكاهن أو الكاهنة المنذورة للإله، تتقمص خصائصه، وأصبح الاتصال بهؤلاء الكهنة أو الكاهنات ضرورياً لإيجاد السعادة واستمرار الخصب في ذلك المجتمع، وأصبحت البغي هي الستر للمرأة الحرة.

كانت الراهبة (الناديتو) تمارس الجنس، ولا يمكنها رفض طلب الزبون الذي يقدم لها قطعة فضة، وإن ذلك العطاء يعتبر من النذور المقدسة. وفي ملحمة جلجامش ذكرت البغي المقدسة: «يقول القواد للبغي، عندما رأى أنكيدو مقبلاً نحو مورد الماء العذب: هذا هو أيتها البغي (شمخة) إنه أنكيدو مقبل فاكشفي عن نهديك، و اكشفي عن سوءتك، وإن أراد مفاتن جسمك لا تحجمي

بل راوديه وابعثي الهيام فيه، فإنه متى رآك انجذب إليك، ثم انفضي ثيابك عنك ليقع عليك ويضاجعك ويرتوي منك وداً.»

وعندما احتضر أنكيدو تذكر وهو على فراش الموت تلك الرغبة الآثمة، فأخذ يكيل اللعنات والسباب على البغي شمخة، التي زينت له المجيء إلى أوروك (الورقاء) فقال لها مناجياً في خياله: «تعالي أيتها البغي، إن مصيرك لن ينتهي إلى الأبد، سأنزل بك لعنة كبرى، أقسم لك أنه ستحل بك لعنات الإله في الحال. ليكن أكلك من فضلات المدينة، وستكون زوايا الدروب المظلمة مأواك، وفي ظل الجدران سيكون وقوفك وسيلطم السكران والصاحي خدك، وسينبذك عشاقك، بعد أن يقضوا وطرهم من سحر جمالك، سيحبك الملوك والأمران وسيهيمون بك وسيحل الشباب أحزمتهم من أجلك وسيقدمون لك المال والمجوهرات، ولكن عسى العقاب يحل بكل من يهينك، سيكون بيته خرباً، وسيقودك الكاهن إلى حضرة الإله، ومن أجلك ستهجر الزوجة، ولو كانت أم لسبعة أطفال.»

لقد كان وصف أنكيدو للمومس (البغي) وصفاً حياً، تراه الأجيال في كل المدن العامرة، وفي كل المجتمعات المتحضرة، وإن صورة البغي الواقفة بجانب الجدران تنتظر (الزبون) إنه شيء مألوف في أعظم مدن العالم، تراه في شارع الكريستوفر في مدينة نيويورك وفي أعظم شوارع باريس في الشانزليزيه.

إذا كانت البغي شمخة التي صادفت أنكيدو جسداً ثائراً، فإن البغي سدوري التي صادفت جلجامش كانت فتاة مثقفة، استطاعت بلباقتها إقناع جلجامش وصده عن طلب الخلود، مفضلاً متع الحياة، قالت له: «إلى أين تسعى يا جلجامش؟ إن الحياة التي تبغيها ــ حياة الخلود ــ لن تجدها، لأن

الآلهة حينما خلقت البشر، قدرت الموت عليهم، استأثرت هي بالخلود، أما أنت يا جلجامش، فعليك أن تكون مبتهجاً نهاراً ومساء، أقم الأفراح في كل يوم من أيامك، ارقص والعب، واجعل ثيابك نظيفة زاهية، واغسل رأسك واستحم بالماء، ودلل الصغير الذي يمسك بيديك، وفرّح الزوجة التي بين أحضانك وهذا هو نصيب البشر.»

هذه الفلسفة التي كان وليم باتر يرددها في المجتمع اللندني في أواخر القرن التاسع عشر وهي ذات الفلسفة التي جسدها أوسكار وايلد في مسرحياته وأدبه.

أما الكاهنة العفيفة (الآنتو) فكان عليها أن تصون نفسها وعفتها، بأن لا تجلس في خمارة، وتحفظ نفسها للإله المنذورة له. ذكر المؤرخ اليوناني هيرودوت (٤٨٠ ــ ٤٢٥ق.م) ما رآه في بابل: كان في أعلى برج بابل، غرفة فيها سرير واسع مزخرف، على مصطبة مذهبة، وفي تلك الغرفة (قدس الأقداس) لا يوجد تمثال للإله، وتركن فيه فتاة بابلية جميلة، اختارها كبير الكهنة للإله، حيث كان يأتي إلى المعبد ليلاً، ويستريح معها في هذا السرير.»

أظن أن هيرودوت كان صادقاً في وصفه، فقد جاء في رقم طيني يعود إلى زمن الملك الكلداني نبونيدس (٥٥٥ ــ ٥٣٩ق.م) يذكر فيه الدافع من أجل تقديم ابنته نانا إلى معبد الإله لتكون كاهنة (آنتو) من أجل طقوس العرافة، يقول الملك نبونيدس: «إني نصبتها عرافة وجلبتها إلى الأجبار في محل إقامتها في معبد الإله في أور.» إذا كانت الراهبة (الآنتو) لا يحق لها الزواج، فإن الراهبة (ناديتو) يحق لها الزواج دون أن تنجب أطفالاً، لكي لا يختلط نسل البشر، وتعيش في الدير تمارس البغاء المقدس، مقدمة النذور

والعطايا pigittu، وفي العهد الآشوري المتأخر صارت البغي تسكن في بيت لها تخصصه للدعارة Gagu التي أصبحت حرفة وعملاً من أجل الارتزاق، من أجل هذا دعيت بابل بالمدينة الفاجرة في التوراة.

نماذج من النساء الرافديات

الملكة السومرية شبعاد

اكتشف السير ليونارد وولي عام ١٩٢٨ في مدينة أور في منطقة المقابر، جنوب زقورة ننارتا ما يقارب ألفي قبر يعود بعضها إلى العصر الأكادي (٢٣٧١ ــ ٢٣٣٠ق.م) والقسم الآخر يعود إلى عهد أقدم إلى عصر فجر السلالات السومرية (٢٧٠٠ ــ ٢٣٧٠ق.م) ولغنى هذه المقابر بالحلي الذهبية افترض السير وولي أنها كانت مقابر ملكية، وكان قسماً من هياكلها العظمية يعود لنسوة يرتدين الملابس الحمراء، يتزيّن بالحلي الذهبي والأحجار الكريمة، وكان بجانب بعضهن قيثارات ذهبية، أما هياكل الرجال فكانوا ملسحين، وإلى جانب بعضهم عربات كانت تجرها الثيران، ويعتقد أنها استخدمت لنقل رفاة الملك ونفائسه، ونسائه وعبيده في مدفن جماعي.

ولكن بماذا فسروا ظاهرة الدفن الجماعي؟

فسر السير وولي هذه الظاهرة بأنها إحدى العادات الرافدية القديمة. وقد جاءت إلى العراق عن طريق هجرات شعوب الشمال المتعددة والمختلفة.

أما العالم الأثري الألماني مورتغارت فله رأي آخر وهو أن الملك كان يدفن مع حاشيته ومن تمثل الآلهة عشتار بعد انتهاء الزواج المقدس، لأن الملك سيخرج من القبر بعد فترة تشبهاً بالإله دوموزي (تموز) من الأموات في فصل الربيع، لضمان الخصب والرخاء في البلاد.

ومن هذه القبور قبر الملكة شبعاد (بو ـ آبي) التي بدافع من حبها لزوجها الملك آباراكي، أوصت أن تدفن بالقرب منه بعد موتها، وكانت في الأربعين. ومما لفت النظر في وصف قبرها الأثاث والحلي التي رافقتها. وجد سرير من الخشب كانت ممددة عليه وبالقرب منها وصيفتان الأولى قرب رأسها والثانية عند قدميها.

وكانت الملكة ترتدي فوق ملابسها ثوباً قصير لحد الخصر (دراعة) موشى بالخرز المصاغ بالذهب والفضة مع الأحجار الكريمة. وكان في أذني الملكة أقراط هلالية الشكل كبيرة الحجم، وحول عنقها طوق ذهبي، وعلى رأسها تاج من الذهب يتكون من ثلاث دوائر تلتف حول الرأس من الذهب الخالص.

وإن كنا لا نعرف عن سيرة هذه الملكة، فإن مخلفات قبرها تدل على الغنى، وكثرة الذهب في المجتمع السومري، وإلى رقي الأسلوب التقني في الصياغة.

الملكة الآشورية سمير اميس:

سيرة هذه الملكة الأسطورة التي تولت الحكم شمسي ـ آدد الخامس (٨٢٣ ـ ٨١١ق.م) وتولى الحكم ولي عهده الطفل أدد ـ نراري (٨١١ ـ ٧٨٣ق.م)، ولكن والدته سومورامات (سمير اميس) تولت الإشراف عليه، وذاعت شهرتها في العالم القديم، وكشفت التنقيبات في قلعة شرقاط عن مسلة وردت عليها الكتابة التالية: «مسلة سومورامات (سيدة القصر) وشمسي ـ أدد ملك الكون وملك بلاد آشور والدة آدد ـ نيراري ملك الكون، ملك آشور وكنّة شلمنصر ملك الجهات الأربع (٨٥٨ ـ ٨٢٤ق.م)».

ذاعت شهرة سومورامات واعتبرها اليونان الملكة الأسطورة. يقول عنها هيرودوت أنها هي التي بنت أسوار مدينة بابل، والسدود التي منعت الفيضانات عن بابل. أما ديو دورس الصقلي فيذكر على لسان كناسيوس الفندي، بأن سمير اميس هي ابنة الإلهة ديرست Dercet إلهة مدينة عسقلان في سورية، وكانت سميراميس هي ثمرة العلاقة الآثمة بين الإلهة ديرست وأحد الكهنة، وكانت سميراميس طفلة خارقة الذكاء والجمال، ولكن والدتها لشدة خجلها تركتها على صُخرة، ورمت هي نفسها في بحيرة مملوءة بالسمك، وانقلبت على أثر ذلك إلى سمكة برأس إنسان، وأخذت طيور الحمام تعتني بالطفلة، حتى عثر عليها كبير رعاة ملك عسقلان فتولى تربيتها.

ولما كبرت الطفلة رآها أونيس مبعوث الملك الآشوري فأحبها وتزوجها، وعندما شنت الجيوش الآشورية الحرب على منطقة باكتريا (همدان) على الحدود الشرقية لبلاد آشور، واشتركت سميراميس وهي متنكرة في الحرب وأبدت بطولة، وعرف السر الملك الآشوري نينوس، وأكره زوجها للتخلي عنها، ولكنه انتحر فتزوجها الملك نينوس الذي توفي بعد مدة قصيرة، وحكمت سميراميس لمدة ٤٢ سنة، وقامت بأعمال عمرانية واسعة في مدينة بابل.

تقول الأساطير أن سميراميس وصل حكمها إلى مصر وسورية وبلاد الميديين، والهند. وعندما كبر ولدها نينياس Ninyas أعطته الحكم وتوفيت عن عمر ٦٢ سنة.

أما الأساطير الأرمنية فتذكر أنها كانت ملكة آشورية، ولكن الملكة سميراميس أحبت الملك الأرمني آرو الجميل وطلبت منه أن يتزوجها، ولكنه امتنع عن ذلك، فجهزت سميراميس ضده جيشاً كبيراً وهاجمت بلاد أرمينيا

ودارت معارك بين الطرفين، قتل فيها الملك الأرمني، فتملك سميراميس الحزن وصارت تبكي على حبيبها، فاستجابت الإلهة أناهيد، وأعادت الحياة إلى حبيبها الميت.

نستدل من هذه الأساطير على التواصل الحضاري بين بلاد وادي الرافدين، وأرمينيا والهضبة الفارسية وسورية ومصر، وقد كانت هذه الحروب أداة تواصل حسنت طرق التجارة وتبادل المعارف والسلع وسوف أتعرض لذلك.

دلت الآثار التاريخية أن تاريخ أوراتو (أرمينية) كان مشبعاً بالصراع مع الدولة الآشورية. ففي عهد الملك سادوري الأول بدأ الأورارتيون ينافسون الآشوريين، وسرعان ما شن الأوراراتيون بعد عام ٨٠٠ق.م حملة قوية باتجاه الجنوب واستولوا على عدة مقاطعات كانت تحت سيطرة الآشوريين. ولكن الملك الآشوري سرجون الثاني استولى على مدينة موساسير التي كانت المركز المقدس في البلاد ونهبها. نهب العنبر المقدس المكوّن من ثمانية مبان ستة منها عبارة عن مستودعات لخزن الحبوب، وكانت المشاغل الريفية حول معبد النار التي كان مركزاً دينياً وسياسياً ويمثل وحدة إقليمية وسياسية للدولة الأرمنية.

الكاهنة آدد ــ كوبي والدة الملك نبونيد:

ولدت آدد ــ كوبي في السنة العشرين لحكم الملك الآشوري آشور بانيبال ٦٦٨ ــ ٦٢٥ق.م أي في سنة ٦٤٨ق.م وتوفيت في سنة ٥٣٦ق.م وهكذا عاشت أكثر من مائة سنة، وقضت عمرها الطويل في التعبد وخدمة الإله سن (إله القمر) في مدينة حران. تقول أدد ــ كوبي: «أنا أدد ــ كوبي والدة نبونيدس ملك بابل (٥٥٥ ــ ٥٣٩ق.م) المكرسة لعبادة آلهتي سن

وننكال ونسكو وسدرنونا الذين كنت ألوذ بهم منذ أيام طفولتي، وعندما غضب سن ملك جميع الآلهة علي مدينة حران ومعبده في سنة ٦١٤ق.م وتوفي الملك نابوبلصر ملك بابل وصعدت روحه إلي السماء تاركاً المدينة وأهلها بائسين، كنت أقوم بزيارة الأماكن المقدسة لسن في تلك المدينة وبقيت مخلصة لهم، ولذت بألوهيته ليل نهار، أنا التي أخلصت بكل تقوى وورع طيلة حياتي إلى سن وشمس وعشتار وأدد الذين يوجدون في السماء والعالم الأسفل، وشكرتهم بتقديم الهدايا ليل نهار، ولعدة شهور وسنين لما منحوني إياه من العطايا الثمينة. ولما انحنيت له في الصلاة، والسجود قائلة: إذا عدت إلى مدينتك سيعبدك الناس جميعاً. ولكي يهدأ غضبه، امتنعت عن لبس الصوف الناعم والحلي الذهبية، والفضية، ولم يلمس جسدي أي طيب أو دهن معطر، وارتديت الثياب الممزقة، وأقمت الشعائر، ولم أبخل بأي ثمين إلا وقدمته لهم كقرابين. وفي السنة الخامسة والتسعين من عمري قمت بزيارة الإله العظيم سن في حران. واستمع لصلاتي وتقبل نذري، وهدأ قلبه الغاضب، فعاد على وفاق مع معبده (آي ــ خلحل) في حران، واختار ولدي الوحيد نبونيد الذي أنجبته لمنصب الملوكية وعهد إليه بملوكية (سومر واكد) وجميع الأقطار من حدود مصر حتى البحر السفلي (الخليج العربي)، وعندما رفعت يداي نحو سن، وسألته لتحقيق النصر على أعداء ولدي، رأيته في المنام يضع يديه عليّ ويقول: سأعهد لابنك بالمقام المقدس لحران، وسيجددها ويجعلها أجمل من قبل. أصغيت إلى كلماته ورأيتها تتحقق. أنا التي عبدت سن، وتشبثت بطرف ثوبه، فأعطاني مكاناً رفيعاً واسماً شهيراً في البلاد، وأضاف إلى عمري أياماً وسنين من السعادة فقضيت مائة وأربع سنوات، حيث بقي بصري قوياً، وسمعي حاداً، وبقيت يداي وقدماي سليمتان، وكلماتي

موزونة وصحتي جيدة وعقلي سليماً، رأيت أحفادي حتى الجيل الرابع، وهكذا نعمت بعمري المديد.

ماتت الملكة الكاهنة (آدد ـــ كوبي) في السنة التاسعة من حكم نبونيد ولدها ملك بابل، ولفها ابنها في قماش من الصوف الناعم والكتان الأبيض الناصع، ثم وضع جثتها في قبر مخفي ومعها الحلي الفاخرة من الذهب المرصع بالأحجار الكريمة وأوعية العطور. ثم نحر الخراف المسمّنة وجمع سكان بابل وبورسيبا وأناساً كثيرين من المقاطعات البعيدة، فأقاموا عزاء كبيراً ينوحون وينثرون التراب على رؤوسهم، لسبع ليال وسبعة أيام، وساروا أمام النعش وهم مطأطئي الرؤوس مجردين من كل ملابس مزينة، والرؤوس عليها التراب.

يقول نبونيد: ثم خليت لهم الملابس الجديدة، وأعطيتهم الزيت النقي ليسكب فوق رؤوسهم بعد اغتسالهم بالماء الجاري، وأعدت إليهم الفرح وعادوا إلى أوطانهم.

جاء نبونيد إلى الحكم في بابل على أثر ثورة قام بها وجهاء بابل ضد حكم ملكهم لاياشي مردوخ. لم يكن نبونيد من عامة الشعب بل كان أحد القواد المشاهير في جيش نبوخذ نصر (٦٠٥ ـــ ٥٦١ق.م) في الجيش الكلداني وأراد أن يقتفي أثر نبوخذ نصر في البناء وإحياء التراث السومري والبابلي القديم. فقام بتجديد العديد من الأبنية والمعابد في حران وسيبار وبابل، وغيرها من المدن. سيطر الميديون على الطريق التجارية عبر الأناضول وسورية، مما دفع بالكلدانيين إلى اكتشاف طرق تجارية جديدة في الجزيرة العربية، فاستولى على تيماء ووضع فيها جالية بابلية وبنى فيها قصراً، وجعل ابنه وصياً على عرش بابل.

توطدت العلاقات التجارية بين أطراف الهلال الخصيب، وصارت القوافل تسير آمنة بين تيماء وديدان (العلا) وفدك وخيبر والبديع ويثرب (المدينة) التي أسكن فيها جالية يهودية، ومكة وصنعاء. هذه المواطن ذكرت في مسلة اكتشفت في حران وعليها الكتابات التي دونها نبونيد.

اهتم نبونيدس بعبادة الإله سن (إله القمر) وأهمل بقية الآلهة مما أغضب كهنة الإله مردوخ، وشكوا من كثرة الضرائب التي فرضها على معابدهم. ومما زاد الطين بلّة سكناه في مدينة تيماء وتركه ولده في بابل وقد غاب عنها مدة عشر سنوات. وكان لعدم اشتراكه في احتفالات رأس السنة في الأول من نيسان غضب أهل بابل مما مهد الطريق إلى كورش الأخميني Cursh للاستيلاء على بابل سنة ٥٣٩ق.م دون أية مقاومة وساعده كبير كهنة الإله مردوخ صاحب النفوذ الكبير في بابل.

علل هيرودوت سبب سقوط نبو نيدس أن أمه الملكة نيتوكريس Nitokris الملكة الحكيمة هي التي حصّنت مدينة بابل ضد الهجمات الخارجية، وتحويلها لنهر الفرات وجعلته يحيط بأسوار بابل مما يصعب اختراق دفاعات المدينة. ولكن خيانة أحد قواده هو الذي جعل المدينة تسقط، وقتل الملك نبونيدس سنة ٥٣٩ق.م.

وجدت مسلة في مدينة أور كتب فيها نبونيد عن ابنته الكاهنة بل ــ شلتي ــــ ننار أنه وهبها للإله سن. يقول نبونيد: «وقلت له: وسألته للمرة الثالثة وبالنيابة عن ابنتي نانا، بعد أن أتممت العرافة، وأعطتني جواباً مرضياً، مجدت كلمة الإله سن السيد الجليل الإله خالقي، وأمر الإله شمس (مردوخ) وأدد (حدد) آلهة العرافين، كرست ابنتي لتكون كاهنة آنتو (Antu) وسميتها بل شلتي ننار وأصلحت بناء الإجبار (Egipar) ليكون سكن

الكهنة، الذي تهدم خلال حكم سلالة لارسا. أضاف نبونيد إلى (الإجبار) داراً جديدة من أجل سكن ابنته، متضرعاً للآلهة عسى أن تكون أعمال ابنته صالحة لأنها عزيزة على قلبه، وأن تسود حكمتها وألا تقترف خطيئة.

اتصف المجتمع البابلي بحرية الأديان، وكانت الجاليات في بابل يمكنها عبادة آلهتها دون أن يرغمها أحد، وكان الغرباء المقيمون يمكنهم اتخاذ أسماء بابلية مركبة مثل ندنتو ـ بعل (هبة الرب بعل). وقد برهن العالم الروسي داندامايف استناداً إلى الوثائق القانونية الشخصية البابلية على أن ممثلي الشعوب المختلفة كانوا يعيشون جنباً إلى جنب ويقيمون علاقات عملية مع بعضهم البعض ويتزوجون فيما بينهم. فمثلاً قام أحد العيلاميين بتزويج ابنته إلى مصري وفقاً لعقد الزواج المحرر في بابل عام ٥١١ق.م، وكان ضمن شهود العقد فرس وآراميون.

ما سبب هذا التسامح الديني؟

إن من غرس التعصب هو التوحيد السماوي الذي بثه اليهود في الديانات التوحيدية بعد ذلك. ولم يكن المجتمع الرافدي قبل السبي العبري يعرف روح التعصب. ولم يستطع اليهود التأثير على عادات الشعوب في بابل، بل العكس. منذ ذلك زوجوا بناتهم للشعوب الأخرى، وأخذوا منهم، وكانت روح التسامح ساعدت على التمازج الحضاري والثقافي.

التواصل الحضاري في الشرق القديم:

كان الرأي السائد في منتصف القرن العشرين أن التواصل الحضاري بين مصر وبلاد ما بين النهرين كان صعباً. ولكن المكتشفات الأثرية التالية دلت على سهولة هذا التواصل. فالدروب ووسائط النقل التي أوجدتها وأملتها

طبيعة الأرض في الصحارى والبوادي، والطرق الملتوية حول المرتفعات والعقبات التي تعترض المسير والأودية والأنهار، ذللتها عوامل عديدة منها، الحروب والتجارة. أدت إلى تجديد ما اندثر من الطرق القديمة، لتنشأ طرق جديدة بالقرب من الدروب القديمة.

كانت الطرق الطويلة في المرحلة السومرية قليلة، هي معابر لقوافل الحمير أو العربات التي تجرها الثيران. وفي المرحلة البابلية توسعت تلك الطرق وطالت وأصبحت العربات تجرها الخيول لنقل الأمتعة أو الفرسان في الحروب وهي تحمل النساء والأطفال. وتناقصت أعداد الحمير، وحلّ بدلاً عنها الجمل الذي كان له تأثير عظيم في تطور التجارة البعيدة. ووجدت طرق تجارية باتجاه الجنوب نحو الجزيرة العربية. وصارت الضرائب تفرض على أحمال الجمل خمسة أضعاف عما تحمله الحمير.

كانت البواعث التجارية والحاجات الثابتة للذهب والعاج والبخور والحرير، التي تلبي نزوات الحكام وتطلعاتهم إلى توسيع ممالكهم عن طريق حملاتهم العسكرية كما فعل سرجون الأكادي (٢٢٦٧ ـ ٢٢٢١ق.م) الملك الأسطورة الذي شاع ذكره في الشرق القديم. يقول شيروكين: «كانت أمي متقلبة ووالدي لم أعرفه، وأعمامي أحبوا التلال المرتفعة وسكنوها، وكانت آزوبيراتو مسقط رأسي تقع على نهر الفرات. وعندما ولدتني أمي وضعتني في سلة الخوص المطلية بالقير، وألقتني في النهر الذي حملني إلى آكي البستاني الذي انتشلني من الماء، ثم جعلني بستانياً لديه، واجتبتني عشتار ومنحتني النعمة، فمارست الملك منذ تلك السنين.» ثم يستمر شيروكين في وصف نفسه قائلاً: «أنا شيروكين ملك آكاد القوي، حكمت ذوي الرؤوس السود (الشعب السومري) وقهرت منهم ذوي بلطات البرونز، ثم قهرت أهل

الجبال العظيمة، وتسلقت السلاسل العليا، وعبرت السفوح والوديان، جبت بلدان البحر السفلي (الخليج) ثلاث مرات، وقبضت على ديلمون (البحرين) بيدي وإلى دير العظيمة صعدت.»

تولى سرجون الأكادي الحكم بعد أن قبض على الملك السومري لوغال زاغيري (٢٣٧٥ ــ ٢٣٥٠ق.م) وأحضره إلى كيش مربوطاً بطوق كلب وربطه إلى جوار بوابة معبد إنليل. وشاع ذكر سرجون بأنه ملك محارب عظيم فهو الذي أدخل القوس والرمح في جيشه بدلاً من الفأس والحربة البرونزيان، واستخدم طريقة القتال الفردي، واحتل بجيشه القوي كل المدن السومرية، والسورية وغسل أسلحته بماء الخليج العربي، والبحر الأعلى (المتوسط) وأسس مدينة أكادو وسمّى نفسه شيروكين وعين حكاماً أكاديين بدلاً من السومريين، واستخدم اللغة الأكادية وترجم إليها الأساطير والعقود السومرية. فهو أول حاكم من عنصر سامي يحكم الهلال الخصيب، وجعله يمتد من أرض عيلام شرقاً إلى جزيرة ديلمون جنوباً. ووطد الطرق التجارية البرية والبحرية باتجاه الهند، وأرسل الجاليات إلى مدن موهنجارو وهاربا في إقليم السند، وراح يبحث عن الذهب والحرير والعاج، وتوجه نحو الغرب فأخذ إقليم الأرز (لبنان) ووصلت فتوحاته إلى كبا دوكية، وأصلح الطرق بين وادي الرافدين وآسيا الصغرى، وقطع الطريق على المصريين للحصول على خشب الأرز، وجلب العطور والتوابل من جزيرة العرب.

تابع الملك الأكادي نارام ــ سين مسيرة جده وحكم خمسة عشر سنة. وطد حكمه في الهضبة الفارسية والهند، وسهل الطرق الشرقية وصارت بضائع الهند والصين تأتي بسهولة نحو المدن الفينيقية (الكنعانية) وصارت العطور والتوابل والحرير والعاج والأرجوان متوفر في أسواق الشرق القديم.

زاد التواصل بين مصر وبلاد ما بين النهرين في المرحلة الأكادية، والدليل على ذلك رسائل تل العمارنة التي تمثل مرحلة انتقالية من اللغة المصرية المتوسطة إلى اللغة المصرية الحديثة. وكانت إصلاحات أخناتون (١٣٧٢ ـ ١٣٥٤ق.م) الملك الموحد الذي دعا إلى تقديس الشمس كإله واحد وسمي نفسه أخناتون أي المحب لآتون. وظهرت أناشيد دينية تمجد الإله أخناتون بلغة سهلة، أدت إلى تطور اللغة الهيروغليفية القديمة تمثلت برسائل تل العمارنة. وقد بيّن العالم الروسي كوروستوفتسيف في كتابه القيم (الكتبة في مصر القديمة) عام ١٩٦٢ وكتابه الثاني (ديانة مصر القديمة) عام ١٩٧٦ أكد فيه أن نشوء الأديان عملية تاريخية وأن الدين المصري هو بناء فوقي إيديولوجي يرتفع فوق القاعدة المادية للمجتمع. ولم تكن في مصر أبداً عقائد دينية واحدة لكل مصر. فقد كانت الديانة المصرية تمثل ظاهرة معقدة جداً تتجلى في الجمع بين معتقدات متناقضة. ولكن أخناتون أراد توحيدها في مذهب واحد هو مذهب الشمس. فقاومه كهنة آمون وطردوا أتباعه من مصر باتجاه بلاد الهلال الخصيب. واعتنق أفكاره العبريون، الذين قادهم موسى إلى أرض سيناء وفلسطين. وفي السبي البابلي حملوا عبادتهم إلى بابل، واختلطت المعتقدات والأفكار وتوحدت شخصية موسى بشخصية سرجون الأكادي، وانتحلوا أسطورة شيروكين وأضافوها إلى موسى، وهذا ما سوف أبحثه فيما بعد.

رسائل تل العمارنة:

طرد الهكسوس من بلاد مصر حوالي عام ١٥٨٠ق.م، وتكونت الإمبراطورية الفرعونية الثالثة. وبدؤوا بغزو سورية وواجهوا الحثيين والكشيين والآشوريين. وكان المصريون من عادتهم تدوين حملاتهم على

ورق البردي وعلي جدران المعابد. وتبين لنا أن المجتمع لم يراوح في مكانه وإنما كان يقوم بالتنظيم الذاتي دوماً مبدلاً بنيته الاجتماعية، وبالتالي الثقافية ونظام الكتابة الذي تجلى في رسائل تل العمارنة حيث أصبحت اللغة المصرية الحديثة اللغة الرسمية لعصر الإصلاح.

أما هذه الرسائل المكتوبة على الطين بالخط المسماري وباللغة البابلية والتي تناهز ٣٠٠ رسالة تبين التواصل الحضاري بين تل العمارنة عاصمة مصر وبابل. جرت بين الفرعون أمنحوتب الثالث (١٤٤٢ ــ ١٣٩٢ق.م). جاء في إحداها: «إلى أخي كادشمان ــ إنليل ملك كاردونياش، هكذا يقول أخوك أمنحوتب الملك العظيم ملك مصر، عسى أن تكون أنت وحاشيتك بخير وزوجاتك وأطفالك ونبلاؤك وخيلك وعرباتك كذلك، وعسى أن يعم الخير بلادك» وتظهر الرسالة أن الملك الفرعوني كان قد تزوج أخت الملك الكاشي، وأن هذا الأخير قد أرسل مبعوثاً إلى مصر ليطمئن على حال أخته. وهذا هو السبب في عدم إرسال الملك الكاشي ابنته لتكون زوجة للفرعون.

ويخبر الفرعون أمنحوتب الثالث برسالة أخرى أن أخته بخير ويقول الملك الكاشي للفرعون أن ابنته التي طلبها قد بلغت سن الرشد، إن هو أراد ذلك سيرسلها إليه. ويطلب منه أن يرسل له بالمقابل أميرة مصرية. غير أن الملك الفرعون يرد عليه: «لم تجر العادة أبداً أن ترسل أميرة مصرية خارج البلاد.» ويرد عليه الملك الكاشي: «لو أرسلت لي واحدة من نساء مصر الجميلات فسوف لا يشك أحد هنا في كونها ابنة الفرعون.»

وعندما جاء أمنحوتب الرابع (أخناتون) أهمل السياسة الخارجية وانصرف للإصلاح الديني. وجاء إلى الحكم الملك بورما ــ يورباش الثاني (١٣٨٠ ــ ١٣٥٠ق.م) وأراد إحياء العلاقات القديمة بين مصر وبلاد ما بين

النهرين وأرسل قلادة ثمينة من اللازورد إلى ابنة أخناتون وكانت تعيش في مصر وقت كتابة الرسالة ثم تزوجت أحد أبناء الملك البابلي وجاء إلى بلاد ما بين النهرين.

بعد هذه الزيجة توطدت العلاقات السياسية والثقافية بين مصر وبابل. ولأعطي فكرة عن أهمية الزيجات أذكر أنه بلغ عدد الأشخاص الذين رافقوا الأميرة أخت الملك البابلي يورنا ـ يورباش الثاني حوالي ثلاثة آلاف شخص.

من الرسائل التي كانت تكتب بالخط المسماري وباللغة البابلية على الطين يتبين لنا ضخامة الجهاز الكتابي في مصر، حيث كان الكتبة يشكلون جهازاً بيروقراطياً ضخماً فيه الكتبة يمثلون كافة فئات السكان والجاليات التي تقطن مصر من كافة مدن الشرق القديم. وكان هذا الجهاز يسهم في ترجمة الكتب والمعارف من اللغات المتداولة آنذاك، إلى جانب المراسلات الرسمية والشخصية.

بدايات طرق التوابل والحرير القديمة

كان نظام السفر المتبع قديماً أن يسافر صاحب القافلة إلى منطقة محددة المسافة، ومن ثم يسلم قافلته إلى صاحب قافلة أخرى مقايضاً بضائعه بسلع أخرى، ثم يعود إلى بلدته حاملاً بضائع أخرى قد يبيعها في طريق عودته، وقد يجد صاحب القافلة (تخيب ــ تلا) بعض المعادن الثقيلة فيحملها بواسطة النهر على الطوف، وهو مجموعة من الأخشاب يضم بعضها إلى بعض ثم يحمل البضائع عليها، وعندما يصل إلى المدينة، يفك الخشب ويبيعه مع ما حمل. ظل هذا الأسلوب معمولاً به آلاف السنين.

وفي المرحلة السومرية أصبحت الطرق أكثر طولاً، وصار مراقبو الطرق يجبون الضريبة حتى عصر أوركاجينا (٢٤٧٠- ٢٤٥٠ق.م) الذي ألغى وظيفة مراقب السفن في مدينة لكش وكان المراقب يدعى (الرجل صاحب العصا) ولم تكن القنوات لري الأراضي وحسب، بل وللملاحة ونقل البضائع أيضاً.

وظلت الطرق باتجاه أرمينيا وعرة حتى حملة سرجون الثاني (٧١٤ق.م) وهو الذي أصلح المعابر ومهد الصعاب. جاء في نص آشوري ترجمه جورج دوسان عام ١٩٥٣م يقول الملك سرجون الثاني: «حددت موعداً للجيش الذي أعددته للقتال، وانطلقت من كالنح مدينتي الملكية، وعبرت نهري الزاب الكبير والصغير دون أن يعتري جنودي أي تعب أو خوف،

وبدت لهم هذه الأنهار كأقنية، ثم دخلت الجبال العالية المغطاة بالأشجار الكثيفة ورغم وجود الوديان المرعبة بظلامها، حيث لم ير أي ضوء هناك، ولكني تقدمت بجيشي بعد أن استدعيت جنود المساحة (الهندسة) لتمهيد الطرق، وبسبب وجودي على رأسهم انطلق الفرسان والمشاة وكذلك العربات لأول مرة فوق الجبال كالنسور، وجاء بعدهم بناة المعسكر، وجنود الإنشاءات الهندسية، ثم تلتهم قادة الجمال والبغال حاملين الأمتعة. وبعد عملية الصعود، استمتع الجيش براحة، وعسكروا على قمة الجبل.وبعدما واصلنا المسير وقطعنا الممرات الجبلية العالية، ووصلنا إلى أرض العدو (الأوراتي) أرض البحيرات والمياه الكثيرة، ووقف ملكهم متضرعاً ومعه كبار قومه وقدّم لي عرضاً، جزية من الماشية، وخيول العربات، قبلتها وعينت عليهم حاكماً آشورياً.» وعين حاكماً في منطقة كبادوكيا مدينة Ganes ليحمي تجارة الخشب والمعادن.

هكذا تسهم الحروب بتمهيد الطرق التجارية، ولأن الحكام الآشوريين كانوا ذوي كفاءة عالية، ازدهرت التجارة بين بلاد ما بين النهرين وأرمينية.

وفي زمن سنحاريب ثارت بابل ولكنه قمعها بقسوة، وقتله ولداه في بيت الإله نسروخ في نينوى. وتملك أسرحدون (٦٨١ ــ ٦٦٨ق.م) وفي زمنه ازدهرت التجارة، لأن الطرق أصبحت آمنة. وعندما استلم نبوخذ نصر الحكم، (٦٠٥ ــ ٥٦١ق.م) توجه نحو مصر واحتل أورشليم وسبى اليهود ٥٨٦ق.م إلى بابل وأخذ معه الرجال الحرفيين والعلماء والمفكرين مما أسهم بالتمازج الثقافي، وأنعش علم الفلك والطب، وقرب نبوخذ نصر الكهنة العبريين القادرين على قراءة الغيب والفأل، وانعكست تلك النبوءات في أسفار التوراة. جاء في سفر دانيال الإصحاح الرابع: «رأى الملك في المنام، شجرة كبيرة وارفة الظلال، وشعر أن قلبه قد تحول إلى قلب بهيمة فأصيب بالأرق،

ولما يئس الكهنة الكلدان من معالجته وشفائه، استدعى دانيال الذي قال له: هذا قضاء العلي الذي يأتي على سيدي الملك، الحمل يا سيدي لمبغضيك وتعبيره لأعاديك، والشجرة يا مولاي هي سلطانك الذي يمتد إلى أقصى الأرض، بعد أن يطردونك من بين الناس، ويكون سكناك مع الحيوان، ويطعمونك العشب كالحيوان، وحيث أمروا بترك ساق أصول الشجرة، فإن مملكتك تثبت لك، وعندما تعلم أن للسماء سلطان فارق خطاياك بالبر، وآثامك بالرحمة للمساكين لعله يطال اطمئنانك.» أعتقد أن هذا النص مختلق وضعه اليهود انتقاماً من الملك نبوخذ نصر الذي سباهم. وقد كتب هذا النص بعد عودتهم من السبي، وله دلالة مهمة في الإشارة إلى التواصل الحضاري بين طرفي الهلال الخصيب جنوبه وشرقه.

أصبحت بابل بفضل التجارة محسودة من كل بلدان الشرق القديم. وكانت المنتوجات الزراعية والبضائع المتبادلة بالمقايضة مع البلدان كالثياب الصوفية والكتانية المنتجة محلياً تقايض مع الثياب الحريرية والأرجوانية المستوردة من الهند والصين عبر فارس. وصار الحديد والنحاس والرصاص تستورد من أرمينية وجبال آرارات. والعطور والبخور والطيب والأحجار الكريمة تجلب من جنوب الجزيرة العربية.

أصبح التجار في بابل يميزون بين التاجر مع البلدان البعيدة Tamakarom ولهم وكلاء في البلاد الأخرى البعيدة ويعرفون بالشامالوم Shamalum. أما التجار أصحاب الحوانيت داخل بابل فيعرفون بالكاروم Karum يبيعون البضائع التي تجلب إليهم.

يقول العالم الألماني هورست كلينغل: «يثير اكتشاف أشياء مصنوعة من اللازورد في كل من سورية (إبلا) ومصر اهتماماً خاصاً لدى الباحثين،

وبرهاناً على ظهور نظرية، طريق تجارية طويلة تبدأ من أفغانستان وتعبر إيران وبلاد الرافدين إلى سورية ومنها إلى مصر.»

صارت أورانو (الهضبات الأرمنية) في أواخر الألف الثاني قبل الميلاد ذات تواصل تجاري مع بابل ووادي الرافدين. وكان تاريخها مشبع بالصراع مع الدولة الآشورية وعلى أثر سقوطها في مطلع القرن السادس قبل الميلاد، نشأت المملكة الأرمنية تحت الحكم الأخميني. وعندما سقطت الدولة الفارسية تحت حكم الإسكندر المكدوني ٣٣٠ق.م، أصبحت أرمينيا دولة مستقلة ولكنها ظلت تحت الحكم السوري (السلوقي). وفي تلك الفترة نشأت المدن الأرمنية تحت تأثير الحضارة الهلينية وسميت مدينة أرتاكسانا (أرطاشات) باسم الملك المؤسس وكانت على مثال أنطاكية، وساهمت في تصدير الحرير إلى روما عن طريق صور وأنطاكية. وفي زمن الملك تيكران الثاني صارت المدن الأرمنية مركزاً للتجارة القديمة على طريق الحرير. ودلت الآثار المكتشفة فيها على وفرة النقود الفضية والنحاسية. وكان التجار الأرمن يقومون بدور الوساطة لدى الرومان والفرس، خصوصاً على الطريق الشمالي لطريق الحرير. وعلى هذا الطريق كانت توجد عدة جاليات سورية ومصرية وفارسية وهندية من أفغانستان وشمال الهند، ومن العرب، حيث جعل الملك ديكران لأول مرة الجمال تسلك الطريق الشمالي، مما جعل الطيب والتوابل العربية تباع مراراً وتكراراً، وتصل إلى الصين عن هذا الطريق. نستدل على ذلك من كثرة النقود الرومانية في نقاط الحدود والتي كان يشتريها التجار المحليون.

وكان لتأثير طريق الحرير والتوابل نشوء المدن الكبيرة والمحصنة التي تصلح نقاط توقف على الطرق التجارية فهي ملاجئ محصنة للناس

والماشية أثناء المخاطر. وهذا كان يفترض وجود دولة ومجتمع حرفي وصناعات تعدينية وخزفية ودباغة الجلود وصناعة الزجاج والنسيج والأثاث وسك النقود المحلية في أرتكساتا التي كانت قصورها الملكية ذات حمامات شهيرة وقد انتقلت مخططات حماماتها إلى أنطاكية وروما والإسكندرية. يتكون الحمام من ثلاثة أقسام، ساخن ودافئ وبارد.

ـ ففي القسم البارد من الحمام يوجد حوض بأرضية مزينة بالفسيفساء والإفريز بارز بشكل خطين متوازيين بينهما نقوش نباتية. وفي المجال الأساسي رسوم فيها سمكة ورأس دلفين ومحارة. بينما كانت أرضية الأقسام الأخرى مخصصة للمشلح وهي أيضاً مزينة بالفسيفساء وفيها نقوش هندسية ونباتية بديعة، تشبه النقوش الموجودة في مدينة شهباء. وكانت الحمامات تسخن بالهواء الحار عبر شبكة من القنوات الخاصة المتواجدة تحت أرضية القصر.

كانت أساليب العمارة تشير إلى التواصل الحضاري القديم، وسبب ذلك بلا شك هو التبادل التجاري.

مراجع الفصل الأول: الهلال الخصيب مهد الحضارة الإنسانية

١ ــ قصة الحضارة في سومر وبابل ص٥٢ ج ملرش، ترجمة: عطا بكري، مطبعة الإرشاد، بغداد ١٩٧١.

٢ ــ المصدر السابق ص٦٦.

٣ ــ عصور ما قبل التاريخ وتاريخ بابل القديم ص١٤٢، عيسى الحلو، دار الطليعة، بيروت ١٩٧٠.

٤ ــ مجلة دراسات تاريخية، العددان ١٩ و٢٠ ص١٧٦، محمد حرب فرزات، جامعة دمشق ١٩٨٥.

5 – J. R Kupper, The Nomades in Mesopotamy (Mari) p.134, Newyork 1974.

٦ ــ قصة الديانات ص٤٣، سليمان مظهر، دار الوطن العربي، القاهرة ١٩٦٤.

٧ ــ أساطير العالم القديم ص٧، ترجمة: أحمد عبد الحميد يوسف، الهيئة المصرية، القاهرة ١٩٧٤.

٨ ــ المصدر السابق ص١٠٧.

٩ ــ المصدر السابق ص١٠١.

١٠ ــ قصة الديانات ص٤٤.

١١ ــ الحكاية الخرافية ص٨٠ ــ ٨٢، فريدريك فون دير لاين، ترجمة: نبيلة إبراهيم، دار القلم، بيروت ١٩٧٣.

١٢ ــ رحلة إلى بابل القديمة ص٢٦ ــ ٢٧، إيفلين كلينغل ــ براندت، ترجمة: زهدي الداوودي، رابطة الكتاب العراقيين، دار الجليل، بغداد ١٩٧٦.

١٣ ــ تاريخ بابل ص٦٤، مارغريت روتن، ترجمة: زينة عازار وميشال أبي فاضل، منشورات عويدات، بيروت ١٩٦٤.

١٤ ــ رحلة إلى بابل القديمة ص١٦٨.

١٥ ــ تاريخ بابل ص٥١.

١٦ ــ الجديد حول الشرق القديم ص٢١٢، بونغارد ــ ليفين، ترجمة جابر أبي جابر وخيري الضامن، دار التقدم، موسكو ١٩٨٨.

١٧ ــ الحياة اليومية في بابل وآشور ص٣٦٣، جورج كونتينو، ترجمة: سليم طه التكريتي وبرهان التكريتي، دار الرشيد، بغداد ١٩٧٩.

١٨ ــ مجلة دراسات تاريخية، العددان ٢٣ و ٢٤، ص١٤٢، عيد مرعي، جامعة دمشق ١٩٨٦.

١٩ ــ رحلة إلى بابل القديمة ص١٥٦.

٢٠ ــ تاريخ بابل ص١٤٦.

٢١ ــ زبدة التفاسير للإمام الشوكاني، مكتبة دار الفيحاء، دمشق ١٩٩٤.

٢٢ ــ المرأة دورها ومكانتها في حضارة وادي الرافدين ص١٩٠، ثلما ستيان عقراوي، وزارة الثقافة والفنون، بغداد ١٩٧٨.

٢٣ ــ ملحمة جلجامش ص٥٧، ترجمة: طه باقر، مطابع الجمهورية، بغداد ١٩٧١.

٢٤ ــ المصدر السابق ص١٠٠.

٢٥ ــ المصدر السابق ص١٠٢.

26 – Herodotus, History vol. I, p.181, Oxford 1934.
27 – Hallow, The Exatation of Inanna, p59, Newyork 1965.
28 – Gadd. C. J, The Spirit of Living Sacrifice in Tombs, p.51, Iraq 1960.

٢٩ ـــ المرأة دورها ومكانتها ص٢٢٠.

30 – Diodorus Siclius, Biblitheca Historica, p. 40, ,Traslated by C. H. Old Father, London 1961.
31 – Godd. CJ. Tow Assyrian Observations, p. 45, Iraq 1948.

٣٢ ـــ الجديد حول الشرق القديم ص٥٢٧.

٣٣ ـــ المصدر السابق ص٢٠٦.

٣٤ ـــ المرأة ودورها في حضارة وادي الرافدين ص ٢٥١ ـــ ٢٥٢.

٣٥ ـــ الحياة اليومية في بلاد بابل وآشور ص١٥٤.

٣٦ ـــ المصدر السابق ص٢٦٢ ـــ ٢٦٣.

٣٧ ـــ قصة الحضارة في سومر وبابل ص٨٠.

٣٨ ـــ رحلة إلى بابل القديمة ص٧٤.

٣٩ ـــ تاريخ سورية السياسي ٣٠٠٠ ـــ ٣٠٠ق.م ص٢٧، هورست كلينغل، ترجمة: سيف الدين دياب، دار المتنبي، دمشق ١٩٩٨.

٤٠ ـــ الجديد حول الشرق القديم ص٥٥٦.

الفصل الثاني

حضارة بلاد الشام هي حضارة المدن السورية

- المدخل: التعريف بمصطلح سورية.
- ماري مدينة الفن والنخيل.
- توتول مدينة الخضرة والأنهار.
- إيبلا مدينة القوافل البعيدة.
- أوغاريت بوابة سورية على العالم القديم.
- التفاعل الحضاري بين سورية ومصر.
- التفاعل الحضاري بين سورية واليونان القديمة.
- مراجع الفصل الثاني.

المدخل

بدأت محاولات استقرار القبائل الرعوية الأمورية (المارتو)، منذ بداية الألف الثالث قبل الميلاد، وذلك نظراً للانقلاب المناخي المفاجئ، حيث بدأ الجفاف يتزايد، وقلّ نزول المطر في فصل الشتاء إلى ٣٠٠ مم، وجفت الأودية بعد أن كانت تسيل طيلة أيام الصيف، وجف الغطاء العشبي، مما خلق حاجة ملحة للاستقرار حول ضفاف نهري الفرات والبليخ. ولكن السلطة المركزية القوية لسلالة أور الثانية التي أسسها سرجون (شيروكين) الأكادي (٢٣٤٠ ـــ ٢٢٨٤ق.م) ولقّب بملك الجهات الأربع، وقد امتدت فتوحاته من ماجان (عمان) وديلمون (البحرين) على ساحل البحر الأسفل (الخليج العربي) إلى الجبل ذي الأرز (جبال الأمازون) والبحر الأعلى (البحر المتوسط). وصارت كل المنطقة من مدينة ماري شرقاً إلى مدينة أوغاريت غرباً، ومن جبال طوروس شمالاً إلى صحراء الأردن، وهذه المنطقة هي التي عرفها العرب باسم بلاد الشام، خاضعة لحكم نارام ـــ سن الأكادي (٢٢٢٣ ـــ ٢١٩٨ق.م). وقد أطلق عليها اسم سوبارتوم Subartum، وصاروا يمنعون عنها القبائل الرعوية، وقد قاتلهم الملك شاركالي شاري عام ٢١٩٨ق.م حول جبل البشري Basar.

لم تنقطع القبائل الأمورية عن محاولاتها وفعلاً استطاعت الاستيلاء على بابل وشكلت سلالة أور الثالثة بزعامة حمورابي (١٧٢٦ ـــ ١٦٨٦ق.م). وقد استمر حكمهم مدة تسعين سنة. استطاع حمورابي توحيد مناطق سورية، وتحسنت الطرق التجارية حيث زادت المسافات. يقول

المؤرخ الألماني هورست كلينغل: «يبدو أن تغيرات قد حدثت في جهة سير الطرق التجارية الرئيسية بين سورية وبلاد ما بين النهرين، وربما كان ذلك خلال العصر الأكادي. نستدل على ذلك من الدلائل التالية:

أولاً: من الواضح أن الطرق التجارية الشمالية انحرفت أكثر نحو الشمال مارة بمدينة أورشو.

ثانياً: إن التطور المدني لقطنة (شرق حمص) يمكن أن يشير إلى أهمية الطريق الصحراوية الجنوبية العابرة لسورية والمتقاطعة مع الطرق الآتية من الشرق إلى قطنة والمتجهة مباشرة إلى جبيل أو البقاع ثم إلى مصر.»(١)

وفعلاً، عثر في مدينة جبيل (لبنان) على نقش فيه اسم الفرعون بيبي الأول المعاصر لسلالة أور الثالثة (٢٢١٢ ـ ٢٠٠٤ق.م)، وقد كانت جبيل تذكر كثيراً في نصوص الإمبراطوريتين السومرية والمصرية معاً.

والسؤال الملح: متى ظهر اسم سورية كمصطلح لدى المؤرخين؟

يذكر ماسبيرو في كتابه التاريخ القديم لشعوب المشرق، أن توتم بن أمنحوتب الثالث قاد المصريين إلى فتح آسيا والبلاد الواقعة خلف السويس، والتي كانت تسمى في الوثائق المصرية (كسارو). ويظن ماسبيرو أن هذه اللفظة قد خففت وصارت تلفظ سارو Saro ثم أصبحت سورية(٢).

وفي النقوش الفرعونية ورد ذكر شعب يسمى أسور Asor من جملة الشعوب حلفاء الحثيين سكان سورية الشمالية، وقد وقفوا في وجه رعمسيس ملك مصر في القرن ١٤ق.م في زمن لم تكن آشور قد وجدت. ويظن بعض الباحثين أن اسم سورية جاء في النصوص الأوغاريتية باسم شين Shryn، وهو الاسم الذي ذكر في سفر التثنية باسم سيريون Siryon، ويظن أنها لبنان. (سفر التثنية ٩:٣).

وفي رواية: أن ملك جبيل تجرأ وطرد بخشونة أحد رسل ملوك الفراعنة، الذي جاءه طالباً شحنة من خشب الأرز فرده بخشونة: «اذهب إني من مكاني هذا، وأنا جالس في غرفتي العليا أنظر إلى أمواج البحر السوري العظيم المتلاطم على الصخور، إذا ناديت جبال لبنان المنيعة فإن السموات تنفتح وتأتي بالأخشاب إلى هنا إلى ساحل هذا البحر.»(٣)

وفي العصر الأخميني (٥٣٩ ــ ٣٣٦ق.م) كانت أحد المناطق الشمالية المعروفة عند البابليين باسم سوري Su-ri فأطلقوا عليها اسم ستراب سورستان، وهي المنطقة التي تمتد من جبال طوروس إلى أرض الصحراء جنوباً.

أما الأستاذ مفيد عرنوق فإنه يرجع الاسم إلى اللغة السنسكريتية حيث يسمون الشمس باسم سورية Surya ويقصدون بها آلهة الشمس، وكانوا يبنون لها المعابد الضخمة.

وعندما زار هيرودوت (٤٨٤ ــ ٤٢٥ق.م) سورية قال إن عاصمتها صور Tyre. وكان العبرانيون يسمون مجموعة البلاد الآرامية أرام الفدان والنهرين، وآرام دمشق وآرام صوبا (لبنان) وآرام معكو (البقاع) وآرام رحوب (الجولان) بلاد السوريين. وعلى هذه الممالك أطلق سلوقس نيكاتور (٣٠٥ ــ ٢٨٥ق.م) اسم سورية وجعله ولاية منفصلة عن العراق. وجعل عاصمتها أنطاكية. وعندما احتل الرومان سورية عام ٦٤ق.م أطلقوا على كل من يتكلم الآرامية اسم سورروس Syrus أي سرياني.

وفي زمن الإمبراطور سبتموس سيفروس عام ١٩٤م قسمت ولاية سورية إلى أربعة أقسام هي:

١ ــ سورية المجوفة Syria coele.

٢ ــ سورية الفينيقية Syria Phenic.

٣ ــ سورية فلسطين Syria Palestina.

٤ ــ المقاطعة العربية (عاصمتها بصرى) Provincia Arabia.

وإلى هذه التقسيمات لجأت معاهدة سايكس ــ بيكو، وحددت سورية بالحدود المعروفة اليوم. وقد اعترض المفكر السوري أنطون سعادة على هذه الحدود إذ قال: «إن المؤرخين الأجانب هم الذين أصبحوا يعرفون سورية وحقيقتها على الأشكال التي تقرها تلك الدول الأجنبية، وقسموا أرض سورية، وعرفوها بالأسماء التي يقررونها لها.»(٤)

ماري مدينة الفن والنخيل

الموقع والتاريخ

تقع ماري في موقع ممتاز على الضفة اليمنى لنهر الفرات قرب البوكمال. وعندها تنتهي زراعة النخيل، لتبدل المناخ، وتبدأ المدن السورية. في عام ١٩٣٣ نقّب في ماري فريق من العلماء الفرنسيين في موقع الصالحية، برئاسة العالم أندريه بارو، وقد عثر على كنوز من الرقم الطينية هي مكتبة ماري القديمة، وعلى ضوء تلك الرسائل أعيدت كتابة تاريخ الشرق القديم كله.

كيف كانت ماري في مجدها الغابر؟

كانت ماري إحدى المدن City – State السورية المستقلة، والتي يطلق عليها المؤرخون «عهد الممالك الصغيرة». جاء في إحدى رسائل ماري من حاكم ناصور: «لا يوجد ملك واحد قوي حقاً بمفرده، وإن كان ثمة عشرون ملكاً يسيرون في ركاب حمورابي ملك بابل، ومثلهم في ركاب آموت بي إيل ملك قطنوم (قطنة ــ شرق حمص) وعشرون ملكاً يتبعون يا ريم ــ ليم ملك يمحاض (حلب). وفي السنة ٣٢ لحكم حمورابي سقطت مملكتي لارسا وماري بيده، وبعدها سقطت توتول (الرقة) وإيمار (مسكنة) وإيبلا ويمحاض في السنة ٣٥ لحكم حمورابي البابلي(٥). وقد ذكر حمورابي أنه دمّر ماري وجعلها أنقاضاً. نعم لقد أزال من التاريخ درة المدن وإحدى عجائبه القديمة.

عثر في ماريَ على وثيقة تذكرَ أن المؤسس الأول لمدينة ماري هو المدعو (إنَّ ــ داجان) Enn – Dagan وأنه كان معاصراً لملك إيبلا اركب دمو بن اجرش خلم. ويذكر إن ــ داجان أن أسلافه الأربعة من الملوك في القرن (٢٥ق.م). ويذكر فتوحاتهم. ومن هؤلاء المدعوان آنوبو وسامعو، هما المؤسسات للفتوحات والتوسع، وقد استطاع بعدهما أشتوب ــ عشتار احتلال مدينة إيمار التابعة لمملكة يمحاض، وأقام معاهدة سلام مع ملك إيبلا اركب ــ دمو بعد أن دفع له أربعة كيلو من الذهب. وعندما جاء الملك الأكادي سرجون الأول احتل ماري وبعدها توتول وأعلن نفسه من معبد داجان في توتول أنه ملك المعمورة، وأن الإله داجان وهبه البلاد إلى البحر الأعلى (البحر الأبيض المتوسط).

إن فتح سرجون لسورية نشط التجاري السورية، وأصبحت ماري مركزاً لتجارة دولية، بين وادي الرافدين والساحل السوري، أوغاريت وجبيل، وعهد إليها حماية وخفر الطريق الجنوبي بين قطنة وحاصور في فلسطين. لقد وجدت رسائل من ماري تدل على وجود وصلات تجارية بين ماري ومصر عن طريق مدينة جبيل الساحلية.

وضع العالم الإنكليزي جاردنر مخططاً للطريق البرية بين مصر ومدينة جبيل يبدأ من حدود مصر الشمالية ويدخل أرض فلسطين عند رفح وغزة ثم يتجه الطريق نحو الشمال متوجهاً إلى البادية السورية باتجاه قطنة (قطنوم). ويذكر أنه كانت هناك آبار على طول الطريق، وأقيمت خانات لاستراحة المسافرين وحيواناتهم، وقوة عسكرية لحفظهم من اعتداءات البدو والعابثين. ثم يتعرض لتجارة مصر وحاجتها إلى الأخشاب والزيت (جبيل) والخمر والمعادن (النحاس والقصدير) من أوغاريت وآسيا الصغرى، وكانت مصر ترسل بالمقابل إلى المدن السورية الساحلية والبرية، العسل والحبوب

وقماش الكتان والأواني الحجرية (الألباستر) والعاج والذهب، وقد عثر منها في مدينة جبيل على طائر عاجي بديع مجلوب من مصر من عهد الفرعون (خع سخموي) آخر ملوك الأسرة الثانية(٦).

صارت ماري تستورد بضائع الخليج العربي والهند وتحملها إلى مصر وآسيا الصغرى، وهكذا لم تعد تجارة ماري تجارة مدينة، بل تجارة دولة مصدّرة. ذكرت رسائل ماري أن رجلاً من أهل فلسطين من مدينة حاصور يدعى مسري (Misri) سرقت بضاعته وهو في طريقه إلى ماري قرب نهر الفرات(٧). وهكذا تكوّن طريق التوابل والعطور.

كانت عشائر بني يمين تخفر الطريق الجنوبي، وقبائل العبيرو يخفرون الطريق الشمالي وأصبحت ماري سيدة القوافل المتجولة بين سورية وآسيا الصغرى، وكذلك القوافل المتجهة نحو الجنوب باتجاه حاصور، وكان نهر الفرات يحمل تجارة سورية من خمور وزيت وكتان ومعادن نحو بابل وهذا لا يمنع أن تعتدي أحياناً بعض القبائل على طرق التجارة. تذكر رسائل ماري أنهم قبضوا على بعض عشائر بني يمين، ولم يسمح لهم بالعودة إلى مضاربهم إلا بدفع مبلغ من المال كفدية.

كانت القبائل الرعوية تتجول في بادية الشام وبادية الجزيرة وقد يصلون في سنوات المحل إلى العمق إلى مدينة آلالاخ، وكانت الطريق بين ماري وقطنة آمنة خصوصاً بعد أن أمّنت لهم ماري مشكلة المياه في حفر الآبار والعيون. وكان تجار إيمار يزاحمون تجار ماري بحكم علاقاتهم السياسية الجيدة مع يمحاض (حلب) وتوتول (الرقة) وزلبا (حمام التركماني) على البليخ، إذ كانوا يصلون إلى الأناضول، وكانوا يجلبون الخشب والمعادن والعسل لتصديرها إلى ماري التي تصدرها باتجاه وادي الرافدين(٨).

كان الطريق باتجاه قطنة أكثر أمناً، وكانت توجد جاليات من بلاد بعيدة، لذا يكثر التراجمة (ترجمانو) إذ يتواجدون في الخان المخصص لهم (بيت كاريم) حيث يوجد ممثل لدولته من أجل تحصيل الضرائب ولفض الخصومات بين التجار الغرباء وأهل البلد. وهناك المحتسب وهو الموظف المدني الذي يشرف على التجارة في ماري (بيت عليم) أو بيت المدينة، وكان يوجد لماري مثله في الأناضول(٩). كانت ماري مدينة سامية يقطنها شعب آموري. يقول أندريه بارو: «وأول ملك فعلي مؤسس للسلالة الحاكمة هو إن ــ سود، وقد تربع على عرش مدينة ماري حوالي مدة ثلاثين سنة في عهد سلالة أور الأولى السومرية. ولكن ثقافة ماري كانت سومرية إلا أن لغتها سامية، وقد أدى تلاقح الثقافات المختلفة إلى إبداع فن ناضج بعد أن كانت السيادة فيه للفكر السومري في البداية.»(١٠) وكان ذلك بفضل التجارة التيكانت أهم أدوات التواصل.

ذكرنا من قبل أن ماري عرفت بداية ازدهارها في عهد ملك أوروك السومري لوغال زاكيري (٢٥٠٠ق.م) وبلغت أوج نشاطها التجاري في الوقت الذي سقطت في يد حمورابي عام ١٧٥٠ق.م. وذهب معظم سكانها في السبي، واختفت السلالة الملكية سلالة زمري ــ ليم دون أن تترك أي أثر. ولكن مدينة ماري ظلت تمارس حياتها ونشاطها وتحولت إلى مدينة ثانوية. ورد في خط سير الملك الآشوري توكولتي نينورتا الأول (١٢٦٠ ــ ١٢٣٢ق.م) اسم ماري، ومعنى هذا أنها كانت موجودة، لأن إحدى الوثائق تذكر أن جماعة من أهل رابيقوم انتقلوا من أكاد في أعلى الجزيرة السورية، وكان منهم الكتّاب والأطباء والكهنة، وتم توزيعهم على بلاط الملك يسمخ أدد في ماري وأخيه اشمي ــ داجان في كالاتوم. إذن لم يكن التنقل بهدف

الإتجار، بل كان الناس ينتقلون لأسباب قد تكون دينية كالحج إلى توتول وتقديم النذور للإله داجان. وكانت نذور ماري تقدم إلى داجان، وكذلك نذور أهل لارسا في جنوب العراق.

تاريخ ماري السياسي:

لعبت ماري دوراً بارزاً في تاريخ المنطقة في زمن ملوكها المؤلهين. والسؤال المطروح: كيف كان الوضع السياسي لمدينة ماري؟

كان أكثر ملوك ماري سطوة الملك يخدون ليم حاكم ماري وتوتول ومنطقة قبائل خاي في كركميش. دلت على ذلك مكتبتها العامرة بالوثائق. وفي زمنه قاموا بثورة ملوك سماتوم وتوتول وأباتوم وكانوا قد تلقوا دعماً من الملك سومو ـ أبوخ حاكم يمحاض (حلب)، ولكنه انتصر عليهم وشتتهم وغزا إيمار التابعة لمملكة يمحاض، ووصل إلى جبال الأمانوس حول أوغاريت، التابعة لمملكة يمحاض، وجعل لماري سطوة بين الممالك القديمة. وممن تحالف معهم إشخي ـ أدد ملك قطنة. وكانت مدينة توتول (الرقة) تابعة له. هذه رسالة ترجمها اللغوي بيير فيلارد P. Villard نصها: «إلى مولاي يقول خادمك يسمخ ـ آدد، فيما يتعلق بمدينة توتول، فقد سبق لادم ـ ماشوم وماشيا قد قابلا مولاي، وقد أمرهم بما يلي: أعطوا مياه البليخ كلها إلى توتول من أجل أن يتوسطوني على البليخ. وقام بسد مياه البليخ علينا. فكتبت إليه (يسمح ـ آدو) جواباً : هل تعتقد أني أفعل هذا بدون مشورة رئيسي أشكور لوثيل (قائد الحامية)؟ إنه هو والذي أمرني، وأنا قمت بسد المياه. ويتساءل كاتب الرسالة: هل يمكن أن يكون هناك مشرفان؟ مولاي يجب أن تبعث بأوامرك الصارمة إلى أشكور حتى لا يحتج علينا ويعيد المياه إلى

توتول. ماذا تفعل توتول بلا مياه؟» هذا النص أن مياه البليخ كانت تتوزع بأمر ملك ماري يخدون ليم. الذي توفي في السنة الثانية عشرة لحكم حمورابي البابلي(١٠).

الملك زمري ليم ملك ماري:

عاش فترة في بلاط ياريم ليم ملك يمحاض على أثر ثورة عليه في ماري بعد وفاة والده، فتزوج الأميرة الحلبية شيبتو ابنة ياريم ـ ليم واجتمع في عرسه أكثر من عشرين ملكاً في بلاط يمحاض. عاد زمري ليم إلى نشاطه السياسي واستعاد سيطرته على ترقاو توتول. ترجم العالم جورج دوسان عام ١٩٧٤ رسالة جاء فيها: «إلى مولاي زمري ليم، هكذا يقول لاناسوم خادمك، أن جماعة من العبيرو قد وصلوا إلى توتول، وأعلنوا الاتفاق التالي: بما أن زمري ليم لا يرد التخلي عن المياه لكم، أعطونا موافقتكم التامة، وسنعطيكم مياه البليخ بالكامل، هذا ما قالوه. ولهذا السبب فإن أهل توتول قبلوا الرسالة المعدلة لقراركم، كما أننا نخبركم أن إيشوب ـ داجان قد حرّض أهالي توتول ضد مولاي الملك فليكن بعلم مولاي، ولينظر في الأمر(١١).

قام زمري ليم بحملة في الشمال، ثم قام بزيارة أوغاريت مع حميه زمري ليم ملك يمحاض، وكانت أوغاريت هامة بالنسبة لماري لتصدير القصدير والنحاس إلى وادي الرافدين، وسمح لملك أوغاريت بزيارة قصر ماري الذي يعد أعجوبة العمارة الرافدية. ووصلت رسالة من المدعو يمسوم Yamsum إلى زمري ـ ليم تقول له: أنه بعد وفاة شمشي أدد الآشوري، لم يبق سوى أربعة ملوك عظام هم: حمورابي ملك بابل وريم سن ملك لارسا وأموت بيل ملك قطنة وياريم ليم ملك يمحاض(١٢).

وعندما توفي ياريم ليم ملك يمحاض في السنة التاسعة من حكم زمري ليم، ظلت العلاقات جيدة مع حمورابي الأول ملك يمحاض(١٣).

الوضع الاجتماعي والثقافي:

عاشت ماري في بحبوحة من العيش، تعيش من زراعة وتجارة مزدهرة. كانت القوافل الآتية من جنوب فلسطين من حاصور تمر عبر قطنة، وأصبح اقتصاد ماري اقتصاد دولة وليس اقتصاد مدينة. كان القصر الملكي يكرم التجار بإقامة الحفلات التي يسيل فيها الخمر متدفقاً. ففي إحدى الحفلات أهدى التاجر داريما أكثر من خمسمائة جرة فيها ثلاثة أصناف من الخمر، (الأحمر والأبيض (المقطر) وصنف ثالث أقل جودة) أهداها للملك زمري ليم في عيد الإلهة نرجال، وتم استلام ٣٢٠٠ لتر من الجعة وكمية من اللحوم والفواكه والزيت والتوابل دونها رئيس المطبخ الملكي إيلو ــ كانوم. وكان هذا الاحتفال يقام شهرياً في بستان النخيل، وكان الملك يترأس الاحتفالات بحضور الكهنة والنبلاء وقادة الجيش. وقد يشترك بالحفلة أكثر من مائة شخص. ولكن تلك الحفلات تثير غضب العامة. وقد طاف المدعو حانيان في القرى ليقنع الملاك العقاريين والمزارعين بأهمية هذه الاحتفالات وأن لا يعترضوا على الاحتفالات الملكية، وأن ينخرطوا في الخدمة العسكرية(١٤).

جاء في وثائق حاكم ترقا (العشارة) يحث الملك زمري ــ ليم أن لا يمل من تقديم القرابين الجنائزية عن روح والده يخدون ليم ملك ماري الراحل. وكانت هذه الولائم تقام مرتين كل شهر في بستان النخيل في القصر. كانت ماري تسيطر على القبائل الرعوية بواسطة إثارة الخلاف بينهم، بتعيين

رؤساء جدد لهم جاء في إحدى وثائق ماري أن بني يمين كانوا يغيرون على القرى المجاورة. فاستعان حاكم أشلاكا المدعو إيبال حدو وأخوه وباح ــ حدو بألفي رجل من العبيرو للإغارة على البدو الثائرين.

كانت الطريق الجنوبية بين ماري وقطنة بخفراء من بني يمين، وقد وزعت عليهم الدولة ثياباً جديدة عند إقامتهم في ماري، وكانوا في نوبة حراسة لمقتنيات من ماري أثناء عودتهم من قطنة(١٥).

امتدت تجارة ماري إلى جزيرة كريت Kaphtor وكان في ماري رجلاً مترجماً وإنه جلب إلى ماري من جبيل من قبل المدعو ينتن ــ أمو إناءً ذهبياً للملك زمري ــ ليم خلال السنة التاسعة من حكمه(١٦).

أما بالنسبة للدين والأدب والفن، فقد كانت الأساطير الرافدية والأوغارتية والفينيقية سائدة في بلاط ماري. وتمتاز العمارة السورية عن المعابد الرافدية، فمعبد الإله داجان في ماري وتوتول لا يمكن فصله عن تطور الفن البابلي والأوغاريتي، والاختلاف كان ينحصر في التراتيل والأناشيد وكانت القرابين من الكباش، وهي تؤكل، بينما في بابل تلقى في النهر.

أما بالنسبة للباس فهو يدل على الوضع الاجتماعي. فلباس المرأة أكثر احتشاماً من لباس المرأة في بابل وأور. وترتدي المرأة جلباباً وغطاء للرأس يخفي مفاتنها. ويلبس الرجال ثياباً من الكتان الأبيض وعباءة من الصوف الملون. وكان للرجل لحية تهبط على الصدر بينما الرأس حليقاً.

يقول أندريه بارو: «يجب أن لا يغرب عن البال لبس ثياب مبللة في الصيف مما يثير الفتنة لدى الرجال، وهذا من دهاء النساء الأنيقات اللاتي يردن المحافظة على الحشمة وإثارة الفتنة في اللباس الجريء.»(١٧) كان الزنا محرماً ويعاقب عليه بأقصى عقوبة طبقاً لشريعة حمورابي (المادة

١٢٩). وكان القماش الأزرق والأرجواني (التاكلتو)من القماش المرغوب به في ماري، وكان يستورد من أوغاريت وجبيل.

الملكة شيبتو الحلبية:

كانت الأميرة شبتو بنت ياريم ــ ليم ملك يمحاض. تزوجها الأمير زوي ليم (١٧٨٠ ــ ١٧٦٠ق.م) ملك ماري. وكان قد التجأ إلى مملكة يمحاض على أثر ثورة قامت في ماري. وبقي الأمير لاجئاً طيلة حكم الملك الآشوري شمشي ــ آدو. عاد زمري ليم إلى ماري مع زوجته الملكة شبتو، بعد رسائل حب متبادلة حوالي سبع عشرة رسالة. بيّنت صفات الأميرة شبتو الإخلاص لزوجها، وكانت تلتجئ إلى الكهنة والعرافين المتنبئين لمعرفة ما يجري من أحداث المستقبل. درس الأستاذ جورج دوسان ظاهرة النبوءة من خلال رسائل الملكة شبتو، وهي التي كانت تنقل إليه نبوءة الآلهة آنو ــ نبتوم بوساطة الكاهن المتنبئ، والنبي المعتمد على الأحلام. ولكي يتأكد الكاهن من صحة النبوءة كان يأخذ خصلة شعر أو جزء من ثياب الإنسان المتنبئ له وتجري عليها بعض الطقوس. وعلى الكهنة أن لا يكتموا عن الملك تلك النبوءات التي قد تثير أزمة إذا سرّبت إلى الخارج.

وكانت تلك الرسائل غايتها أن تشد أزره، وتحثه على الصمود، وكانت الرسائل التي يرسلها زوجها يطلب فيها بإلحاح أن تزوده بالأخبار الدائمة، أخبار القصر وأخبار المدينة أثناء غيابه. ومن تلك الرسائل رسالة تخبره فيها أنها أنجبت له طفلين توأمين (ولداً وبنتاً) وكانت ولادة التوأم فأل حسن عند أهل ماري. أما الرسالة الأخرى تخبره فيها أنها حاكت له ثوباً ومعطفاً من الصوف الناعم الملون وتوصيه بلبس الصوف اتقاء للبرد. وفي رسالة ثالثة

تخبره عن تجارة الخمور التي كانت تشرف عليها وتقول له أن الملك حمورابي البابلي أرسل مندوباً يطلب بعض الخمور الجيدة. وأرسلت للملك زمري ــ ليم إحدى بناته رسالة من بلدة لارسا تصف فيها ارشتي ــ ابا زوجة ملك سيبار، وتصف وضعها البائس وإن كانت شقيقة حمورابي البابلي وأنها تعيش معها في القصر.

كان حامل رسائل الملك زمري ليم القائد العسكري ابال ــ بي ــ ايل Ebal – pi – el، وهو رجل موثوق به يوصل إليه الأخبار والإشاعات ويبدو أن هذه الوظيفة (كاتب الرسائل) كانت معروفة في دواوين بلاد ما بين النهرين. ومن رسائل الأمير شبتو التي تدل على طبعها الإنساني واهتمامها بشؤون رعيتها الرسالتان التي أرسلتهما إلى حاكم ترقا (العشارة) وزوجته.

الرسالة الأولى: تطلب من الحاكم الاهتمام بامرأة فقيرة وهي مريضة قلب تعيش الآن في ترقا وتطلب منه مساعدته وإرسال أخبارها.

الرسالة الثانية: مرسلة إلى زوجة حاكم ترقا كبري ــ داجان Kibri – Dagan تطلب منها الاهتمام بامرأة فقيرة اسمها نمّانه Nammane وهي مريضة بمرض معدي Sabtu لعله الجدري أو السل، وتطلب الحجر عليها وعدم مخالطتها لبقية النساء.

هاجم حمورابي البابلي مدينة ماري في السنة (٣٢ و٣٥) من حكمه ويبدو أنها اختفت مع بقية المدن السورية، توتول وإيمار ويمحاض وإيبلا وأوغاريت والآلاخ، وكلها اختفت في فترة تاريخية واحدة، ولم يتوصل العلماء إلى حل هذا اللغز وعللوه بغزو شعوب البحر لشمال سورية.

توتول مدينة الخضرة والأنهار

الموقع والتاريخ:

تقع توتول في الهضبة المنبسطة شرقي المتوسط، بين دجلة والفرات. وكان يسود هذه المنطقة في الألف الرابعة قبل الميلاد مناخ جاف صيفاً، وممطر شتاء بمعدل ٢٥٠مم، مما دعت الحاجة إلى الري الصناعي الذي أدى لقيام حكم مركزي. وفي ذلك الزمن، أعني الألف الرابعة، بدأت مدينة توتول التي يعني اسمها (الآبار) بالتكوين والتطور من قرية صغيرة إلى بلدة ترتبط بمدن الفرات ووادي الرافدين والمدن السورية بعدة طرق تجارية، منها طريقان باتجاه الشمال نحو حران والثاني باتجاه الشمال الشرقي باتجاه رأس العين (جازان) والموصل، وثلاثة طرق في الجهة اليمنى من الفرات:

الأول: يساير نهر الفرات نحو مسكنة (إيمار) ومنها إلى حلب (يمحاض) وإيبلا، وإلى كركميس (جرابلس).

والثاني: ينطلق باتجاه الجنوب من الرصافة باتجاه قطنة (حمص) ومنه إلى حاصور بفلسطين.

والثالث: باتجاه الشرق نحو ماري وإلى مدن وادي الرافدين، لارسا وبابل. وكان نهر الفرات يدعم هذا الطريق المائي في بعض الفصول.

هذا الموقع الاقتصادي الممتاز أدى إلى قيام مدينة توتول، التي كانت في حركة دائمة من قبل قوافل التجار مستخدمين الحمير على الطرق البرية والمراكب في النهر.

وبما أن توتول جزء من المدن السورية، فإنها كانت تستخدم الكتابة المسمارية، واللغة الأكادية التي كانت سائدة، دلت على ذلك الرقم الطينية والأختام الأسطوانية.

بدأت الرقة تندمج في تاريخ المدن السورية، من خلال سير حملة سرجون الأكادي الذي وصل إلى توتول، وزار معبدها الكبير، وقدّم القرابين إلى الإله داجان Dagan إله الخصب، وادعى أن الإله داجان وهب له البلاد العليا حتى جبال الأرز.

الوضع السياسي والاجتماعي:

كان سرجون الأول عندما زار الرقة لأول مرة عام ٢٢٦٠ق.م، نشر الرعب في كل المدن السورية، ولم يكن له منافس ولا عدو. ذكر أوبنها يمر أنه كان يأكل بمعسكر سرجون حوالي ٥٤٠٠ جندياً بحضرته(٢١). وقد تزود من توتول بالميرة لمتابعة سيره نحو غابات الأرز (جبال الأمانوس).

دلّت الرقم الطينية التي ظهرت في ماري وإيمار وإيبلا، أن مدينة توتول لم تشكل مدينة ذات تأثير سياسي مؤثر، يوازي إنتاجها الزراعي والحيواني والحرفي، وكانت دوماً تابعة إما لمدينة يمحاض (حلب) أو لمدينة ماري. وكان ملك ماري يخدون ــ ليم يطلق على نفسه ملك ماري وتوتول. وعندما تحالف حاكم توتول المدعو حلوقولوم مع حاكم حماتوم وشيخ العبيرو المدعو لاعوم وملك أباتوم عيالوم وعشائر الربعيين تدعم يمحاض، ضد يخدون ــ ليم ملك ماري الذي انتصر عليهم وسحق قوتهم في مدينة حماتوم وهدم أسوار توتول(٢٢) وعين حاكماً على توتول المدعو لاناسوم، فقامت ثورة بقيادة يشوب داجان ضد الحاكم الجديد ولكن الملك زمري ــ ليم بن

يخدون ليم، أخمد الثورة وبنى لنفسه قصراً مماثلاً لقصره في ماري، كان يقضي فيه أيام الصيف لأن الهواء لطيف في مدينة توتول.

عندما جاء حمورابي في السنة ٣٥ لحكمه واحتل ماري ودمرها، جاء إلى توتول واستولى عليها، وجعلها تابعة له، وعين فيها حاكماً، وشق نهراً عند مدينة دامانو غرب مدينة الرقة (لعله في قرية دامان ـ عند السلحبية). وظلت توتول مثل بقية المدن السورية ذات صلات تجارية جيدة مع ماري وإيمار وكركميش وزلبا وحران. ومنذ الربع الأخير من الألف الثاني حدثت عوامل عميقة في تاريخ المنطقة، منها صدور موجات بشرية من بحر إيجة وجزيرة كريت أدت إلى نهيار الإمبراطورية الحثية في آسيا الصغرى، واختفت المدن السورية الشمالية في أوغاريت والآلاخ وإيبلا وإيمار وتوتول وماري، واستقرت في هذه المدن قبائل بدوية من الآراميين، ولكن ظلت يمحاض (حلب) تقاوم.

في عام ١٩٨٨ عثرت البعثة الألمانية برئاسة الدكتور ماخولا على رقم طيني في الموقع الأثري في الممباقة غرب الجرنيّة، في مدينة أكلتا Ekelta القديمة مقابل جبل عرودة ذكر فيه اسم شخص جاء من توتول ويقدر زمنه في العصر البرونزي المتأخر حوالي عام ١٣٠٠ق.م في فترة الصراع الحثي الآشوري. وقد أصدر الملك الحثي مورشيلي الثاني (١٣٣٩ ـ ١٣٠٦ق.م) أمراً إلى حاكم كركميش جاء فيه أن لا يسمح لتاجر بالذهاب إلى بلاد آشور، ولا يسمح لتاج منها بدخو لأو المرور بكركميش.

يبدو أن توتول أصبحت مدينة تابعة للحكم الآرامي عندما احتل رجل آرامي مدينة بابل هو المدعو أدد ـ أبال ـ أدنيا (١٠٦٧ ـ ١٠٤٦ق.م)، وظهر التأثير في المدن السورية وذلك باستخدامهم للعربات في الحروب،

وإتقانهم لتربية الخيل مما جعلهم قوة سياسة، وأوكلت إليهم خفارة الطرق التجارية في آسيا الصغرى وإلى موانئ البحر المتوسط واستولوا على الساحل الكنعاني، وأسسوا عدة ممالك آرامية، وقامت بينهم وبين الآشوريين حروب طاحنة.

جعلوا من بعض المدن مراكزاً لهم مثل الرصافة (راسابا) التي كانت مقراً للحاكم الآشوري شكنوا الذي عهد إليه حفظ الطريق التجارية، وقاد عدة معارك في سنة ٨٥٣ق.م ضد الآراميين وحلفائهم العرب البدو الذين شيخهم يدعى جندب العربي.

وعندما جاء سنحاريب حوالي عام ٧٠١ق.م واستولى على مدن الجزيرة مثل حران وجازان (رأس العين) والرصافة وتل سورا (مقريني عدين)، ثم ذهب إلى القدس وحاصرها وأخذها عنوة، لم تذكر مدينة توتول، وهي جارة تل سورا على الفرات والرصافة التي لا تبعد عنها بحوالي ٢٥ كم. في هذه الفترة دخلت قبيلتان آراميتان إلى منطقة البليخ هي (رخقو وريقو) وفي رأي المستشرق الألماني هونيغمان أن الرقة أخذت اسمها من هاتين القبيلتين، وصارت تعرف باسم (الرقة) لغلبة قبيلة ريقو عليها.

تحققت العالمة الأثرية الدكتور إيفاشتر ومنغر التي قادت البعثة التنقيبية الألمانية منذ عام ١٩٨٢ أن مدينة توتول هي المدينة الأثرية في موقع تل البيعة، وجدت هذا في رقم طيني اكتشفته في سنة ١٩٩٢.

البناء العمراني في توتول:

قامت البعثة الألمانية بالتنقيب في تل البيعة عام ١٩٨٢، فكشفوا عن آثار مدينة تعود إلى الألف الثالث ق.م. إنها مدينة محاطة بسور من اللبن

عرضه ٦,٥م، معزز بأبراج خارجية بارزة عن السور الأصلي، وفي وسط المدينة وعند تقاطع شوارعها الرئيسية تقوم تلة (الأكروبول) إلى علو ١٢ م، ومن حولها وعلى امتداد ٦٠٠ م من الشمال إلى الجنوب، وحوالي ٧٠٠ م من الشرق إلى الغرب انتشرت بيوت الأهالي. وتحدثنا نصوص ماري أن المدينة كانت مطوقة من جميع الجهات بسور، وأن هناك ضاحية سكنية تمتد خارج الأسوار، وعندما توسعت المدينة أثناء حكم يخدون ــ ليم ملك ماري، بني سور جديد خلف الأسوار القديمة مشيداً من اللبن المجفف بالشمس بسماكة ٤ أمتار، ولم تشر النصوص إلى بوابات المدينة.

أما القصر المكتشف، فكان تصحيحه يشبه قصر ماري بأبعاد تمتد من الشرق إلى الغرب حوالي ٤٥ م ومن الشمال إلى الجنوب لم يزل مبهماً لم تصله التنقيبات بعد، وتتصف الجدران بالمتانة وحسن التنفيذ، أما قاعة العرش فهي ذات أبعاد تمتد ٢٤×١٠م، تتصل من الجهة الجنوبية بباب عريض يتصل بقاعة العرش التي دمرها حمورابي عام ١٧٤٠ق.م.

دلت التنقيبات أن القصر قد هجر، ثم جاءت جماعات فيما بعد وسكنوه، وأقاموا جدران داخله، وقسموا القاعات الكبيرة، وفتحوا بعض الأبواب.

أما معبد توتول (معبد داجان) فقد اكتشف في الجهة الغربية وهو يأخذ شكل المستطيل، طول حرمه ١٠م وله ممرات تفضي إلى قدس الأقداس، وهو شبيه بالمعبد المكتشف في مدينة إيمار ويعرف هذا النموذج بالمعبد ذي الردهة الأمامية، وهو من طراز المعابد الشائعة في الجزيرة السورية(٢٤).

كانت الخدمات في المدينة جيدة، فالمجارير تصرف المياه المالحة إلى خارج المدينة عن طريق قنوات مغلقة. وكانت بيوت المدينة مبنية من اللبن، وكانت الجدران صماء خالية من النوافذ، وكانت الدور ذات باحة سماوية

ولكن الغرف كانت صغيرة لقلة الأثاث أول قلة أفراد الأسرة، وأرض الدار كانت تبلط بالآجر المشوي، وفي إحدى زوايا الدار كان يبنى تنور للخبز، وقد لوحظ أن أزقة المدينة هي الأخرى ضيقة، وقد التصقت بعض الدور بالسور الخارجي.

النشاط الحرفي والتجاري:

كانت معرفتنا عن النشاط الحرفي قليلة، ولكن من ظهور اللقى الأثرية، الرقم الطينية، والأدوات المنزلية، تبين لنا أن هناك صناعات حرفية ذات تقنية عالية نسبياً. فصناعة الفخار تقوم على الدولاب، وهناك النول في صناعة النسيج الصوفي والكتاني مما يدل على تطور حياكة الثياب، ومن المعاصر للزيت والخمر نستدل على وجود كميات منها كانت معدة للتصدير.

عثر على أختام أسطوانية عليها أساطير رافدية. وكانت هناك صناعة حلي متطورة، عثرنا عليها في قبر طفل صغير، على صناجات مصنوعة من الفخار، كما عثرنا على قبر امرأة تضع على رأسها إكليلاً له وريقات فضية. وكان السكان في البداية يدفنون موتاهم تحت أرضية المنازل، ثم صاروا في مرحلة تالية يدفنون في مقبرة خارج المدينة، وفيها لقى جنائزية كثيرة.

كانت مدينة توتول قد اشتهرت بصناعة السفن لتوفر خشب الحور على ضفاف الفرات. وقد استدعي مرة معلم حرفة النجارة المدعو سلياع من مدينة شبات ـــ شمش لبناء ستين قارباً(٢٥).

كانت الحرف في توتول متطورة. وقد وجد في مدينة سيبار في العراق على فأس معدنية جميلة من الحديد عليها محفور اسم توتول. وفي الرقة القديمة توتول أحصيت عدة حرف كالحدادة والنجارة والدباغة وحياكة

الصوف والصباغة والخياطة، وتربية الماشية وصناعة مشتقات الألبان. وكانت النسوة يعملن في غزل الصوف والشعر والكتان، والرجال ينسجونها. وتعمل النسوة في جر السفن في نهر الفرات، بينما يعمل الرجال في الفلاحة وكتابة العقود.

كان طعام الناس الأساسي خبز الشعير وخبز الحنطة، الفطير والمخمر، وأكل الحبوب المدقوقة والمنقوعة والخضار واللحم، المطبوخ والمشوي من لحوم الماعز والضأن والبقر هي الطعام الشائع. وكانت التمور تستورد من ماري لأن النخيل قليل في توتول. كانت التجارة داخل مدينة توتول عامرة بالبضائع المجلوبة من بلاد بعيدة. وكانت توتول تصدر الثياب والزيت والطحين والفاكهة المجففة (التين) والخمور والأواني النحاسية والفضية وأدوات الفلاحة المعدنية. وكانت القوافل تنقل البضائع بين حران وتوتول ومنها إلى إيمار في ثمانية أيام. وقد عثر على رقم طيني في مدينة سيبار ذكر فيه على وجود وكيل تاجر (شامالوم) في مدينة توتول. كان يمثل التاجر الكبير تاماكاروم، وان يقرضه المال بفائدة ٢٠% والفضة ٣٣,٥% على سلف الشعير. وكان التاجر الصغير الذي يتجول في القرى (الصوخارو) حاملاً بضاعته على كتفه أو على حماره ليبيعها بالمفرق، وكان السوق الكبير في توتول يشرف عليه وكيل التجار وهو مسؤول عن جمع الضرائب يساعده موظف يدعى (وكيل آتام) لقمع المخالفات ومراقبة الأسعار والمكاييل والأوزان.

جاء في شكوى لحاكم كركميش المدعو إبلاخاندا إلى حاكم ماري يسماح حدد يقول فيها إن بعض التجار من مملكة ماري قد احتجزوا في

كركميش لأن حاكم توتول لاناسوم قد احتجز ثلاثين خروفاً وخمسين جرة من الخمر وزوجة أحد الملاحين من كركميش.

كانت مخازن توتول المعدة لتصدير الحبوب (الشعير والحنطة) مملوءة. وقد اكتشف في إحدى ضواحي زلبا (الصبي الأبيض) على مخازن القمح النشوي الوحيد الحبّة، والشعير المعد لصناعة الجعة، وهناك الرحى الحجرية الدائرية، والرحى المستقيمة المكونة من لوح وحجر لسحق الحبوب، وهناك الجرار الكبيرة المعدة لتصدير الزيت والخمر، والأدوات الفخارية المعدة للتصدير.

النشاط الزراعي والاجتماعي:

يعلل جوردان تشايلد العالم الأثري الأوسترالي، أن المدن الأولى قامت في وادي الفرات من هيمنة الإنسان على الطبيعة. فتغير مجرى الثقافة باختراع المحراث وعربات القتال حيث قامت ثورة عمرانية وزراعية معاً(٢٦)، وصار الإنسان ينتج أكثر مما يستهلك. وانتشرت زراعة الحقول على نطاق واسع، تحت رقابة الدولة التي تملك الأرض والمياه، وصارت مخازل الدولة مملوءة بالحبوب، وصار الحاكم يلقب باللوكال أي نائب الإله، وصار يخدون ــ ليم يفتخر بأنه مالك ماري وتوتول الذي شق الأنهار وجعل دلاء سحب الماء من الآبار مهجورة في بلاده. وجاء في رسالة موجهة من حمورابي إلى حاكم توتول سن أدنيام: «ادع الناس الذين لهم حقولاً على جانب قناة دامانو بأن عليهم تطهير القناة خلال هذا الشهر.»(٢٧)، وقناة دامان لا زالت آثارها موجودة غرب مدينة الرقة.

كان هناك ثلاثة أنواع للزراعة:

١ ــ الزراعة المروية بالراحة: Bit –me، وكان النهر المشتق من النهر يدعى خيرتو Khirtu أو والخور. وهناك القنوات الأصغر والسدود ويدعى السد Sakar، ولا زال السد في قرية صكيرو يحمل نفس الاسم على نهري الهيشة وخنيز (أخني) القديمة وتكثر هذه الزراعة على نهر البليخ.

وفي نص من حاكم زلبا (حمام التركمان على البليخ) يشكو إلى ملك ماري زمري ــ ليم أهالي مدينة توتول الذين يحرضون قبائل العبيرو لكسر السدود في فصل الصيف، حين انخفاض منسوب الماء وشحها.

وكانت الزراعة في الحقوق الكبيرة القمح والشعير والرز والبقول والخضار والكتان.

٢ ــ الزراعة المعتمدة على الدلو Bit – dalu

هذه الزراعة تكثر على نهر الفرات. وهذه الزراعة عبارة عن جذع شجرة طويل يتوازن من وسطه على نقطة ارتكاز، حيث يجعل الدلو في الطرف الأقصر، وعلى الذراع الأطول يضغط الرجل فيصعد الدلو ويصب الماء في الساقية. وهذا النوع من الزراعة يعتمد على نظام الغمر. كانت الحقول على ضفاف نهر الفرات عرضة للفيضانات وتدمير كل أجهزة الري من سدود وقنوات.

٣ ــ الزراعة المعتمدة على مياه الآبار والعيون:

كانت بدايات الزراعة في مدينة توتول تقوم على الإرواء من الآبار لذا سميت بتوتول. وكانت الزراعات صغيرة متناثرة، زراعة الحواكير، أو زراعة البساتين من فاكهة وبقوليات.

وهناك الزراعة البعلية التي كانت تعتمد على مياه الأمطار وهي مخصصة لزراعة الشعير والقمح. ومن المعتقد أن البستنة لعبت دوراً هاماً في رفع إنتاجية العمل وظهور التخصص الزراعي، وتطور عمليات التبادل التجاري مما ساعد على تسريع تشكل الطبقات. كانت الدولة تشرف على الزراعة، وهناك المساحون الذين يشرفون على عملية الزراعة، وكان القصر يقرض البذار وأدوات الفلاحة والحيوانات التي تجر المحراث.

كان السكان الأصليون لمدينة توتول من قبائل بدوية (عربية) من بني يمين. جاء في نص من مدينة ماري (لوح تأسيسي) يذكر اسم ملك توتول باسم (باخلولوكيم) زعيم عشيرة أمتاتوم التي نصبته ملكاً على توتول، وكانت تلك العشيرة فرع من قبيلة بني يمين، التي كانت متحالفة مع العبيرو وشيخهم المدعو لاعوم، وزعيم عشائر الربعيين ملك إيماتوم المدعو عبالوم.

وكان هناك سكان المدينة الذين ينقسمون إلى ثلاثة طبقات:

١ ــ الأحرار: وهم الذين يملكون الأراضي العقارية، ولديهم عبيد يستثمرونهم في العمل الشخصي والملكية الزراعية، ومنهم التجار الكبار الذين يرسلون عنهم وكلاء إلى البلاد البعيدة. وكانت الدولة هي التي تملك الأراضي، وتهبها للمحاربين، وللكهنة، وبعض شيوخ العشائر لقاء تقديمهم خدمات للدولة.

٢ ــ الفقراء والمساكين: وهم الذين يملكون أدوات ووسائل الإنتاج، ويستثمرون جهدهم العضلي في الصناعات والحرف. وكان قسم كبير يفلس أحياناً. وكان يسمح للحرفي ببيع إنتاجه ويدفع للدولة ضريبة، ويبيع منتوجه الزراعي ويدفع للدولة ضريبة.

٣ ـ العبيد: وهم المحرومون من أي ملكية والواقعون تحت سلطة أسيادهم مالكي العبيد. وهؤلاء لا يملكون إلا جهدهم العضلي، وإنتاجهم يكاد يسد رمقهم وكان يمكن للعبيد في توتول شراء حريتهم من التجارة والإنتاج الحرفي.

وكانت الأعراف والتقاليد هي التي تسود داخل القبيلة، وكانوا يسكنون تحت خيامهم التي ينتقلون بها من مكان إلى آخر حسب تجعتهم أو ترحالهم، وقد دجنوا الجمل واستخدموه في حلهم وترحالهم. وكانوا يغيرون على القرى المجاورة، ويفسدون الزرع. ولاتقاء شرهم كان الفلاحون يدفعون لهم أتاوة أو جزية. ولم يكن بين الرعاة تمايز فكلهم أحرار، وهناك بعض العبيد الذين يخدمون الشيخ ويحرسونه.

وعرفت البادية السورية تشكيلة صيد. يتجولون في البادية بحثاً عن الطرائد وأكثر طعامهم من لحوم الغزلان والحمر البرية، ويتنقلون حول قطعان الغزلان. وقد كشف التصوير الجوي حول الرصافة وجود مصائد جماعية، وبالقرب منها وجدت آثار السهام والبلطات. ولا وجود لطبقات اجتماعية لدى هؤلاء الصيادين. هذه القبائل حتى العصر الحديث وهم الذين يعرفون بالصليب أو الصلبة.

الدين والعبادة:

لم تترجم الرقم الطينية التي اكتشفت في توتول. لذا لا تعرف عن الأدب والثقافة الدينية إلا من خلال ما كشف من نصوص دينية في ماري وإيمار. وقد بينت النصوص أن الإنسان في ذلك العهد كان متديناً يكثر من الصوم والصلاة وتقديم النذور للإله داجان Dahan (إله الخصب) وكان هذا

الإله رمز للمدن السورية الشمالية في ماري ويمحاض وإيمار وإيبلا وقطنة وأوغاريت والآلاخ. وكانت شهرة هذا الإله قد وصلت إلى بابل وأور منذ عهد الأكادي (سلالة أور الثانية) وظهرت تماثيله والمتعبدين له، وهم يشبكون أيديهم أمام الصدر كحال المسلم الذي يقف في الصلاة، ورؤوسهم محلوقة ولحاهم طليقة والشوارب محفوفة، وثيابهم قصيرة وأكتافهم عارية، كأنهم مسلمون يطوفون حول البيت في الحج. كان الشعب في توتول وإيبلا وإيمار وماري يعبد آلهة متعددة، وكان يترأس مجمع الآلهة الإله داجان Dagan. يقول بونغارد ليفن: «يبدو أن الإله داجان كان أهم الأرباب وظل يتصدر لائحة مجمع الأرباب الكنعانية على مدى الألفين الثاني والأول قبل الميلاد. وقد أطلق اسم داجان على الشهر الأول من أشهر التقويم الإيبلائي وسميت باسمه إحدى بوابات مدينة إيبلا، وكانت نصوص إيبلاد تسميه برب الأرباب.»(٢٨).

وعلى الرغم من تطور أشكال وطقوس ومحتوى الأساطير الدينية، كان جوهر الدين السعي لإخافة الناس من عقاب الآلهة في حياتهم وفي مماتهم. ووكانت جهنم معدة للآثمين والجنة معدة للصالحين العابدين القانتين. وكانت الديانة تدعو لتأليه الملك.

وقد ارتبط بالدين تطور علم التنجيم والشعر وفن النحت. كما ارتبطت الهندسة والرياضيات بعلم الزراعة، وارتبط الحساب بنظام المعاملات وحساب البضائع والربح والخسارة، والفن والنقوش بالحفر على الأختام الأسطوانية، حيث احتوت تلك الأختام على الأساطير الدينية.

إيبلا مدينة القوافل البعيدة

الموقع والتاريخ:

في التاريخ القديم تسترجع الوحدة الكلية للجنس البشري، تلك الوحدة التي تصدّعت بفعل الزمان والمكان. ولكن بوساطة العقل نسترجع الماضي ونحكم عليه بغية توجيه الحاضر، وهذا ما سوف أفعله حين استعادة تاريخ إيبلا.

كان العصر الذي سبق اكتشاف محفوظات إيبلا الملكية، يسمى عصر الظلام السوري. وقد قال المؤرخ الألماني فون سودن Von Soden صاحب المعجم الأكادي: «لم يكن لسورية والأناضول تاريخ في الألف الثالث ق.م، وذلك لأن شعوبها لم يعرفوا الكتابة والتدوين. وبعد ظهور وثائق إيبلا عام ١٩٧٤م تغير الأمر. قال المؤرخ الأمريكي غيلب Gelb عام ١٩٧٨: «إن حضارة إيبلا قد أزاحت الستار عن حضارة جديدة ولغة جديدة وتاريخ جديد.»(٢٩)

كيف ظهرت إيبلا إلى الوجود؟

للموقع دور كبير في تشكل المدن. لأن المدينة تقوم على شبكة من العلاقات التجارية والسياسية تربطها مع المدن الأخرى، وعلى هذا الأساس، جاءت بعثة فرنسية للتنقيب في تل مرديخ الواقع على الطريق العام بين حلب وحماة وإدلب. وقامت ببعض الاختبارات في أعلى التل الذي يرتفع عن السهل المنبسط بحوالي ١٥م، ولم تعثر البعثة على أي شيء يثير الاهتمام فتركت التل.

وفي عام ١٩٦٣ عثر فلاح في أعلى التل على تمثال حجري، عليه الكتابة التالية: «تكريماً للآلهة عشتار شيَّدتُ أنا أبيت ــ ليم بن الملك أجريش ــ جيبا حوضاً للطهارة ووضعته في المعبد، من أجل حياتي وحياة أبنائي، ولكي تكون عشتار راضية علينا.»

سمع العالم الإيطالي باولو ماتييه بهذا الاكتشاف فطلب الإذن بالتنقيب في هذا الموضع. ودلته الكسر الفخارية المتناثرة على سطح التل أنه يعود إلى (٣٠٠٠ ــ ١٢٠٠ق.م) وعلى عصور أخرى متعاقبة منها العصور الحثيّة والأخمينيّة والهيلنستيّة والرومانيّة. وباشرت البعثة التابعة لجامعة روما بالتنقيب المنهجي منذ عام ١٩٦٤، من أعلى التل (الأكربول) في مساحة ٢٧٠م.

ظهرت لهم المدينة، مسورة بسور امتداده ١٨٠٠ ×٧٠٠م، وكانت المدينة تتخللها أودية. وقدّرت مساحة المدينة بحوالي ٧٥ هكتار وقدّر عدد سكان المدينة بخمسين ألف نسمة، وقدّرت المدينة والضواحي المحيطة بها بحوالي ٢٦٠ألف نسمة، كما ظهرت في النصوص(٣٠).

إن الآثار تدل على أنها مدينة عظيمة، ولكن ما اسمها؟ ظل الأمر مجهولاً إلى شهر آب ١٩٧٥م عندما اكتشف أرشيف إيبلا الملكي. واستطاع العالم الإيطالي جيوفاني بيتيناتو إعادة قراءة ما كتب على التمثال الحجري السابق فعرف من لقبه (ملك إيبلا) أنها إيبلا التي تذكر كثيراً في نصوص ماري وإيمار وقطنة. وعرفنا من الرقم التي تزيد عن ١٦,٥ ألف رقيم أن الملك إجريش ــ حلم كوّن هذه المكتبة حوالي عام ٢٤٥٠ق.م. أرجع الباحث فرانز رولي أستاذ اللغات القديمة في جامعة فلورنسا الاسم إلى اللغة العربية

وأن اسم المدينة من كلمة (عبل) الأكادية و(عبلة) في المعاجم العربي أي الشريط الضيق من الصخر الأبيث في أرض تميل إلى الاحمرار(٣١).

وإني أزعم أن الاسم مركب من كلمتين (آب) بمعنى الزرع في الأكادية، و(إيل) الإله الحي، فيصبح الاسم (إيبلا) أي مزرعة الله.

وتبين من الأرشيف الملكي أن حريقاً هائلاً دمّر المدينة، ولكن من الشر قد يخرج الخير. فالحريق قد صلّب هذه الرقم وجعلها تصمد لعوادي الأيام بفضل الشوي. ومن نصوص أور الثالثة، ومن حملات نارام سين (٢٢٥٩ ـ ٢٢٢٣ق.م) على غابات الأرز (جبال لبنان) وجبل المعدن الثمين (الجبل الأقرع). في السنة الحادية عشرة لحكمه ٢٢٤٨ق.م قال: «لم يلجأ أي ملك منذ بدء الخليقة إلى إحالة أرمان (حلب) وإيبلا للسيف والنار. لقد فتح الإله نرجال (إله الجحيم السومري) الطريق لي ووهبني أرمان وإيبلا وجبل الأرز والبحر الأعلى.»(٣٢)

بماذا أفادنا اكتشاف الأرشيف الملكي؟

إن التنامي المعرفي شيء مفيد. وعلامة فارقة مميزة للتاريخ البشري. وذلك لأنه ينتقل بين الشعوب والأجيال عبر التقاليد والطقوس الدينية(٣٣). نعم لم يكن لسورية الشمالية تاريخ قبل اكتشاف وثائق إيبلا. لقد أعادت لنا التصور العام لتاريخ سورية في الألف الثالث ق.م. وعرفنا منها مستوى وطبيعة الحياة الاجتماعية، والانتماء اللغويء للمنطقة كلها، والأساطير والملاحم السورية وعلاقتها بالأساطير السومرية والأكادية والبابلية، والتطور الأدبي والديني، وطريقة التدوين الإداري المختلف نسبياً عن المستوى الأكادي. كما تعرفنا على النذور والتقدمات المقدمة للآلهة، وعن نشاط إيبلا

التجاري والزراعي والسياسي، وعن قوة إيبلا العسكرية التي جعلت من إيبلا إمبراطورية مكافئة لدولة سلالة أور الثانية. وتبين لنا أن ماري كانت تدفع جزية لإيبلا. وقد قدّرت في أحد النصوص بنصف طن من الفضة وأكثر من ٦٠ كغ من الذهب، وتعيين القائد العسكري أنا ــ دجن حاكماً لماري. كان ذلك بسبب حنكة وحكمة ملكها العظيم أبي زبيش الذي عين في فترة تالية شقيقه شورا ــ دامو حاكماً على ماري.

مراحل تطور إيبلا:

دلت التنقيبات المتواصلة، من أعلى التل إلى أسفله أن الحياة توقفت بالحريق الكبير، ثم عادت في مرحلة تالية.

المدينة القديمة (قبل الحريق):

قدّر العلماء أن إيبلا بدأت منذ (٢٦٠٠ق.م) وأصبحت إمبراطورية، وامتد نفوذها على معظم مدن سورية والأناضول، مما أضر بماصالح الدولة الكادية فاحتلها سرجون الأكادي (٢٣٤٠ ــ ٢٢٨٤ق.م) الذي ذكر أنه احتل ماري ديرموتي وتوتول وإيبلا في حملته على جبال طوروس والجبل ذي المعدن الثمين. ويقال أنه قام برحلة بحرية وتجول في قبرص.

لم يذكر سرجون الأكادي، أنه حرق أو دمر إيبلا، ولكن حفيده نارام سين (٢٢٥٩ ــ ٢٢٢٣ق.م) ذكر في سير حملته على سورزيه أنه أحرق مدينة إيبلا وسلمها (للسيف والنار). وقد اكتشف عام ١٩٧٥ الحريق الهائل للقصر الغربي. وكان القصر الملكي تحفه الأروقة المحمولة على أعمدة سميكة من الخشب، وفي الرواق الشمالي مصطبة، يتربع عليها الملك في الاحتفالات والأعياد. وكان القصر قد بني في عصر سلالة أور الأولى

(٣١٠٠ ـــ ٢٩٠٠ق.م) والدليل على ذلك أن الملك الإيبلائي كان لقبه (إن) السومرية. ثم قام على أنقاض هذا القصر قصرٌ آخر في المرحلة التالية. وبني في الجهة الشرقية منه رواق فيه مدخل ودرج يفضي إلى باحة القصر الجديد، ومكان هذا القصر عند باب الإله داجان.

المدينة الحديثة (بعد الحريق):

أعيد بناء المدينة، مع أسوارها الترابية. وكان التراب مختلطاً بحطام الأواني الفخارية والأثرية، وأساسات السور من الحجارة الكلسية التي خلفها الدمار الأول.

بيّنت التنقيبات أن السور الحديث له أربعة أبواب من جهاته الأربع:

الباب الجنوبي: (باب الإله رسف):

هذا الباب ضيق، يرتبط بدهليزين، وزوجين من الدعامات، ويقود هذا الدهليز إلى بوابة رحبة شبه منحرفة طولها ١٠,٥٠م، يليها باب داخلي يفضي إلى دهليزين محصورين بين ثلاثة أزواج من الدعامات، ثم يليها رحبة طولها ١٦م، ويمتد الباب الداخلي والدهليز إلى مسافة ٢١,٥م بحيث يصبح طول البوابة الإجمالي ٤٨م، وهذا الباب مبني على الطراز الرافدي. وفي أعلى البرج الملاصق من الجهة الشرقية، غرفة للحراسة(٣٤).

الباب الغربي: باب الإله داجان (إله الخصب والمطر)

وعنده معبد الإله داجان وهو إله آموري، وعنده القصر الملكي، وفيه المباني الإدارية، وكان يشرف عليه الناظر إيل ـــ زي ومساحة هذا القصر أكثر من عشر دونمات، ومخططة شبه منحرف، طوله من الشمال إلى الجنوب ١١٥م، وعرضه من الشرق إلى الغرب ٦٥م، ويتألف القصر من

قاعتين تطلان على باحة كبرى. وهناك وحدات سكنية أقل مساحة، متجهة نحو باحة خاصة، والحركة في القصر تفضي إلى حركة دورانية تقود إلى كافة أجزاء القصر، في حين أن القصور الرافدية تتم الحركة فيها عبر الباحة المركزية.

عثرت البعثة الإيطالية على الأرشيف الملكي في هذا القصر. كما عثروا تحت القصر في الكهوف على المدفن الملكي، على طاسة من فضة مع الهيكل العظمي وعليها نقش مسماري يشير إلى اسم صاحب الطاسة (عميّا) ويعود تاريخ المدفن إلى حوالي ١٧٦٠ق.م. ومعنى هذا أن القصر قد رمم بعد الحريق الأول، ثم دمر القصر في مرحلة لاحقة على يد حاتوشيلي الأول الملك الحثي عام ١٦٢٥ق.م. وقد قضى على آخر ملوك إيبلا أنديليم ـــ جور(٣٥).

الباب الشمالي (باب الإله بعل):

هذا الإله كنعاني، وهو يمثل قوى الطبيعة، المطر والرعد، وبالقرب منه معبد الإلهة عشتار.

الباب الشرقي: باب الإله زبيش إله الشمس، أو الإله مردوخ. ومنه أخذت المدينة الحالية اسمها (تل مرديخ)

النظام الإداري والتركيب السكاني:

قدر عدد سكان إيبلا ضمن إطار الأسوار بـــ ٥٠ ألف نسمة. وقدرت المدينة مع الضواحي المحيطة بها بـــ٢٦٠ ألف نسمة، وكان السكان خليطاً من المدن السورية والرافدية، ومن جاليات تجارية مصرية، وكان نظام الحكم ملكياً منتخباً كل سبع سنوات ويمكن أن تتجدد، ولوجود هذه النزعة

الديمقراطية أدت إلى وجود جهاز إداري من الموظفين الأكفاء. وكان يعاون الملك مجلس من شيوخ القبائل القاطنة داخل المدينة وخارجها، وكان يطلق على هذا المجلس الأبوي (Abbu) وهم الذين يشرفون بالتعاون مع طبقة الموظفين على سياسة الدولة. وكان للمرأة وضع متميز، حيث كانت بعض النسوة يشرفن على تجارتهن، ويرسلن الوكلاء عنهن، وأحياناً تتدخل بعض النسوة في سياسة الدولة. فوالدة الملك إيبريوم تدخلت وعينت ولدها أبي زبيش ولياً للعهد، وعين ملكاً دون انتخاب من مجلس الشيوخ كما هي العادة. عرفنا ذلك من الرقم. كما عرفناه من سلسلة ملوك إيبلا قبل عام ٢٢٥٠ق.م قبل تدمير المدينة.

ومن هؤلاء الملوك:

إيبريوم، وأجورليم، وأبي دامو، وبادامو، وأن ـ دامو، واشار ملك، وكوم دامو وادوب دامو، واجريش دامو، واجريش حلم، واركب دامو، واشار دامو، وأبي زبيش وذوبوحو ـ عدا(٣٦).

ومع هؤلاء عرفنا وزيرين كان لهما دور كبير في سياسة إيبلا هما أبريوم الذي كان يقطن قرية دوريجو في ضواحي إيبلا ثم سكنها من بعده ولده ابي زكير وزوجته وأولاده ومحظياته وخدمه.

كان ناظر القصور الملكية يلقب بـ(غرش ـ آخو) وكانت المدينة تتكون من أربعة أحياء. وكان سكان إيبلا يتكونون من ثلاث طبقات:

ـ طبقة أبناء إيبلا النبلاء (دومو ـ نيتا) Dumu Nita

كانوا ذوي حقوق كاملة، وهم الوجهاء والأعيان وملاك العبيد، ومعظمهم من شيوخ القبائل وأبناءهم، ومن كبار التجار والملاك الزراعيين، الذين تهبهم الدولة إقطاعات لمدة عشر سنوات، لأن ملكية الأرض الزراعية

للدولة تهب لمن تشاء لقاء خدمات تقدم للقصر. ومعظم هؤلاء الملاك يسكنون داخل أسوار الدولة إلا من يحدد له الملك سكناه في الضواحي والقرى المحيطة. وكان هؤلاء الأعيان يحق لهم الزواج من بنات الملك. وكان يدعى صهر الملك (شروم) Shrum، ويمنحه الملك الأراضي مع القرية. جاء في رقم طيني (ت م ــ ٧٥ ج ١٧٦٦): «هكذا يقول الملك يركب دامو لأنكار صهره: أضع تحت تصرفك أراضي الناظر تاب ــ ليم لفترة عشر سنوات وهي الأرض الواقعة في قرية بايتين، ولن أسترجعها منك قبل المدة المحدودة، وسيكون مقرك في القرية من وقت لآخر في السنة (أيام البذار والحصاد) حرر في السنة التي تقدم فيها الأضاحي.»

ــ طبقة سكان إيبلا الغرباء: (باران ــ باران Bar – an Bar – an) وهي كلمة سومرية.

تتكون هذه الطبقة من أخلاط غرباء، معظمهم من وكلاء التجار وأصحاب الحرف والوافدين من المدن المجاورة، والعمال الزراعيين، والكتاب والأطباء، والعمال الذين يشتغلون في الورش التابعة للقصر، والجنود المرتزقة. يسكنون الضواحي الغربية. وكان الملك إيبريوم لا يجد حرجاً من تزويج ابنته من قائد المرتزقة تيدينو، وكان عليه أن يسكن في القرية التي وهبت له خارج أسوار المدينة.

ــ طبقة العبيد في إيبلا:

كانوا فئة قليلة لأن ثمن العبد كان باهظاً، وكان ثمن العبد حوالي كيلو غرام من الفضة. ولم تكن لهم حقوق مدنيّة، سوى الزواج والإنجاب. وكان للعبد أن يحرر نفسه. وكان أبناؤهم يشتغلون خدماً في البيوت أو العمل في ورشات النسيج والغزل، وكانوا يرافقون القوافل ويشتركون في الدفاع عنها.

النشاط الزراعي والتجاري:

كانت السمة الغالبة على اقتصاد إيبلا هي التجارة، تجارة القوافل البعيدة. وكانت إيبلا تملك مئات الحمير. وكانت تصل إلى أفغانستان (بادخشان) لاستيراد اللازورد والأحجار الكريمة، واستيراد الذهب من مدينة أورشو في هضبة الأناضول، والفضة والبخور والتوابل من مدينة ديلمون (البحرين). وكانت هناك عدة طرق تنطلق من إيبلا بعضها يمر عبر حوض البليخ إلى توتول وحران وديار بكر، وبعضها عبر الفرات باتجاه أور وبابل ولاجاش. كانت هذه التجارة قبل عام ٣٢٠٠ق.م. استدل باولو ماتييه على ذلك من وجود ثلاثة أختام أسطوانية يرجع تاريخها إلى فجر السلالات الأولى في أور السومرية.

يقول هورست كلينغل: «إن اكتشاف اللازورد برهاناً على نظرية ظهور طريق تجارية طويلة تبدأ من أفغانستان وتعبر إيران وبلاد الرافدين إلى سورية، وتظهر إيبلا مركزاً تجارياً هاماً داخل الأسوار وخارجها.»(٣٧) وهي طريق الحرير الآتية من الصين والهند.

وكشفت نصوص إيبلا على أنها استطاعت تطوير الحرف الخاصة بإنتاج الصوف ونسجه، وصناعة الأثاث والحلي وتصنيع الأدوات الزراعية وتربية الماشية. كانت إيبلا تستورد الخشب من جبال لبنان والأمانوس وتصدره أثاثاً إلى وادي الرافدين. تذكر لنا إحدى رسائل الملك السومري غوديا (ملك لاغاش) أنه كان يستورد الأخشاب الثمينة من بلاد أورشو (هضبة الأناضول) عن طريق تجار إيبلا. وكان اللازورد يصنع ويصدر إلى مصر وجبيل. ومن خلال رقم إيبلا تبين أن خازن ماري استلم ٦٢ كغ من الذهب و١٠٩٤ كغ من الفضة. كما وجدت في القصر الملكي كميات من

اللازورد تقدر بـــ٢٢ كغ وإحدى هذه القطع الخام تزن حوالي ٥٠٠غ وعليها تظهر آثار الحز والقطع.

ومن خلال دراسة ٨٦٢ رقيماً من أصل ٩٧٦ رقيم، تبين لنا أن في إيبلا ورشات لصنع النسيج وحياكة الصوف ثياباً. وكان الصوف الإيبلائي كالجوخ الإنكليزي في العصر الحديث أو كصناعة السجاد في إيران، حيث تصدر إيبلا اللبابيد والبسط الفاخرة إلى هضبة الأناضول والبلاد الباردة. ومن خلال الوثائق تبين لنا أن إيبلا صدّرت حوالي ٤٧٦٢ لباداً تم تصنيعها من ١٨٩٤٠ جزة صوف. ولأعطيك فكرة عن مشاغل الصوف في إيبلا، جاء في الرقم السابقة:

• ٤٠٠ ثوب نسائي سلمت لملك إيبلا أن ــ دجن.
• ٢٠٠ ثوب نسائي وضعت أمانة لمدينة إيرتي عند المدعو وإيريك ــ دامو الذي دفع ثمنها ١٧ ميناً من الفضة (المين وزنه ٤٧٠غ).
• ٢٠٠ ثوب نسائي دفع ثمنها ١٠٠ ميناً من الفضة السيد عبو (٣٨).

كانت إيبلا تتبادل التجارة مع مصر عبر مدينة حاصور (قرب بحيرة طبرية). وقد عثر في القصر الملكي على أواني حجرية من مصر لم يعثر على مثيل لها إلا في مدينة جبيل تحمل اسم الفرعون خفرع باني الهرم الأكبر، وآنية أخرى من الألباستر تحمل اسم الفرعون بيبي من السلالة الأولى. من هذه الآثار فرضنا أن التجارة كانت مستمرة مع مصر، على الرغم من أن نصوص إيبلا لا تذكر لنا عن وجود علاقات تجارية قبل الألف الثالثة بين مصر وإيبلا. مما جعل بعض الباحثين يفترضون أن التواصل التجاري كان يتم عبر مدينة جبيل. وأفترض من جانبي أن تجارة إيبلا كانت مباشرة مع مصر. ودليلي على ذلك مما اكتشف في مدفن سيد الماعز (سمي

المدفن بسبب وجود كرسي يسنده تمثالان لعنزتين متقابلتين) قد استورد من مصر، ووجود صولجانين من الحجر الكلسي، قبضة كل منهما من العاج والفضة المطعمة بالذهب، يحمل أحدهما اسم الفرعون (حوتب إيبرع) أحد ملوك الأسرة الثالثة عشرة، وحول اسم الملك من الجانبين وجود قردين لتقديس الشمس الساطعة. والصولجان الثاني هدية من الفرعون الذي حمل لقب ابن الآسيويين أي ابن السوريين(٣٩).

كان تجار إيبلا يستوردون الفضة من البحرين (ديلمون) والنحاس من أوغاريت والقصدير والرصاص من هضبة الأناضول (أورشو) ثم يصنعونها في ورشهم، فؤوساً ورؤوس سهام ورماح وخناجر ومدي ودبابيس ليصدرونها إلى وادي الرافدين. كما كانوتا يصدرون إلى مصر كميات من الزيت والنبيذ الجيد. صدروا حوالي ٣٠٠ ألف ليتر صدروها إلى لاغاش وأور عن طريق إيمار (مسكنة) في نهر الفرات.

كانت الفضة والذهب متوفرة في إيبلا مما يجعلها مركز التجارة السورية. وكانت الأسواق عامرة بالبضائع المستوردة بفضل وجود الموظفين الأكفاء الذين كانوا يحصون كل المواد المصدر والمستوردة. وكان البلاط وأصحاب السوق يستوردون الكتاب الذين يحسنون كتابتهم والكتابات السومرية والأكادية والكنعانية. عرفنا ذلك من كثرة النصوص التي وضعها كتابهم ودونوا فيها أسماء الأماكن الجغرافية. وقد عثر على رقم يحمل العبارة التالية: «عندما وصل الكتبة الناشئون من ماري.»(٤٠) وهذه إشارة واضحة على تعليم أولادهم الكتابة في ماري أو استيراد الكتبة الناشئين.

وعلى الرغم من تطور الكتابة في ماري، لم يعثر إلا على نص رياضي وحيد في الهندسة وضعه كاتب من كيش يدعى (إيشما ــ إيا).

كان تجار إيبلا يدفعون إلى ناظر الأسواق الداخلية. وكان بيت مال المدينة يدعي (بيت ــ عليم) وكانت التجارة حرة. كان على التاجر أن يدفع ما عليه من ضريبة للدولة لقاء اشتراكه في القافلة، ودفع ما عليه داخل المدينة. وقد وجد رقيم طيني يذكر أن في بيت مال المدينة (بيت ــ عليم) يوجد ١٧٤٠ ميناً من الفضة و٨٧٠ كغ من الذهب.

كانت القبائل المحيطة بالمدينة تخفر الطرق التجارية، لقاء مال تدفعه الدولة لهم. وفي الرقم الطينية التي ترجمت أحصيت في إيبلا حوالي ٦٠١ عربة، و٢٦٠ حصاناً وحوالي ٥٠٠ عامل حدادة يعملون في صنع العربات.

ماذا حدث للطرق التجارية بعد سقوط إيبلا؟

تغير مسار الطرق التجارية، إذ انحرف مسار الطريق الشمالي، وقوي مركز مدينة (أورشوم) وارتفعت مكانة مدينة (قطبة)، وصارت تتحكم بالطريق الشمالية الجنوبية العابرة لسورية والممتدة من فلسطين عبر (حاصور) وقويت مكانة جبيل وأوغاريت ويمحاض ونشطت التجارة البحرية بين سورية ومصر، ونشطت القبائل البدوية، وتعززت مكانها في جبل البشري (Basar) وصار خليفة نارام سين الملك شاركالي شاري (٢٢٢٣ ــ ٢١٩٨ق.م) حاكم بلاد الآموريين (مارتو)، وحاكم سورباتوم Surbartum وهي البلاد الواقعة في شمال بلاد الرافدين وحتى غابات الأرز (جبال لبنان). ويظن بعض الباحثين أن اسم سورية جاء من الكلمة السومرية (سوبارتوم). وبدأت القبائل الآمورية في بلاد السوبارتوم تهاجم الدولة الأكادية، إلى أن احتلها الملك حمورابي (١٧٢٦ق.م) وأسس دولة سلالة أور الثالثة في بابل(٤١).

وكانت الزراعة قد لعبت دوراً هاماً في اقتصاد إيبلا. ومنذ بداية الألف الثالثة ق.م جرى تبدل في المناخ، وساد الجفاف وقلت الأمطار وتدنى الإنتاج الزراعي لجفاف بعض الأودية في فصل الصيف، مما دفع أهل إيبلا إلى الاعتماد على تطوير حرفة الرعي وزادت الثروة الحيوانية. ذكرت بعض النصوص الإيبلائية أن المدينة كانت تملك مئات الآلاف من الأغنام والماعز وكان الملك يملك ٨٠ ألف شاة، وكانت تستغل في صناعة اللباد ونسيج الثياب، وكانت المشاغل الحرفية تشتغل فيها النساء بينما ينصرف الرجال للزراعة والتجارة(٤٢).

جاء في الرقم الطيني المرقم (ت ـــ م ـــ ٧٥ ـــ ٩٠ ـــ ١٤٥٢) في ترجمة الأستاذ أراكي: «أعطى الملك الأراضي التي كانت في عهدة ذكير ـــ ليم ابنة الكاهن يعريك ـــ دامو، أعطاها للمدعو وعودي في عيده، لتكون تحت تصرفه طيلة حياة الملك تاخير ـــ ليم، حرر الصك في السنة التي فيها أهلك أهل ماري.»

نفهم من هذا النص أن ملكية الأراضي كانت بيد الدولة يهبها الملك إقطاعات لمن يشاء. وقد يلجأ الملك إلى تبديل أرض بأرض كما فعل الملك يركب ـــ دامو الذي أعطى أرضاً زراعية لقريب الملك تيثاو ـــ ليم ملك إيمار، بدلاً من قريتي أراخوش وجوراكول شريطة أن يغادر جماعة تيثاو ـــ ليم القريتين ويسكنون في إيمار (مسكنة).

وإذا اعتدى أحدهم على ملكية غيره، فإن الملك يستطيع ردعه وإعادة الحق إلى نصابه كما فعل مع المدعو آمور ـــ دامو الذي استولى بصورة غير شرعية على قريتي آباشو وأبادو ومعهما حارسي القريتين آزادو ودابادو وعلى أراضي كل من قريتي أبي جو وأدابيكو وهناك شهود عيان على فعل

ذلك. وقد أدى المتضرر إشجي ــ باتر القسم القانوني لذا أصدر الملك على أمور ــ دامو ووالدته حكماً بإعادة الأراضي إلى أصحابها وتعويضهم وإصلاح الضرر (الرقم الطيني ت م ــ ٧٥ ــ ١٤٣٠). وكانت الدولة تقرض الفلاحين البذار وتمدهم بحيوانات الجر ثم تأخذ منهم ما أعطتهم بعد جني الموسم.

علاقات إيبلا السياسية:

هل كانت إيبلا دولة إمبراطورية؟ وعندما اصطدمت مصالحها مع مصالح الدولة الأكادية، هاجمها الملك نارام سين ودمرها سنة ٢٢٥٠ق.م؟

إن النظر في هذا السؤال، والإجابة عليه يكتنفه الغموض، لأن الرقم الطينية لم تبين لنا مكانة إيبلا السياسية. ولكن من علاقاتها التجارية مع مدن الفرات (كركميش وإيمار وتوتول وماري)، نتبين قوة إيبلا السياسية. فقد استطاعت إيبلا احتلال ماري وتعيين حاكماً لها، وكانت علاقاتها متذبذبة مع مدينة قطنة من أجل (حمى المراعي)، وقد استطاعت إيبلا دفع قبيلة دم ــ ليم التابعة لماري وأجبرتها على دفع كمية من الفضة تساوي ٧٢٦ ميناً من الفضة في زمن الملك إيبلوم ــ إيل. بينما كانت علاقة إيبلا بإيمار علاقة ودية عندما زوج الملك اركب ــ دامو ابنته لحاكم إيمار بهدف تقوية الروابط السياسية مع مدن الجوار، وكذلك مع المدن البعيدة. في رسالة من إيبو ــ بو ناظر قصر الملك في إيبلا أعطيت عشر قطع من الخشب وقطعتين من الأثاث الفاخر لرسول الملك زيزي ملك خمازي (تقع شرق نهر دجلة) وكان كاتب الرسالة يزا ــ ايل حوالي عام ٢٢٧٥ق.م.

كانت علاقات إيبلا جيدة مع حران وإيرنا وتوتول وزلبا حتى حدود كانيش (كاميشو) في جنوب الأناضول. ولها علاقات سياسية، وتجارية جيدة مع بابل وأوروك ونيبور وكيش ولغش وشوروباك. وقد وردت أسماء هذه المدن كلها في نصوص إيبلا، وكانت كيش وهي العاصمة الثانية بعد أكاد ترسل النذر والقرابين لتذبح في معبد إيبلا زمن ملك إيبلا القوي أبي ـ ذكير. وقد جاء ذكر إيبلا في وثائق الآلاخ (تل العطشانة على نهر العاصي) في نص يقول كاتبه: «في ذلك العام عندما اختار الملك إميتاكو ابنة حاكم إيبلا زوجة له.»(٤٣). كتب باولو ماتيه على أثر اكتشاف الأرشيف الملكي: «كشف لنا عن وضع تاريخي، أصبحنا نطلق عليه اسم «الحضارة السورية». وكتب العالم الأمريكي غيلب Gelb عام ١٩٧٨: «إن حضارة إيبلا أزاحت الستار عن حضارة جديدة ولغة جديدة وتاريخ جديد.» والسؤال الهام: هل كانت حضارة إيبلا طفرة جديدة في تاريخ سورية؟ يجيب باولو ماتيه: لا، إنها حضارة ظهرت ضمن إطارها التاريخي الذي ستكشفه الأعمال الأثرية الجارية في أرض الجزيرة والفرات.»(٤٤)

لقد ذكرت إيبلا في المرحلة الثانية، بعد تدمير نارام سين لها. إنها كانت تدفع الجزية لفرعون مصر تحوتمس الثالث، ويقدمون النذر للإله آمون بالكرنك في القرن ١٥ق.م. كان الطابع الديمقراطي هو السائد في إيبلا. يقول المفكر أنطون سعادة: «تحولت الرابطة القبلية إلى الرابطة الاجتماعية الواسعة، فزال باكراً ذلك الخضوع الأعمى للملك، وزال عن الملكية الصبغة الإلهية التي لا تزال ترافق الملك والأسرة المالكة في الإمبراطوريات، وأصبح الملك ينتخب انتخاباً مدى الحياة، وكان ذلك بداية الديمقراطية.»(٤٥) وكان ملوك إيبلا ينتخبون من طبقة النبلاء مدى الحياة.

نهاية إيبلا السياسية:

المتفق عليه أن نارام سين قد دمر إيبلا حوالي عام ٢٢٥١ق.م، وأحرق القصر الملكي وأسلم المدينة «للسيف والنار». ثم أعيد بناء المدينة التي ازدهرت ثانية، واستعادت نشاطها التجاري السابق. ولكن حاتوشيلي الأول الملك الحثي، وابنه مورشيلي (١٦٢٥ ــ ١٦٠٠ق.م) احتلا المدينة ودمراها بعد تدميرهما الآلاخ ويمحاض وإيمار وتوتول وماري وبابل وتراجع وضع المدينة السياسي والتجاري.

ولكن استمرت الحياة في إيبلا في المرحلة الأخمينية الفارسية (٥٣٩– ٣٣٦ق.م) استدل على ذلك بالو ماتيه من مجموعة الجرار المصنوعة من الطين الضارب للاخضرار ومن الجرار من نوع crater المزينة بأوراق النخيل الملتصقة والمختومة في الوقت نفسه. وهذا يعني أن المدينة لم تزل عامرة، ولديها قوافل تجارية تصل إلى الهضبة الإيرانية، وتذهب إلى مصر في المرحلة الأخمينية.

أما في المرحلة الهلنستية على أثر احتلال الإسكندر المكدوني لسورية (٣٣٦ق.م) تراجع وضعها وأصبحت إيبلا قرية صغيرة وقد عثر في أنقاضها على مستوردات يونانية، كالصحون المزينة برسوم السمك تحت طلاء زجاجي، وهناك السراج المطلي بالدهان الأسود، فضلاً عن جرار النبيذ المستورد من إحدى المقاطعات الإيطالية بعد احتلال الرومان لسورية عام ٦٤ق.م. وقد عثر على جرة زيت مستوردة من إيطاليا وقد زينت بختم يحمل كلمة viselli تعود إلى سنة ٢٥ق.م(٤٦).

وهكذا ختمت إيبلا حياتها في وادعة وسلام بين أنقاض تل مرديخ إلى أن أعيدت آثارها إلى الوجود بعد عام ١٩٦٣.

المعابد أو أماكن العبادة في إيبلا:

الدين هو الثقافة السائدة في العصور القديمة، وكانت الأساطير السومرية والبابلية هي الأساطير الشائعة في سورية. وتقوم الديانة الوثنية على تعدد الآلهة. وقد بينت الرقم في إيبلا أنهم كانوا يعبدون حوالي ٤١ إلهاً وهم خليط من آلهة الشعوب المجاورة منها السومرية والبابلية والأمورية والكنعانية. وكان يرأس مجمع الآلهة الإله السوري داجان Dagan ممثل الثقافة السورية (الكنعانية) لمدة ألفي سنة. ومن الآلهة الوافدة على إيبلا الإله بليخا رب نهر البليخ والإله بوراتو إله نهر الفرات والإله إيل الرب عند الكنعانيين، وكان معبود القبائل الرعوية المتجولة حول إيبلا، هو الإله دعّار Da'ar حامي إيبلا خاصة، وفيه ترتبط النبوءات التي يصدرها الكاهن الأكبر أو النبي (نبتوم) ويقوم بوظيفة مفسر الأحلام، وله رؤيا خاصة يحفظها عنه شعب إيبلا شعراً، وله أدعية ترافق تنصيب كل ملك جديد، وهي أن الإله دعّار حامي الملك وهو صاحب الوعد الإلهي بحفظ أهل إيبلا من الأمراض والأوبئة.

كانت المعابد السورية تتصف بالشكل المستطيل. إذ يتألف المعبد من واجهة رئيسية ذات مدخل كبير على شكل قاعة مفتوحة، يتقدمها عمودان، وبعدها قاعدة تعبدية (المذبح) الذي يقام عادة بعد ثلثي القاعة وخلفه تقام مائدة حولها مقاعد وبعض الأثاث الطقسية مواجهة للجدار الصدري للمعبد، ومن هذه المعابد التي اكتشفت في إيبلا وتوتول وإيمار والخويرة في شمال سورية. وصارت المعابد السورية في فلسطين تخضع لهذا النموذج.

يتألف المعبد الإيبلائي من ثلاثة أقسام:

١ ــ المدخل الرئيسي (الهيكل):

يتكون من بهو وهو صلة الوصل بين الألوهية والعالم الخارجي.

٢ ــ المذبح:

وهو المكان الذي يتم فيه الاتصال الإلهي وتنحر فيه القرابين والتقدمات.

٣ ــ قدس الأقداس:

وهو المكان الذي يرقد فيه القدوس (الرب) ومقره في عمق المعبد ويمثل عند اليهود بتابوت العهد أو العرش الذي تحمله ملائكة الشوربيين.

هذا النموذج من المعابد السورية تكرر في إيبلا خاصة، وكانت معابدها المكتشفة مستطيلة الشكل، قسمت صالتها الكبرى إلى قسمين، ويوجد المحراب في العمق بدل المائدة للدلالة على قداسة المكان.ومثاله معبد الإله داجان. وكان الإله إيل رغم تكرر ذكره لا يوجد له معبد مخصص ولا تقدم له النذور والذبائح لأنه الإله الحي بل هو والد الآلهة في لوائح أوغاريت(٤٨)، وهو الإله الحي رب السماء والأرض عند القبائل المتجولة في بادية الشام. وكانت بدايات التوحيد في إيبلا.

كيف كانت تمارس الطقوس التعبدية؟

كانت الطقوس التعبدية متنوعة، بعضها طقوس عائلية، وأخرى جماعية تمارس في المعابد، وهناك عبادات تقام في الهواء الطلق حول الينابيع الجارية.

١ - الطقوس العائلية:

يتم التعبد اليومي في المنزل، حيث تقام في إحدى زوايا المنزل رمزاً للإله المعبود الإله المفضل لدى العائلة، والذي تتوارثه القبيلة ويحظى بتقديرها، من أجل حمايتها. وعلى رأس الآلهة الإله داجان (إله الخصب والزرع) والإله رشف Rashap (إله الجحيم والأوبئة) وهناك الإله (دعار) الإله العادل والدائم السرمدي، وهناك الإلهة عشتار إلهة الحب والخصب.

الطقوس الجماعية:

تقام عبادتها في المعابد في أيام معلومة من الأسبوع أو الشهر. ويقام تمثال للإله في قدس الأقداس، وتجري حوله شعائر العبادة والتقديس. يترأس المصلين الكاهن، وتنشد الأناشيد الجماعية والأدعية، ويحرق البخور، وتنحر القرابين، ويرش الماء المقدس، ويقوم الكهنة بحركات السجود والركوع حول تمثال الإله، مبدين خشوعهم وتقواهم.

أهم المعابد التي كشفت في إيبلا:

معبد الإله داجان رب الآلهة في شمال سورية.

معبد الإله حدد إله الطقس والصواعق.

معبد الإله زابيش (إله الشمس) ومعه الإله رشف إله الحرب والعالم السفلي ونظيره الإله نرجال.

معبد الإله دامو (دموزي) زوج عشتار. وما أكثر الأسماء المركبة التي تتألف من مقطعين أحدهما (دامو).

الأعياد الجماعية في الطبيعة:

هذه الأعياد تقترن بمواسم زراعية معينة، وتقام عند بداية فصل الربيع، في شهر نيسان. وفيه يحتفلون بموت الإله دامو (دوموزي) الذي قتله الخنزير البري فحزنت عليه الإله عشتار وكانت تحبه. وفي هذا العيد تقام عليه مجالس النواح وتبكيه النساء وينشد الرجال والكهنة الأشعار الحزينة التي تروي سيرته. وأحياناً تقوم الكاهنات بحركات خلاعية هي جزء من الرقص المقدس، لقيامه من العالم السفلي، وتقام البهجة وتنصب المائدة الجماعية وتقدم الخمور في الهواء الطلق.

وهناك أعياد تقام في شهر تشرين على أثر قطاف العنب وعصر الخمر، وقطف الزيتون وعصر الزيت، وبداية ولادة المواشي، وتخزين المونة من حبوب وثمار مجففة، ونحر الذبائح وتخزين لحومها لفصل الشتاء. وهذه الأعياد مخصصة للإله داجان إله الخصب ومرسل الغيوم ومنزل المطر.

ومن أهم الأعياد الزراعية:

عيد الحصاد في شهر آب، تقدم فيه النذور والصدقات على الفقراء، من طحين وزيت وبقول.

عيد الموتى (في شهر تموز تقدم النذور للإلهة عشتار وتقدم فيه سيرة الإله دامو (دوموزي) ويحتفل فيه على قناة إيبلا.

عيد الطهارة (إيلوم) وتقدم فيه الصدقات في شهر أيلول للإله إيل الرب الحي.

عيد المدائح (أو ــ لوم) وتقام فيه في شهر كانون أول المدائح والقرابين لإله الشمس (كاميش) وهو يصادف أعياد الميلاد في الوقت الحاضر.

الكتابة والثقافة والفن:

ذكر السير ليونارد وولي: إن ظهور المكتشفات في إيبلا شاهد قاطع على تطور الثقافة السورية قبل عهد حمورابي، حيث عثر في مركز المدينة على بقايا معبدين قد كرسا للإلهين داجان وكاميش (إله الشمس) ومعبد آخر في جهة الغرب مكرس لتقديس الربة عشتار. كما عثر على أرشيف إيبلا الكتابي، تبين منه أن لغة النصوص التي تسمى الآن الإيبلائية تمثل مرحلة مبكرة ضمن التطور العام الطويل للغات السامية التي تنتمي للغة الأكادية القديمة ومن ثم تتصل باللغة الأمورية وهي التي مهدت لظهور الأدب والشعر في اللغتين الآرامية والعربية فيما بعد(٤٩).

وإذا كانت الكتابة والقراءة أساس الثقافة، فقد استخدم أهل إيبلا الكتابة السومرية أولاً ثم الكتابة الكنعانية ثم اهتدوا إلى النظام الكتابي الخاص بهم. وتبين للباحثين وجود كتابات دينية خاصة بأهل إيبلا استمدوها من الكتابة الأكادية، من أفعال وأسماء وضمائر ولكن بخصائص سورية غربية، ولكن يظل مع ذلك لا بد من معرفة القراءة الأكادية لفهم اللهجة الإيبلائية.

ومن مكتشفات القصر الملكي، عثروا على نصوص تعليمية ومعاجم صغيرة لمساعدة المترجمين الذين كانوا يترجمون من اللغات المعاصرة لهم.

كما عثر الباحثون على نصوص أدبية ودينية، ونصوص سياسية، وكان ملوك إيبلا الأوائل يحملون الألقاب السومرية فالملك يدعى (إن En) ثم أصبحوا يستخدمون في المرحلة التالية لقب (ملكوم) الإيبلائي.

أما في مجال الفن، فمن الآثار التي عثر عليها في المعابد تماثيل بالحجم الطبيعي لرؤوس أميرات وأمراء ومنحوتات بارزة تمثل الملك بصحبة بعض الوزراء أو الوجهاء وتماثيل صغيرة لشخصيات خرافية وأسطورية وهي لا تختلف في أسلوبها عن المنحوتات الرافدية ومنحوتات ماري بشكل خاص. وقد مهدت للفن في تدمر والحضر.

واكتشف في أحد المدافن تميمة فيها مشهدان يمثلان مراسم الدفن الملكية.

المشهد الأول:

يمثل الملك جالساً، وهو صاحب الوليمة الجنائزية، في حين تتقمص روحه بعض الوفاة في شكل ثور وإلى جانبه يبتهل إليه قردان، وفي هذا المشهد يبدو ولنا تأثير الفن المصري واضحاً.

المشهد الثاني:

هذا المشهد لا يمكن تفسيره إلا على ضوء الملحمة الأوجاريتية الإله كيرت ــ بعل وفيه يتولى الابن والبنت الكبرى مراسم الدفن. وكانت عبادة الأجداد وتمجيد العظماء واردة، خصوصاً لمن حققوا للمدينة في التجارة الرفاه وتعرف هذه العبادة في نقوش أوغاريت باسم (الراعوم) وهي تعني تجلي الإله في البشر، وقد انتقلت إلى العبريين وسميت في التوراة باسم (رفائيم) وهي تعني التجلي(٥٠).

ومن الابتهالات في نصوص إيبلا: «يا سيد الأرض والسموات، يوم لم تكن الأرض موجودة، فأنت خالقها، ويوم لم يكن نور النهار موجود فأنت خالقه، ولم يكن نور الصباح قد ظهر، فأنت قد ظهرت، وهذا الابتهال قد وجد مثيله في سفر التكوين في الإصحاح الأول.

وهناك جرة وجدت في إيبلا وعليها ختم أسطواني لا مثيل له يمثل الأسلوب السوري القديم. وصاحب الختم هو الملك (إنديليم ــ جور) والمشهد الاحتفالي الذي يمثله الربة عشتار (عناة) تهب الحياة للأمير الذي يرتدي المعطف الملكي ولكن دون أن يضع التاج على رأسه، وكان النحت يظهر أدق التفاصيل. ولو لم يكن القصر قد تعرض للحريق لاطلعنا على عجائب الفن السوري القديم.

* * *

أوغاريت بوابة سورية على العالم القديم

الموقع والتاريخ:

تقع رأس الشمرا على الساحل الشمالي الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، وعلى بعد ٩ كم شمال مدينة اللاذقية. لقد اختار الإنسان قديماً هذا الموقع لكي يكون ميناء، ينقل البضائع نحو العالم القديم، ومع انتقال البضائع كانت تنقل الأفكار والخبرات والأساطير والملاحم.

لا نعرف متى بدأت الحياة الاجتماعية تدب في هذا المكان، وكل ما نعرفه نتيجة التنقيب الأثري أن هذا الموقع قد سُكن منذ الألف الثالث قبل الميلاد، ثم بدأت تتوضع معالم المدينة التاريخية (١٨٠٠ ــ ١٢٠٠ق.م) ثم طواها الزمن واختفت عن الوجود إلى أن اصطدمت سكة فلاح بتمثال حجري، وجاءت في الحال بعثة أثرية فرنسية برئاسة العالم كلود شيفر، وبدأ بالتنقيب المنهجي.

وفي آب ١٩٢٩ ظهر اسم المدينة أوغاريت Ugarit، وتم العثور على آلاف من الرقم دوّنت عليها نصوص بلغات مختلفة منها الأكادية المقطعية، والأوجاريتية الأبجدية، وقد انصبت على قضايا اقتصادية وتقاليد دينية، بينما النصوص الأكادية انصبت على القضايا الدبلوماسية. وتتحدث محفوظات إيبلا عن أسماء ملوكها المؤلهين الذين استمر حكمهم بين أعوام ١٨٠٠ ــ ١٢٠٠ق.م. وكانت أوغاريت مركزاً للتجارة (كاروم) بين منطقة وادي

الرافدين وكريت وقبرص من أجل استيراد النحاس والقصدير، وفيها كانت تقيم جاليات وتجار كبار أمثال سوموار اراح من موزونوم وأوريتالما من لايس، وابني أدد ملك حاصور (فلسطين) ورجل من كريت كان يعمل مترجماً. ظهرت تلك الأسماء في نص أوغاريتي. ومن نصوص أخرى نستدل على علاقات أوغاريت الاقتصادية والسياسية مع قطنة وجبيل ويمحاض وكركميش وإيمار وحاصور والآلاخ.

كانت تمتد سلطة أوغاريت السياسية على سيانو Siyannu (قرب جبلة) ومنطقة الآلاخ (في سهل العمق ـــ تل العطشانة) على بعد ٣٠ كم عن أوغاريت وجنوب جبال طوروس منطقة الأمورو، وبيّنت رسائل تل العمارنة أنه كان لمصر علاقات تجارية وثيقة مع جبيل وبيرتا (بيروت) وصيدونا (صيدا) وصوري (صور) Surri ودمشقي (دمشق) وبعض مدن حوران مثل بوصرونا Busruna (بصرى) وأوغاريت والآلاخ من أجل النفوذ بين مصر والحثيين للسيطرة على سورية.

والملوك المؤلهين السبعة يبدؤون بقاروم ومن بعده ينقمادو وكان معاصراً للملك الحثي شوبيلوليوما وكانت بينهما علاقات شخصية، ثم اعتلى العرش من بعده ابنه أرخالبا. وبعد تسع سنوات أجبر للتخلي لأخوه نقيمبا، وفي عهده انفصل عبدي عناني ملك سيانو عن التحالف مع أوغاريت، ثم استلم الحكم عميشتمرو، وحسّن علاقاته مع ملوك الجوار، مما جعل أوغاريت مركزاً تجارياً وسياسياً هاماً. وفي زمنه أصبحت الطرق التجارية البرية محط اهتمام كثير من الوثائق، وقد دونت حوادث قتل بعض التجار داخل حدود مملكة أوغاريت التابعين للملك ترخو راشي (ملك كركميش) ولما علم بالحادث قرر أن تعطى ١٨٠ شيقلاً من الفضة إلى المدعو أرشيميفا أخا القتيل(٥١).

وفي عهد الملك إيبيرانو توطدت العلاقات التجارية بين أوغاريت وبيروت Biruta ثم خلفه ابنه نيقمادو الثالث الذي كانت تربطه بالملك الحثي مورشيلي الثاني (الملقب بابن الشمس). وقويت سياسة أوغاريت. وهناك ترنيمة بمناسبة تتويجه على العرش تصفه بالملك الصغير، ووثيقة أخرى تحكي عن دور أوغاريت بتزويد موكشي بالحبوب.

وفي عهد حمورابي جرت أحداث سياسية جسام، عندما استولى تحتوتمس الثالث (١٤٤٧ق.م) على الآلاخ وعين فيها حاكماً يدعى تاكو، ثم حكم من بعده نقمبا بن عليما عليما (١٤٥٠ ــ ١٣٧٠ق.م) وحدثت ثورة على ابنه أدرمي بين عليما عليما، وكان هذا الملك محباً للفن والغناء، قدم إلى المغنية السيدة نقمي لاناسي هدية (خاتماً ثميناً) وكانت مقيمة في أوغاريت(٥٢). وكان لسان الآلاخ وأوغاريت اللسان الأكادي (ليشانوم أكاديتوم). لم يكن الملك أدرمي ملك الآلاخ يهتم بالسياسة، فقامت ضده ثورة، فهرب إلى إيمار (مسكنة) وكتب سيرته بعد ٣٠ عاماً من عودته إلى الآلاخ، قال: «امتطيت حصاني واصطحبت عربتي وأتباعي، وذهبت إلى إيمار، وقطعت البوادي، وعشت بين محاربي البدو (السوتو) وأمضيت ليلة في عربتي المغطاة، وذهبت إلى بلاد كنعو (كنعان) وفي اليوم التالي وصلت إلى مدينة (أميّا) حيث أقرباء إلى مدينة حلب (بمحاض) وآخرون أبناء من موكشي وينيّا ومحاربون من أماخ، وقد أتوا إلي، وأنا ابن مليكهم، ولكنهم اجتمعوا ضدي في النهاية، فتوجهت مع صحبي وأقمت بين البدو المحاربين من (العبيرو) ومكثت سبع سنين، وأرسلت غنائم خاني ــ بلاد الحثيين ــ إلى الجنوب، وعمرّت بيتاً في الآلاخ، وجعلت عرشي مثل عروش الملوك تماماً،

وحاشيتي مثل حاشية الملوك، وأبنائي كأبنائهم، وجعلت بلاطي كبلاط الملوك تماماً.»(٥٣)

انتهت أوغاريت في ظروف غامضة ومعها الآلاخ، ويفرضون أن شعوب البحر الغازية من الشمال قد قضت عليهم، وتبين أن سكان أوغاريت قد غادروا بيوتهم ولم يعودوا إلى المدينة وسكنوا في بلدة رأس بن هاني.(٥٤)

اختفت أوغاريت من الوجود حوالي عام ١١٨٠ق.م في زمن ملكها حمورابي. وقد دلت الرسائل بينه وبين الإمبراطورية الحثية على وجود مجاعة رهيبة أصابت بلاد الأناضول، مما دفع شعوب البحر إلى اجتياح الساحل السوري، فدمرت مدينة أوغاريت ولم تقم لها قائمة.

وفي العهد الأخميني (٥٣٨ ــ ٣٣٦ق.م) ظهرت مدينة مجاورة لأوغاريت وازدهرت في المرحلتين السلوقية والرومانية، وكانت وثيقة الصلة بالجزر اليونانية.

التنظيم الاجتماعي والإداري والسياسي:

وصلت أوغاريت إلى قمة ازدهارها في منتصف الألف الثاني ق.م في عهد الملك نقمد الأول Negmed وابنه يقاروم، ومن بعدها قدّم الملك نقمد الثاني الجزية لملك الحثي شوبي لوليوما (القرن ١٤ق.م) وفي أحد التحارير الموجهة إلى الفرعون أمينوفس الرابع كتب ملك صور: «ها قد هدمت أوغاريت مدينة الملك نقمد الثاني بالنار، فنصفها احترق، والنصف الآخر أصبح أثراً بعد عين.» ومن النصوص المكتشفة عام ١٩٥٣ رسالة من الملك شوبي لوليوما (ملك الحثيين) إلى نقمد ملك أوغاريت: «هكذا تكلم ملك الشمس

العظيم إلى نقمدملك أوغاريت ــ إن بلاد النحاس (قبرص) وبلاد موكيش معادية إلي الآن فلا تهابها، وثق تمام الثقة بنفسك، فكما كان أجدادك الأقدمون، كن كذلك وابق على عهد الصداقة، حارب عدوك وانتصر عليه، أو انتظر، وإذا ما انتصر عليهم الملك العظيم، فسيعطيك ميثاق الحلف ممهوراً بخاتمه.»(٥٥)

إذا بدت لنا أوغاريت ضعيفة سياسياً، فإنها فرضت حضاراتها من خلال لغتها وكتاباتها الدينية التي اكتشفت في معبد الإله داغان ومعبد الإله بعل، واتخذت المدينة اسم أوغاريت التي تعني (الحقل) وهو اسم سومري.

وفي زمن الملك عميشمترو الثاني ١٢٥٠ق. دلت الحفريات على نشاط أوغاريت البحري. جاء في وثيقة: «اعتباراً من هذا اليوم أعطى الملك أمراً إلى خازنه سينرانو سجينو أن لا تدخل إلى القصر لاحبوبه ولا نبيذه ولا زيته ومراكبه حرة، ولا يقرب المفتش من بيته، وليسحق بعل سيد الجبل الأقرع (Saphon) من ينكث هذا العقد.» والمقصود بذلك الملك العموري (بنتيشينا) ولكن الملك الحثي تود خليا الرابع (١٢٥٠ ــ ١٢٢٠ق.م) توسط بينهما بواسطة ممثله المقيم في أوغاريت وسوى قضية الطلاق بينهما، وأرجع بنت الملك العموري إلى قصر أوغاريت.

ولكن السؤال المحير: لماذا كان التأثير الحضاري البابلي أكثر من التأثير الحثي؟

وجدت في أوغاريت عدة مكتبات عامة وخاصة، مثل مكتبة راشابابو وهي مكتبة خاصة للموظف المسؤول عن سوق أوغاريت وفيها أدب ديني بابلي. ومكتبة راباتو الكاهن ضمت محفوظات اقتصادية تتعلق بالتجارة

البحرية بين فلسطين ومصَر، وفيها أدب مصري. ومكتبة باتلوا مكتبة عامرة بالأدب وهي تخص ممثل مملكة كركميش.

في مكتبة راباتو الكاهن وجدت نصوص تبين كيفية الطلاق والهجر للزوجة، وكان زواج المتعة شائعاً في أوغاريت لكثرة الغرباء الذين كانوا يتزوجون بسهولة ويطلقون بسهولة.

وتشهد النصوص الإدارية على أهمية المنتوجات الزراعية ـ الغذائية كالحبوب والخمور والزيت، كما تشهد على أهمية تربية المواشي والدواجن، وتقدم صناعة النسيج بالإضافة إلى صناعة البرونز وتصدير النحاس والقصدير إلى مدينة إيمار وبابل. وكان سكان أوغاريت ينقسمون إلى طبقتين:

١ – طبقة الوجهاء والأعيان:

وهؤلاء كانت بيدهم عمليات البيع والشراء في السوق، وكانت الأرض بيد الدولة تهبها وتعطيها في عقود منظمة، وكان هناك توازن بين أبناء المدينة والريف، وكانت المدينة تعيش برغد لا مثيل له في العصر القديم مما جلب النحس على أوغاريت عندما دمرها الغزاة.

٢ – طبقة أصحاب المهن والغرباء:

كانت ورش الإنتاج تابعة للدولة، التعدين والنسيج وحياكة الثياب بينما كانت صناعات الحلي بيد أصحاب المهن(٥٦). ودلت الأبحاث والرقم المكتشفة في أوغاريت والآلاخ وإيمار على سعة الصلات التجارية بين أوغاريت والمدن الرافدية وإيبلا خاصة، حيث كانت الطرق سالكة ترتادها القوافل الذاهبة باتجاه قطنة وفلسطين، أو الذاهبة إلى بابل، وهناك الموانئ العامرة بالبضائع التي تحملها السفن باتجاه جبيل وصور وبيروت والتي تصل إلى موانئ مصر.

كيف كان التواصل التجاري والحضاري بين مصر وأوغاريت؟

يرى العالم الأثري كلود شيفر: «أن أوغاريت دخلت في طاعة رعمسيس الثاني (١٢٧٦ق.م) والدليل على ذلك وجود مسلة في معبد بعل كان أحد الكهنة المصريين المدعو ميامي قد كتبها ونذرها لتمجيد الإله بعل. وفي أوغاريت عثر على معبدين:

أحدهما: للرب داجان إله الأموريين وقد دون اسمه على نصب صغير من الحجر.

والثاني: للرب بعل للكنعانيين نقش اسمه على نصب من الحجارة الصغيرة، ووجدت في هذا المعبد رسائل من ملوك جبيل إلى فرعون مصر أمينوفيس الثالث.»(٥٧)

الفن واللغة والأدب في أوغاريت:

عثر على رقم طيني في تشرين الثاني عام ١٩٤٩م، مؤلف من ٣٠ إشارة مسمارية تكتب من اليسار إلى اليمين، باستثناء بعض النصوص المكتوبة من اليمين إلى اليسار بواسطة أبجدية تحولت فيما بعد إلى ٢٢ حرفاً. درس هذه الرموز العلماء هانس بوير وشارل فيرلو وإدوار دورم وكان ترتيب الحروف نفس الترتيب الأبجدي الآرامي والأبجدية اليونانية. تعود اللغة الكنعانية في أوغاريت إلى مجموعة اللغات السامية (البابلية والآرامية والعربية والعبرية). وتعد اللغة الأوغاريتية أقدم مصدر للغة العربية، فكأنها إحدى لهجات اللغة العربية القديمة، والدليل على ذلك خلو اللغة الأوغريتية من الصوائت القصيرة، فلا يمكن للناطق بها أن يتصرف بالمد والقصر والتفخيم والترقيق والإشمام والإمالة في أداء الأصوات، بينما احتفظت اللغة العربية بالأصوات الساكنة، والحركات القصيرة في المقاطع المفتوحة في

وسط الكلمات المشتركة بين العربية والأوغاريتية التي لا يمكن حصرها لكثرتها مثل (أب ـــ وأخ ـــ ويد ـــ وعين ـــ وحلم ـــ ونهر ـــ وكرم...) وغير ذلك الكثير(٥٨).

يقول كلود شيفر: «كانت النصوص المكتشفة في أوغاريت، تتضمن الأساطير والطقوس، ومختلف المراسلات الخاصة، والعقود والنصوص الإدارية والتمارين المدرسية، والقوانين وطبعات الأختام، وتبين أن ألفاظ اللغة الأوغاريتية قريبة جداً من اللغتين العربية والآرامية.»(٥٩)

افترض العالم الأمريكي غيلب أن اليونانيين أخذوا أبجديتهم عن الأوغاريتية. والسؤال: هل يمكن إثبات ذلك بالشواهد الحسية والتاريخية؟

يجيبنا غيلب: نعم. لأنه لا يمكن تفسير معنى أسماء الحروف اليونانية بواسطة اللغة اليونانية، ولا يمكن فهمها إلا بمقابلتها بالحروف الأوغاريتية، (ألف، بيت، جمل، دلتا) والحروف اليونانية A ألف وB بيت وG جمل وD دالت وهي تعني بالأوغاريتية والآرامية (ثور وبيت وجمل وباب) وأن عدداً من الحروف الآرامية (كالواو والصاد والقاف) التي اختفت من الحروف اليونانية الحديثة، كانت في العصور القديمة جزءاً متمماً من الهجائية اليونانية حيث حرف الواوDigamma وحرف الصاد Sad وحرف القاف Goppa مع استعمال النظام العددي المعروف بحساب الجمل في اللغتين الآرامية والعربية(٦٠). ويرى غيلب أن اليونان نقلوا أبجديتهم عن الآرامية حوالي عام ٧٥٠ ق.م عن طريق مدينة صور، وهم الذين حملوا تلك الحروف مع بضائعهم إلى الساحل الشرقي للجزر اليونانية إلى ساموس ثم بعدها إلى أثينا. واستدل على ذلك من نقش اكتشف في أثينا (٣٩٠ق.م). أعفي التجار

الفينيقيين (أهل صور وصيدا) من الضريبة التي كانت تفرض على التجار الأجانب.

كان التفاعل الحضاري بين سكان البحر المتوسط عن طريق التجارة والرحلات العلمية، والدينية، مثال ذلك التواصل الحضاري الذي تعكسه اللوحات الجدارية المرسومة على جدران قصر كنوسوس في كريت، حيث تكوين النساء هو تكوين النساء السوريات التي تعبر عن فكرة الحضوية المتمثلة في الإلهة السورية عشتار من شعرها ولباسها(٦١). وكذلك من مجموعة اللوحات التي تمثل العربات السورية والخيول الأصيلة التي تجرها والموجودة بكثرة في القصور الكريتية، والحصان المجنح وقد استوردوا هذه الفنون مع الذهب والعاج والنسيج الصوفي. يعتبر اليونان أن طالس من أصل فينيقي وفيثاغورس درس في الساحل السوري، وإن كان أصله من مدينة ساموس، وقد أخذ ديمقريطس فكرة الذرة عن موخوس الصيدوني حسب رأي بوزيدونيوس الآفامي. ويرى جورج سارطون أن فيثاغورس أخذ نظريته في الهندسة من عمال المساحة في مصر. يذكر هيرودوت (٤٨٥ ـــ ٤٢٥ق.م) أن حروف الكتابة أخذت من صور جلبها قدموس إلى اليونان من مدينة صور إلا أن هول R. Hall له رأي آخر وهو أن الحروف اليونانية عرفها اليونان من الآرامية التي كانت شائعة في كل بلدان المشرق حيث الآراميون يكتبون في دواوين الدولة الأخمينية(٦٣).

قال السير ليونارد وولي: «إن الآلاخ تحمل حضارة سومر العتيقة وبابل ومصر والحثيين والميتانيين، وقد أثرت في الفن الكريتي الذي يثير إعجابنا في قصر مينوس في كنوس، وتشهد على امتداد تجارة جزر الإغريق

في عصر ما قبل التاريخ، وتلقي ضوءاً جديداً على مظاهر الإمبراطورية الأثينية وتصل مساهمتها حتى عصر النهضة الإيطالية حيث نلمس حصاد أوغاريت برمته.»(٦٤)

لقد كشفت في بعض بيوت أوغاريت في المرحلة الأخيرة، بيوت تعود لتجار يونانيين وقد وجدت في بيوتهم عملة ضربت باسم الملك سلاميس في قبرص (٥٦٠ ـــ ٥٢٥ق.م) وأن ترجمة المينة البيضاء هي ترجمة للعبارة اليونانية لوكوس ليمين Leukos Limen المذكورة في الخريطة القديمة الستاد باسم Stadiasme، كما كشفت في أوغاريت عملة من العهد الفارسي الإخميني(٦٥).

كانت المعابد المكتشفة في أوغاريت من نمط المعابد ذات المخطط المستطيل، وقد كرست لعبادة الإله داجان وبعل وعشتار. وكل معبد يتألف من مدخل ومذبح ومائدة ومقاعد، وهي تشبه المعابد التي كشفت في إيمار وإيبلا. ويبدو أنه كانت تمثل في هذه المعابد بعض الملاحم الدينية التي تتعرض لسيرة الآلهة المعظمة عند أهل أوغاريت.

التنظيم الإداري وكتابة العقود:

دلت اللقى الأثرية في أوغاريت أن نظام الحكم يتطابق وأنظمة الحكم في سورية. كان الملك يدعى سيد البلاد، وهو ويدير السياسة والجيش بمساعدة مجلس الشيوخ لأن الحكم كان ديمقراطياً. وكان الملك يخلع على المواطنين الثياب المزدانة بالألوان. وكان للمرأة دور بارز في سياسة الدولة، وفي تجارة المدينة. دل رقيم مكتشف في أوغاريت عام ١٩٥٢ أن الملكة (أخت ملكو) كانت لها ثروتها الخاصة، وقد دونت على الرقيم عقود ذهبية

وأساور وخلاخيل وأحجار كريمة، وكؤوس من الذهب والفضة، وعشرين علبة زينة، وست قناني كانت ملأى بالعطور، وأدوات زينة من العاج وبعض الألبسة والقماش الملون (الأرجواني)، وهذا يدل على الثراء في أوغاريت حيث كانت القصور مزينة بالذهب والعاج وبالمفروشات الخشبية الثمينة ومن قطع الرخام والعقيق وشبه الأحجار الكريمة التي بقيت رغم الحريق الهائل الذي ألم بالقصور.

كان في أوغاريت موظفون أكفاء يمتازون بالنزاهة ومحاربة الفساد. جاء في أحد الرقم أن الملك ينقميبا يأمر بما يلي: «بما أن (فلاناً وفلاناً) ارتكبا ذنباً عظيماً وخطيراً، وعارضا بخاتمهما، وكتبا زوراً داخل أوغاريت صكوكاً كاذبة، وبعض الموظفين قد فاجأهما بالجرم المشهود، فإن الملك يحكم عليهما بالموت ويوصمهما بالكذب والتزوير، وإن أولادهما لن يدخلوا القصر، ولن تطأ أقدامهم أرض المدينة.»

وكان الملك يحض الموظفين الأكفاء النزيهين كما فعل الملك أرخالبا للمدعو عبدو بن عبدي تزغال الذي أعطاه أرضاً زراعية، وخصص أولاده الثلاثة بوظائف شرفية تؤمن لهم بعض الامتيازات الخاصة كالخروج عن سلطة ناظر السوق، ومعلم العربات وعدم إخضاع أملاكهم لضريبة السكن(٦٦).

لماذا خص معلم العربات بسلطة؟ لأن العربات كانت تلعب دوراً بارزاً في تجارة أوغاريت. ومثله نقيب عمال النسيج والتعدين (النحاس والقصدير).

كانت كتابة العقود فن كتابي متميز، يقوم به كتاب عدل ماهرون. وكانوا يكتبون باللغة الأوغاريتية، ومن الرقم المكتشفة كانت هناك ثلاثة أنواع من العقود:

أولاً - العقود الخاصة:

وهي العقود المدنية التي تحرر أمام شهود، ويكتبها الكاتب بالعدل، وهي أنواع كثيرة تشمل كل معاملات الناس نذكر منها:

- الوصايا والفرائض:

اكتشف نموذج منها عام ١٩٥٣. يقول الرقيم: «في هذا اليوم تكلم بريمانو بحضور الكاتب بالعدل وقال ما يلي:

(إن كل ما أملك أو حصلت عليه زوجتي بيداوي من قصري وخرافي وحميري وعبيدي من رجال أونساء، وأواني المائدة المصنوعة من البرونز، وحقل حرسينا الواقع في منطقة النهر رحباني جميعها أعطيها لزوجتي. وأن ولدي البكر المدعو باتلينو وأخوه بانخامو، إن هما عاملا والدتهما باحتقار يدفعا للملك ٥٠٠ شيقل فضة، ويخلعا قميصهما على قفل الباب ويخرجا للشارع عرايا، أما من يعامل والدته باحترام واعتبار، فإنها لسبب ذلك ستعطيه الأملاك.)»

- عقود البيع والشراء:

يقول العقد: «في هذا اليوم وأمام الكاتب بالعدل تخلى بازينو بن عبدو عن القصر الواقع في حقل حواتي مع حقل السقال: (هذا الحقل لا زال بهذه التسمية يوجد شرق أوغاريت) وأشجار الزيتون الموجودة فيه والكرم والحديقة بسعر ٤٠٠ شيقل من الفضة قبضها من يد المشتريان أزيرانو وعبداد توابني بودانا ولا يحق لهما مستقبلاً نقض هذا الاتفاق وإلا دفعا تالان واحد من الفضة. (والتالان يساوي ثلاثة آلاف شيقل)»

- **عقد زواج:**

يقول الرقيم: «في هذا اليوم وأمام الكاتب بالعدل والشهود أعتق وكيل بيت المملكة جلبين عبدته وأصبحت حرة كالشمس وإلى الأبد، ومن جهة أخرى فإن بوربانو قد اتخذها له امرأة، وأعطى لجلبين عشرين شيقل من الفضة.» وقد حرر هذا العقد بالأوغاريتية بلغة أدبية فائقة.

ثانياً - عقود حررت أمام الملك:

- **عقد تبني:**

جاء في نص العقد: «في هذا اليوم، وأمام الملك نقمد بن عميشتمرو، لقد تبنى باتسيرانو بن خلامانا الولد الكويا بن إيتوريلو وجعله ابناً له إلى الأبد، فإذا نقض باتسيرانو هذا العقد، فإنه يدفع إلى الكويا مئة شيقل من الفضة، وإذا انفصل الولد المتبنى عن أبيه، فإنه يتنازل عن حصته من الإرث، ويذهب في حال سبيله. وفي حال وفاة باتبسيرانو وبقيت أرملته ميلكا في البيت، وأراد الولد المتبنى الانفصال عن الأرملة يحق لها استرداد ثمانين شيقل من الفضة التي قدمتها كمهر لزوجها المتوفي، وتعود آسفة إلى بيت أبيها.»

- **عقد تسوية إرث:**

جاء في العقد: «في هذا اليوم، وأمام الملك نقمد وزع أخبانو بن سينارانو حصص إخوته، ولم يعد لهم شيء في ذمة أخبانو، ولا في ذمة أولاده، ومن اعترض عليه فيما بعد، يدفع ثالاثاً واحداً من أمواله وألف شيقل من الذهب للملك نقمد. ذلك وأن بيته وأرضه تعطيان لأخيه أخبانو.»

- **عقد بيع أرض:**

جاء نصه: «في هذا اليوم وأمام الملك عميشتمرو بن نقمبيا باع كلبيا بن كتبنانا ما يعادل ٢٥ دونماً من أرضه الواقعة في ضواحي مدينة أوغاريت، بسعر ٥٢٠ شيقل من الفضة إلى كرواتا بن تُيشوبازكي وأولاده، واصبحت تلك الأرض من الآن وإلى الأبد تابعة لكرواتا.»

ثالثاً: المراسيم الملكية:

كانت أغلب هذه المراسيم في استعادت أملاك عامة إلى القصر الملكي، لأن صاحبها إما توفي دون وريث، أو كانت هبات وهبها الملك لبعض الأشخاص ويريد الآن استردادها.

ـ مرسوم ملكي:

«في هذا اليوم استعاد الملك عميشتمرو بيت (فلان بن فلان) وأرضه قد أعطاها الملك إلى عبد حقاب وأولاده، ولكن الملك يأمر بأن يرقّن اسمه من خدمة الحرس، ويوضع عبد حقاب وأولاده في خاصة الملك، ولقاء ذلك يدفع عبد حقاب عشرين شيقل فضة، ولم يعد للمحتسب ولا لناظر الأملاك العامة أية سلطة عليه(٦٨).

الملاحم والأساطير في أوغاريت:

تعرضنا في الفصل الأول للملاحم والأساطير السومرية والأكادية والبابلية، مثل ملحمة جلجامش، وأسطورة الخليقة، وأسطورة الطوفان، وقصة الحكيم آدابا ورأينا بداية فلسفة الإنسان الرافدي وتساؤلاته عن قيمة الحياة، وعن مركز الإنسان في الكون، وعن قلق الإنسان تجاه مصيره، وصراعه ضد القدر، ومعنى الموت و الحياة.

فما هي المواضيع التي عالجتها الأساطير والملاحم الأوغاريتية؟

عالجت نفس المواضيع الرافدية ولكن بأسلوب أدبي متطور، لأنها جاءت بعدها بألف عام. وكانت حلقة متوسطة بينها وبين الملاحم اليونانية والرومانية، كما تأثرت فيها الأمثال والأشعار العبرية.

كانت الشعوب في الهلال الخصيب لا تعرف فكرة تكفير الآخرين، .فالإنسان حر في عبادته واعتناق ما يراه مناسباً له من الآلهة المتعددة، وما على الإنسان إلا إرضاء ضميره، وأن يحقق العدالة في مجتمعه، وأن لا يخالف قيم المجتمع الذي يعيش فيه. أما فكرة الإيمان التوحيدي وتكفير الآخرين، فقد جاءتنا عبر الفكر التوراتي، فالله لا يجب أن يشرك به، وأصبح اليهودي المؤمن يخاطب جاره: «إن لم تؤمن بما أؤمن فأنت كافر.» هذا الفكر المتعصب (Zealot) لم يعرفه المجتمع السوري، فهناك تعدد الأعراق، واللغات والأديان، وتعدد الآلهة في معظم المدن السورية والرافدية. ومن الآلهة التي تعبد في أوغاريت، أذكر منهم:

ـــ الإله إيل: رب الآلهة، الحي القيوم، ذو الحكمة الكلية، والأمر الناهي، الذي لا يجسم بشكل ما، لذا لم يتخذ له تمثالاً ولا صورة. وقد يصل الإنسان إليه عن طريق الأحلام، والرؤى الصادقة، وهواتف الكهان.

ـــ الإله بعل: إله الحرب والعواصف، يركب السحب ويجلب الأمطار ويهز الصواعق ومسكنه الجبل الأقرع (Saphon) وقد وجد له معبد في أوغاريت.

ـــ الإله داجان: Dagan: إله الخصب الأموري (مارتو) مبدع المحراث، وخالق الحنطة والشعير، ورب المواشي، ويقترن بالإله إيل أحياناً.

ـــ الإله إليان بعل: إله الينابيع والأنهار، مسكنه أعماق الأرض، في فصل الشتاء، ويجر مع الأنهار في فصل الربيع.

ـــ الإله موت: هو الإله الذي تتجسد فيه المواسم في فصل الصيف، وهو الراعي تموز، وهو حبيب عشتار، وغريم بعل الذي ينافسه على حب عشتار، ولا يمكنهما الحكم بآن واحد.

ـــــ الإلهة عشتار: إلهة الحب والخصب، وشريكة الإلهين بعل وتموز، وتوجد لدى كل الشعوب القديمة بأسماء مختلفة فهي عند اليونان فينوس وعند الرومان أفرودويت وعند المصريين إيزيس (المرأة العاشقة).

ـــــ الإلهة عناة: هي أخت الإله بعل، تتمتع بلقب العذراء البتول، ومن وظائفها تجديد فضيلة التضحية عند الآلهة، وهي ربة الحكمة عند اليونان وهي نظيرة الإلهة أثينا.

وهناك بعض الآلهة التي وردت أسماؤها في الرقم مثل الإلهة دامعلا، وقد ورد اسمها في رسالة الملك نقمد الأول، في جواب لرجل يدعى هيل كان بحاجة إلى جذوع الأشجار لتشييد معبد للإلهة دامعلا في أوغاريت، وهذه الإلهة حامية للأرواح بعد الموت. وكان الناس في أوغاريت يعتقدون بخلود الروح وعودتها يوم الحشر، لذا يقدمون القرابين والنذور لأرواح موتاهم. في وثيقة ظهرت في رأس شمرا أنهم كانوا ينفقون حوالي ٤٠٠ شيقل فضة على قبور موتاهم.(٦٩).

وذكرت في نصوص أوغاريت أسماء الآلهة الفرعونية، وذلك لكثرة أفراد الجالية المصرية. جاء في أحد النصوص: «إني انحني أمام آمون، وأمام كل الآلهة المصرية التي تحمينا بلفحات الشمس التي هي سيدتي ومليكتي العظيمة.» يبدو أن هذا النص كتب بعد العودة لعبادة آمون وهجرة عبادة آتون ورؤية أختاتون حيث أمر أن تهجر كل الآلهة ويكون التوحيد لآتون وحده.

وكان هناك ذكر للإله آنو Anu وهو الإله السومري الذي يسكن السماء مع كبار الآلهة العظام بينما لأرض هي مسكن عشتار وتموز وبعل وسين (إله القمر). وعند الآلهة البابلية وكهنتهم صارت تعبد النجوم وتخبرنا عن المستقبل، وعنهم أخذت أوغاريت علم التنجيم.

رغم تعدد الآلهة، لم يعثر في أوغاريت إلا على معبدين هما:

ـــ معبد داجان وإيل: عثر في المعبد على نصوص ممارسة الطقوس الدينية، وذكر اسم الإله داجان على صخرة دون ذكر اسم إيل، الإله الذي يمكنه أن يتجلى في بني البشر. وكان ملوك إيبلا الأوائل الذين يدعون (الملوك المؤلهة) يدعون أنهم أبناؤه.

ـــ معبد الإله بعل أو بيل:

عثر في هذا المعبد على أطول نص في الخط المسماري وفيه ذكر أول أبجدية في العالم. إلى جانب بعض المراسلات التجارية والسياسية. وعثر فيه على مذبح بطول مترين وعرض عدة أمتار، يمكن الوصول إلى أعلاه بواسطة درجتي سلم، وكان الكاهن يصعد عليه للصلوات في الأعياد، وعليه تمثل بعض الأساطير مثل موت تموز وعودته للحياة وتعزف الموسيقى.

ـــ قصر أوغاريت الملكي:

هذا القصر من أكبر أبنية الدولة في أوغاريت، وكان عرض جداره ١,٧٠م من الصخر المنحوت، مساحته حوالي هكتار واحد، ووجدت فيه رسائل من ملوك جبيل إلى فرعون مصر أمينوفيس الثالث (١٣٩٥ ــ ١٣٧٥ق.م): «ليعلم فرعون عن أعمال ملك صور الذي توازي ثروته عظمة البحر، وبالحقيقة لا يوجد ما يماثل قصر صور، فهو كقصر أوغاريت في جدرانه ثروة عظيمة جداً.»

وفي المرفأ القريب من القصر اكتشفت أمكنة مسوّرة، لإقامة الحفلات الدينية، وإقامة الحفلات المسرحية، وإلقاء القصائد الموجهة للإله داجان وبعل حيث تطل قمم جبل الأقرع.(٧٠)

نشر شارل فيرلو Charles Viroleaud في عام ١٩٣٦ «الأسطورة الفينيقية» كما نشر كتاباً آخر عن أسطورة كيريت وبعل وبحثاً عن عناة في باريس ١٩٣٨م.

ـــــ أسطور الملك كيريت بن إيل:

هذه الأسطورة كتبت بأسلوب ملحمي وذلك من أجل التمثيل. وتتألف من ثلاثة ألواح، تدور أحداثها عن الملك كيريت بن إيل وعشيرات (عشتار).

ـــــ اللوح الأول ــ عرس كيريت:

كان الملك كيريت يائساً، لأنه لم يرزق بولد يرثه، وكان يقضي ليله بالبكاء إلى أن حلم في نومه، ورأى الحلم التالي المؤلف من ثلاثة مشاهد:

ـــــ المشهد الأول:

ظهر له أبوه الإله إيل، ووعده بذرية كبيرة شريطة أن يتزوج من الحورية الجميلة التي هي حفيدة بابيل ملك بلاد الأدوم. كان بابيل رجلاً مسالماً، فلما علم بقدوم كيريت وجيشه، أرسل له رسله ليصده عن غزو بلاده، وقدم له الفضة والذهب المتوفران لديه بكثرة. ولكن كيريت قال له: إن ما ينقصني ليس الذهب والفضة، بل هي حفيدتك المدعوة (حورية) والتي هي أجمل وأرق من الإلهة عناة، وأجمل من عشتروت.

المشهد الثاني:

ولما علم الملك بيل بمطلب كيريت وافق على الزواج. وهنا يظهر الإله بعل ناصحاً كيريت بالذهاب إلى الإله إيل ليطلب منه البركة. قبل كيريت النصيحة.

المشهد الثالث:

ذهب كيريت لمقابلة والده الإله إيل الذي بارك العروسين وأخبرهما بأنه سيكون لهما ثمانية أولاد ذكور، وثماني بنات، وأن الولد البكر سيدعى

باسيب، وسترضعه الإلهتان عشيرات وعناة، أما صغرى بناته والتي ستدعى شتمانات أي الثامنة فستحظى بمركز مرموق لدى والدها.

اللوح الثاني: (نجاة كيريت من الموت)

المشهد الأول:

نرى أولاد كيريت مجتمعين حوله، ليهنئوه بالسلامة، ونجاته من الحادث الخطير الذي ألمّ به. وندرك من الحوار أن الأولاد أصابتهم خيبة أمل لأنهم كانوا يعتقدون أن أباهم كيريت لن يصاب بمكروه ولن يموت لأنه من نسل الآلهة.

المشهد الثاني:

نظمت الأسرة حراسة مشددة حول البيت، كي لا يطال الموت كيريت، ولكن كيريت الذي خرج عن إرادة أبيه (إيل) وابتعد عن السراط المستقيم وأخطأ في أول عهده، هو والذي جعله مهدداً بالموت.

قال الولد البكر باسيب: «لقد أخطأت يا أبي ضد العدل، وهذه أكبر خطيئة يرتكبها الملك، مما جعل حياتك مهددة بالموت.» وبكى.

لما سمع الملك كيريت كلام ابنه البكر أجابه: «لا تبك هكذا ولا تستسلم للنحيب من أجلي.»

المشهد الثالث:

بذلت ابنته الصغرى شتمانات طاقتها في علاجه، وفي سبيل شفاء جروحه، وقدمت قرباناً لهذه الغاية.

ــــ اللوح الثالث: (شفاء نفس كيريت)

ــــ المشهد الأول:

تحركت عاطفة الإله إيل نحو ولده كيريت، وجمع حوله الآلهة، وبأسلوبه المقنع حاول إيقاظ الشفقة في قلوبهم على حال ولده، وسألهم: من منكم يطرد الألم الذي يشكو منه الأمير؟ لم يجبه أحد لأن كيريت مارس الظلم. كرر إيل السؤال سبع مرات، فلم يجيبوه، فصرخ في وجوههم قائلاً: أنا سأطرد الألم بنفسي.

ـــ المشهد الثاني:

تقدم الإله الطبيب أشمون الذي جاء برجاء من ابنة كيريت الصغرى شتمانات. ووطلب أشمون من زوجة كيريت حورية أن تذبح له حملاً ليأكل منه كيريت خلال يومين. شفي كيريت من جراح جسده، ولكن جروح نفسه لم تندمل من جراء الظلم الذي مارسه.

ـــ المشهد الثالث:

جاء الولد البكر باسيب إلى القصر وقابل والده، ليس للبكاء والنحيب، بل ليذكر أباه بالواجب تجاه الرعية. قال له: «يا أبتي لِمَ تركت الصولجان يسقط من يدك؟ يجب أن تنصف الأرملة وأن تطعم اليتيم، وتنصف المظلوم، وتبعد الغاصب، وإلا فانزل عن العرش لأعتليه بدلاً منك.»

نهض كيريت من كرسيه، ولعن ابنه وهدده بانتقام الآلهة. إلى هنا انتهى النص ولا نعرف النهاية.

التعليق:

يبدو لنا النص لأول وهلة أنه جاف، لأن التلخيص ذهب بروعته، ومن هذه المسرحية تبدو ولنا نظرية أرسطو في الكاثارسيس (تطهير النفس) واضحة المعالم. تمثل هذه المسرحية الصراع بين الحب الأبوي والواجب، وأظهر في هذه الملحمة النفس الإنسانية، وأن مصير متعلق لا بقدرة الآلهة بل

بتجارب الإنسان، وهذه النزعة نجدها عند المسرحي اليوناني يوربيدس (٤٨٠ ـ ٤٠٦ق.م) الذي يمثل العقل الواقعي، وقد أبعد العواطف الإنسانية من أجل إبراز الصلاح والعدل والفضيلة، مما يدل على النزعة الديمقراطية في المجتمع السوري القديم.

ملحمة الملك دانيل:

هذه ملحمة شعرية، تصور الملك العادل دانيل، وابنه الأمير الحكيم أقوات الذي يساعد والده في حكم المدينة، بينما ابنته الأميرة باغات تشرف على غرس الكروم وزراعة الحبوب وعصر الزيتون. والملحمة تصور لنا الأعمال الزراعية في أوقاتها، وتعرض في أعياد الإله تموز في فصلي الربيع والصيف. وهي مؤلفة من لوحين:

ــــ اللّوح الأول: جلوس دانييل أمام باب القصر

يظهر الملك دانييل وأمامه شجرة وبيدر، وحوله لفيف من الشيوخ وأعيان البلد، وتجري المحاورة لإنصاف أرملة تريد رعاية ولدها اليتيم، وتطالب المغتصب الظالم بحقها. كان سلوك الملك دانييل حميداً في حماية المظلومين، لذا تراه مستجاب الدعاء، وينزل المطر على حقول المدينة بفضل دعائه، وتحل البركة على سنابل القمح الناضجة بفضل أعماله الصالحة.

ــــ اللوح الثاني: دانييل يمارس الكهانة وابنته تمارس قراءة الطالع

يظهر دانييل في المشهد وهو يزاول الكهانة، ويكثر الأدعية، ويفهم لغة الطير، بينما كانت ابنته باغات تقرأ للمجتمعين حولها الطالع السعيد ومعرفة الأنواء، وكانت تضحك وتبكي للتعبير عن الفأل الحسن والفأل غير المؤات. بينما كان والدها يعظ المستمعين حوله ويدعو الإله بعل، فيسخن السحب

وينزل المطر، لإرواء الغلال بالماء والندى الذي يبلل حبات العنب وينضج السنابل التي خصتها الآلهة لغذاء البشر.

وتظهر ابنته باغات منشغلة بخزن الغلال لمعبد الإله داجان (إله الخصب). إلى هنا وتنتهي الملحمة.

التعليق:

هذه الملحمة الشعرية مليئة بالعبارات الجميلة، من تلك العبارات تقول الفتاة لأبيها: «اجلس يا أبي بالقرب مني! هل لي أن ألاقيك على طريق المجد؟! لديّ رسالة سأقولها لك. لدي أمر سأكرره عليك! إنها رسالة الشجرة وهي تهمس للحجر، وأنين السماء وهي تبوح للأرض، وتبسم البحر للنجوم، سأخلق البرق لتعليم السماء.» وتوصل الرسالة إ لى البشر، وتفهمها إلى شعوب الأرض.

وفي العبرية دانيل له سفر النبي دانيال، ودانيال معناه (الله يقضي) وهو من أبناء الأشراف الذين أخذوا للسبي في بابل، تعلم دانيل اللغة الآرامية وأعطاه الله القدرة على تفسير الأحلام. وهو الذي فسّر للملك نبوخذ نصر عام ٦٠٥ق.م حلماً أزعجه، واتجه للصلاة. وعيّنه داريوس المادي في بلاطه للتفسير والعرافة فكاد له حساده فألقي في جب الأسود ولكن الرب نجّاه. وله نبوءات عديدة وله رؤية النزاع الخير بين قوات العالم وملكوت الله. ويرى علماء اللاهوت المسيحي أنه شخصية حقيقية كان معروفاً بتقواه وإنصافه للأرامل والأيتام، ويقولون: ورد ذكره في نصوص أوغاريت، وقد كتب سفره باللغة الآرامية، وهو الذي تنبأ بمجيء يسوع الناصري(٧١).

تحدث نص المسرحية عن نزعة دينية وعقيدة إيمانية راسخة بالآلهة. وتحدث عن ضعف الإنسان. وغايته إظهار الخصائص النبيلة عند الإنسان.

وهذا يذكرنا بمسرح إيسخيلوس (٥٢٥ ــ ٤٥٥ق.م) الذي كان يفسر بؤس الإنسان نتيجة الذنوب.

أسطورة بعل الكبرى:

تمثل الصراع بين قوى الطبيعة، أو والصراع بين الإله بعل والراعي الصالح تموز حبيب عشتار، الذي تزوجها في الأساطير الأوغاريتية بعل. كان بعل سيد المطر في الشتاء وهو الذي تخصب به الأرض في الربيع. وبسبب ذلك لا يستطيع تولي الحكم في فصل الصيف في الوقت الذي يتولاه فيه الإله موت. لذا كان يتحتم على أحدهما الاختفاء حين ظهور الآخر.

كان بعل يملك الذهب الوفير، لكنه لم يكن يملك بيتاً يؤويه، لكي يهجر الحياة القلقة، وما عتمت أن ثارت الطبيعة بأجمعها للإجحاف الذي أصاب بعل، فإن حفيف الورق في الغابات، وأنين الموج الدائم على الشاطئ، والكلمات السرية التي تتبادلها النجوم في الليل مع البحر، ما هي إلا الاحتجاج الصارخ على الجور الفاحش الذي أنزله العلي (إيل) على الإله بعل. قررت الإلهة عناة أن تذهب للإله إيل لكي ترجوه من أجل بعل، ورافقتها في رحلتها الإلهة عشتروت.

قبل الإله إيل الرجاء وسمح بأن يكون لبعل بيت سكن، وهذا البيت سيبنيه الإله كاشير على قمة الجبل الأقرع (Saphone) وتم تدشين القصر بأبهة ولكن لم تمض أيام حتى احترق القصر، بضربة صاعقة، وحوّل إلى رماد في لمحة عين.

تساءل بعل: ترى من أرسل هذه النار؟ فقال: إنه الإله موت بلا شك عاد بعل إلى حياة الطواف ثانية. وتابع موت انتقامه. وفي يوم من الأيام

عندما كان بعل يسير وحده في السهل هاجمه سرب من الحيوانات المفترسة بينهم (الخنزير البري) ذو الأنياب البارزة، والحدبة في ظهره، ونشب عراك قوي بين بعل وتلك الحيوانات وفي النهاية سقط بعل ميتاً.

شعرت عناة بالقلق لغياب بعل، فأخذت تبحث عنه في الجبال والوديان والغابات إلى أن اهتدت إلى جثته الهامدة في السهل، فصرخت بأعلى صوتها مناجية الإله إيل: «إلهي لقد مات بعل سيد الأرض، والذي كان جمال العالم بأسره، وهو يرقد الآن في ساحة القتال. تعال معي وانظر.»

نزل إيل بهدوء وعلى مهل عن عرشه السماوي، وتقدم نحو الجثة، وذرّ عليها قليلاً من التراب وأخذت عناة تذرف الدموع بغزارة. وهنا قالت الجوقة: «إنها شبعت من دموعها كأنها شربت دموعاً.»

جاءت آلهة الشمس (شاباس) ووقفت بالقرب من جثة بعل، وساعدت عناة على حملها إلى قمة جبل الأقرع، وهناك دفنته، ونحرت عناة على قبره أضحية كبيرة، لحفظه طيلة الأشهر التي سيقضيها في جوف الأرض. وأعلنت الجوقة المرافقة لعناة أن موت بعل موت مؤقت، وأنه سيختفي ستة أشهر من آخر الشتاء إلى أوائل الصيف. وأن البكاء يكفي لرده إلى الحياة.

ذهبت عناة إلى الإله موت وصرخت به أعد لي أخي! فتصنع الاستغراب كأنه لم يدر بالحادث. إلا أن عناة لم تخدع وقبضت عليه وطعنته بمخلبها وقطعته وحرقته بالنار، وطحنته بالرحى ثم ذرّت رماده في الحقل. (وهنا يجري حوار طويل) وتردد الجوقة: أين بعل سيد الأرض؟ واكفهرت السماء وهطلت الأمطار، ويبعث الإله إيل ملك السماء آلهة الشمس (شاباس) للبحث عنه. هنا ينتهي النص.

التعليق:

في هذا النص رمز لسنبلة الحنطة التي منها نصنع خبز الحياة، وموت الإله موت إله الصيف الذي فيه تنضج الحبوب، وفي دفنه وبعثه من جديد للحياة بعد نزول المطر وخروج السنابل وحصادها رمز لقيام السيد المسيح للحياة بعد موته، كما يفسرها علماء اللاهوت المسيحي.

وفي ثنايا الأسطورة تطرح أسئلة كثيرة تطرحها الجوقة:

ـ لماذا الأيام الحلوة سريعة الزوال؟

ـ ولماذا لا تغل الأرض طيلة أيام السنة؟

ـ لماذا حياة الإنسان قصيرة؟

وفي الأسطورة وصف بديع للصراع بين بعل والحيوانات المفترسة، فهما يهجمان على بعضهما كالثيران الوحشية، ويتضاربان كالجياد المستنفرة، وينيبان بعضهما كالأفاعي.

ومن أقوال الجوقة: ذري الندى على الشعير، يا من تعرفين سير النجوم وتعرفين الأنواء وأثمار الأشجار لا تنضج إلا تحت أشعة الشمس المحرقة، وإن غيث السحب يروي المزروعات، والندى يبلل حبات العنب.

هذه الأسطورة تحفة نادرة في الأدب السوري القديم، تأثرت فيها التوراة العبرية دون أن تشير إليها، ومنها نهل الإغريق في ملاحمهم دون أن يشيروا إليها.

أسطورة بعل وإله البحر (يم)

هذه الأسطورة تتكون من مشاهد ثلاثة، وكأنها كتبت لتغنى وتمثل، وهي تصور الحركة الأبدية، هجوم البحر على الأرض، وعودته ظافراً، إما باقتلاع صخرة، أو وبعودته ثانية إلى هيجانه الأبدي.

ـــ المشهد الأول:

يبدأ بحوار الإله بعل مع إله البحر.وفيه يظهر البحر شديد الغضب، داعياً الإلهة عشيرات (عشتار) إلى شدّ أزره.

ينسحب بعل ويلتجئ إلى إيل إله السموات أبيه يطلب العون منه.

ولكن إله البحر يبعث برسله إلى إيل طالباً منه نفي بعل، وإعادة الذهب الذي أخذه وهو يخص إله البحر.

أمر إيل ابنه بعل بأن ينزل من أعلى جبل سافون (الجبل الأقرع)، ولكن بعل رفض الانصياع للأمر. ويهجم على رسل إله البحر ويضربهم ولكن الإلهة عشيرات تمنعه، ويجري بينهما حوار يبرر فيه بعل موقفه.

ـــ المشهد الثاني:

في هذا المشهد يبدأ بحوار الإله إيل مع الإله كاشير لبناء قصر لإله البحر بصورة عاجلة ويضع له سلاحاً. فصنع له صولجانين ومضى بعدها إلى جزيرة كريت.

ـــ المشهد الثالث:

حرّض كاشير بعل على مهاجمة عدوه إله البحر، قائلاً: اضربه واصرعه إذا كنت تروم السلطة إلى الأبد.

حمل بعل الصولجانين اللذين صنعهما كاشير، وقال لهما: «طيري بسرعة النسر واضربي إله البحر بين عينيه وكتفيه.»

أصيب إله البحر فسقط على الأرض، وانهار قصره في الحال. فظهرت عشتروت وأنّبت بعل على عمله هذا.

وتقول الجوقة: «يقهر الإله يم إله البحر في قدرته، فتهدر قمم الأمواج، وها هو يدير وجهه نحو الإله الذي يفجر الينابيع والأنهار بالقرب من هوة المحيطين، (أعمدة هرقل أو جبل طارق) وسيذهب القاتل إلى أرض المرارة.»

وتقول عشتروت: «سأحوم بين النسور أزرع كرومي الغضبة.»

التعليق:

يقول الدكتور جورج عطية: «إن اكتشافات رأس شمرة (أوغاريت) الأدبية تدل على الحس الشعري المرهف، وعلى تطور الشعور الديني والأدبي، مما يجعلنا لا نتفق مع الذين يقولون: إن اهتمام الفينيقيين الأول والوحيد كان التجارة وجمع الثروة.(٧٢)

وأنا بدوري أقول: إن ملاحم أوغاريت كلها ملاحم أبطال وآلهة تبحث عن سر الكون وتتصارع آلهة الخير وآلهة الشر من أجل صالح الإنسان، مما يجعلني أقول أن الملاحم الإغريقية القديمة كانت مستوحاة من الملاحم المنقولة

مع البضائع والسلع إلى اليونان خصوصاً ملاحم أوغاريت التي كانت مواضيع للمسرحيات التي تعرضت لقيم العدل والخير والعفة والشجاعة.»

التفاعل الحضاري بين سورية ومصر:

منذ القرن ١٥ق.م أصبحت الطرق التجارية البرية والبحرية آمنة بين مصر وسورية، وهي تبدأ من حدود مصر الشمالية من غزة. كانت الآبار محفورة على طول الطريق، وبجانبها بنيت القلاع لراحة المسافرين وحمايتهم من اعتداءات البدو العابثين.

كان ملوك مصر قد فرضوا حمايتهم على مدن السواحل السورية جبيل وصور وأوغاريت. وصارت الآلهة المصرية تعبد في جبيل. من ذلك ما قدموه لآلهة الخصب حاتحور وكتب في أعلى اللوحة حاتحور سيدة جبيل، وهي إلهة مصرية تعبدها الجالية المصرية. وهذا يدل على مدى التواصل الحضاري بين سورية ومصر.

بدأت الصلات منذ أيام أمينوفيس الأول (١٥٥٠ ـ ١٥١٨ق.م) عندما قام بحملته على أرض فلسطين، ثم تلاه تحوتمس الأول عام ١٥٢٦ق.م عندما تقدم بجيشه حتى نهر الفرات، وتابعه تحوتمس الثاني (١٥١٠ ـ ١٤٩٠ق.م) الذي تقدم بقواته إلى شرق الفرات إلى بيت نهرينا، وفي عهد تحوتمس الثالث استولى على سورية الداخلية وظلت القوات المصرية مرابطة في فلسطين. قال تحوتمس الثالث (١٤٣٦ ـ ١٤٣٠ق.م): «لقد غزوت ضفة نهر الفرات وجعلت من لبنان حدودي.» وكتب حاكم جبيل إيب ـ أدي محظراً الفرعون أمينوفيس الرابع (١٤٢٩ق.م) «إن ملك ميتاني لم يتمكن من الوصول إلى

جبيل بسبب نقص المياه(٧٣)، وتزوج امرأة سورية ابنة العاهل الميتاني ارتماتما من أجل توطيد السلم بينهما.»

اختلطت الثقافة والأساطير المصرية بالثقافة السورية خصوصاً أساطير أوغاريت. فأسطورة أوزيريس وأوريس تعلن عن ولادة الملك العادل أوزيريس ولكن أخاه ست إله الشر دبر له مؤامرة اشترك فيها ٧٢ رجلاً، ووضع أوزيريس في صندوق جميل وألقاه في نهر النيل، حيث جرفت المياه الصندوق إلى البحر المتوسط ووصل إلى بلدة جبيل، وتحول أوزيريس إلى شجرة جميلة، أعجب بها ملك جبيل فقطعها واستخدمها عموداً في قصره. وأخبرت الريح المقدسة الأخت المفجوعة إيزيس بما حدث فجاءت إلى جبيل وجلست بجوار النبع تبكي بصمت. وبينما كانت ملكة جبيل تصفف شعرها أخبرتها جاريتها، بوضع المرأة الغريبة، فجلبتها إلى القصر واتخذتها مربية لطفلها. وبعد مدة استطاعت إيزيس نزع العمود من القصر الملكي، وحملته على ظهر سفينة، وعادت به إلى مصر(٧٤). وباعتبار الأساطير الدينية، من الثوابت الحضارية، فقد تفاعلت الحضارتين المصرية والسورية ونتج عن ذلك ثقافة جديدة هي الثقافة العبرية.

منذ الربع الأخير من الألف الثاني ق.م حدثت عوامل عميقة في تاريخ المنطقة منها:

ـــ تحرك شعوب البحر الأبيض في الوثائق المصرية الفرعونية (وثائق العمارنة).

ـــ تحرك الأقوام العربية القديمة (الأموريين والآراميين والعرب) من البادية السورية نحو أطراف مختلفة من الهلال الخصيب. واختفت من الوجود

عدة مدن سورية (إيبلا وتوتول وماري والآلاخ وأوغاريت وجبيل) وعلل المؤرخون أن سبب ذلك الاختفاء هو ظهور شعوب البحر.

والسؤال المهم: من هم شعوب البحر؟

لا يجزم المؤرخون بمعرفة أصولهم. وإنما يتصورون أنهم جاؤوا على شكل موجات بشرية من بحر إيجة. أدت تلك الموجات إلى انهيار الإمبراطورية الحثية في هضبة الأناضول، واختفت بعض المدن في سورية، واستقرت بعض هذه القبائل المهاجرة (قبائل الفلستو) بين القبائل الكنعانية وذابوا بهم وسموا بالشعب الفلسطيني. وظهر مصطلح فلسطين منذ ذلك الوقت، ١١٨٠ ق.م.

ظهرت مملكة يمحاض (حلب) كقوة عسكرية في شمال سورية وتصدت للمد الفرعوني المصري وتشكلت ممالك آرامية في مناطق عديدة من سورية (بيت عدين وشمأل وحران وحماة وحمص ودمشق والجولان وشمال فلسطين). ورثت هذه الممالك الحضارة الحثية، وسادت اللغة الآرامية، وأصبحت الثقافة السورية متميزة، ظهرت كتابات مثل قصة الحكيم أحيقار، وقصةِ سنوحي المصري الذي كتبت قصته باللغة الآرامية، وهي تصوره سائحاً في سورية.

تعرض ج. بوتشيلاني العالم الأثري الإيطالي لأصول الشعب الآرامي، فقال: «هم قبائل وشعب كانوا يسكنون في بادية الشام في منطقة جبل البشري، ولا سبيل إلى تفهم الظروف التي أحاطت بالأحداث إلا بالعودة إلى القبائل الأمورية التي كانت تعيش مع القبائل الآرامية في أراضي الجزيرة وحوض الفرات وداخل سورية، متبعة خطئً سبق بهذا الاتجاه.»(٧٥)

ولكن العالم الفرنسي دّوبون ــ سومير يرجع الآراميين إلى زمن أبعد من الزمن الذي قامت به الدولِ الآرامية، في مناطق كثيرة من سورية وحوض الرافدين. وعرفنا الدافع لتحركهم وهو الرعي وسنوات الخصب والجدب، ثم الاستقرار في المدن من أجل السيطرة على طرق القوافل التجارية في وادي الرافدين والبحر المتوسط، وما بين الأناضول وفلسطين وإلى مصر وجزيرة العرب. وقد قاموا في مواجهة شعوب البحر بالتعاون مع المصريين.

قاوم الفرعون رعمسيس الثالث (١١٩٧ ــ ١١٦٥ق.م) خطر شعوب البحر، وفي زمنه ظهرت المملكة العبرية في أورشليم تحت الحماية المصرية، وقام الملكين داوود وسليمان بحماية الحدود في منطقة السامرة في الشمال، ولم يستطع التصدي للآشوريين والآراميين، خصوصاً بعد أن احتل عرش بابل شيخ قبائل الآراميين أدد ــ آبال ــ أدينا (١٠٦٧ ــ ١٠٤٧ق.م) وظهرت قوة الآراميين الحربية باستخدامهم للعربات وإتقانهم لحرفة تربية الخيل مما جعلهم قوة عسكرية، وبواسطة تلك القوة حفظوا الطرق التجارية وجعلوها سالكة عبر جبال طوروس في عمق هضبة الأناضول، وعبر حوض العمق إلى موانئ صور وصيدا وأرواد. وبدأ الآراميون يأخذون الجزية على خفارة الطرق (بيلتو) والهبات من ملوك المدن. ومن وجود الأواني النحاسية في مدن الجزيرة الشمالية، ربط العالم سيتون وليامز وجود علاقات تجارية بين مملكة أوراتو وفي عهد ملكها ساردور الثالث خلال القرن ٨ق.م وسورية الشمالية(٧٦).

سادت في هذه الفترة فكرة الإله الواحد (الله) الإله الكنعاني الذي يعني عندهم الخالق المتعالي وهو الجوهر الأول الذي صدرت عنه الأشياء، وقد

أخذ العبريون بهذا الاعتقاد وأطلقوا عليه (يهوه) وقاموا بنشر دعوة التوحيد،وصاروا يحاربون فكرة التعدد الوثنية.

جاء في الحوليات الآشورية أن الملك الآشوري حدد ــ نيراري الثالث قد ضم الممالك السورية الداخلية والساحلية (٨٠٦ ــ ٨٠٣ق.م) وألحق بها فلسطين وقضى على الدولة العبرية. وأصبحت السيادة للآشوريين بدلاً من المصريين. وفي زمن تفلات بلاصر الثالث حرم على دمشق التجارة مع مصر، وعين على غزة حاكماً عربياً (ديبي ــ إيلو) وكلفه بمراقبة المصريين والآراميين، واستطاع بذلك توحيد الهلال الخصيب إدارياً، وعمم الكتابة الآرامية في دواوين الدولة، مما سهل الدخول إلى مصر.

ولكن الملك المصري بسامتيك الأول دحر الآشوريين عام ٦٥٣ق.م وعادت فلسطين وجنوب بلاد الشام تحت السيطرة المصرية، إلا أن نبوخذ نصر (٦٠٤ ــ ٥٦٢ق.م) استولى على فلسطين وأخذ القدس وسبى اليهود (٥٨٦ق.م) إلى بابل وجعل مدينة صور مركزاً لتصدير الأخشاب إلى بلاد الرافدين. وفي بابل حدث تفاعل ثقافي بنقلهم التصورات البابلية (أسطورة الخلق، والطوفان) إلى تراثهم وتمثلوها بمزجها في التراث المصري والسوري التوحيدي. وتم ذلك في سفر التكوين التوراتي.

حضارة صور:

صور كلمة سومرية تعني (الصخرة). ذكرت في ألواح تل العمارنة في القرن ١٥ ق.م وكان سكانها من الشعب الكنعاني، تجاراً وصناعاً ماهرين خصوصاً في الأشغال المعدنية والزجاجية والصباغة الأرجوانية. وأقاموا لهم

وكالات تجارية على طول مدن المتوسط الساحلية، وأسسوا مدينة قرطاجنة (تونس) وقد نافست روما. ويقال أن رئيس بحارة الملك المصري نخاو كان من أهل صور، وأرسل بعثة تجارية دارت حول سواحل إفريقية الغربية وعادت في البحر الأحمر ثانية.

حاصر صور الملك الآشوري شلما ناصر الخامس عام ٧٢٤ق.م ولكنه توفي عام ٧٢٢ق.م ولم يستطع احتلالها. ولكن آشور بانيبال ٦٦٤ق.م استولى على صور وأخذ ملاحين منها إلى عمان وهناك أسسو مدينتي (صور وجبيل) ونقلوا ثقافتهم إلى الخليج العربي. وكان هذا أول تلاقح ثقافي بين شعوب سورية وشعوب الخليج العربي.

ومن رسائل تل العمارنة عرفنا التركيب السكاني والسياسي لمدينة صور.

كان أول ملوكها الملك إي بعل (١٠٠٤ ــ ٩٧٠ق.م) والد الملك حيرام الأول (٩٧٠ ــ ٩٣٥ق.م) عاصر الملك داود وأرسل له العمال المهرة والخشب الثمين لبناء الهيكل، وحكم من بعده عدة ملوك، الملك بال بزر (٩٣٥ ــ ٩١٩ق.م) ومن بعده عبدي ــ عشتاروت (٩١٨ ــ ٩١٠ق.م) ومن بعد حكم ميتوس بن عشترتوس (٩٠٩ ــ ٨٨٨ق.م) وقامت عليه ثورة بقيادة أحد شيوخ القبائل الآرامية الأرستقراطيين اتبعل (٨٨٦ ــ ٨٥٨ق.م) وأسس مستوطنة فينيقية جديدة في ليبيا. وخلفه ولده بعل عزور (٨٥٥ ــ ٨٣٠ق.م) وأقام علاقات وثيقة مع مملكة دمشق ومدها بالمال للوقوف في وجه المد الآشوري. وحكم من بعده ميتان الأول (٨٢٩ ــ ٨٢١ق.م) وفي زمنه خضع للحكم الآشوري ولكن ابنه بجماليون (٨٢٠ ــ ٧٤٤ق.م) ثار بوجه

الآشوريين وعزز علاقاته مع الجزر اليونانية. وفي زمنه انتقلت الكتابة الأبجدية إلى مدينة طيبة في الجزر اليونانية، حسب رواية هيرودوت.

استفادت دمشق من قدرات صور التجارية والحرفية والفنية، واشترك عمال صور المهرة في بناء قصر اسرحدون (٦٨٠ ــ ٦٦٩ق.م) في نينوى(٧٧). ثم وضع اسرحدون حاكماً آشورياً يعاون ملك صور في تصريف الأمور.

سورية وصور تحت الحكم الفارسي:

أصبحت سورية جزءاً من الإمبراطورية الأخمينية، وفي زمن الملك الأخميني قمبيز (٥٢٩ ــ ٥٢٢ق.م) قسّم المملكة إلى عشرين مرزيانية وصارت سورية المرزيانية الخامسة، وأخذ كتاباً لبلاطه من صور Suri، ولكنه جعل مقر الوالي في مدينة طرابلس. وصارت سورية تعرف بسورستان.

عندما أراد قمبيز احتلال مصر، أخذ منه فرقة عسكرية من الساحل السوري وأدلاء من مدينة صور وحسب رواية هيرودوت (٤٨٥ ــ ٤٢٤ق.م) توجه لاحتلال حصن سين (القرما)، فأشار عليه أدلاؤه بوضع قططاً وثيراناً وبعض الحيوانات التي يعبدها المصريون، فلم يرفع المصريون السلاح ضده، ثم بعدها ذبح العجل المقدس (أبيس) وأحرق أصنامهم وألقى الرعب في أرض مصر، وسكب غضبه على حصن الفرما ومدينة طيبة وممفيس.

نظم داريوس الأخميني ولاية سورية (٥٢١ ــ ٤٨٦ق.م) ودونت الحوليات في طروس البردي والرق. لذا ضاعت وصارت طرابلس عاصمة سورية ولكن الولاية السورية ثارت ضد أرتاكسيس الثالث (٣٥٨ ــ

٣٣٨ق.م) وكانت الثورة قد بدأت من طرابلس بقيادة مينتور اليوناني وهو مواطن يسكن في صور، وعندما شاعت أخبار هذه الثورة تقدم الإسكندر المكدوني بحملته لاحتلال سورية ٣٣٣ق.م وبعد معركة إسوس Issos فتح الطريق نحو مصر، وطاردت قواته داريوس الثالث إلى شرق الفرات، وأرسل داريوس الثالث إلى الإسكندر المقيم في بلدة عمريت (ماراتوس) رسالة يطلب الصلح، ولكن الإسكندر عيّن حاكماً على صيدا المدعو (عبدالونيموس) وتوجه لحصار صور.

كيف فتح الإسكندر مدينة صور؟

أرسل الإسكندر رسله إلى القائد اليوناني مينتور لفتح أبواب صور له. ولكنه رفض طلبه، فحاصر الإسكندر المدينة، ولم يستطع فتحها، فهدم أسوار المدينة القديمة (البرية) وألقى أنقاضها في الماء جاعلاً منها طريقاً عرضه ٦٠م ووصل إلى المدينة الجديدة (القلعة الصخرية في البحر) وبنى قلاعاً ونصب آلات الحرب(٧٨).ولكن الصوريين قاوموا العدو ببسالة، وأحرقوا الأبراج وعطّلوا تقدم الجيش، وكانت خسائر الإسكندر جسيمة، واستعان الإسكندر ببقية المدن السورية التي أعانته ببناء سفن قدمت له المساعدة (أرواد وصيدا وبيبلوس) وكانت المعونة حوالي ٨٠ سفينة وقدمت قبرص حوالي ١٢٠ سفينة وتم له فتح المدينة بعد حصار دام سبعة أشهر، وانتقم الإسكندر من أهل صور إذ قتل منهم حوالي ثمانية آلاف وبيع ثلاثون ألفاً في سوق العبيد(٧٩). وحسب نبوءة حزقيال (٥٩٢ ــ ٥٧٠ق.م) الذي قال عن صور: «وينهبون ثروتك، ويغنمون تجارتك، ويهدون أسوارك، ويهدمون

بيوتك البهيجة، ويضعون حجارتك وخشبك وترابك وسط المياه» (سفر حزقيال ٢٦: ١٢) وأصبحت صور مدينة بائسة وصار الصوريون يجففون على صخورها شباكهم.

وعندما حكم أنتيخوس الأول (٣٠٥ ـ ٢٨٥ق.م) سورية وجعل عاصمته أنطاكية، حاصر صور وسقطت بين يديه دون مقاومة.

وعندما بنى بطليموس فيلادلفوس (٢٨٥ ـ ٢٤٧ق.م) ميناء برنيس على البحر الأحمر جلب إليه بحارة صور وصارت سفن صور تجري في البحر الأحمر والبحر الأبيض وصاروا هم سادة البحارة في الإسكندرية. أعادوا بناء صور وصارت معظم البيوت مبنية من الحجارة المنحوتة وارتفعت في المدينة أربعة طوابق، وصارت في الساحات العامة نافورات الماء، وصارت الأسواق نظيفة وبنوا المعبد عند مدخل المدينة وجلبوا الماء العذب من الجبل. وعندما زارها بليني (٦١ ـ ١١٣م) قال عنها: صور مدينة معروفة بأنها أم المدن لأنها ولدت ونافست روما وقرطاجة، ولكن شهرتها اليوم تقوم على أصداف بحرية وصبغتها الأرجوانية. وهي ليست صور القديمة التي كانت سيدة البحار ومركز العالم، وقد حملت أحجارها اليوم إلى بيروت، ولا زالت أعمدتها المتناثرة ترى تحت الماء(٨٠).

وفي العصور التالية، عادت إلى مجدها الغابر، خصوصاً في العلم عندما استقر فيها العالم المسيحي أوريجانيوس الإسكندري (١٨٥ ـ ٢٤٥م) ومات في سجنها ودفن في كنيستها عام ٢٥٤م، وعلى يديه درس فرفوريوس الصوري (٣٣٥ ـ ٣٢٠م) وهو صاحب كتاب المدخل (الإيساغوجي) للمقولات العشر في المنطق، وأصبحت أبرشية صور بعد أبرشية أنطاكية،

وكان مطرانها يسلم البطريرك عصا الرعاية أثناء تنصيبه لأنه يقال: أن المسيح مر بها (متى ١٥: ٢٠) وأن الرسول بولس مكث بها سبعة أيام (أعمال الرسل ٢١: ٣ و٤). وعندما زارها ابن بطوطة عام ١٣٥٥م قال: «كانت المدينة (صور) مضرب الأمثال في قوتها، تغسلها مياه البحر من ثلاثة جوانب، ولم يبق اليوم سوى آثار من أسوارها وميناثها، مع سلسلة عظيمة كانت في مدخل الميناء.»(٨١)

التفاعل الحضاري بين سورية واليونان:

قال الأستاذ غيلدر سليف: «إن علاقة اليونان بالأرض السورية كانت أوثق قبل فتوحات الإسكندر (٣٣٣ق.م)، وإن الإنسان السوري، هو أقرب شخصية للإنسان اليوناني من الجميع.»(٨٢).

فكيف كانت اليونان قبل الإسكندر؟

كانت اليونان تتكون من ثلاثة أجزاء هي: الجزء الجنوبي من بلاد البلقان، والجزء الغربي من شواطئ آسية وجزر إيجة. وكان سكانها يتكونون من أصول ثلاثة مختلفة:

١ - القبائل الأيونية:

وهذه القبائل بعضها جاء مهاجراً من جنوب بحر قزوين، واختلطوا بالشعوب الموجودة على الساحل الغربي لآسية الصغرى. وكانت هناك شعوب أرقى منهم حضارياً كان منهم السوريون والمصريون والفرس. وأسسوا مدناً من أهمها ساموس وميلوس وأفسس، ومن هذه المدن ظهرت الفلسفة الأيونية ومن أشهر فلاسفتهم: (طالس الملطي، وفيثاغورس الساموسي) وهؤلاء هم

الذين اشتهروا بالاستدلال العقلي والفلسفة الميتافيزيقية. وكان رائدهم الميل للفكر الديمقراطي، وبعدهم عن التعصب والخرافات.

أراد الأخيون (أهل أثينا) استعمارهم فجرت بينهم حروب طروادة (١٢٠٠ق.م) ولأن اليونان شعب أمي دونوا ملاحمهم بالشعر الشفهي، وكانت تلك الأشعار هي نواة الإلياذة والأوديسة التي صاغها هوميروس في القرن ٩ق.م.

وحسب رواية هيرودوت (٤٨٤ ــ ٤٢٥ق.م) كان هوميروس من أهل أيونا، وإليه تنسب الملحمتين الإلياذة والأوديسة، وهما تمثلان الحرب والسلم، والخير والشر، وهناك قاسم مشترك بين الملحمتين، خصوبة الخيال وأصالة الوصف. وقال: «إنه أخذ موضوعهما من الفكر السوري» وجاء من بعده الشاعر هسيود (القرن ٦ق.م) وأبدع ملحمتين هما: (الأعمال والأيام، وأنساب الآلهة) ضمنهما كثيراً من الحكم والأمثال والدعوة للتمسك بالعدل حتى يعيش الإنسان سعيداً. قال هسيود: «أفضل الرجال قاطبة من يتأمل نفسه في كل شيء، ومن يتبصر بالأمور ونتائجها، ومن يستمع إلى النصح، ولا يبحث عن المال في الحياة.» ويقال أن تالس كان من أصل فينيقي، وأن فيثاغورس درس في صور وجبيل.

٢ – القبائل الدورية:

كانت هذه القبائل تسكن منطقة لاكونيا، وبنوا عاصمتهم أسبارطة. وهم خليط من قبائل هندوأوروبية بعضهم نزح من جزيرة كريت والبعض الآخر نزح من حوض الدانوب. وكلهم اشتغلوا بالتجارة والزراعة وأقاموا مجتمعاً بلا طبقات يعيشون تحت إشراف الدولة والكل يعملون من أجلها، تقودهم طبقة من الشيوخ، وقد وضع تشريعهم العسكري (ليكرجوس الحكيم) وقد سئل مرة:

لماذا لا يسعى لإقامة دولة ديمقراطية؟ فأجاب: «إبدأ أيها الصديق بإنشائها في أسرتك.»

كان الطفل يكفيه القليل من التعليم، ولكن عليه أن يتعلم فضيلة الشجاعة، وأن يموت في ساحات الوغى مرفوع الرأس، وكانت نصيحة الأم لولدها: «عد بدرعك، أو محمولاً عليه.»

كتب أفلاطون (٤٢٧ ــ ٣٣٨ق.م) كتابه الشهير (الجمهورية) على شكل مدينة فاضلة، قسّم المجتمع فيه إلى ثلاث طبقات:

١ ــ طبقة الصناع والزراع، وهؤلاء خلقوا للعمل الجسدي.

٢ ــ طبقة الجند المحاربين، وهؤلاء خلقوا للدفاع عن الوطن.

٣ ــ طبقة الفلاسفة، وهؤلاء يتولون شؤون الحكم ويديرون سياسة البلاد.

وكل الطبقات لا تملك من الثروة، لأن الدولة هي التي تملك الثروة، وذلك لكي لا يميلون للترف والرفاهية، كما هو حال السوريين والمصريين الذين غايتهم محبة الثراء، وليس محبة الحكمة (الفلسفة)(٨٣).

٣ ــ مجموعة القبائل الأكتينية:

سكنوا منطقة أتيكا، وعاصمتهم (أثينا) وشكلوا دولة قوية، تحولت في عهود تالية إلى دولة إمبراطورية، قاموا بحروب طروادة، وسيطروا على القبائل الدورية، وعندما قويت شوكتهم، وقفوا بوجه الفرس وذلك عندما أرسل الملك داريوس الأول (٥٢١ ــ ٤٨٥ق.م) أسطولاً وجرت معركة الماراثون (٤٩٠ق.م) حطم الأثينيون الأسطول الفارسي، وعندما أعاد الكرة الملك أحشويرس (٤٨٥ ــ ٤٦٥ق.م) وأرسل أسطولاً مؤلفاً من ٥٠٠ سفينة عليها جنود فرس وسوريين، قاومهم الملك الأسبارطي ليونيداس. وما إن بدأت

المعركة حتى اشترك بها الأثينيون وجرت معركة سلامين (٤٨٠ق.م) وانتصر اليونان وعاد الفرس خائبين.

وبعد مدة من الزمن جرت الحروب البيلوبونزية سنة ٤٤٥ق.م بين أثينا وأسبارطة وراح من الطرفين ضحايا، ثم توحدوا في النهاية وكونوا حلف ديلوس ٤٣١ق.م وأصبحت أثينا زعيمة الجزيرة وتزعمت أسبارطة وطيبة وساموس وأفسس. وطبقوا شريعة القاضي سولون (٥٩٤ ــ ٥٧٢ق.م) الذي انتخبوه مدى الحياة، فألغى ديون الفلاحين وأجبر الأشراف على توزيع ممتلكاتهم وألغى الملكيات الزراعية الكبرى، وأرضى جميع الطبقات الفقيرة، وسك الدراهم، ثم استقال بعد حكم دام ٢٥ عاماً، ولما سئل عن الديكتاتورية؟ أجاب: «إنها مقام جميل حقاً ولكن ليس ثمة طريق للنزول منه.» وكان المثال الذي بني عليه سوالون مشروعه، المدن السورية.

ومن بعد سولون قام حكم الطغاة، عندما استولى القائد العسكري بيزسترانس (٥٦٠ ــ ٥٠٨ق.م) على الحكم دون انتخاب، فسمي بالطاغية، ولكنه شجع التجارة الخارجية مما زاد في ثروة البلاد، وربط اليونان بالساحل السوري، وصارت صور وأثينا توأمتان، وقضى على الرشوة، وأنزل نسبة الضريبة عن كاهل الفقراء، وبنى المسارح وجعلها جزءاً من الأعياد الدينية، وأقام المعابد من أجل الشكر للآلهة، وأقام المشاريع الكبرى من أجل تأمين العمل للجميع، فهو مثال (المستبد العادل) ولكن أثينا كانت ترفض ذلك، فكونوا ثلاثة أحزاب:

ــــ حزب الشاطئ: ومعظمهم من التجار وتدعمهم أقليات سورية ومصرية.

ــــ حزب السهل: وهم كبار الإقطاعيين وأعداء سولون، والأقليات.

ـــــ حزب الجبل: وقوامه العمال والفلاحون.

كانت هذه الأحزاب تعبر عن طبقات المجتمع في أثينا.

١ - طبقة المواطنين الأحرار:

وهم طبقة التجار الأغنياء وكبار ملاك الأراضي وكلاهما ملاك للعبيد.

٢ - طبقة العامة الأحرار:

وهؤلاء هم صغار الحرفيين، والتجار الذين يعملون من أجل تأمين قوتهم اليومي. والفنانون والأطباء والمعلمون والمحامون، وكان هؤلاء يعملون في طوائف خاصة بهم، وكانت الحرفة عند اليونان تورّث، ولكل مهنة أسرارها التي لا تعطى للغرباء. كان الطب يمارس سراً إلى أن أظهره العالم أبقراط، وكان أهل جزيرة كوس Cos وكان منتسباً لإحدى الجمعيات السرية (الأخوة الفيثاغورية).

٣ - طبقة العبيد:

هؤلاء هم السواد الأعظم في أثينا. والعبيد طبقة لا يملكون إلا قوة جسدهم، ويعملون من أجل تأمين لقمتهم، ولا حقوق لهم، فهم أدوات قابلة للبيع، يقال أن النحات العظيم فيداس أراد أن ينحت تمثالاً لبرومثيوس وهو يتألم، حين ينهش النسر كبده، فوضع عبداً وصار يكوي جنبه بالنار ليرى تقاطيع الألم البادية على وجهه، وتغضن عضلات جسده. وعندما سمع أهل أثينا بهذا العمل اللاإنساني، جاءوا إلى منزل فيداس محتجين، وعندما أظهر لهم تمثال برومثيوس، صاحوا منبهرين ومضوا في سبيلهم.

ولكن أثينا اغتالت آخر الطغاة وتولى الحكم بريكليس الإثني (٤٦٠ ــ ٤٢٩ق.م) الرجل الذي قيل عنه (بريكليس هو قلب أثينا النابض بالحرية) واستطاعت العهود الديمقراطية إنتاج أعظم الفلاسفة (سقراط وافلاطون

وأرسطو). وأعظم الشعراء والمسرحيين، ومهدت أفكارهم لأن يفتح الإسكندر المكدوني العالم القديم (٣٣٣ق.م) وصارت اليونان أعظم إمبراطورية.

هل تأثر اليونان بالفكر السوري، وأقاموا نظامهم الديمقراطي؟

نعم. أظن ذلك. لاسيما وأن الساحل السوري والساحل اليوناني كان واحداً. وقد اقتبس اليونان من السوريين باعترافهم بالكتابة الأبجدية التي نقلها لهم قدموس ابن ملك صور. واقتبسوا صناعة الفخار المشكّل بواسطة الدولاب وزراعة الزيتون وعصره، وزراعة الكروم وصناعة الخمور، وصناعة الزجاج والنسيج واطلعوا على التشريعات الرافدية (شريعة حمورابي). ومع البضائع كانت تنقل لهم الأفكار والخبرات في العلم والفن والفلسفة وأبدعوا الحضارة اليونانية التي اعتبرها الأوروبيون معجزة خاصة باليونان. ولكن الكشوفات الأثرية غيرت تلك النظرة، وتبين للباحثين أن الحضارة هي حوار مستمر بين ثقافات الشعوب المختلفة. وكان لاكتشاف أرشيف أوغاريت عام ١٩٢٩ تأثير كبير في فهم مصادر الحضارة اليونانية، فالسلم السباعي في الموسيقى وجد في أوغاريت قبل فيثاغورس بألف سنة. واستطعنا من تلك الكشوف فهم مقول هيرودوت أن الكتابة جاء بها قدموس لليونان. وحتى أشعار هوميروس وملاحمه وهسيود وملاحمه ظهرت الأصول الأولى لها من الساحل السوري قد أخذت نمه. يقول المؤرخ الإيطالي سابتينو موسكاتي: «كان الأدب السوري الأساس الذي استمدت منه الأساطير اليونانية والتي نراها في الأوديسة وأنساب الآلهة عند هسيود.»(٨٤).

ولكن المفكر التركي حلمي زيا أولكن (١٩٠١ ــ ١٩٨٠) فصّل في هذه المسألة أكثر. وأبرز مزايا الشعب السوري الذي أثر في الحضارتين اليونانية والرومانية. قال: «مجّد الإغريق العقل، ومثلوه بالعالم فوق الطبيعي،

واستبدلوه بآلهة الميثولوجيا، وخلقوا منه نموذجاً للرجل الحكيم (الفليسوف) الذي يعيش وفقاً للنظام الكوني، مخضعاً هواه لعقله، وهكذا شهدنا نزاعاً بين اللوغوس Logos والكلمة المسيحية أو بين الفكر السوري، وبين العقل والضمير والعدالة والمحبة.(٨٥).

وسأتعرض لتأثير الأساطير والملاحم على المسرح اليوناني.

كيف نشأت الدراما الإغريقية؟

قالوا: إن رجال الدين كانوا يمثلون المسرحيات المقدسة، في أعياد الإله ديونيسيوس (إله الخمر) وكانت الأسطورة تصور الظواهر الكونية المتتالية التي تطرأ على زراعة الكروم، ويغلب عليها تصور تعاقب الفصول، ومن خلال السرد الذي يتولاه رئيس الجوقة (الكورس) كان الأفراد يقومون بإداء الحوار وبالرقص والغناء والإنشاد، كما هو الحال في المعابد السورية وفي معبد إيل في أوغاريت، حيث كان الاحتفال الديني الذي تنشد فيه الأشعار وتعزف الموسيقى ويروى الكلام ويتم التمثيل والغناء. وكانت الجوقة مع ثلاثة ممثلين يؤدون الأدوار.

إلا أنه لم يظهر الممثل الثاني إلا على يد أسخيلوس (٥٢٥ ــ ٤٥٥ق.م) الذي أبرز في الحوار الصراع بين وجهات النظر المختلفة كما هو الحال في الأساطير الأوغاريتية التي ينطبق عليها قول أرسطو: «التراجيديا محاكاة لعقل له طول محدود في لغة مزودة بكل أنواع الزينة، حسب اختلاف التراجيديا، وتتم هذه المحاكاة عن طريق أشخاص يمثلون بواسطة الحكاية،

ويثير في النفس الرحمة والخوف مما يؤدي إلى التطهير (الكاثرسيس) من مثل هذه الانفعالات.»(٨٦)

كان التشابه واضحاً في المواضيع والمواقف والأبطال، فالآلهة يشبهون البشر إلا في الخلود والقدرة الفائقة. والآلهة عند الطرفين (اليونان والسوريين) تنقسم إلى طبقتين:

الطبقة الأولى:

طبقة الآلهة التي على رأسها (إيل) رب السماء الحي، وهو عند الأوغاريتيين يشبه كرونوس إله الزمن، وزيوس كبير الآلهة. إلا أن الآلهة الأوغاريتية تترفع عن الدنايا، التي يفعلها الآلهة عند الإغريق.

الطبقة الثانية:

مجموعة الألهة الذين هم أقل شأناً كالإله بعل وموت عند الأوغاريتيين، وكانا ضدين مثلهم مثل زيوس وابن عمه برومثيوس صديق البشر. كان زيوس محباً للنساء وللذة، وكانت زوجته هيرا شديدة الغيرة والحقد، وكان ابنهما ديو نيسيوس (إله الخمرة) إله ماجن. أما فينوس إلهة الحب والجمال كان لها دور كبير في حروب طروادة، وكانت تحب الراعي أدونيس، وأنجبت منه بناتاً ثمانية أطلق عليهن ربات الحسن.(٨٧)

كانت الآلهة عند السوريين تحافظ على القيم النبيلة وتحض البشر على اتباعها. أما الآلهة اليونانية، فعلى الرغم من أن أصولها من سورية ومصر وبلاد الرافدين، فإنها لا تكاد تترفع عن ممارسة الفجور، ولكنهما يتفقان على شيء واحد وهي قدرة الإله إيل (الله) القادر على أي شيء. وقد نقل شيشرون في كتابه (طبيعة الآلهة) عن بوزويدونيوس الآفامي (الحموي) قوله:

«ليس يستحيل على الله (إيل) صنع أي شيء وذلك بدون عناء.» (طبيعة الآلهة ك٣ ف٣٩ شيشرون). ومع ذلك طابق اليونان بين غرائز البشر و الطبيعة الإلهية السامية.

كيف انتشرت عبادة الآلهة عشتار على سواحل المتوسط؟

تعتبر الإلهة عشتار (الأم السورية)، التي انتشرت عبادتها في اليونان وروما ومصر عن طريق الجاليات السورية، وبنيت لها المعابد في قبرص وكريت وديلوس وصقلية وسردينيا وقرطاجة ومصر. في مصر تطابقت مع الإلهة المصرية إيزيس، وفي اليونان مع فينوس إلهة الحب والجمال، أو أفروديت عند الرومان، وإن تغيرت الأسماء، فجوهر العبادة واحد.

اعتمدت عشتار (عشتروت) على جاذبيتها السحرية، وسرية طقوسها التي تثير الأمل لدى الإنسان اليائس، راجياً الانعتاق من واقعه المؤلم، وبما يرافق تلك الطقوس من الموسيقى الآسرة للآذان وبألحانها الرتيبة المثيرة للنشوة، المحررة للجسد من عبودية الألم. وبرقص الكاهنات الحسان، المثير للنشوة دون الحاجة للخمرة، وبالخلاعة أحياناً، دون شفاء النفس من الرغبة الدفينة للجنس.

مراجع الفصل الثاني

١ ـ تاريخ سورية السياسي (٣٠٠٠ ـ ٣٠٠ق.م) ص٣٨، هورست كلينغل، ترجمة: سيف الدين دياب، دار المتنى، دمشق ١٩٩٨م.

٢ ـ التاريخ القديم لشعوب المشرق ص١٤٧، ماسبيرو، القاهرة ١٩٥٤م.

٣ ـ مجلة فكر (العدد ٨٣) ص٢٣٣، جهاد عقل، دمشق آذار ٢٠٠٤م.

٤ ـ المصدر السابق ص٢٣٩.

٥ ـ ماري ص١٨٤، أندريه بارو، ترجمة: رباح نفاخ، دمشق ١٩٧٦م.

6 – Gardner. A. The Ancient Military Road Between Egypt and Palestine vo.6. p99 London 1928.

٧ ـ تاريخ الوطن العربي القديم (بلاد الشام) ص٦٩، فيصل عبد الله، جامعة دمشق ٢٠٠٤م.

٨ ـ هورست كلينغل ص٧٣.

٩ ـ فيصل عبد الله ص٧٠.

١٠ ـ أندريه بارو ص٢٨.

١١ ـ فيصل عبد الله ص٣٤٣.

١٢ ـ المصدر السابق ص٣٦٥.

١٣ ـ هورست كلينغل ص٦٣.

١٤ ـ أندريه بارو ص١٧٦.

١٥ ـ هورست كلينفل ص٨٦.

١٦ ـ المصدر السابق ص٨٨.

١٧ ــ أندريه بارو ص٣٨.

18 – Gaddcy . Tablets From Chagar Bazar and Tel Barak, vol 7. p.33, Iraq 1940.

١٩ ــ فيصل عبد الله ص٩٢.

20 – Batto Bf. Studies on Women of Mari. P.21, Baltimore 1974.

٢١ ــ أسطورة الآلهة جـ١ ص٣٦٣، لويس ممفورد، ترجمة: إحسان حصني، دمشق ١٩٨١.

٢٢ ــ المصدر السابق جـ١ ص٣٦٥.

٢٣ ــ مجلة دراسات تاريخية (العددان ١٩ و٢٠) ص١٧، محمد حرب فرزات، جامعة دمشق ١٩٨٥.

٢٤ ــ الحوليات الأثرية (العددان ٤ و٥) ص١٥٨، فان لير، دمشق ١٩٥٤ ــ ١٩٥٥.

٢٥ ــ أبحاث الندوة الدولة التاريخ وآثار الرقة ص٩٥، إيفاشترو منغر، دمشق ١٩٨٥.

26 – David Outes, The Rise of Civilization, p.10, Oxford 1967.

٢٧ ــ الحوليات الأثرية، العددان (٤ و٥) ص١٦٢.

٢٨ ــ الجديد حول الشرق القديم ص١٩١ ــ ١٩٢، بونغارد ــ ليفين، ترجمة: جابر أبي جابر وخيري الضامن، دار التقدم، موسكو ١٩٨٨.

٢٩ ــ إيبلا (الصخرة البيضاء) ص٤٣، باولو ماتيه، ترجمة: قاسم طوير، مطبعة سورية، دمشق ١٩٨٤.

٣٠ ــ الجديد حول الشرق القديم ص١٨٤.

٣١ ــ باولو ماتيه ص١٥.

٣٢ ــ الجديد حول الشرق القديم ص١٦٩.

٣٣ ـ أسطور الإطار ص١٦٤، كارل بوبر، ترجمة: يمنى طريف الخولي، عالم المعرفة، الكويت ٢٠٠٣.

٣٤ ـ باولو ماتييه ص١٩.

٣٥ ـ المصدر السابق ص٤٧.

٣٦ ـ هورست كلينغل ص٢٨.

٣٧ ـ المصدر السابق ص٢٧.

٣٨ ـ باولو ماتييه ص٢٥ ـ ٢٦.

٣٩ ـ المصدر السابق ص٥٥.

٤٠ ـ المصدر السابق ص١٩٠.

٤١ ـ هورست كلينفل ص٣٨.

٤٢ ـ الجديد حول الشرق القديم ص١٨.

٤٣ ـ المصدر السابق ص١٦٢.

٤٤ ـ باولو ماتييه ص٤٣.

٤٥ ـ نشوء الأمم ص١١٧، أنطون سعادة، مطابع فتى العرب، دمشق ١٩٦١.

٤٦ ـ باولو ماتييه ص١٧٦.

٤٨ ـ فيصل عبد الله ص٢٢٩.

٤٩ ـ هورست كلينفل ص٢٥.

٥٠ ـ باولو ماتييه ص٥٩.

٥١ ـ هورست كلينفل ص١٥٨.

٥٢ ـ فيصل عبد الله ص١٠٥.

٥٣ ـ المصدر السابق ص١٤٩.

٥٤ ـــ هورست كلينفل ص١٦٤.

٥٥ ـــ رأس الشمرة ص٣٧ ـــ ٣٨، جبرائيل سعادة، دمشق ١٩٥٤.

٥٦ ـــ رأس الشمرة ص٨٠، كلود شيفر، ترجمة: فهمي الدالاتي، المديرية العامة للآثار، دمشق ١٩٨٠.

٥٧ ـــ المصدر السابق ص٤٣.

٥٨ ـــ مجلة العربي (عدد٥٤٤) ص١٦٦، صلاح عبد الستار الشهاوي، الكويت ٢٠٠٤م.

٥٩ ـــ كلود شيفر ص٧٥.

60 – Gelb. A study of Writing. P.177, London 1952.

61 – Jornal of Hellenistic Studies. P.1260, ,Newyork 1934.

62 – Sartong. Ancient of Science, p.255, Harvard 1952.

63 – Hall, ,The Society of Biblical Archaelogy. P.282, London 1919.

64 – Leonard Wooly. A Forgotten Kingdom. P.11, London 1953.

٦٥ ـــ جبرائيل سعادة ص٤٧.

٦٦ ـــ المصدر السابق ص٥٣.

٦٧ ـــ المصدر السابق ص٦١.

٦٨ ـــ المصدر السابق ص٦٤.

٦٩ ـــ المصدر السابق ص٧٥.

٧٠ ـــ كلود شيفر ص١٣٣.

٧١ ـــ قاموس الكتاب المقدس ص٣٧٥، رابطة الكنائس الإنجيلية، بيروت ١٩٨١.

٧٢ ـــ مباحث في المدنية الأولى ص٨٧، جورج عطية، دار النشر للجامعيين، بيروت ١٩٥٦.

٧٣ ـــ فيصل عبد الله ص١٨٧.

٧٤ ـ ديانة مصر القديمة ص٩٨، أرمان، ترجمة: عبد المنعم أبو بكر ومحمد أنور رشدي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥٥.

75 – Buccellati. G. The Amorites of the ur I Period. P.236, Napoli 1966.

٧٦ ـ مجلة الحوليات الأثرية السورية، عدد ١٧، ص٦٧، ستيون وليامز، دمشق ١٩٦٧م.

٧٧ ـ هورست كلينغل ص٣٥٧.

78 – Encyclopaedia Britinica (Tyre) London 1970.

79 – Myers. General History. P. 123 Ginn and company, New York 1989.

٨٠ ـ صور عبر العصور ص٨٥، نينا جدجيان، بيروت ١٩٦٩.

٨١ ـ رحلة ابن بطوطة ص١١٥، دار صابر، بيروت ١٩٥٥.

82 – B. Geldersleeve – Essays and Studies. P.16 New York 1924.

٨٣ ـ جمهورية أفلاطون ص١١٥. ترجمة: الأحنا خباز. دمشق ١٩٥٩م.

٨٤ ـ الحضارات السامية القديمة ص١٣٠. سابتينو موسكاتي. ترجمة: السيد يعقوب بكر. دار الرقي، بيروت ١٩٨٦م.

٨٥ ـ الثقافة الإنسانية وفلسفة التربية ص٢٣١. ترجمة: أنطوان خوري. دار النشر للجامعيين. بيروت ١٩٥١م.

٨٦ ـ الدراما الإغريقية ص١٠ ـ ١١. إبراهيم سكر. المكتبة الثقافية، القاهرة ١٩٦٨م.

٨٧ ـ الأدب اليوناني القديم ص٢٢. علي عبد الواحد وافي. دار المعارف بمصر ١٩٦٠م.

الفصل الثالث

دور القوافل العربية في التواصل الحضاري بين الشرق والغرب

- التمهيد للبحث.
- حران مدينة الأعراب والحج الأولى.
- الرّها المدينة المباركة ومدينة الثقافة واللاهوت المسيحي.
- منبج (هيرابوليس) مدينة الحج السورية.
- تدمر مدينة القوافل البعيدة.
- مملكة الأنباط أول دولة عربية تجارية.
- مدينة الحضر، المملكة العربية المجهولة التاريخ.
- دولة الحيرة التي انتصر العرب فيها على الفرس.
- مراجع الفصل الثالث.

التمهيد للبحث

يرى معظم المؤرخين أن القبائل الآرامية - العربية، عاشت متنقلة في بادية الشام والجزيرة العربية، وأرض الرافدين في العهد الآشوري. بينما يرى آخرون أن تلك القبائل تعود إلى عصر أبكر، تعود إلى العصر الأكادي، وهذا يعني أن بدايات التاريخ العربي ـ الآرامي يعود إلى زمن استقرارهم في أرض الهلال الخصيب، وسيطرتهم على الطريق التجارية، وإدارتهم للقوافل، وتكوينهم للممالك الآرامية في دمشق وحمص وحماة وحران والرها ومنبج وتدمر والحضر، والحيرة وبصرى ومكة وصنعاء.

استطاع الآراميون الكتابة بالأبجدية التي أخذوها عن أوغاريت، وجعلوها لغة الإمبراطورية الأخمينية (الفارسية ٥٥٩ - ٣٣٣ق.م). ووضع المؤرخ الفرنسي كليرمون ـ غانو دراسة قيمة عن الكتابة الآرامية قال فيها: «إن المصريين والإيرانيين كانوا يتكاتبون بالآرامية التي كانت اللغة الرسمية، وبها تسجل الوقائع الإدارية، وتسك العملات وتصدر الأوامر، وبها يتفاهم الحكام والملوك»(١) .

ظلت اللغة الآرامية لغة الثقافة الحية، تنافس اليونانية حتى بعد غزو الإسكندر المكدوني للشرق، وظلت لغة التخاطب في البيوت والأسواق، وفي المعابد، بها كتب العبرانيون أسفارهم الأولى، وبها تكلم المسيح، وعلى حد قول المؤرخ فيلافيوس يوسيفوس اليهودي (٣٧ - ١٠٠م): «كانت اللغة الآرامية لغة جيلي».

حران، مدينة الأعراب والحج الأولى

حران مدينة قديمة جاءت تسميتها من اللغة السومرية، بمعنى (الطريق)، لأنها كانت عقدة مواصلات القوافل القديمة، ذكرت في التوراة في فصل الملوك الثاني، واشتهرت بمعبدها الشهير (معبد الإله سين) إله القمر وشفيع القوافل التي لم تكن تسير إلا في الليل على ضوء القمر. وكانت حران سوق نافقة (كاروم) يقام بها السوق مرتين في العام الواحد في شهر نيسان، ويدوم خمسة عشر يوماً، وسوق آخر يقام في شهر تشرين الثاني، وكانت هذه الأيام أيام حج تؤمه القوافل، وتطوف حول معبد سين.

كان سكان حران خليطاً من جاليات مستقرة من العرب والآراميين والفرس والإغريق. وفي عهد الملك نيونيدس الملك الكلداني، اهتم بمعبد سين، لأنه كان ابن كاهنة حرانية، وقد أقام بين العرب ثمان سنوات في (تيماء) شمال الحجاز. وقد استعان بهم لصد القبائل الميدية، ولكن القائد الأخميني كورش استطاع بمعونة كهنة الإله مردوخ (إله الشمس) الذين يحقدون على عبادة إله القمر. اغتالوا ملكهم، وأحيوا الاحتفالات بأعياد السنة الشمسية.

وفي سنة ٤٧٩ق.م، قامت ثورة على الحكم الفارسي بقيادة الكاهن البابلي (شماس ــ أربا) الذي ادعى أنه من نسل نبوخذ نصر، ولكن استطاعت الدولة إخماد ثورته، وكسروا تمثال الإله مردوخ ونفوا الكهنة إلى خارج البلاد، وأظهروا الديانة الزرادشتية، كديانة مزاحمة، وأحلوا الكتابة باللغة الآرامية واستعانوا بكهنة حران الذين ازدهرت تعاليمهم(٢).

استطاع كورش توحيد العراق وسورية ومصر وجعل منها إمبراطورية موحدة، من الناحية الاقتصادية، وترك للشعوب حرية الاعتقاد والفكر، لهذا صار يعتبر من أعظم ملوك العالم القدامى.

فمن هو كورش العظيم؟

كان من أسرة نبيلة، وكانت أمه ابنة الملك الأخميني، وأصبح هو قائداً. وبمساعدة كهنة بابل أقيم ملكاً على بابل سنة ٥٥٠ق.م، وساد حكمه منذ ٥٤٦ق.م في ميدية ثم تغلب على سارديس وأزال مملكة لودية على الساحل الغربي لآسيا وضم كل المدن اليونانية مثل ساموس وأفسس، واستولى على حران ونينوى وبخارى وما وراء النهر. وسادت إمبراطوريته بعد أن ورث عرش نبونيدس عام ٥٣٨ق.م. الشرق القديم وأعاد اليهود إلى فلسطين، وأتم ابنه قمبيز (٥٢٩ ــ ٥٢١ق.م) فتح مصر، وتلاقح الفكران المصري والسوري. وفي عهد ابنه داريوس الأول (٥٢١ ــ ٤٨٥ق.م) ظهر مصطلح سورية (سورستان). نظّم الطرق التجارية بين سارديس والهند، وأطلق عليه اسم طريق سمراميس، وهذا هو طريق الحرير فيما بعد.

ساد السلام في عهد الإمبراطورية الفارسية، وظهرت حران مدينة الثقافة العرفانية وتحول مركز الثقافة من بابل إلى حران والقدس (أورشليم)(٣).

مر الإسكندر المكدوني بمدينة حران عام ٣٣٣ق.م وتزود بالميرة، وأخذ البركات من كهنة حران، ورافقته فرقة من النبالة الأعراب، وترك جالية مكدونية في حران، وأصبحت حران مدينة متعددة اللغات والأعراق والثقافات. وصارت اللغة اليونانية تزاحم اللغة الآرامية. ذهب الإسكندر إلى السند وعاد إلى بابل وتوفي فيها في ١٣ حزيران عام ٣٢٣ق.م. ولكن عبّد

في حران، وانتقلت الأخوة السرية الفيثاغورية إلى حران، وصار فيثاغورس نبي حران، وجاء إلى حران الكاهن البابلي بيروسوس (برعاث) وكتب التراث البابلي باللغة اليونانية، وبذلك تمت المثاقفة الأولى في حران عام ٢٦٥ق.م. وظهر الفكر الهلينستي. وفي عام ١٤٠ق.م قامت ثورة في بابل عندما استولى عليها الفرثيون وأخذوها من يد السلوقيين حكام سورية. وهنا بدأ الصراع التجاري والثقافي معاً، متمثلاً الصراع بين السياستين الفارسية (الفرثية) واليونانية وانحازت حران ومنبج (هيرابولس) إلى جانب الثقافة اليونانية، بينما انحازت الرّها (أديسا) تحت إمرة حكامها الأباجرة إلى الثقافة الفرثية. وظهر الفيلسوف (بابا الحراني) الذي سماه ابن الصليبي (نبي حران) ونسب إليه بعض النبوءات. قال: «تجيء النار التي هي أقدم عنصر في العالم، إلى هذه الأرض، وترى جسم الأرض والناس وهم لا يشعرون، ثم تعود فتصعد إلى مكانها المرتفع عند ذلك المجد المختفي عن الجميع، وعندما تكون هناك في مكانها يجيء مشبهوها من أبناء حران، فيقول أبناء مدينة سين نبأ لبابا، تلك هي الحكمة من أبناء السماء. ولما جاء عزوز تطيّر الكل منه وخرج منها سكانها، وكان أبناء حران مخادعين، كل ما كان فهو كائن، وهو أقدم الكل، وبه حلّت الحكمة وفيه أقامت، وخارج النور لا يقوم شيء. أيتها الأرض لا تنغمسي في الخطيئة، تجيء السيئة على ظلمهم ولا تقوم، حتى يرون النار التي رأيت ويسجدون لها بحق. واحسرتاه! بعد زمن سيتصدع بيت الآلهة الذي كان ممجداً وعالياً كما كان مجدل (كابتول) روما، ولكن لا يتركون به حجراً على حجر، وينزل شعاع الرب واضحاً على الأرض، ويأتي أبناء فارس يقدمون الهدايا للشعاع، ما أقدس تدبير الآلهة، وما أعجب المعجزة التي تظهر على الأرض، إنها أعلى من الكلمة (اللوجوس)، وهي

فوق إدراك العقل، ولا تدرك ولا تخطي أبداً، ثم تقيم الأرض في السلام قليلاً، وينهض ملكوت الشرق، وتزول وتخرب مدينة اليهود (أورشليم) ويقع عابور (العبريون) في السبي، وتخدم بابل من أجل ولد المعجزة، يسوع، الذي ذكرت قصته، ثم ينهض ملوك الغرب، ويأتون حتى إقليمنا، ويذبحون داخل هيكل عزوز ويقربون القرابين داخله، وبعد زمن طويل سيجيء اسم كبير من الشمال، ويقيم داخل هيكل عزوز، وكل من لا يتبع كلامه يتحكم فيه الخراب.»(٤)

تلاحظ من النص أنه قد كيّف وزوّر لتصبح النبوءة بوضوح عن السيد المسيح. لهذا أبقوا تراثه ودمروا تراث غيره، معتبرين حران هي القرحة الوثنية النازفة في جنب مدينة الرها المدينة المسيحية المباركة. وفعلاً كان الصراع التجاري والسياسي واضحاً بين المدينتين.

ولكن من الأدب الآرامي الذي أبدعته حران وظل خالداً قصة الحكيم أحيقار وهي قصة تحتوي كل الأمثال التي ظهرت لدى شعوب بلاد ما بين الرافدين.

وهي قصة تشبه إلى حد ما قصة الحكيم لقمان التي ذكرت في القرآن الكريم. يقول أحيقار: «يا بني، احن رأسك، ورقق صوتك، وكن بشوشاً، وامش في الطريق المستقيم، ولا تكُ أحمق، ولا ترفع صوتك بالضحك، فإنه لو كان البيت يبنى بالصوت المرتفع، لبنى الحمار بيتين في اليوم الواحد.» هذه الأقوال تماثل ما جاء في القرآن الكريم: «واقصد في مشيتك، واخفض من صوتك، إن أنكر الأصوات لصوت الحمير.» (سورة لقمان آية:١٩). علق المسعودي على لقمان الحكيم: «إنه لم يهبط عليه الوحي، وإنما بلغ من الحكمة والبلاغة مبلغاً عظيماً.»

كانت لغة أهل حران الكتابية هي اللغة الآرامية، ولغة الشارع والمعبد اللغة العربية والآرامية. قال المسعودي عن النبط أو الكلدان الذين هم الآراميون: «العراق وديار ربيعة وديار مضر والشام وبلاد العرب اليوم، برها ومدرها وتهامة والحجاز والعروض والبحرين والشجر وحضرموت وعمان، بل جزيرة العرب، لسانها واحد هو واللسان السرياني (أي الآرامي) وهو اللسان الأول لآدم ونوح وإبراهيم عليهم السلام، ولسان قحطان لم يكن عربياً بل على اللسان الأول لسان سام بن نوح وإن إسماعيل بن إبراهيم إنما تكلم بالعربية.»(٥).

كانت القبائل العربية لا تفارق القبائل الآرامية، ومن افترق منهم وسكن المرتفعات سمي آرامياً، ومن سكن البوادي والصحارى سمي عربياً. منذ القرن ١٩ق.م. يقول المؤرخ الإنكليزي جورج سيغال: «تظهر الرسائل المكتشفة في ماري أن المنطقة حول البليخ كان يحتلها في القرن ١٩ق.م اتحاد قبائل بدوية كانت نشطة بشكل خاص في منطقة حران، وقد شن عليها شمشي أدد حاكم آشور حملة نظمها بعناية ليخضع منطقة حران، وليبقي طريق التجارة مفتوحاً.»(٦)

كانت حران مدينة حج منذ القرن الثامن قبل الميلاد، ولذلك أطلق عليها المسيحيون (عش الوثنية). وعندما جاء العرب المسلمون إلى حران عام ٦٣٩م، ساعدهم الحرانيون في فتح مدن الجزيرة. وينسب إلى عياض بن غنم دعاء يدعو فيه لأهل حران. وجعل العرب إدارة ديار مضر في مدينة حران. وصارت قصبة ديار مضر، وظلت كذلك طيلة الحكم الراشدي والأموي، ساعد الحرانيون المسلمين في تنظيم الإدارة لما يملكوه من خبرة في الكتابة. وساعدوا القبائل العربية المُسيحية على الدخول في الإسلام. يقول الرهاوي المجهول: «كانت

الأبواب مفتوحة أمام العرب ليدخلوا الإسلام، وانزلق المتقلبون والمنحلون نحو وهدة الهلاك، وخسروا أرواحهم، كما خسروا أجسادهم، أي كل ما يملكون، دون لطم أو تعذيب بل سارعوا في تهور عظيم، وصاروا يشكلون جماعات مكونة من مئات أو حتى ثلاثمائة شخص دون أي نوع من الإكراه، وكانوا يذهبون من ديار مضر كلها إلى حران، ويصبحون مسلمين أمام موظفين حكوميين. لقد فعل ذلك جمهور غفير من المسيحيين العرب، من مقاطعات الرها وحران، وتلاّ (ديران شهر) ورأس العين والرقة.»(٧)

اطلع المؤرخ الثقة يحيى بن جابر البلاذري (المتوفي ٢٧٩هـ/٨٨٧م) على العهد الذي كتبه عياض بن غنم لأهل حران والجزيرة، كان الكتاب محفوظاً عند قاضي الرقة داود بن عبد الحميد بن عمرو بن ميمون بن مهران. اطلع عليه سنة (٢٧٠هـ/ ٨٨٤م) جاء في الكتاب: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب عياض بن غنم ومن معه من المسلمين لأهل الرُّها. إني أمنتهم على دمائهم وأموالهم وذراريهم ونسائهم ومدينتهم وطواحينهم، إذا أدوا الحق الذي عليهم، وأن يصلحوا جسورنا، ويهدوا ضالنا، شهد الله وملائكته والمسلمون.»(٨)

أما الطبري فقد قال: «إن أهل حران صالحوا ما صالح عليه أهل الرقة. (٩) وزاد عليهما الواقدي، وأن عياضاً، دعا لهم: ثبتهم اللهم على دينهم، ولا تمكن من بلدهم عدواً»(١٠)

وعرف المسيحيون وأهل الذمة من يهود وصابئة ومجوس الأمان في العهود الإسلامية. جاء في كتاب السعردي: «وتعززت الأمور بفضل الله تعالى، وطابت قلوب النصارى، وأهل الذمة في مملكة العرب ثبتها الله ونصرها.»(١١)

كان لحران في الجاهلية معبدان، أحدهما أخذه عياض بن غنم وحوله إلى المسجد الجامع وكان يوجد قرب سوق النسوان ولا زالت آثاره في الجهة الغربية من حران ويعرف بالجامع العتيق، والمعبد الثاني هو الهيكل المعروف ببيت أنطاكية، وتزعم الصابئة أن الذي بناه هو سقلابيوس (إله الطب) وكان قرب سوق الجزارين، وآثاره في الزاوية الجنوبية الشرقية، ويدعى أيضاً بهيكل الصورة أو النفس. وقد شاهده المسعودي سنة (٣٣٢هـ/ ٩٤٤م) وشاهد على مدقة الباب كتابة أو قول لأفلاطون: «من عرف ذاته تأله»(١٢)

صارت حران عاصمة الدولة الأموية في عهد مروان بن محمد (الحمار) ١٢٧ ــ ١٣٢هـ. وعندما انتقل الحكم إلى العباسيين، قرب الخليفة المنصور إليه المنجمين وجعل وزيره عبد الملك بن حميد الحراني، ومن بعده استوزر سليمان بن مخلد، وكان ذو إلمام ودراية بعلوم الأوائل ومنها الكيمياء. ويقال أنه كان له تأثير كبير على المنصور، وأشاعت العامة في بغداد أن الوزير سليمان بن مخلد قد سحره وظلوا يكيدون له حتى قتله المنصور لأسباب لا زالت مجهولة عام ١٥٣هـ/ ٧٧١م.

وعندما نقل الرشيد دار الخلافة إلى الرقة، استعمل كتّاباً من الحرانية في بيت الحكمة، وانتقلت جاليات كبيرة من حران إلى الرقة، وهم الذين صنعوا للمأمون الإسطرلاب والقبان والموازين، وفتح ثابت بن قرة الحراني مدرسة للطب والرياضيات والفلسفة في الرقة، وخرّجت هذه المدرسة علماء كبار في الرياضيات والفلك أمثال محمد بن جابر البتاني الرقي (المتوفي ٣١٧هـ/ ٩٢٩م).

الرها مدينة الثقافة واللاهوت المسيحي

اعتاد المؤرخون السريان والعرب ربط تشكل مدنهم بالأساطير والخرافات. ومن تلك مدينة الرها. فمؤسسها هو النمرود، وسماها أرك. اختار النمرود موقعها الممتاز على طريق القوافل الآتية من كل الجهات. وهي وسط مدن شهيرة مثل حران ونصيبين ومنبج وكلها تقع على طريق الحرير.

بنى النمرود في وسطها قلعة جعل فيها عرشه الواقع على الهضبة المشرفة على بركة السمك المقدس (عين زليخة)، وأول محاولة جادة لتحديد تاريخها القديم ما جاء في كتاب المؤرخ الرهاوي المجهول الذي حكى أن (أورهي) مدينة أسسها أورهي بن جيويا. وقال غيره بل إن اسم المدينة آت من كثرة المياه من الجذر الآرامي urhu (ماء).

وأفضل مؤرخ سرياني حكى قصة مدينة الرها، المؤرخ مار يعقوب الرهاوي (٦٣٣ ــ ٧٠٨م) قال: «بعد الطوفان الذي حدث في أيام نوح، بنى الملك نمرود الكنعاني مدينة الرها، وكان بالقرب منها قرية أورشاه التي كان يسكنها الكلدان.

ازدهرت الرها فترة طويلة إلى أن دمرها الملك الآشوري سنحاريب الذي صعد إلى أورشليم ودمرها وظلت المدينة مهجورة حتى العهد السلوقي، عندما أعادوا بناءها وسموها إديسا Eddisa أي المحبوبة باسم مدينة في مكدونية، لذا أضيف إليها فيما بعد اسم (سورو مقدونوس).

ثم سكنها العرب وعينوا عليها سلسلة من الملوك (الأباجرة)(١٣) الذي خضعوا للحكم الفرثي، وأقاموا علاقات تجارية وسياسية مع ملوك الحضر ومدينة تدمر، ومدينة منبج (هيرابوليس).

وفي زمن الملك الأرمني ديكران الكبير (٨٥ ــ ٦٥ق.م) أدخل الجمال في نقل البضائع من الرها إلى عاصمة أرمينية (إيشميازين). وبذلك وحّد طريق التوابل مع طريق الحرير. وازدهرت الرها وكان أول ملوكها الأبجر أوريو (الأسد) ١٣٢ق.م. وفي بلاطه ازدهر الأدب والشعر وظهرت رسالة مارة بن سيرابيون كتبها رجل آرامي أصله من شميشاط، وقد أخذ أسيراً إلى مدينة سلوقية في العراق، في نهاية القرن الثاني قبل الميلاد. والرسالة حوار عن الإرادة الحرة والخطيئة. وفي الرسالة يبدو التأثير اليوناني الفيثاغوري واضحاً. وقد ذهب المستشرق الإنكليزي كيورتون ناشر الرسالة إلى أنها كتبت فيما بين نهاية القرن الأول الميلادي والقرن الثاني، ولأهميتها في الثقافة السريانية أعطيك عنها ملخصاً بسيطاً:

«سلام ماره بن سيرابيون إلى ولدي سيرابيون. عندما كتب إليّ أستاذك ومربيك، وأطلعني على مثابرتك على الدروس، حمدت الله أنك وأنت حدث صغير بدون مرشد، قد بدأت بداية طيبة، فكان ذلك مطيباً لخاطري، لهذا أكتب إليك هذه الرقعة، وجدت أن التعاليم اليونانية كلها قد تحطمت عند ميلادك فاحترس يا بني وفكر في الكتاب، وابحث عن الحكمة، وتذكر وصاياي بانتباه، وكن رجلاً هادئاً يحب النظام، وهذا نفس ما حدث لي.

يا بني، إن الإنسان عندما يرتحل عن أهله، ويتمكن من الاحتفاظ بعاداته، ويعمل كل ما يجب عليه بدقة، فإنه يكون ذلك الرجل المختار الذي تحل عليه بركة الله، ولن يوجد ما يشبهه في نبله. فإن أمثال هؤلاء الناس الذين يدعون

إلى النظام يريدون أن يتخلصوا من نضال الزمن، والذين يتمسكون بالحكمة يتعلقون بالأمل في العدل، والذين يقومون على الحق يظهرون مستوى فضائلهم، والذين يهتمون بالفلسفة يفكرون بالهرب من بؤس هذا العالم.

أما أنت يا بني فتدبر هذا كله بحكمة، كرجل كريم يريد أن يحيا حياة نقية، وإياك أن تغيريك الثروة التي يتعطش إليها الكثيرون، واجعل همك اشتياق الثروة غير الملموسة، الثروة الحقيقية التي هي المعرفة.

يا بني، إن جميع هذه الأشياء التي تظهر لك في العالم كأنها حلم يتلاشى بعد فترة، فإنها مد الزمن وجزره، وإن الأشياء التي تفرحنا تعجل بالألم لنا، وبخاصة ولادة الأبناء المحبوبين، وحب الخير كريه لنا، ولكننا مدفوعون إليه بالعادة، ونحن نتعب في إصلاح المذنب ونحزن من جراء رذائله.

يا بني! قد سمعت أن أصدقائنا غادروا (سميصات) وأنهم غادروها بحزن وهم يلومون الزمن، لقد أبعدنا عن قومنا، وإنه لا سبيل إلى العودة إلى مدينتنا لرؤية أهلنا، واستقبال آلهتنا بالتسبيح. كان الأجدر بذلك اليوم أن نسميه يوم الحسرة، فقد استولى علينا هم ثقيل، كانوا يبكون وهم يتذكرون آباءهم ويتأوهون حنيناً إلى أمهاتهم، لقد حزنوا على إخوانهم، وتألموا لفراق خطيباتهم. ولما سمعنا نبأ أصحابهم الأولين الذين ذهبوا إلى سلوقية، على دجلة شرق بغداد، زاد بكاؤنا وأخذ يتدافع فينا حب الحياة وألم الموت. ولكن ماذا يجني قوم محبوسون اعتادوا على ما هم فيه؟ أما أنت يا ولدي الحبيب، فلا يحزنك أن تدفع بك وحدتك من مكان إلى مكان، ولد الناس لكي يتقبلوا صروف الزمن، ولتعلم أنه عند الحكماء كل أرض سواء، وأن الناس الصالحين يجدون بكل مدينة آباء وأمهات فلتأخذ لك من نفسك موعظة.

يا بني! ماذا تقول عن الخطيئة التي حلت بالأرض، إني لأتعجب من كثيرين ممن يطرحون أبناءهم، ويغتنون بالثروة، وليس لهم من يرثهم، فتدبر وانظر، إن الضالين يسيرون في طريق الخيبة هذا!

يا بني! قال لنا الحكماء: على أي المقتنيات يعتمد الإنسان؟ على كثرة الثروة فإنها عرضة للنهب، على العظمة؟ إنها عرضة للإذلال، على الجمال؟ فإنه ذابل لا محال، على السلطة؟ فأنها زائلة، على البنين؟ فإنهم يموتون، على الأصدقاء؟ فإنهم كاذبون، على شرف المنصب؟ فإن الضغينة تسبقه، من هنا فليفرح بملكه رجل كداريوس أو بثرائه كبلوقراطس، أو بشجاعته رجل كأخيل، أو وبامرأته رجل كآجاممنون، أو بنسله رجل كبريانوس أو بمهارته رجل كأرخميدس، أو بحكمته رجل كسقراط أو بعلمه رجل كفيثاغورس، أو بذكائه رجل كبلوميدس، فحياة الناس يا بني زائلة عن العالم، أما حكمتهم وفضائلهم فباقية إلى الأبد!

أما أنت أيها الابن الصغير، فاختر شيئاً لا يبلى! اختر الفضائل والحكمة لأن الذين يتخلقون بتلك الصفات متواضعون، وهم جديرون بلقب الطيبين، لا تغضب على الآلهة، ولا تأسف على زمانك، فدبر حياتك بغير خوف لكي تفرح حينما تريد، فإن الخوف ليس من شيمة الحكماء وإنما هو شأن الذين يسيرون بغير قانون.

يا بنيّ! يقيم الإنسان في أملاكه كعابر سبيل، فلن يسمى أحد بعد موته (صاحب أملاك) وهم الذين عاشوا خوفاً من عدم بقاء الأملاك، يتركون مالهم ويطلبون مال غيرهم.

يا بني! لم يمت سقراط بل بقي في شخص أفلاطون، والناس لا يعرفون الاعتدال، وقلّما يمدون أيديهم إلى الحق والفضيلة فيعيشون عيشة الصم العمي.

يا بني! أن اختلاف الرأي ينتهي بنا جميعاً إلى كل تعب، لأن هم الناس تكبير بطونهم وهي الرذيلة التي بها يتم الفساد.

يا بني! لقد كتبت لك هذا الذي جال بخاطري، ولا يكفي أن تقرأه، ولكن يجب أن يتقدم العمل عليه، وادفع نفسك إلى الحكمة فهي معين كل الخيرات.

يا بني! تدبر كل ذلك لتكون قرة عيني، كانت مدينتنا في أوج عظمتها، وكان كثيرون، قد وصموا بألفاظ جارحة، أما نحن فقد رفض الزمن أن يتم الأشياء المنفوشة في عقولنا، ونحن اليوم في الأسر ونحمد الآلهة، فقد رضينا أن نقوم على الحكمة والرضا بقدرنا. فإذا سمح لنا الروم بالعودة إلى ديارنا وإلا فلن يصيبنا ما هو أكثر من الموت الهادئ المقدر لنا!

يا بني! إن أردت أن تختبر هذه الأشياء بعناية فاحكم شهوتك أولاً، واحذر أن تغضب، واستمع للخير، وتدب بعقل حكيم طريقك، فإني لا يهمني أن أفنى أو أن أموت، فلا تدع أحداً يحزن علي.»(١٤)

تعكس هذه الرسالة ثقافة عصرها الثقافة التي كانت سائدة في ولاية كوموجيه التي خرج منها الأديب العظيم لوقيانوس السميساطي (١٢٥ - ٢١٠م) صاحب المؤلفات الفلسفية الشهيرة في العالم القديم. ومن المقطع الأخير في الرسالة يتبين لنا أنها كتبت أثناء الاحتلال الروماني. في بلاط الأباجرة في بلاط الملك المثقف إيجر أوكاما (معنو الأسود) وهو الذي تعزى إليه رسالته إلى يسوع المخلِّص وهي الرسالة التي نقلها لنا أوسابيوس القيصري (المتوفي ٢٣٩م) جاء فيها: «لقد تناهى إلى سمعي أنك تشفي

المرضى بدون عقاقير، وتعيد للعميان أبصارهم والعرج خلفك يمشون، وتطهِّر البرص، وتطرد الأرواح الشريرة، وتقيم الأموات، هذا ما سمعته عنك. وأيقنت أنك ابن الله، وهو الذي أرسلك، ولهذا أكتب إليك لتسرع إلي وتشفيني مما أنا فيه من العذاب، وفي الوقت نفسه تتخلص من عذاب اليهود، وإن مدينتي وإن كانت صغيرة فهي تكفينا نحن الاثنين.»

وصل حنان رسول الملك أبجر إلى يسوع في أورشليم، وكان حنان رساماً، وقام برسم يسوع بالأصباغ والألوان، وأتى بالصورة، مع رسالة من يسوع قال فيها: «مبارك أنت، يا من آمنت بي ولم ترني، لأنه مكتوب عني، إن الذين رأوني، لن يؤمنوا بي، والذين لم يروني سيؤمنون ويحيون بي، وأما بخصوص ما كتبته إلي، بأن آتي إليك، فإنه علي أن أكمل كل ما أرسلت لإنجازه، وبعد ذلك سأصعد إليه، ذاك الذي أرسلني، وبعد صعودي سأرسل إليك أحد تلاميذي، ليشفي عذابك، ويعطيك الحياة الأبدية، لك والذين معك.» انتهى.

يزعم أوسابيوس القيصري، أنه استقى هذه الرسالة من سجلات مدينة الرُّها. وتقول نهاية الرواية أنه لما حمل حنان المنديل الذي عليه صورة المسيح وضعه الملك أبجر على وجهه وشفي في الحال.

أمّا في مؤرخو العصر الحديث فهم يشكون بهذه الرواية (منديل الرها). يقول المؤرخ جورج سيغال: «يشك بعض المؤرخين بهذه الرسالة، ويعتبرونها من الأساطير التي استخدمها أهل مدينة الرها لتعزيز مكانة مدينتهم في العهد المسيحي.» أما المؤرخ القديم بروكوبيوس الغزي (٥٨٥م) فإنه يؤكد أنه وردت في أرشيف الرها عبارة: «إن يسوع وعد أهل الرها بأن المدينة لن تسقط بيد البرابرة أبداً.» وعندما سقطت الرها بيد الفرس شك

المسيحيون في صدق هذا الوعد، مما حمل البابا جيلاسيوس سنة ٤٩٤م إلى رفض هذه الوثيقة. ولكن هذه الرسالة (بين يسوع وأبجر) وجدت مكتوبة بجانب قبر في (قرخ مغارة) قرب الرها(١٥)، مما ضمن استمرار خبر هذه الرسالة متداولاً في كنائس الرها، ثم حملت إلى القسطنطينية سنة ٥٧٤م واختلط تاريخ الرسالة وصورة المنديل المقدس وقناع فيرونيكا التي هي من بانياس الجولان ويقال: إن الرسول آداي البشير، ولد في بانياس وبشر في الرها، هو الذي حمل صورة المنديل الذي انطبعت عليه صورة وجه المسيح، عندما وضع المنديل على وجهه، هو في طريق الآلام نحو الصلب، وظلت هذه الصورة محفوظة في الرها، واعتبرت من كنوز الرها ثم نقلت إلى القسطنطينية عام ٩٩٤م.

تروي الراهبة إيغيريا الأكوتينية (عام ٤٥٠م) أن مطران الرها قال لها: «أنه كلما ظهرت قوات فارسية أمام الرها، كانت رسالة يسوع تستخرج وتقرأ فيندحر العدو.»

نعود إلى تاريخ الرها، في عام ١١٧م عين الإمبراطور هيدريانوس (١١٧ ـــ ١٣٨م) حاكماً فرثياً لمدينة الرها يدعى (برثاماسباط) وأنهى حكم الأباجرة، ولكن أهل الرها رفضوا الحاكم الجديد، وقامت القبائل العربية في (ديار وائل) مما اضطر الدولة الرومانية إلى إعادة الأبجر معنو السابع (١٢٣ - ١٣٩م) وفي زمن الأبجر فرهاد بن معنو (٢٤٠ - ٢٤٢م) سك نقوداً ذهبية وعليها صورة ملك بارثيا ولكن الكتابة لم تكن باليونانية بل كانت بالسريانية لغة بلاط الرها، مما أثار حفيظة الرومان وفي سنة ٢٤٣م خلعوا الملك أبجر ونفوه مع زوجته هدى إلى روما، وعينوا بدلاً منه حاكماً رومانياً بمرتبة ستراتيغوي Strategoi وبذلك أنهوا الحكم العربي في الرها.

ازدهرت التجارة وزاد الغنى في العهد العربي. ومن مجمل الكتابات السريانية واليونانية ندرك مدى الغنى، وكذلك من الأضرحة والتماثيل الموجودة في المقابر البرجية، التي تشبه مقابر تدمر. وتدعى في السريانية (نفشانا) وفيها النساء تلبس الحلي الرائع، مما يدل على غناهم الفاحش.

في دير يعقوب على بعد ٨ كم جنوب مدينة الرها وجدت نقود مصدرها مدينة دورا أوربوس (٢٢١ و٢٥١م) مما يدل على التواصل التجاري والحضاري بين المدينتين، وبين الرُّها والقدس، حيث كانت جاليات تجارية من فلسطين مقيمة في القدس، وكان مضيف آدي البشير في الرها يدعى طوبيا السرياني أصله من فلسطين(١٦).

وفي الرها ظهرت شخصية تاريخية برزت في الشعر والأدب والفلسفة، إنه برديصان الرهاوي (١٥٤ ـــ ٢٢٢م).

أتعرض لهذه الشخصية التي تعتبر من أعظم الشخصيات التي أثرت في الفكر السرياني والعربي الإسلامي. كان اسم والده ناحوما (القيامة) واسم أمه نحشيرام وبالفارسية (الصيد) وفي ظروف غامضة قتل حاكم حدياب (أربيل) فهرب ناحوما وزوجته في صيف عام ١٥٤م وعند حدود الرها وبالقرب من نهر سيرتوس (النهر الوثاب) ويدعى بالسريانية (ديصان) ولد الطفل فسمي (برديصان) أي ابن النهر ديصان. وظل والداه متخفيين خوفاً من جواسيس الفرثيين، ثم انتقلا إلى مدينة منبج (هيرابوليس).

كانت منبج (بامبسيا Bambyce) مدينة حج عامرة وتدعى دودة القز لاشتهارها بالحرير. وكانت غنية بالينابيع والمياه، وكان طريق الحرير الآتي من الصين يمر بها. وحسب المصادر الصينية، هذا الطريق كان يمر بحران

والرها وهيرابوليس ثم يصل في النهاية إلى منبج مدينة الحج التي تحيط بها الأعراب الذين كانوا يحجون إليها مرتين في السنة.

عاش الطفل برديصان مع عائلته في كنف المعبد، ويقال أن الكاهن الأكبر (المعلم قدوس بن الحير) علمه اللغة العربية والسريانية وقرض الشعر والرماية فبرع فيها كلها. واطلع على الفلسفة اليونانية بلغتها التي كانت شائعة بين الكهان والمتعلمين واطلع على فلسفتي فيثاغورس وأفلاطون.

وعندما بلغ برديصان الخامسة والعشرين عام ١٧٩م جاء إلى مدينة الرها لإكمال دراسته، ومر بجانب كنيسة آدي الرسول وسمع الأسقف أوستاسب يعظ يوم الأحد (في عيد الفصح) فأعجب بقول الإنجيل، وكان من قبل قد قرأ الدياحسرون (الإنجيل الرباعي المختلط) وقدّم نفسه لمجلس الكهنوت فرحبوا ابه، وشجعوه على دراسة الكتاب المقدس، وصار يكتب شعراً مقلداً المرتل (مزامير النبي داود) باللغة السريانية، وأبدع شعراً يعد من أعظم ما قاله السريان في كل العصور، وسحر شبيبة الرها، وكتب عدة مقالات ضد هرطقة مرقيون(١٧).

نال برديصان شهرة واسعة في الرها، ودخل بلاط الملك الأبجر معنو الكبير (١٧٧ ـــ ٢١٢م) وأعجب به الجميع لفصاحته بالسريانية والعربية، وقيلت حوله أخبار يصعب تصديقها. من ذلك قولهم أنه رسم صورة شاب وقف أمامه بواسطة النبال، كما يرسم الرسام بفرشاته، وراح الشاب يرمق صورته بدهشة(١٨).

خلّف برديصان ديواناً من الشعر، وعدة كتب في الفلسفة ضمنها تعاليمه الغنوصية (العرفانية) وكتاباً في الجغرافية أخذ معلوماته عن الهند من راهب نجراني عربي مر بالرها. وكتب رسالة تدعى (شرائع البلدان) هي كل ما

تبقى من مؤلفاته، وجّهها إلى تلميذه عويده، يوصيه بالتعليم، يقول له: «إذا رغبت في العلم فمن المفيد أن تأخذه من كبار العلماء، وإذا رغبت أن تعلِّم الناس، فاغرهم أن يسألوك هم ما تريد أنت أن يسألوك. إنه لشيء حسن أن تعرف كيف تسأل الأسئلة، (على طريقة الحوار السقراطي) ولا تأمر الناس القيام بعمل لا يستطيعون فعله. أعطهم وصاياك دون ضغينة، وبموجب كرم الله يستطيع أي إنسان له روح أن ينجزها بفرح.»

ويقول له: «الخير هو جزء من الإنسان، ولذلك يبتهج الناس عند فعله. ولا يفعل الإنسان الأشياء القبيحة إلا عندما يكون مضطراً وفيه مرض في طبيعته. فمن طبيعة الأسد أن يأكل اللحم، ولهذا فإن جميع الآساد آكلة لحوم. ولكن البشر لا يعملون بغرائزهم فقط، فهم ليسوا محكومين على هذا النمط كالحيوانات، لأن فعل الأشياء تتعلق بعقولهم وبإرادتهم الحرة، يفعلون لأنهم أحرار وذوو وسلطان كأشباه الله. وليس من شيء باستطاعته أن يكبح إرادة الإنسان الخيّرة المقدسة. وفي شريعة عالم جديد ستزول كل الأفعال الشريرة، وسيكون هناك سلام ورفاهية بمنة رب الجميع.»

هذه الرسالة (شرائع البلدان) قدّمها برديصان للملك أبجر معنو عام ٢١٠م قبل وفاة الملك، وعندما توفي الملك عام ٢١٢م، اعتبرت فلسفة برديصان الحرة هرطقة، لم ترض عنها الكنيسة، فهو يحكم العقل ويعلي من شأنه بدلاً من القول باتباع الوحي الإلهي.

كان برديصان عالماً بالطبيعة البشرية، وكان داعية لخلاص الإنسان بالعقل، وبالشرائع الوضعية يمكن للإنسان أن يتحرر ويقرر: «إن الذين لا إيمان لهم بعقل الإنسان، ليسوا بأهل للكلام والإرشاد لأن الله مجّد الإنسان

بالعقل والإرادة الحرة، فوق أشياء عديدة وجعل الإنسان مساوٍ للملائكة، إلا أنه يولد وينجب ويهرم ويموت. والإنسان لا يخضع للحظ والصدفة، وإن طبيعة الإنسان الحرة تنبذ وتسحق الحظ نفسه، وليس لائقاً أن تحفظ كل شيء إلا ثلاثة أشياء: (الطبيعة، والحظ، والإرادة الحرة)».

أنكر برديصان قيامة الأجساد يوم الحشر الأعظم، لأن الجسد مزيج من النجاسة والأخلاط، وإنه لن يخلق الجسد ثانية من قبل إله قدوس. ولكن برديصان آمن بقيامة الروح الكلية، وقد مزج بين الديانتين المسيحية وتعاليم الديانة العرفانية (الهرمسية) وهذا ما ضمن فلسفته سارية في كل العصور. وقد انتقلت مع البضائع على طرق تجارة التوابل، ووصلت إلى أطراف الجزيرة العربية وإلى بلاد وادي الرافدين، وصارت تعاليمه محرضة لمذاهب دينية جديدة، فقد أثرت في مذهب ماني أو في الهرطقات التي ظهرت في القرون الثلاثة التي أتت بعده.

وكانت فلسفته عرضة للتشويه عن قصد. نقل عنه ثيودور بن قوني (القرن ٧م) نصاً عرض فيه فلسفته ولكن بشكل مشوّه وغامض. يقول برديصان: «يتكون الكون من عناصر قديمة منذ الأزل، وكانت والجوهر موجود، ولكنها مع مرور الأزمان تراخت وتاهت، وفي النهاية انتقضت كما لو وكان حدث ذلك لسوء الصدفة، وعصفت الريح بكل قوتها، وزحف الواحد منها والتقى برفيقه، فأشعلت النار الغابة، والهواء الصافي غدا كريهاً، واختلطت العناصر كلها مع بعضها، وراح الواحد منها بعضّ الآخر كحيوانات كاسرة، وفي النهاية حصل الهدوء والراحة، وتمجّد الرب لحكمته، ومن ذلك الخليط والمزيج من العناصر صنع الرب الخليقة بأكملها، الأشياء العليا والسفلى، وظهر منة الشر.»(١٩)

كانت الكتابات السريانية هي النصوص التي اعتمد عليها المؤلفون المسلمون. يقول الشهرستاني: «الديصانية أصحاب ابن ديصان أثبتوا أصلين للكون، نوراً وظلاماً. فالنور يفعل عن قصد واختيار، والظلام يفعل الشر طبعاً واضطراراً. فما كان من خير ونفع وطيب وحسن فمن النور (العقل) وما كان من شر وضرر ونتن وقبح فمن الظلام (الغريزة)»(٢٠).

من هذا النص تجد أن المؤلفين المسلمين يطابقون بين فلسفتي ماني وبرديصان ولكن البيروني أنصف برديصان عندما قال: «إن النصارى طردوا ماني من صفوفهم، ولم يفعلوا ذلك بحق برديصان.»(٢١)

قادت الكنيسة حملة شرسة ضد برديصان، ولكن القديس مار أفرام السرياني (٢٠٥ ــ ٢٧٣م) أنصفه بقوله: «يا أبناء الله، صلوا من أجل برديصان إذ دخل الشيطان في قلبه، ولكن ربنا يسوع بقي في فمه.»

وأنصفه كذلك البطريرك مار أفرام الأول برصوم (المتوفي ١٩٥٧). قال عن برديصان: «كان من صدور الكتّاب البلغاء، عبقرياً وفيلسوفاً جليلاً، كتب عدة كتب بالسريانية، ولكن لم يبق منها سوى كتابه (شرائع البلدان) أملاه على تلميذه فيليبس (عويده) وناقش فيه القضاء والقدر، وله كتابات في الفلك والجغرافيا ذكرها له جرجس أسقف العرب (المتوفي ٧٢٦م) وله مئة وخمسون نشيداً على طريقة مزامير داود لقنها للشبيبة الرهاوية، وقعها على لحون شتى، مطربة تخلب القلوب وأنشأ شيعة عرفت بالديصانية ضمت طبقة من أصحاب الثقافة والثراء في عصره، ولم يبق من شعره سوى بضع أبيات في كتاب لثاودورس بن قوني كتبه في القرن السابع الميلادي.»(٢٢)

وقد اكتشف في العصر الحديث عدة قصائد تنسب إلى برديصان الرهاوي منها قصيدته الرائعة (أنشودة الروح) يقص فيها قصة ابن الملك

الذي أرسله والده إلى مصر، وحذّره أهله لاستحضار اللؤلؤة من الحية السامة، التي توجد في البحر، وأن يلبس الثياب الملكية (الحلة والمعطف) عند عودته لإرث التاج. يقول الأمير: «وتركت بلاد الشرق، ووصلت إلى مصر، وصلتها وحدي، وتوجهت إلى مكان الحية، أنتظر حتى تنام لأستولي على اللؤلؤة، وكنت وحيداً غريباً، ولكني لبست ثياب أهل مصر، حتّى لا يداخلهم الشك فيما أريده، وعلى الرغم من ذلك، عرفوا أني غريب، فنصبوا لي الشراك ونسبوني إلى أصلي الشريف، فقابلت ملكهم، ونسيت اللؤلؤة التي جئت من أجلها. وما كدت آكل من طعامهم حتى ذهبت في سبات عميق.

علم والدي بحالي فجمع أعيان البلد، وكتبوا إلي رسالة لكي أستيقظ وأن أتذكر أني ابن ملك، وأن أذكر اللؤلؤة التي حضرت من أجلها. وصلتني الرسالة، فأيقظني ما بها، وعرفتها وقبلتها، وتذكرت اللؤلؤة التي جئت من أجلها، فذهبت إلى الحية وسحرتها حتى نامت، وسرقت اللؤلؤة.

تهيّأت للسفر إلى منزل والدي، وتوجهت نحو الشرق، فوجدت الرسالة التي أيقظتني أمامي في الطريق، وقد فرش طريقي بخيوط الذهب على حرير الصين، وقادتني بسرعة إلى بلادي.

أرسل إليّ والدي الحلة والمعطف فلبستهما، وكنت قد نسيت شكلهما، وقابلت والدي مطأطئ الرأس في حلة مطرزة ومرصعة عليها صورة الملك، شاعراً بأني قد كبرت بأعمالي، وصعدت إلى باب السلام، باب التضرع.»(٢٣)

تعليقي على هذه الأنشودة هو التالي: أرى في هذه القصة الشعرية، كل المفاجآت والمصاعب وحلولها، كما أنها حوت الأمثال والحكم، مما جعلها إحدى كنوز الأدب السرياني، فهي تشبه إلى حد ما قصة أحيقار الحكيم في

الأدب الآرامي. وكلاهما تذكران مصر، وتصفان طريق التجارة، والمصاعب التي يلاقيها التجار.

ووصل إلينا نص سرياني من أدب تلك المرحلة (أعمال توما الرسول) اكتشفت في الرها وفيها وصف الطريق إلى الهند، وعليها صبغة الأدب البوذي الذي كان معروفاً في منطقة كوماجيه (ديار وائل) من وجود الجاليات الهندية والفارسية التي كانت تحتكر تجارة الحرير والأصبغة. وهناك أنشودة أخرى تدعى (أنشودة الزواج) فيها الأثر الغنوسطي المسيحي واضح، وهي توأم لأنشود الروح ذات الأثر الوثني العرفاني (الغنوسطي)(٢٤). في هذه الأشعار نرى التأثير الأجنبي واضحاً.

خلف برديصان ديوان شعر أورثه لابنه هرمونيوس الذي تعلم في أثينا، وتعلم قرض الشعر اليوناني والسرياني، ونال شعره إعجاب معاصريه حتى فضلوه على والده، فتصدى له شاعر السريان الأكبر ما أفرام السرياني، (كنّارة روح القدس). قال مار أفرام شعراً في عيد القيامة ولكن حسب نظم برديصان الرهاوي. قال مار أفرام:

«جُدْ علينا أيها الرب المبارك، بقليل من فيضك،

في هذا الشهر الذي أغنت هباته جميع البرايا،

لقد بسطت آلاؤك عليهم قاطبة،

فازدانت الجبال بأعشاشها، والحقول بزرعها،

وزخر البحر في أصدافه، والبر بحيواناته،

وازدهرت السماء بنيّريها، والبسيطة بزهورها،

فنيسان زينة الأرض، وعيده جمال البيعة المقدسة،

هذا هو وشهر نيسان الذي يمنح الشبع، وينال الصائمون الأشياء الشهية،
في نيسان، هبط الرب من علٍ، فتلقته مريم،
وفي نيسان قام الرب، وصعد، وأبصرته مريم،
أحست به مريم عند نزوله، وقد أبصرته في قيامته،
إن اسم مريم مقرون بالصعود والنزول،
فهنيئاً لك يا نيسان، فقد شهدت حمل الرب وموته وقيامته.»

لم يكن مار أفرام من أهل الرها، ولكنه جاءها مهاجراً من نصيبين سنة ٣٣٥م، وكان شماساً وظل كذلك، ولكنه جدد الحركة الأدبية واللاهوتية في الرها وما حولهاز وسارت بشعره الركبان على طول طرق الحرير والتوابل والبخور. وجدت كتاباته في أرمينية وفي الجزيرة العربية مترجمة بالعربية ووفي الحبشة باللغة الأمهرية، وتكونت من بعده في الرها جمعية باسمه لعبت دوراً هاماً في الأدب السرياني.

من الأدب الذي نسب إلى جمعية مار أفرام (تعاليم مار آداي البشر) يقول فيها: «رأيت هذه المدينة (الرُّها) منجرفة في الوثنية، فمن هو نابو هذا الصنم الذي تسجدون له؟ وبيل (بعل) الذي تجلّونه؟ هو ذا بينكم من تعبدون لها (باثينغال زوجة سين) كأهل حران جيرانكم، وتعبدون (ترعاثا) كأهل منبج، وتعيِّدون للنسر كالعرب والشمس والقمر كأهل حران، يا أهل الرُّها، لا تضلّنكم أشعة الكواكب والنجوم المتلألئة.»

هذه العبادات الوثنية دخلت إلى الرها على أثر مرسوم الإمبراطور ديوقليانوس (٢٨٤ ــ ٣٠٥م) الذي جاء فيه: «يجب أن تسلّم وتحرق نسخ الكتاب المقدس في كل أنحاء الإمبراطورية، وأن تهدم الكنائس في الرُّها، وتمنع فيها العبادة المسيحية، وأن لا يعبد فيها سوى زيوس وبيل ونابو.»

ولكن الأمر لم يطل، إذ أصدر الإمبراطور قسطنطين الكبير في عام ٣١٣م قانون حرية الإديان. وفي عام ٣٢٥م جمع المجمع المسكوني في نيقيّة وأعلن المسيحية دين الدولة. وعندما تولى الحكم الإمبراطور جوليان المرتد (٣٦٠ ــ ٣٦٣م) كان وثني الثقافة فيلسوفاً يؤمن بحرية الإنسان وكان يكره أهل الرُّها ويحب أهل حران، أصدر مرسوماً قال فيه: «إني آمركم علانية أيها المواطنون الرهاويون، بأن تكفوا عن الضغائن والمناقشات، وألا تستثيروا سهامي ضدكم، وبما أنكم محكوم عليكم بالسيف والنفي وبالنار، ستعاقبون على إخلالكم بالأمن المستتب في الإمبراطورية.»(٢٥)

عندما ظهرت دعوة الراهب الليبي آريوس عام ٣٢٠م وأنكر فيها ألوهية يسوع المسيح، معلناً أن يسوع دون الله مرتبة وهو محدث، تلقت الرها هذه الدعوة بالاستنكار والسخط، وألّبوا الإمبراطور قسطنطين ضده، فاجتمع مجمع نيقية المسكوني ٣٢٥م وقرروا أن المسيح أحد الأقانيم الثلاثة المتحدة (الأب والابن والروح القدس) كلها تكوّن أقنوماً واحداً هو الله. حضر الاجتماع مار أفرام السرياني (٣٠٦ ــ ٣٧٣م) لم يخضع أتباع آريوس، ووجدوا لهم عوناً من الإمبراطور فالنس (٣٧٠ ــ ٣٧٨م). وعندما قدم إلى الرها وشكى إليه الآريوسيون ضيق حالهم، هدد أهل الرها بالموت إن لم يعودوا إلى الآريوسية، وهاج الشعب واعتصموا بدير مار توما خارج أسوار مدينة الرها بقيادة مار أفرام. تراجع الإمبراطور عن تهديده، واكتفى بطرد مطران المدينة برساي وبعض القسيسين من المدينة.

وفي سنة ٤٣٠م ظهرت في أنطاكية والرها دعوة جديدة تقول: إن مريم هي الناسوت وأنها ليست أم اللاهوت، ما معنى هذا القول؟

يقول اللاهوت المسيحي أن المسيح يتكون من طبيعتين: طبيعة إلهية وأخرى بشرية (ناسوتية)، وأن مريم امرأة طاهرة ليست أم الله وإنما هي أم السيد المسيح، أي أنها أم الناسوت. وتبنى هذه الدعوى بطريرك القسطنطينية نسطوريوس (٤٢٨ - ٤٣٠م) وكانت هذه التعاليم من المترجم ثيودور المصيصي، معلم نسطوريوس.

جرى صراع في الرها بين أتباع نسطور وهم القائلون بالطبيعتين في المسيح، وبين أصحاب الطبيعة الواحدة أي أن المسيح مكون من طبيعة إلهية واحدة.

ماذا أحدث هذا الصراع من تأثير ثقافي؟

كان في الرها المطران رابولا الرهاوي (٤١١ - ٤٣٥م) وهو رجل مثقف أصله من مدينة خالكيس (جنوب حلب)، وكان زاهداً حارب الشيع والبدع كبدعة العوادية التي تعود إلى تلميذ برديصان (عويده) التي ترى أن الإكثار من الصلاة والصوم كافية لإحداث نعمة الخلاص. وكان أتباعها من عرب الرها. كما حارب النساطرة فأحرق كتب ثيودور المصيصي وحذر من قراءة الإنجيل المعروف بالدياطسرون، مقدماً الترجمة المعروفة بالبسيطة (البشيطة)، وطرد مدير مدرسة الرها المعروفة (بمدرسة الفرس) وهو المطران هيبا، وكان مترجماً ماهراً على طريقة ثيودور المصيصي، طردوه سنة ٤٣١م فتوجه هيبا إلى نصيبين وحرمه البطريرك الأنطاكي سنة ٤٣٢م، وعندما توفي البطريرك أعيد المطران هيبا إلى مطرانية الرها، ولكن الشعب الرهاوي ثاروا في وجهه صائحين (لا أحد يريد عدو الله، لا أحد يريد مفسد الأرثوذكسية، لا أحد يريد رفيق نسطوريوس) كان ذلك سنة ٤٤٩م واعتبروا هيبا صديق اليهود وعدو الرب يسوع.

من جراء هذه الأحداث عقد مجمع خلقيدونية ٤٥١م، وأرجع هيبا إلى منصبه ومكث في الرها حتى وفاته سنة ٤٥٧م. ولكن الإمبراطور زينون أمر بإغلاق مدرسة الفرس في الرها عام ٤٧١م.

انتقلت الحركة الثقافية إلى نصيبين وبفضل العلماء المهاجرين، أصبحت مدرسة نصيبين جامعة مشهورة في سورية والعراق، مما حرك غيرة أهل الرها فأصبح في الشرق مدرستان متنافستان في التفسير والترجمة، وتحركت مدينة حران الفلسفية، وساهم الصابئة الحرانية في الترجمة من اليونانية إلى السريانية، وترجموا كتب أفلاطون وأرسطو وفيثاغورس، وصار لهم أتباع بين المثقفين في الرها.

يذكر المؤرخ إيشوع العمودي الرهاوي: «إنه في أيار سنة ٤٩٨م امتلأ المسرح بالحضور في عصر يوم الجمعة، وكان الحضور يلبسون حلل الكتان الأبيض، وعلى رؤوسهم العمائم الحريرية وقبعات اللباد الطويلة، وأشعلوا قناديل لا حصر لها، وأعلن بداية المهرجان حيث بدأ الرقص حول المشاعل المضاءة، ورائحة البخور تعم المكان، وبدأت الموسيقى تصدح، وبدأ المغنون يحثون الناس على التصرفات الخليعة، وطال ذلك على طول نهر سيرتوس أي من باب المسرح الحجري في الهواء الطلق حتى باب الأقواس في الشارع العام، وقد أهملوا وقت الذهاب إلى الصلاة.»(٢٦)

وجرى تحوّل في اللاهوت المسيحي مما كان له تأثير على جوهر الديانة المسيحية. أعلن أسطفان بن جديلة «أن جميع المخلوقات في استطاعتها أن تصبح كالآلهة دون الحاجة إلى نعمة الإيمان بالمسيح، وأنها ستصل إلى حتمية واحدة، وعندما يكون الله الكلي في الكل تتكون طبيعة واحدة وجوهر

واحد في إله واحد وينتهي العذاب الأبدي، وتزول جهنم ويدوم نعيم الله.» هذه التعاليم الصوفية حاربتها تعاليم الكنيسة الأرثوذوكسية.

وفي هذه الفترة كثر أتباع المانوية وشاعت بين المعلمين والمهندسين والأطباء ورجال الأدب وحتى بين المتدينين هذه النزعات الصوفية، مما دفع الإمبراطور جوستنيان (٥٢٧ ــ ٥٦٤م) إلى إصدار أمر بأن كل من يعتنق المانوية تحت ستار المسيحية يطاله العذاب والنفي وتصادر أمواله وأملاكه ويعتبر خارجاً على القانون. وهاجر بعض المتهمين بالمانوية إلى حوران (بصرى) وإلى الجزيرة العربية (مكة).

وعندما احتل كسرى الأول أنو شروان (٥٣٩ ــ ٥٧٨م) أرض الجزيرة سنة ٥٤٠م، أعفى أهل حران من الفدية (الجزية) لأنهم ليسوا مسيحيين بل أتباع الدين القويم. وفي سنة ٦٠٢م اغتال القائد فوقاس في الرها الإمبراطور موريس صديق الفرس فهاجم الملك خسرو جيش فوقاس وطرده من الرها في ربيع ٦٠٤م وعيّن قائداً رهاوياً يدعى (قورش) حاكماً على الرها. ولكن الأهالي ثاروا على الحاكم الجديد وطردوه. وجاء هرقل إلى الرها سنة ٦١٠م واسترجع بلاد الجزيرة من الفرس، واسترجع الصليب الخشبي وأعاده إلى القدس سنة ٦٢٨م. وكان صدى ذلك الحدث عظيماً في الجزيرة العربية، وفرح المسلمون في مكة، كما جاء في سورة الروم. جاء هرقل إلى أنطاكية واستُقبل بالترحاب من قبل أهل الرها. وقصد الكنيسة الكبرى (كنيسة اليعاقبة ــ السريان الأرثونوكس) وتقدم من المطران أشعيا لتناول الأسرار المقدسة كعادة الملوك، فمنعه الأسقف حتى يحرم مجمع خلقيدونية وتعاليم طومس لاون بابا روما (تحريرياً) لا قولاً شفوياً، فغضب هرقل وطرد الأسقف واستولى على الكنيسة، وذهب إلى هيرابوليس (منبج) وكتب منشوراً

إلى كافة أنحاء المملكة: «كل من لا يقبل مجمع خلقيدونية، يقطع أنفه وتصلم آذانه، وينهب بيته.) وأخذ كنيسة الرها الكبرى وأعطاها للروم الأرثوذوكس، ونفى الرهبان اليعاقبة إلى خارج الرها، وسام بعضهم العذاب.

ما هي آثار هذا الحدث السياسية؟

إنها ساهمت في تحرير سورية من الروم. كتب مار ديونيسيوس التلمحري (المتوفي ٨٤٥م): «جاء أبناء إسماعيل (العرب المسلمون) من الجنوب لكي يقدموا لنا الخلاص ويحررونا من أيدي الروم وتمتعنا بالطمأنينة.»(٢٧)

كان طريق الحرير في العهد البيزنطي طبقاً لكودجستنيان عام ٥٣٠م يجب أن يسلم في مدينتين على الفرع الجنوبي لطريق الحرير في مدينة كالنيكوس (الرقة) وفي الفرع الشمالي يجب أن يسلم حصراً في مدينة أرتكساتا (في أرمينية).

بعد زوال الحكم البيزنطي صار طريق الحرير يمر ويسلم في مدينة الرها. وبذلك انتعشت تجارة الرها.

الرها في العهود الإسلامية:

وصل الجيش العربي بقيادة عمرو بن العاص إلى فلسطين ودخل القيصرية. وجمع بطريرك القدس سرجي، جيشاً من الروم ويهود السامرة قوامه خمسة آلاف رجلاً من المحاربة، غير أن جانب المسلمين كان الأقوى، فهرب البطريرك وقتله المسلمون، وحصدوا جيشه، وأصدر هرقل أمراً بوجوب اقتبال اليهود للعماد، فهرب يهود القدس إلى الرها، ومن بقي منهم تنصر وقبل العماد. وكان ذلك في صيف عام ٦٣٤م(٢٨).

وعندما سمع هرقل أخبار مقتل البطريرك سرجي، ندب أخوه ثاودور لمحاربة العرب المسلمين، إلا أنهم انهزموا في معركة اليرموك، وفتحت القدس سنة ٦٣٦م. ووصل الخليفة عمر بن الخطاب إلى فلسطين واستقبله مطران القدس صفرونيوس وكتب له كتاب العهد والأمان.

وفي عام ٦٣٧م توجه عياض بن غنم إلى الجزيرة، وفتح مدنها وطرد حكامها البيزنطيين. كان حاكم الرُّها يوهانس كاتياس قبل شروط المسلمين ولكن الإمبراطور هرقل طرده وأرسل بدلاً منه القائد بطليماوس، فاضطربت الرها وقبلت شروط المسلمين، وتراجعت مكانتها، وارتفعت مكانة حران التي صارت عاصمة الثغور في العهدين الراشدي والأموي(٢٩).

كيف صارت حالة أهل الرُّها بعد الفتح الإسلامي؟

يصف لنا الرهاوي المجهول حالتهم بقوله: «كانوا أثرياء إلى درجة فاحشة، يملكون كل الأشياء الحسنة، الماشية والخيول والجمال، ويمتطون الخيول الأصيلة، ويرافقهم عبيدهم راكبين على البغال، وكانوا ممتلئين بالكبرياء، واقتنى كل منهم قطعاً من الأراضي، وامتلكوا الكروم والبساتين والدور والقرى وساروا حسب شهوات قلوبهم دون أن يخضعوا لسيدهم وربهم يسوع الذي أُعطى السلطة عليهم من الله.»(٣٠)

لم تتراجع التجارة، وظلت طرق القوافل عامرة بالتجار الذين كانوا ينعمون بالازدهار، وأصبحت الأراضي الزراعية مصدراً للثروة، واشتهرت عائلات رهاوية بالثراء الفاحش في العصر الأموي أمثال إثناسيوس آل غومايا الذي رافق عبد العزيز بن مروان إلى مصر وكان مربياً لأولاده ومنهم الخليفة عمر بن عبد العزيز، ومكث معه في مصر ٢١ سنة واكتسب أموالاً طائلة صرف معظمها في بناء الكنائس والقصور وشراء العبيد

والخيول والجواهر والأحجار الكريمة، وحسده العرب والسريان فوشوا به إلى الخليفة عبد الملك الذي استدعاه وقال له بوداعة: «يا إثناسيوس أعطنا قسماً من أموالك.» فأخذ إثناسيوس يعطيه حتى قال الخليفة كفى، ومع ذلك بقي له من المال الشيء الكثير.

وفي العصر العباسي نشطت الحركة العلمية، وصار السريان يعلمون أبناء المسلمين علوم الأوائل (الرياضيات والفلك والطب)، وظهرت حركة علمية نلمسها بشكل محسوس في دير قنسرين.

كان طريق الحرير يقطع نهر الفرات عند جسر منبج قرب مدينة قيسليانا (قنسرين) وكانت في القديم فيها جالية هندية، ولهم معبد تتبعه مدرسة وبيدهم تجارة الحرير. وبنى المسيحيون السريان ديراً على اسم الرسول توما، واستفاضت شهرته باسم (دير قنسرين)، كان في العهد الأموي فيه حوالي ٣٧٠ راهباً، وعضد الكنيسة بسبعة بطاركة وخمسة عشر مطراناً، واستمر في العطاء منذ (٥٣٠ ــ ٩٣٠م) وبرز من علمائه ثلاثة علماء عرفهم العالم: المطران ساويرا سابخوت (المتوفي ٦٦٧م) وهو الذي ترجم كتب بطليموس وكتب في الرياضيات مستخدماً الأرقام الهندية قبل الخوارزمي بقرنين من الزمن. ومار يعقوب الرهاوي (المتوفي ٧٠٨م) وكان من العلماء الذين كتبوا في الفلسفة والأدب وترجم عن اليوناني كتاب جغرافية بطليموس. والعالم الثالث جرجس أسقف العرب (المتوفي ٧٢٦م) ترجم منطق أرسطو (الأورجانون) وعدّ إرنست رينان ترجمته أعظم ترجمة لأرسطو.

وممن ترجم إلى العربية في بيت الحكمة في الرقة أيوب بن القاسم الرهاوي الذي ترجم تراث أرسطو إلى العربية عن السريانية من ترجمات سرجيوس الرأسعيني (المتوفي ٦٣٦م)، وأيوب الأبرش الذي ترجم كتب الطب لجالينوس عن ترجمات العلماء السريان.

ما هي معرفة العرب المسلمون لتاريخ الرها؟

يقول ابن الكلبي في كتابه أنساب البلاد: «الرها أسسها الرها بن سبند بن مالك بن دعر بن حجر بن خزيلة بن لخم. وقال قوم: إنها سميت بالرها بن الروم بن بنطي سام بن نوح عليه السلام.» نرى من النص السابق أن علماء العرب يجهلون التاريخ القديم ويضعون أنساباً كاذبة من خيالهم ليقال عنهم أنهم علماء عارفون.

أما علماء السريان فهم يستندون إلى مصادر مكتوبة. قال يحيى بن جرير النصراني: «الرها، اسمها بالرومية أدّاسا، بنيت في السنة السادسة من موت الإسكندر، بناها سلوقس والنسبة إليها رهاوي»(٣١)

وعن أبنيتها المشهورة مثل الكنيسة الكبرى يقول حمزة بن القاسم الشامي: «اجتزت بكنيسة الرها عند مسيري إلى العراق، فدخلتها لأشاهد ما كنت أسمعه عنها، فرأيت وأنا أطوف على ركن من أركانها مكتوباً بحجرة فقرأته: (حضر فلان بن فلان وهو يقول: من إقبال ذي الفطنة، إذا ركبته المحنة، انقطاع الحياة وحضور الوفاة، وأشد العذاب تطاول الأعمار في ظل الاكتدار.»

ويروي لنا ياقوت الحموي قول الشاعر عبد الله بن قيس الرقيات:

فلو ما كنت أروع أبطحياً أبى الضيم مطرّح الدناء
لو رعت الجزيرة قبل يوم ينسى القوم أطهار النساء
فذلك أم مقامك وسط قيس وتغلب بينها سفك الدماء
وقد ملأت كنانة وسط مصر إلى علياء تهامة فالرُّهاء

منبج (هيرابوليس) مدينة الحج العُظمى

الموقع والتاريخ :

تقع منبج على طرق القوافل المتجهة نحو وادي الرافدين و القوافل المتجهة نحو حلب (يمحاض) والساحل وهضبة الأناضول والذاهبة جنوباً نحو حوران (بصرى) والجزيرة العربية. ضمن هذه الشبكة من الطرق كانت تتوضع منبج على بعد ٣٠كم جنوب كركميش (جرابلس) وتبعد عن نهر الفرات غرباً ٢٣كم. وتاريخ هذه المدينة في المصادر العربية مجهولاً. يقول ياقوت الحموي: «هي بلد قديم وما أظنه إلا رومياً، إلا أن اشتقاقه في العربية جائز، نبجَ الرجل إذا قعد في النبجة (الأكمة). وذكروا أن أول من بناها هو كسرى أنو شروان، لما غلب على الشام. وسماها (من به) أي (أنا أجود) فعربت فقيل منبج. وهي مدينة كبيرة ذات خيرات كثيرة وأرزاق واسعة، في فضاء من الأرض، وكان عليها سور مبني من الحجارة محكم.وبينها وبين الفرات ثلاثة فرسخ أو مسيرة يوم، ومن حلب مسيرة يومان، وشرب المدينة من قنى تسيح على وجه الأرض، وفي دورهم آبار أكثر شربهم منها لأنها عذبة صحيحة. وإلى الشرق منها جسر تعبر عليه القوافل، هو الجسر المعروف بجسر منبج. وعلى الفرات قلعة نجم عند أول الجسر، وعلى هذا الجسر تعبر القوافل من حران إلى الشام، وبينها وبين منبج أربعة فراسخ.»(٣٢)

زارها المؤرخ الفرنسي فرانز كومون عام ١٩٠٧، فوجد أن معظم آثارها مدفونة تحت الأرض، وتظهر رؤوس بعض الأعمدة والتيجان. وقد بدأت الشركس المهاجرون من القفقاس يقلعون أحجارها ويعمرون بها منازل لهم.

تعرف المدينة في المصادر الأكادية باسم (بامبسيا Bambyce) وسميت في العهد اليوناني أيام حكم سلوقس نيكاتور (٣١٢ - ٢٨٥ق.م) باسم الإلهة هيرا فقيل هيرابوليس.

كانت هيرا زوجة الإله زيوس، تدعى بالبابلية عشتار، وبالكنعانية تسمى عشتورت، وبالآرامية عثر حُرِّف الاسم باليونانية فقيل اترغاتيس Atargatis وهي عند كل الشعوب وإن تغيرت الأسماء إلهة الحب والخصب.

على أثر فتوحات الإسكندر المكدوني ٣٣٣ق.م، أدخل الكهنة اليونان والجنود والتجار المكدونيون عبادة الإلهة هيرا، وسأعتمد على النصوص الأثرية القديمة لأكوّن صورة تركيبية لتاريخ المدينة المجهولة.

قال عنها لوقيانوس السميساطي (١٢٥ - ٢١٠٠م): «إنها غير بعيدة عن نهر الفرات وهي اليوم مكرسة لعبادة (هيرا) السورية، ولا أعتقد أن هذا الاسم قد أطلق على هذه المدينة منذ تأسيسها، بل إنها كانت تحمل في القديم اسماً آخر.»

فما هو ذلك الاسم؟ لم يذكره لوقيانوس. ولكن بالرجوع إلى الرقم الطينية المكتشفة في كركميش القريبة منها، وفي ماري وإيمار وإيبلا، تذكر أن مدينة قريبة من كركميش هي أورشوم جاء اسمها من أورو (uru) الكثيرة المياه. وتذكر المصادر أن مملكة أورشوم كانت محطة تجارية هامة (كاروم) عند معابر الفرات باتجاه هضبة الأناضول. وكانت تشتهر (بمعبد الإله آشور)، وكان ملكها شنّام Shennam ملكاً قوياً وطد علاقاته التجارية مع مدن

جبيل وصور وأوغاريت، ومع مدن الفرات: إيمار وماري، وقد أرسل ملك أورشوم ذهباً لملك ماري زمري ليم تعبيراً عن الصداقة بينهما.

تقع منبج (أورشوم) في حوض غني بالمياه الجوفية، وبالينابيع، ويمر نهر الساجور من شمالها مما يجعلها ذات زراعة مزدهرة بأشجار الكرمة والزيتون والقمح والشعير. وتكثر في سهولها تربية الماشية (الأغنام والماعز والأبقار).

كان نبيذ أورشوم يدعى (طبوم) Tabum لجودته وهو المخصص لشراب الملوك، وكان أغلى من القمح عشر مرات، وأقل من سعر الزيت مرتين. وكانت حلب ومنبج تصدران القمح والنبيذ والزيت(٣٣). وكانت الفضة هي المعادل النقدي المستعمل في المقايضات البعيدة، بينما كان الشعير (Sa'iru) هو المعادل في المقايضة بين منبج والمدن القريبة.

يقول هورست كلينغل: «كانت أورشوم تحتل موقعاص بارزاً في المواصلات التجارية بين كل من الأناضول وسورية وبلاد الرافدين خلال عصر محفوظات ماري.»(٣٤)

حاصر أورشوم القائد شندا الحثي في عهد الملك خاتوشيلي الأول ١٦٢٥ق.م أثناء عودته من الآلاخ (تل العطشانة) متوجهاً نحو والفرات، ولكن حصاره لم يمنع المدينة من طلب العون من حلب وكركميش، ولكن المدينة احتلت ونهبت في النهاية، ثم استعادت نشاطها ثانية.

وفي الأحداث التي سجلها الفرعون رعمسيس الثالث (١١٩٧ ــ ١١٦٥ق.م) ذكر أن المدينة الواقعة على الضفة الغربية من الفرات لم يمسها تقدم شعوب البحر، بينما دمرت المدن الأخرى مثل كركميش ويمحاض والآلاخ وأوغاريت وإيبلا وإيمار وتوتول وغيرها.

في هذه الفترة من الزمن، بدأت القبائل الآرامية تستقر على ضفاف الفرات وفي البادية السورية (جبل البشري) واستخدموا العربات الحربية، والجمل في نقل البضائع، والحصان في خفر الطرق التجارية. وذكرت نصوص تلك الفترة أن كميات كبيرة من الحبوب تنقل على ظهور الحمير والجمال وعلى المراكب التي تعبر الفرات. واستخدمت الكتابة الآرامية بدلاً من الكتابات المسمارية البابلية.وقد اكتشف في كركميش حوالي أربعين نصاً آرامياً، من تل برسيب (تل أحمر) شرق منبج على الفرات واكتشفت أربعة نقوش آرامية. أما منبج فلم يجري فيها التنقيب بعد. لا نعرف عنها شيئاً، ونظل نخمن، والشك يعترينا إلى أن يتم التنقيب ونكتشف هوية المدينة القديمة. في رأي دوبون ــ سومير أن الدوافع الاقتصادية هي التي حددت اتجاهات ودوافع القبائل الآرامية من أجل السيطرة على مدن القوافل والطرق التجارية القديمة بين وادي الفرات والمتوسط وهضبة الأناضول شمالاً وجزيرة العرب جنوباً للسيطرة على تجارة البخور والطيب واللبان، وظهرت الممالك الآرامية والمدن التجارية في حوران (بصرى) والبتراء وتدمر ومنبج.

عندما تقدم الملك الآشوري شلمنصر الثالث (٨٥٨ - ٨٢٤ق.م) غرب الفرات، تركزت جهوده على احتلال مملكة بيت عديني لتأمين معابر نهر الفرات، احتل المدينة الواقعة إلى غرب الفرات وبدّل اسمها وأسكن بها جالية آشورية وسماها (بكارخوبوني) Paqarhubuni وصارت تل برسيب (شرق الفرات) تدعى (موتكينو) Mutkinu، وأسكن بها جالية آشورية، بعد أن هجّر سكانها. وهكذا أمّنت الجيوش الآشورية معابر الفرات، وقام أدونيراري الثالث (٨١٠ - ٧٨٣ق.م) بإعادة توطيد حكمه وخاض معركة مظفّرة عام ٨٠٥ق.م واستولى على بكارخوبوني وبنى لأمه سميراميس معبداً، وجاءه ملوك سنعار

(كركميش) وبقية الممالك القريبة يقدمون الخضوع والنذور لمعبد أمه سميراميس، وأخذ الميرة (الشعير والتبن) من بكارخوبوني، وصارت هذه المدينة ذات لغة وثقافة آرامية ومدينة للحج يزورها الناس بعد زيارتهم لمدينة حران. في العهد الأخميني (٥٣٩ - ٣٣٣ق.م) صارت منبج (بامبسيا) مركزاً تجارياً ودينياً مقدساً، وعندما قامت مدينة صيدون (صيدا) بثورة تزعمها الملك لستراتوس (٣٧٤ - ٣٥٨ق.م) هذا الملك العظيم الذي أقام صلات تجارية مع اليونان ومصر، وأراد الاستقلال وحرض عدة مدن سورية على الثورة، حاصره الجيش الفارسي لكنه لم يستسلم، وقيل أن أهل صيدا حصّنوا بيوتهم، وحطّموا سفنهم طواعية كي لا يتركوا لهم إمكانية للهرب، ولكن زوجة ملك صيدا اغتالت زوجها، فاحتلت المدينة وجلبت جالية كبيرة إلى مدينة منبج وكان ذلك سنة ٣٤٥ق.م. وعندما جاءت جيوش الإسكندر استقبلته المدينة بالترحاب ٣٣٣ق.م، وأطلق على المدينة اسماً جديداً (هيرابوليس) واستبدل اسم سميراميس بهيرا، وصارت هيرابوليس مركزاً ثقافياً جديداً وإن ظلت مدينة للحج. وقد خلّد لوقيانوس هذه المدينة بكتابه الشهير (الآلهة السورية)، ومن خلاله عرفنا كيف كان يجري الحج في سورية في العهدين اليوناني والروماني.

الحج إلى المعابد السورية:

لا يمكن فهم تاريخ أي قطر إلا من الإلمام بتاريخ حضارة المدن التي يتكون منها ذلك القطر. ووسورية بلد ذو وحضارة قديمة، وفيه توزعت عدت معابد كانت مراكز هامة للحج. يقول هيرودوت (٤٨٤ - ٤٢٥ق.م): «إن المصريين هم أول من خص الآلهة بالمعابد والمذابح، والهياكل ونقش أسماء الآلهة وصورها على الصخر، وعنهم أخذ السوريون ذلك التقليد.» في اعتقادي أن السوريين تأثروا بالمعابد الرافدية قبل تأثرهم بالمعابد الفرعونية. من المعابد الهامة في سورية :

- **معبد هيرقل في صور :**

يذكر هيرودوت في رحلته في سورية: «لقد سافرت إلى صور، لأني سمعت بوجود معبد فيها مكرس لهيراقل، ورأيت المعبد الغني بالتزيينات المختلفة، وكان يحتوي على عمودين:

أحدهما: من الذهب الخالص.

والآخر من اليشب الأخضر.

وكلاهما يشعان بنور ساطع في الليل. وأخبرني الكهنة أن هذا المعبد قد بني منذ تأسيس صور.وكانت صور مسكونة منذ ألفين وثلاثمائة عام.»(٣٥)

لم يكن معبد صور مخصصاً للإله هيراقل وإنما كان مخصصاً للإله ميلقرت الإله الكنعاني الذي جاب الأرض والبحار من أجل تحضّر الناس، وروّض الوحوش وعلم الناس الملاحة والفنون النافعة، مثله في ذلك مثل هيراقل عند اليونان.»

لم يوافق لوقيانوس على رأي هيرودوت، وله رأي آخر، فهو يرى أن المعابد السورية لا تقل قدماً عن المعابد المصرية. يقول لوقيانوس: «قد زرت بنفسي معظم المعابد السورية وخاصة معبد هيراقل في صور، وما سأرويه شاهدت جزءاً منه بعيني ونقل إليّ الجزء الآخر الكهنة من وقائع سبقت عصري.»(٣٦).وهذه الوقائع تخالف رأي هيرودوت.

- **معبد أدونيس في جبيل:**

جبيل مدينة ساحلية قديمة تقع بين بيروت وطرابلس. ولها تاريخ عريق يعود إلى الألف الرابع قبل الميلاد، وما سأرويه من تاريخها ما يخص البحث مباشرة.

كانت مدينة جبيل تخضع للحكم المصري تارة وللحكم الحثي تارة أخرى. ولكن أهل جبيل كانوا يفضلون الحكم المصري. قام الملك الحثي شوبيلوليوما ١٤٠٠ق.م بغزو ضفة الفرات وكتب إلى فرعون مصر: «لقد غزوت ضفة الفرات وجعلت من لبنان حدودي.» ولكن حاكم جبيل ريب – آدي كذّبه لدى الفرعون، وكتب عام ١٤٣٠ق.م: «إن الملك لم يتمكن من الوصول إلى جبيل والساحل إلا بسبب نقص المياه.»(٣٧). كانت في جبيل جاليات من وادي الرافدين ومن مصر، وكانت الجالية المصرية كبيرة ولها معبد عند نبع مدينة جبيل المقدس، وقد عثر فيه على صورة للفرعون (أمينوفيس الرابع) وقد حمل آنيتين صغيرتين يقدمهما إلى (حاتمور) سيدة جبيل(٣٨).

عن معبد جبيل المقدس يقول لوقيانوس: «ورأيت في جبيل معبداً كبيراً، وقد تعلمت بنفسي طقوسه، وهم يقولون: إن حادثاً وقع لأدونيس (تموز) بسبب خنزير بري، وهكذا تراهم يحيون ذكرى هذا الحادث من كل عام، ويضربون أجسادهم، ويتألمون نائحين، ثم يحيون طقوساً تهتكية، في حين يعم بلادهم حزن عميق في اليوم الأول. أما في اليوم الثاني فيعلنون أن أدونيس صار حياً، ويكفون عن ضرب أنفسهم وعن البكاء. ثم يعلنون في اليوم الثالث أنه صعد إلى السماء، ويحلقون شعور رؤوسهم كما يفعل المصريون بعد موت أوزوريس. أما النساء اللواتي لا يقبلن حلق شعر رؤوسهن يعوضن عن ذلك بفدية كن يجمعنها على الشكل التالي: يمسين مستعدات خلال يوم كامل (اليوم الثالث) لجني الفائدة من جمال أجسادهن من الغرباء، وطالبي اللذة، وما كن يجمعنه، يقدمنه لأفروديت إله الحب والجمال(٣٩).

كان أهل جبيل يزعمون أن أوزيزيس المصري مدفون عندهم، وأن هذه الطقوس تقام تكريماً له، ويزعمون أنه في كل عام يصل إلى جبيل رأس عائم يأتي من مصر، ويجتاز البحر في سبعة أيام، تحمله الرياح الإلهية. يؤكد لوقيانوس أنه رأى هذه الأعجوبة الخارقة حقاً، ولكن الرأس كان لفافة من نبات البردي. وقد روى له أهل جبيل أعجوبة أخرى، وهي أن النهر كان يتلون بلون الدم، لأن أدونيس جرح في مثل هذه الأيام، وأن دمه سال في المياه وغير لون النهر. ولكن أحد المثقفين من أهل جبيل من غير المتدينين قدّم له تفسيراً أقرب إلى الحقيقة، قال: «إن نهر أدونيس يجتاز أرضاً حمراء، وعندما تهب الرياح في مثل هذه الأيام تحمل إلى النهر تراباً (مغرة زنجارية اللون) وهذا التراب يعطي للنهر لون الدم، وهو ليس بدم كما يقال.»(٤)

أقول إن عبادة أدونيس جاءت من مدينة بابل حيث كان الراعي دوموزي السومري (ابن المياه العميقة) وكان شاباً وسيماً، فأحبته عشتار إلهة الحب والخصب، ولكن خنزيراً برياً قتله فبكته عشتار وأقامت له مجالس العزاء والحزن بمناسبة موته في فصل الربيع، ومجالس الفرح والغناء في الخريف بمناسبة بعثه حياً، وهنا يجري بغاء مقدس في أروقة المعبد.

أما قول بعض أهل جبيل أنهم من ذرية الجالية الفرعونية القديمة وكانوا يتداولون أسطورة أوزيريس وإيزيس التي شاعت في سورية وكتب عنها بلوتارك.

ـ معبد الإلهة هيرا:

يقول لوقيانوس: «توجد في سورية مدينة تدعى هيرابوليس وهي غير بعيدة عن نهر الفرات (٢٣كم) ومكرسة لعبادة الإلهة هيرا الآشورية

(سميراميس) ولا أعتقد أن هذا الاسم قد أطلق على هذه المدينة منذ تأسيسها، بل إنها كانت تحمل في القديم اسماً آخر.»

ويقول عن عظمة معبدها: «يبدو لي أنه أعظم المعابد السورية قاطبة، وأكثرها قداسة وهو يضم عدداً من الأعمال الفنية الرائعة.»(٤١)

وتاريخ هذا المعبد تلفه الأساطير الغامضة، منها ما كان مقدساً ومنها ما كان خرافياً ومعظمها من مصادر أجنبية، وتتعدد مصادر الروايات.

- فالجالية السورية (الآرامية) تقول:

إن سميراميس البابلية هي مؤسسة المعبد، بنته على اسم أمها (دركيتو)، ولم يبنَ على شرف هيرا اليونانية. يعلق لوقيانوس على روايتهم: «لقد رأيت في لبنان تمثالاً لدريكتو، نصفه الأعلى جسم امرأة والأسفل منه جسم سمكة، أما هيرا زوجة زيوس فتظهر لنا امرأة كاملة، وإن كان أهل هيرابوليس (منبج) لا يأكلون السمك ولا الحمام تمجيداً لدريكتو وابنتها سميراميس.» وكتب بلوتارك: «يتخيل بعض السوريون المتطيرون أنهم لو وتناولوا سمك (السلور أو الجري) فإن الإلهة أتارغاتيس ستغطي أجسامهم بالقروح، وتجعل أكبادهم تجف. أما الكهنة فيأكلون السمك المقدس في عشائهم السري وهم يعتقدون أنهم يأكلون جسد الإلهة أتارغاتيس نفسها.

والغريب أن علماء اللاهوت المسيحي يطابقون بين اسم السمكة باليونانية (كريستوس) وبين اسم يسوع. وطبقاً لرواية فرفوريوس الصوري (٢٣٥ - ٣٢٠م) إن الذي يهين الآلهة من العوام بأكله للسمك المقدس، فعليه أن يجلس على قارعة الطريق، وقد تدثر بأسمال بالية وحمل عليقة الشحاذين، ويقف في الطريق ويصيح بتواضع شاكياً للمارة عمله الوضيع، ويطلب منهم الصدقة للمعبد لكي تصفح عنه الآلهة. ولكن لوقيانوس يصف لنا السمك

المقدس دون تعظيم لها، يقول: «هي غير بعيدة عن المعبد، ويربى في بركة السمك المقدس بأنواع مختلفة وبأعداد كبيرة، وقد كبر بعضها، وسميت بأسماء تستجيب لها عندما تنادى، وبعضها علقت في زعانفها القطع الذهبية، وعمق هذه البركة حوالي (٢٠ باعاً)، وفي وسط البركة مذبح حجري يخيل للناظر أن المياه تحمله، ويتلقى البخور من المؤمنين ليحرق فوقه، وكثيرون هم الذين يأتونه للسياحة لا للعبادة ومعهم أكاليل النذور.(٤١)

وللبركة المقدسة وظيفة أخرى، في الأعياد تحمل إليها تماثيل الآلهة، ويدعى هذا الطقس التعبدي (النزول إلى البحيرة) ويشترط فيه نزول تمثال هيرا أولاً وتمثال زيوس ثانياً لأنه يكره السمك، ولا يحب أن يراه.

وكان أهل هيرابوليس لا يأكلون الحمام لأنه مقدس ويرتبط اسمه بسميراميس، وهي الملكة العظيمة التي بني لها هذا المعبد في الأساس وكانت ملكة عظيمة تقول عن ذاتها: «لقد شيدت قلاعاً حصينة ومعابد،وفتحت بالحديد طرقاً عبر صخور لا تخترق، وفتحت لعرباتي مسالك لم تكن الوحوش الضارية نفسها قد سلكتها مطلقاً.

- أما الجالية اليونانية فتقول:

إن هيرا هي التي بُني المعبد من أجلها، بناه من أجلها ديونيسيوس لأنها زوجه أبيه زيوس، أثناء سياحته في سورية، ودليلهم على صدق ما يقولون الكتابة الموجودة علىالعمودين: «أنا ديونيسيوس قدمتهما لهيرا زوجة أبي زيوس.» يقول لوقيانوس: «واليونان يقيمون على شرف يونيسيوس أعمدة يجعلون على رأسها رجالاً صغاراً من الخشب لهم أعضاء تناسلية كبيرة يحركونها بالخيوط. وفي المعبد في الزاوية اليمنى نرى تمثالاً من البرونز لشخص في وضعية الجلوس وله قضيب ذكري كبير.»(٤٣)

وهناك رأي ثان: وهو أن الإلهة ريا Rhea بنى لها المعبد رجل من أصل ليدي يدعى أتيس خصته الألهة ريا وهجر حياة الرجولة واتخذ مظهر النساء وارتدى ثيابهن، وأخذ يتجول في العالم ممجداً ريا ووصل إلى سورية وأسس هذا المعبد، غير أن أهل ما وراء الفرات لم يقبلوه ولم يقبلوا أسراره وكان هذا أصل عبادة الخصاء المقدس.

كان عبدة ريا وأتباع أتيس من الرجال يطوفون حول تمثالها وهم يضربون أجسادهم العارية بسيور من الجلد. ومن حولهم الكهنة يرتلون وينشدون ويضربون الدفوف ويهزون الأجراس، وعلى هذه الموسيقى الصاخبة كان العباد يترنحون ويتأوهون ويطوفون في ساحة المعبد ولا يشعرون بألم الدم النازف. وأحسب أن هذه العبادة موجودة منذ آلاف السنين، وكانت تمارس في سورية ومصر والعراق وفارس.

جاء في إصحاح اللاويين ١٤: ٢٨ «لا تجرحوا أجسادكم أبداً.» وكان هذا اليوم يدعى يوم الدم. وفيه يقام أسوأ طقس عندما يخرج أحد المؤمنين في ساحة المعبد وقد أخذه الحال، ويستل سكيناً ويجب نفسه، ويحمل خصيته ويخرج من المعبد فرحاً ثم يلبس لبس النساء، وإذا مات اعتبر شهيداً وحمل ودفن بكل سكون ووقار ويظل أهله معتزلين المعبد ٣٠ يوماً، ثم يحلقون شعورهم ويدخلون المعبد ثانية. أما العيد والحج فيستمر سبعة أيام بلياليها والناس مقيمون عراة. وهناك بعض الناس من أهل المدينة وليسوا من الحجاج الغرباء، يحضرون إلى المعبد وهم لابسون ثيابهم.(٤٤)

أما الرأي الثالث: يروي بعض اليونان أن المعبد منذ أيام دوكاليون السبثي (نوح عند اليونان) هو الذي وضع أسسه بعد حدوث الطوفان. ودليلهم على صدق ذلك وجود الفجوة الموجودة خلف المعبد والتي غارت فيها مياه

الطوفان. يقول لوقيانوس: «رأيت هذه الفجوة وهي صغيرة جداً موجودة تحت المعبد.» ولذكرى الطوفان يعيّد أهل هيرابوليس ذكراه مرتين في السنة.

– المرة الأولى: في أواخر نيسان وأوائل أيار، وفيها تجلب مياه البحر (الفرات) للمعبد في أواني ويصبونها في الفتحة (ذكرى الطوفان).

– والمرة الثانية: في الخريف في تشرين العيد الثاني، يطوفون وهم ينوحون ويبكون ثم ينتهي الحزن بأفراح وحفلات خلاعية.

أما رواية لوقيانوس لتاريخ المعبد:

يقول لوقيانوس: «سأقص عليكم تاريخ بناء هذا المعبد. يقال: أن هذا المعبد الذي نراه اليوم هو من بناء ستراتونيس زوج أحد الملوك الآشوريين. وقد عشقها ابن زوجها لشدة جمالها، وهذا العشق الآثم كشفه أحد الأطباء، ولما عرف الأب بالأمر، أشفق على ولده، وشيد له معبد هذه المدينة، وجعله ولي عهده، وانسحب إلى بلاد بابل.

رأت زوجته ستراتونيس حلماً ظهر لها مراراً، تطلب فيها الإلهة هيرا أن تبني لها معبداً. عرضت الأمر على زوجها، فوافق وأرسلها إلى البلدة التي بناها لولده (غرب الفرات). بعث زوجها معها المال والجند وكلف أحد الرجال الذين يثق بهم إنه الشاب كومبايوس. شعر كومبايوس بصعوبة المهمة، وخاف عاقبة الأمور. فماذا فعل؟ جب نفسه، ووضع خصيتيه في إناء صغير مع مرّ وعسل وأنواع أخرى من الطيب. وداوى جراحه بسرية تامة. وحمل الإناء وأودعه عند الملك، ثم انطلق في رحلته وانكب على بناء المعبد. وقبل إنجاز المهمة وخلال مدة البناء، هامت به زوجة الملك ستراتونيس حباً، وطلبت منه أن يعانقها، ولكن كومبايوس أبى، ولما ألحت في الطلب أطلعها

على وضعه، ومع ذلك لم تتحول عن حنانها وهيامها به، بل أسفت أنها لم ترتو وداً من حبيبها.

نقل الوشاة خبر هذا الحب إلى الملك، فاستدعى كومبايوس، وعندما حضر بين يديه قرّعه على عمله وحاكمه على ثلاثة جرائم: (هي سوء ائتمانه، وخيانته الأخلاقية، وعلى سلوكه الجاحد تجاه الآلهة). وقبل أن يصدر الملك الحكم بالموت، استمهله كومبايوس وطالبه برد الأمانة المودعة عنده، وقص عليه ما في الإناء. صاح الملك: لماذا آذيت نفسك؟ إني أهبك قبل كل شيء حياة الوشاة، ووهبه الذهب والفضة والجياد الأصيلة. وأعاده لإقامة بناء معبد هيرا. صنع كومبايوس لنفسه تمثالاً من البرونز، تمثال رجل في ثياب امرأة، ووضعه في إحدى زوايا المعبد. وبعد وفاته صار له أتباع، ومن أجله خصوا أنفسهم ودخلوا في خدمة المعبد، وصار أتباعه يرتدون ثياب النساء ويزاولون أعمالهم ويغازلون النساء، دون غيرة من أحد.

يقول لوقيانوس: «ولا زلنا نرى مثل هذا الحب اليوم في هيرابوليس، ثمة نساء يصحبن مغرمات بخدام المعبد، وخدام المعبد يتولهون بولع بالنساء، ويعد هذا التعلق فائق القداسة.»(٤٥)

هل ما رواه لوقيانوس قصة خيالية أم أنه استند إلى وقائع تاريخية؟

هنا، في القصة اسم ملك جبيل ستراتون (ستراتونيس)، واسم كومبايوس يذكرنا بحارس الغابة في قصة جلجامش، (خومبابا) ولا أدري كيف ولّفها لوقيانوس المفكر الحر الشكاك بالآلهة القديمة، إنه استمدها من قصص الناس ورواياتهم الكثيرة.

وصف المعبد في هيرابوليس:

كانت المعابد السورية القديمة ذات طابع نمطي يكاد يكون متطابقاً، هو الشكل المستطيل للمعبد. وقد قسمت صالته الكبرى إلى قسمين، في الداخل يوجد المحراب، المكان المقدس. يقول جان مرجورون: «إن ثقافة بناء المعابد السورية هي الأكثر قدماً وعراقة، ويمكن تحديد طرازين:

الطراز الأول: معبد ذو مخطط بسيط أشبه بالبرج. ومثاله معابد بعل وداجان في أوغاريت. وهذا النمط لا يختلف كثيراً عن المعابد التقليدية في إيمار والخويرة.

الطراز الثاني: معبد ذو مخطط مستطيل، وهذا النمط من المعابد تطور من النمط التقليدي في إيمار. وقد جمع الاثنان في معبد هيرابوليس، حيث أقيم المعبد على مصطبة أو قاعدة حجرية مرتفعة، والمحراب في الداخل، ويوجد المعبد في وسط المدينة، وإلى جانبه بناء تعبدي أقيم خلف المعبد، يؤمه الزوار من أماكن بعيدة، وكأن المعبد ثنائي الغرض الأول تقدم فيه الفروض للإلهة عشتار، والثاني للإله بعل.

وإلى الطراز الثاني ينتمي المعبد في هيرابوليس. وهو مزار حج على طريق القوافل. وقد قال عنه لوقيانوس: «هذا المعبد أغنى المعابد السورية وأعرقها في القدم، يأتيه الحجاج من الجزيرة العربية ومن لبنان ومن بابل ومعهم تأتي أموال لا تحصى. وقد شاهدت بعيني تلك الكنوز المحفوظة بسرية تامة في داخل المعبد. وهي تشتمل على الذهب والفضة. والحق يقال: إن عدد الاحتفالات الدينية وكثرة الحجاج لا يبلغ عند أي شعب ما يبلغه عند هذا الشعب في هيرابوليس.»(٤٦)

وصف المعبد وشكله المعماري:

يقع المعبد على تلة مرتفعة من الأرض، ويتجه باتجاه الشمس المشرقة، على مثال المعابد السورية والأيونية. ويتم الدخول إليه عبر درج حجري، وما إن تصعد عدة درجات حتى يلاقيك مدخل الهيكل بجلاله وروعة أبوابه الذهبية، وتلاقيك كذلك روائح البخور والعطور والطيب العربي الذي تتسم رائحته الذكية منذ دخولك باحة المعبد الخارجية. وإذا خرجت من المعبد تظل روائحه العبقة تفوح من ثيابك طويلاً. وفي داخل المعبد محراب مفتوح، لا يدخله إلا كبار الكهنة وخدام الهيكل. وفي داخل المصلى تمثالان:

أحدهما: للإلهة هيرا وهي تجلس على أسد وتحمل بإحدى يديها صولجاناً وبالأخرى مغزلاً. وعلى رأسها تاجاً على شكل أقراص العسل، وبرجاً، وقد غطي التمثال كله بالذهب والأحجار الكريمة التي بلون النار ولا تقدر بثمن.

والثاني: لزيوس تمثال يجلس على ثورين كلاهما من الذهب. ويحمل على رأسه جوهرة تدعى (ليخنيس) يشع منها في الليل بريق ساطع، فيبدو التمثال كما لو كان مناراً بالمصابيح، ومن أي زاوية نظرت إلى التمثال تجده يحدق فيك.

وفي ساحة المعبد عمودان يصعد عليهما أحد خدام المعبد مرتين في السنة.

لماذا يصعدون إلى أعلى العمود؟ لأنهم يعتقدون أن الرجل يتحدث إلى الإلهة من الأعلى، ويطلب من الآلهة الخير للناس. ويتبرعون له بالذهب والفضة. وكلما تبرع أحدهم أعلن رجل من الأسفل عن اسم المتبرع ليدعو له الرجل القائم في أعلى العمود.

كيف يصعد الرجل على هذا العمود العالي؟

يتسلق العمود، كما يتسلق على شجر النخيل في الجزيرة العربية. كان الرجل يرمي حول نفسه والعمود حبلاً قصيراً، وعلى العمود توجد قطع خشبية تشكل على العمود نتوءات بعرض رأس القدم، ثم يدلي الرجل حبلاً طويلاً يرفع به الأغطية والأدوات المختلفة، ليشكل منها عشاً، لتمضية الأيام السبعة. والرجل في أعلى العمود، دون أن ينام. يقول لوقيانوس: «يقال أنه كلما شعر بالنعاس يخرج إليه عقرب يلسعه، بقدرة الآلهة. لكن هل هذا صحيح حقاً؟

يبدو لي أن الخوف من السقوط هو سبب الأرق.»

يشترك في خدمة المعبد حوالي ٣٠٠ كاهن وكاهنة. وكلهم يلبسون الثياب البيض ويضعون على رؤوسهم قبعات طويلة من اللباد ويتمنطقون بأحزمة ملونة حسب رتبهم، إلا الكاهن الأكبر فإنه ينتخب لمدة سنة ويضع على رأسه تاجاً من ذهب، ويلبس عباءة أرجوانية. وفي ساحة المعبد، هناك صنم خاص لا شكل له يدعى الرمز. وهو للإله إيل، وتحط عليه حمامة ذهبية ترمز لسميراميس. ويحملون هذا الرمز في السنة مرتين في الربيع والخريف، إلى نهر الفرات، وفي الطريق تحدث أعجوبة. يقول لوقيانوس: «سأقص تلك الأعجوبة التي حدثت بحضوري للإله الرمز، كان الكهنة يحملونه فتركهم وارتفع بنفسه في الهواء.»(٤٧) إن لبس الكاهن الأكبر يشبه لباس البطريرك السرياني.

بعض الطقوس التي تمارس في الهواء الطلق:

عند شعوب بلاد ما بين النهرين أعياد تقام على ضفاف نهر الفرات، لا زالت الطائفة المندائية تمارسها كما كانت تقام في بابل، تدعى (عيد

الارتماس) أو النزول في الماء الجاري. يقول لوقيانوس: «إن كبرى احتفالاتهم تقام في فصل الصيف على شاطئ الفرات، سمعت عنها ممن شارك بها. قال: كل مشارك يحمل معه إناء ممتلئاً بماء النهر، وتكون الآنية مختومة بالشمع، ولا يحق لحامل الآنية أن يفض الختم، وكان هناك ديك يفض الختم لقاء بعض الفضة، ثم يعودون إلى المعبد ليهرقوا ما حملوه في الحفرة الواقعة خلف المعبد في ذكر دوكاليون (طوفان نوح)، ثم يقدمون الأضاحي، ويقصون شعورهم ويتصدقون للمعبد. أما الأطفال فيضعون ظفائر شعورهم في آنية فضية أو ذهبية ويثبتونها في المعبد، ويدونون عليها اسم الطفل، وعندما كنت لا أزال صبياً، قد أتممت بنفسي هذا الطقس، ولما يزل اسمي وضفيرتي في المعبد.»(٤٨)

كتب فرانز كومون: «لقد حفظت الديانات الشرقية للجوهر الإلهي في النفس شعور الإنسان بعزته وبنقائه. وجعلت من هذا الموضوع الرئيسي للوجود، ولم يكن العالم اليوناني القديم قد عرف ذلك. وكانت هيرا لا تطمح إلا للشهوة الجسدية.»

عيد المشاعل:

يقام هذا العيد بأحضان الطبيعة في فصل الخريف. يحضرون أشجار الصنوبر الكبيرة ويقطعونها ويعلقون عليها ذبائحهم (الماعز والخراف والطيور) ويجلبون التماثيل المقدسة وينحرون لها، ولا يستثنون إلا الخنازير، المحرّمة لنجاستها، والحمام محرّم لقداسته.

موسم الحج الكبير في هيرابوليس:

الحج عادة قديمة تمارسها مدن القوافل، ولها طقوس تكاد تكون واحدة. يأتي الحاج إلى المدينة فتستقبله لجنة من مجلس الشيوخ ويوزعونه على

البيوت ليصاحبه معلم يعلمه شعائر الحج، ويحفّظه التراتيل والأناشيد الدينية والأدعية التي يقولها في الطواف حول المذبح. وعند عودته إلى بلاده يشتري هدياً (ذبيحة) يرشها بالخمر، ويقدسها ويعود بها إلى بلاده لينحرها هناك ويقيم عليها الأدعية والصلوات(٤٩).

في أيام الحج لا يستعمل إلا الماء للشرب والاغتسال. ولا ينام إلا على الأرض ولا يلمس جسده الفراش طيلة سبعة أيام وإلا عده الناس كافراً(٥٠).

من طقوس الحج الأساسية، أنه في اليوم الذي يسبق بداية الحج (يوم الوقفة) يحلق الحجاج رؤوسهم وحواجبهم، ويقدمون ذبائح أمام تمثال هيرا، ويقطعون اللحم ويوزعونه على الفقراء. أما الجلد فيجعلونه مساجد للصلاة (للركوع والسجود) ثم يحملون رأس الخروف، ويعدون الآلهة في السنة القادمة بذبيحة أكبر.

كيف تمارس النساء طقوسهن أيام الحج؟

كن يجلسن في ظلال المعبد وهن متزينات سافرات، وقد وشمن وجوههن وأيديهن في الحناء، وجلسن في صفوف منتظمة، متشوقات للقاء الغرباء، وبهمسة أو إيماءة من الغريب (الحاج) كانت إحداهن تلبي الطلب، لإرضاء الإلهة هيرا، وفي نهاية اليوم تعود إلى منزلها راضية مرضية، وما تجمعه تتصدق به للمعبد، دون أن تجد غيرة من الزوج أو القريب لأن هذا العمل خاضع للرب والعادة والدين، فهي باعتقاد الجميع تمارس البغاء المقدس إرضاء للقانون الإلهي.

يقول أوبنهايمر: «إن ما يعرف مرة، يصبح جزءاً من حياة الإنسان.»(٥١). ووهذا القول هو صحيح في حدود معرفتي. ذكر ابن شداد: «كان بالقرب من منبج على بعد سبعة أميال (حمة) نبع ماء حار، تسمى

المدبر، وعلى شفير الحمة تمثال أسود من البازلت تحك النساء العواقر فروجهن بأنف ذلك التمثال لكي يحبلن.»(٥٢) ثم يذكر أنه في أعمال حلب قرية تسمى (عين جارة) بينها وبين الهوته حجر قائم كالتخم بين أرض القريتين، فكلما وقع الحجر تخرج نساء القريتين متبرجات ظاهرات سافرات لا يعقلن بأنفسهن طلباً للجماع، ولا يستقبحن في الحال ما هن عليه من غلبة الشهوة، إلى أن يتبادر الرجال إلى الحجر فيعيدونه إلى حالته الأولى.(٥٣)

ما أود قوله: إن الفكر الديني وطقوسه تبقى من الثوابت لدى الأمم والشعوب وقد تأثرت سورية بالعبادات السابقة، ولا زالت رواسب الطقوس القديمة تعمل في أعماق اللاشعور الجمعي للإنسان.

تدمر مدينة القوافل البعيدة

الموقع والتاريخ:

عرفت هذه المدينة باسم تدمر، منذ العصر السومري، وكان الاسم يعني (التمر).وقال آخرون، إن الاسم يعني (الأعجوبة) بالآرامية. وقد ورد اسم تدمر في الوثائق الآشورية المكتشفة في منطقة كبادوكيا، وكانت حصناً لخفر القوافل على طريق البادية الجنوبي، باتجاه الجزيرة العربية على طريق البخور والتوابل. كما ذكرت تدمر في محفوظات ماري، منذ القرن ١٨ق.م، وأنها قد سكنت من قبل القبائل الآرامية (بني يمين). كما ذكرت في رقم إيمار (مسكنة) على الفرات منذ القرن ١٤ق.م، وعلى هذا الرقيم أول ختم تدمري معروف(٥٤). وفي الوثائق الآشورية التي تعود إلى الملك تغلات فلاصر الأول (١١١٦ – ١٠٩٣ ق.م) والتي دوّن فيها حملاته ضد الأخلامو (الآراميين) ذكر المدينة باسم (تدمر عموره)(٥٥) أي تدمر العمورية.

كانت القبائل العمورية قد سبقت القبائل الآرامية، التي واجهت الحملات الآشورية مع القبائل العربية، وأول ذكر لهذه الشراكة كان عام ٨٥٤ق.م، وقد أنشأ العرب دولة الأنباط وتدمر في القرن السادس قبل الميلاد.(٥٦).

كان أهل تدمر يتكلمون اللغة العربية باللهجة الشمالية، ويكتبون بالخط الآرامي، الذي كانت تستعمله الجزيرة العربية في تيماء ومكة، وفي نقش النمارة باللجاة قبر امرئ القيس ملك العرب عام ٣٢٨م.

وفي العهد الروماني ذكرت تدمر باسم (بالميرا)، وكان حكام سورية اليونان يدونون اسم تدمر باليونانية باسم بالميرا التي ذكرت كثيراً على الطريق التجاري الآتي من الجنوب طريق التوابل والعطور. وكان التنافس على أشده بين حكام سورية وحكام مصر البطالمة، وكانت تدمر أهم محطات الطريق(٥٧). وفي زمن الإمبراطور تراجان (٩٨ – ١١٧م) أنشئت الولاية العربية وجعل مركزها بصرى الشام ١٠٦م، وألحق تدمر و البتراء بالولاية العربية، ولكن ظل لتدمر كيانها المستقل ولها مجلس تجاري يشرف عليه مجلس الشيوخ وكانت حاضرة للقبائل العربية الغسانية، وفي زمن الإمبراطور هادريان منحت تدمر الحرية الكاملة عام ١٣٨م وأعفى تجارها من الضرائب ودعيت المدينة باسم هيدريانا بولس Haderian Palmyra، ووضع القانون المالي، وجندت قوات عسكرية لخفر الطريق التجارية وحفظ الآبار والمحطات، وصارت هذه القوات نواة الجيش التدمري.

صارت مدينة تدمر في مطلع القرن الثاني الميلادي مدينة ذات مؤسسات إدارية كاملة. أصبح للمدينة حاكماً (أراكون) وموظف للمالية، وموظف مسؤول عن المنازعات القضائية، وقائد للحامية، وقائد للجيش، وكان المواطن التدمري رجلاً حراً وهو إما صاحب قافلة أو مشترك بالقافلة. وقد أطلق المؤرخ روستييف على تدمر اسم مدينة القوافل Caravan City(٥٨).

وكانت تدمر تتحكم بطريقين:

الطريق الأول: ينطلق من أنطاكية إلى حلب ومنها إلى بالس (مسكنة) ثم إلى تدمر، أو ينطلق من أنطاكية إلى أفاميا ومنها إلى حمص ثم إلى تدمر، ومنها إلى الإسكندرية.

الطريق الثاني: من الإسكندرية إلى البحر الأحمر إلى الخليج العربي ومنه إلى الحيرة ويعود إلى تدمر. وقد ألغي هذا الطريق أثناء الحكم الفرثي ثم عاد في أثناء الحكم الروماني، من الحضر إلى تدمر. وذكر بليني عام ٦٣م أنه أثناء زيارته لسورية وجد أن تدمر تمتاز بموقعها، وغنى أرضها وطيب مائها، وفيها بساتين تحيط بها الرمال الممتدة من كل الجهات، وقد عزلتها في واحة غناء عن بقية العالم. إن وصف بليني ينطبق على موقع تدمر الحديث، فهي ترتفع على هضبة (٤٠٠ ــ ١٤٠٠م) وتحيط سلسلتان متفرعتان عن جبال لبنان الشرقية، وهي مكسوة بأشجار البطم واللوز البري والتين، وكانت مراعي خصبة، فيها الحيوانات البرية والطيور وفيها الينابيع مما يؤمن الماء للقوافل.

وفي زمن الإمبراطور سبتموس سيفروس زوج الإمبراطورة الجميلة جوليا دومنه الحمصية، ابنة كاهن الشمس (بل) في تدمر، ووالدة الإمبراطور كاراكلا الذي منح تدمر لقباً يعفيها من الضرائب عام ٢١٢م. فازدهرت تجارة المدينة وبني الشارع الرئيسي ذي الأعمدة وقوس النصر، وزاد في بناء معبدها العظيم (بل) ولقبت المدينة (المدينة الحرة) Civitas Libera وانفصلت عن مدينة بصرى الشام، وأصبح لها في مجلس الشيوخ شيخ عربي يمثل الإمبراطور يدعى مقوِّم Curator، يراقب الخزينة العامة، وصارت تدمر أهم حلقة على طريق العطور والتوابل. وفي سنة ٢٢٨م احتل الفرس مدينة دورا أوربوس على الفرات وقطعوا طريق التجارة عن تدمر، وأصبح الطريق يمر بمدينة نصيبين والرقة (كالنيكوس) وهنا قلت لدينا النصوص الكتابية عن التجارة التدمرية.

وفي سنة ٢٥٨م أصبح شيخ تدمر أذينة بن الحيران حاكماً لولاية سورية الفينيقية (حوران والقلمون وتدمر). وعندما هاجم الملك الفارسي سابور الأول (٢٤٠ - ٢٧١م) في سنة ٢٦٠م مدن ما وراء الفرات، تصدت له قوات أذينة شيخ تدمر، ودحرته فنال أذينة لقب مقوّم الشرق كله، وأصبح ملكاً لتدمر وحمل لقب سبتيموس أذينة، وأصبح قائداً للجيوش الرومانية وحمل لقب Imperator ولم يعد ينقصه إلا لقب أوغسطس لكي يصبح إمبراطوراً بكل معنى الكلمة. وفي عام ٢٦٤م حاصر أذينة عاصمة الفرس طيسفون لِيَفُكَّ أسر الإمبراطور فاليريان، ولكنه لم يستطع. وفي سنة ٢٦٧م زحف ثانية على دولة فارس، ولكن بتدبير مؤامرة فارسية يغتاله ابن أخيه معن ومعه ابنه حيران، فتولت قيادة الجيش زوجته زنوبيا (٢٣٠ - ٢٧٣م) باسم ولدها الأصغر وهب اللات عام ٢٦٨م.

وورثت زنوبيا كل ألقاب زوجها أذينة، وضربت عملة تدمرية باسمها، ونقشت اسمها على الأعمدة على الطريق التجارية مع اسم الإمبراطور تراجان، ووجدت قطع من العملة التدمرية في الإسكندرية مضروبة سنة ٢٧١م باسم زنوبيا. وبدلاً من صورة الإمبراطور أورليان، ووضعت صورة وهب اللاة متوجاً بالإكليل والأشعة، وأرسلت جيشاً للأناضول تحت قيادة القائد التدمري زبداي العربي مما أثار حفيظة الإمبراطور أورليان، وجرت بين زنوبيا والدولة الرومانية معركة في كانون الثاني ٢٧٢م، ومعركة ثانية حاصر فيها تدمر، في صيف ٢٧٣م، وقتل لونجينوس الفيلسوف اليوناني معلم زنوبيا والمؤرخ كليكراتس الصوري ومعلم البلاغة لوبوكومر البيروتي وهرب فورفوريوس الصوري والخطيب اليوناني نيقوماخوس(٥٩).

يذكر العلامة جرجي زيدان أن المملكة التدمرية اتسعت زمن الملكة زنوبيا حتى أصبحت أشبه بالإمبراطورية، شملت سورية الطبيعية وجزءاً من آسيا الصغرى، وشمال الجزيرة العربية، ولها مراكب في الخليج الفارسي واسترجت نصيبين والرها وكالنيكوس (الرقة) من يد الفرس(٦٠). ويضيف الدكتور نبيه عاقل أن زنوبيا قد انتصرت على الجيش المصري (الروماني) عند حصن بابليون قرب القاهرة سنة ٢٧٠م، وضربت الإسكندرية عملة عليها صورة ولدها وهب اللات وعلى الوجه الآخر صورة الإمبراطور أورليان. وهذا دليل على أنها تمثل الإمبراطورية الرومانية على مصر(٦١).

كيف كانت نهاية المملكة التدمرية؟

اجتاح الجيش الروماني هضبة الأناضول، وشدد الحصار على الجيش التدمري بقيادة زبداي الذي تراجع إلى أنطاكية. وعندما زاد الرومان حصارهم وضغطهم تراجع إلى حمص. واستعاد حاكم مصر الروماني برميوس (الإسكندري) زمام المبادرة والتحم مع الجيش التدمري في معركة كانت الجولة الأولى لصالح الجيش التدمري، وفي النهاية كانت الغلبة للجيش الروماني لتفوقهم العددي.

تراجعت القوات التدمرية إلى داخل تدمر وتحصَّنت بها، ولكن استنفذت قدرتها الدفاعية وحاولت زنوبيا الانسحاب والهرب عبر نهر الفرات ولكن القوات الرومانية قبضت عليها وأعادتها أسيرة إلى معسكر أورليان في صيف عام ٢٧٣م، وانتهت حياتها نهاية مجهولة(٦٢). ولكن المؤرخ الإنكليزي إدوارد جيبون يورد رسالة للإمبراطور أورليان نفسه يعترف فيها بأن الإعدام الرهيب لم يقتصر على المتمردين بل تعداه إلى الشيوخ والأطفال والفلاحين(٦٣). ومعنى هذا أن أورليان حملها معه إلى روما وسجنها ثم حكم

عليها بالموت. ويقال أن بعض أفراد مجلس الشيوخ الروماني قد لامه لأنه قتل امرأة. فقال له: «يلومونني لأني تباهيت بالنصر على امرأة، هل كانوا يتفوهون بمثل ذلك لو كانوا يعلمون أية امرأة هي؟ أو لو كانوا يعلمون ثباتها وحزمها مع الجنود، وتسامحها عند الضرورة. إن أذينة زوجها مدين لها بنصره على الفرس»(٦٤).

كيف كانت شخصية زنوبيا الحقيقية؟

كانت زنوبيا ذات شخصية ناضجة، وثقافة عالية، وكانت حازمة في ميدان المعارك وعادلة ورحيمة. قال نيتشه: (يعرف الإنسان من نكته، وسأروي هذه النكتة) «يروى أنها حكمت على تاجر تدمري برميه للوحوش لجرم ارتكبه. فوضع في ساحة المسرح، ووقف الناس ينتظرون خروج الوحوش الضارية التي ستفتك به، وعدما طال الانتظار، والناس في ترقب، وإذا بديك رومي يخرج إليه فضحك الجمهور لهذه النكتة»(٦٥).

كانت زنوبيا تؤمن بالديانة المسيحية، وكان أسقف تدمر الأسقف بولس السميساطي (١٩١ ــ ٢٦٨م) رجلاً سريانياً، درس الكتب المقدسة وتفسيرها باليونانية. استدعته زنوبيا من أنطاكية وعينته في تدمر عام ٢٦٠م. وكانت تجري بينه وبين لونجينوس مناظرات حول طبيعة المسيح، هل المسيح إنسان كامل؟ كما يقول لونجينوس، أم هو كلمة الله وابنه الحي كما يقول بولس: «إن المسيح كلمة الله الحية Logos وكان ممتلكاً قوة إلهية منذ ولادته.» ولكن بولس أنكر أقنومي الابن والروح القدس. واعتبرهما مجرد قوتين مصدرهما الله كالعقل والتفكير في الإنسان. وإن الروح الإلهية حلت في المسيح أثناء العماد في نهر الأردن، وغادرته عند الصلب.(٦٦). والمسيح هو دون الأب في الزمان والمرتبة، وإنه لم يصلب وإن خيّل لليهود أنه صلب، فكان هذه

دعوة نصرانية، وشاعت هذه الدعوة عنه فعقد مجلس كنسي وحرم أفكاره. قال ابن حزم الأندلسي (المتوفي ١٠٤٩م): «كان بولس السميساطي بأنطاكية، وكان قوله التوحيد المجرد الصحيح، لعده عيسى بن مريم هو عبد الله ورسوله كأحد الأنبياء.»(٦٧)

درس مالك بن معن على يد لونجينوس الفلسفة اليونانية، وكتب المدخل لمقولات أرسطو العشر (الإيساغوجي) فلقبه لونجينوس (فرفوريوس) أي المجلل بالأرجوان. وعندما حوصرت تدمر هرب إلى صور، وعرف بفرفوريوس الصوري، عندما انتقل إلى روما ودرس على يد أفلوطين، وهو الذي نشر كتاب التاسوعات، وإليه تنسب الأفلوطونية المحدثة. حدثت تلك الثورة المعرفية في تدمر بفضل الديمقراطية التي كانت تعيشها الأعراق والأجناس والديانات بحرية تامة.

الوضع الاجتماعي والطبقي في تدمر:

قام المجتمع التدمري (التجاري) على طبقتين هما:

طبقة الأشراف:

قوامها العائلة المالكة التي هي رأس المجتمع، ومن حولها مجلس للشيوخ مكون من النبلاء وهم عرب وسريان، ويتكونون من التجار والملاك الزراعيين. وكان النبلاء هم الذين قاموا بأعمال نبيلة من أجل تدمر، لذا لم تكن هذه الطبقة مستقرة، وهكذا كانت هذه الطبقة تتطعم بعناصر جديدة على الدوام.

وكان الكهنة يحتلون مكانة محترمة، ويناط بهم خدمة المعبد وتقديم الذبائح (الحملان والعجول والطيور) وكانت هذه الطبقة وراثية. وفي زمن

زنوبيا دخلت الديانة المسيحية التي لم تكن طبقة الكهنوت فيها وراثية بل تخضع للانتخاب والتعيين. وهناك رجال العلم والثقافة، الذين يحتلون مرتبة ومكانة عالية في المجتمع، وهناك القادة العسكريون وهم مسؤولون أمام الملكة ومجلس الشيوخ وهؤلاء من أبناء العائلات التدمرية النبيلة. وكانت المرأة التدمرية ذات مكانة مرموقة، فهي حرة، تعمل في الكهانة، وهي تاجرة وصاحبة قافلة تجارية، وقد تولت رئاسة الدولة (زنوبيا).

طبقة العامة:

وهؤلاء يتكونون من التجار الصغار ومن الفلاحين والصناع والأطباء والكتّاب. وكانت المهن وراثية، لا يطلع على سر المهنة الناس الغرباء. أما العبيد فكانوا أقلية لأن العبد كان مكلفاً. وكانوا يشتغلون خدماً في المنازل ويعملون في حقول تدمر (الزيتون والنخيل) ويعملون كرعاة ومرتزقة في حراسة القافلة.

لماذا لم تترك تدمر آثاراً أدبية؟

لأن أهل تدمر كانوا يقولون الشعر بالعربية ولم يدونوه. ومع مرور الأيام ضاع تراثهم الشعري والأدبي. وبقي بعض الأبيات القليلة من مسرحية، من ذلك ما يروى على لسان زنوبيا التي سألت عمرو بن لخم، وكان يدبر لزنوبيا مؤامرة.

قالت زنوبيا:

مالي أرى الجمال مشيهن وئيدا؟ أجنداً يحملن أم حديدا؟

وكانت الجمال تحمل على ظهورها صناديق فيها رجالاً مستعدين للانقضاض والقتال. أجابها عمرو (في سره):

بل الرجال جثماً قعوداً!

ولأن النحت يبقى، كانت المدافن التدمرية آيات من الفن الجميل.

الحالة الاقتصادية:

قال ياقوت الحموي: سميت تدمر على اسم تدمر بنت حسان بن أذينة بن السميدع بن فريد بن عمليق. وتدمر من عجائب الأبنية، موضوعة على العمد. وزعم قوم أنها مما بنته الجن. وأهل تدمر يزعمون أن ذلك البناء قبل سليمان بن داود بأكثر مما بيننا وبين سليمان. ولكن الناس إذا رأوا بناء عجيباً، وجهلوا اسم بانيه أضافوه إلى سليمان أو إلى الجن.

استمر الجهل بتاريخ تدمر حتى صيف عام ١٨٨١، عندما زارها الرحالة الأرمني سيمون أبا ماليك لازاريف، الذي كشف عن أطول نص تجاري تدمري مكتوب باللغتين الآرامية واليونانية، وهذا النص يعرف باسم (التعرفة الجمركية). وهو القانون المالي الصادر عن مجلس الشيوخ التدمري عام ١٣٧م. وفي عام ١٩٠١م أرسلت هذه الكتابة المدونة على واجهة الأغورا (الساحة العامة) على لوحة طولها خمسة أمتار إلى متحف بطرسبرج، وكانت مكونة من أربعمائة عبارة موزعة على أربعة حقول:

الحقل الأول: (جباية الرتع)

كان التجار يدفعون رسومهم عند بوابة المدينة، وقد بين لنا المؤرخ دوفو غويه أعمال الجباة والموظفين وما يأخذونه عن كل حمل. كما أطلعنا على الجهاز الإداري وعمل مجلس الشيوخ ورئيسه وأمينه، والشيخين المكلفين بالسلطة التنفيذية ومجلس العشرة، ووكلاء السلطة القضائية.

الحقل الثاني: (الرسوم وأنواع البضائع)

دوّن في هذا الحقل مصدر الثروة في تدمر. وأهم المصادر هي: (مياه نبع أفقا) الذي اعتبر سبب قيام تدمر في وسط الصحراء. وأطلعنا على الحركة التجارية والزراعية، وكل ما يتعلق بالسادة الأحرار والعامة والعبيد، وأهم البضائع والمواد التجارية كالأرجوان والعطور والزيوت والطيب والتوابل والرواحل (الجمال والحمير) وأصحاب الحوانيت داخل المدينة والفنادق، وبنات الهوى وحق التمتع بهن، والحج وتنظيمه والرسوم على الحجاج وعلى البضائع التي تأتي معهم من جزيرة العرب (المسك والصمغ أو اللبان العربي)، والأحجار الكريمة (الجزع والعقيق) والألبسة التي تجلب من سلوقية وطيسفون وهيرابوليس والرها ومن صور وصيدا (الزجاج والفضة والذهب) ومن دمشق حيث كانت تستورد الخمور والزيوت والقمح من حوران (بصرى الشام) ومن حوض السند حيث كان يستورد الأقمشة القطنية والأصبغة و الخز من كشمير وتركستان الصينية ووالللازورد من أفغانستان (بدخشتان).

ملاحظة: لم يذكر الحرير بين تلك البضائع مما يدل على أن تدمر لم تكن على طريق الحرير.

الحقل الثالث: (القوانين المالية)

تعود هذه القوانين إلى سنة ٦٨م، وفيه تعليمات عن استخدام مياه أفقا والملح، والإشكالات التي حدثت عند تطبيق القانون الجديد قانون عام٣٧م ويجدد عمل الأسواق، وأسماء أصحاب الحوانيت، وجمعياتهم. وقد عرفنا منهم صاحب الدكان (مقيمو بن عراش) أو (مالك بن مالك) وقد ميزت

القوانين بين تجار الجملة وتجار المفرق وبائعي الأغذية والخمور والجرار الفخارية، ودكاكين أصحاب الحرف كالأطباء والعطارين والحدادين ودابغي الجلود وأصحاب ورش الذهب والفضة وصياغة الحلي من الأحجار الكريمة،وبائعي الألبسة والنساجين (صانعي البسط واللبابيد) وكان أمين السوق يرعى هذه الجمعيات.

الحقل الرابع: (الزراعة وتربية المواشي)

تكلم هذا الحقل عن الزراعة وعن استخدام المياه كنبعي أفقا وأبو الفوارس. ونعرف من هذا الحقل أن الزراعة لا تشكل العمود الفقري في الاقتصاد التدمري لقلة المياه، لأن النخيل والزيتون يشكلان المنتوج الرئيسي إلى جانب أشجار الفاكهة (الرمان والتين) وهناك زراعة الحبوب (القمح والشعير). تزرع زراعة بعلية في مسايل الأودية. وكانت الماشية (الأغنام والماعز) ثروة حقيقية في تدمر لكثرة المراعي بين الجبال التدمرية الغنية بأشجار البطم الذي كانوا يحصلون منه على الزيت من أجل الحجاج وصناعة الزيوت العطرة،ويأكل الفقراء زيت البطم لرخص ثمنه.

الوضع الثقافي والحضاري:

عندما فتح خالد بن الوليد مدينة تدمر كانت قرية صغيرة سنة ٦٣٦م. وظلت كذلك لأن الطرق التجارية قد تبدلت منذ القرن الخامس الميلادي،وهجرها سكانها وتركت المدينة على حالها، وظلت الأوابد التاريخية مدفونة تحت الأرض.

قال إسماعيل بن محمد بن خالد بن عبد الله القسري: «كنت مع مروان بن محمد آخر ملوك بني أمية حين هدم حائط تدمر (١٢٧هـ/ ٧٤٥م) وكانوا

خالفوه عليه وقتلهم وفرق الخيل عليهم تدوسهم وهم قتلى، فطارت لحومهم وعظامهم تحت سنابك الخيل، وهدم سور المدينة، فأمضى به الهدم إلى جرف عظيم، فكشفوا عنه فإذا بيت مجصص كأن اليد رفعت عنه تلك الساعة، وإذا به سرير عليه امرأة مستلقية على ظهرها وعليها سبعون حلة، وإذا لها سبع غدائر مشدودة، قال إسماعيل: فذرعت قدمها فإذا به ذراع من غير الأصابع، وإذا في بعض غدائرها صحيفة ذهب مكتوب فيها: (باسمك اللهم، أنا تدمر بنت حسان أدخل الله الذل على من يدخل بيتي هذا.) فأمر مروان بالجرف، فأعيد كما كان، ولم يأخذ مما كان عليها من الحلي شيئاً.»(٦٨)

هذا النص الذي أورده ياقوت الحموي هو نص خرافي. من قرأ الكتابة؟ وبأي لغة كانت؟ وهل كانت الجثة محنطة أم كانت نحتاً؟ وكل ما فيه من صحة هو الإشارة إلى المدافن التدمرية والنحت البارز فيها والذي يضاهي البشر الأحياء. وهو يدل على ثراء المدينة الفاحش، ودقة النحت الفني الذي لا مثيل له في الشرق الأوسط كله، وبعض المنحوتات ذات مسحة وجمال يشتهيه المتأمل.

تظهر المنحوتات التدمرية طراز الحياة السورية لدى طبقة النبلاء، بينما تظهر العامة أو الشعب بالثياب العادية، ثوب طويل فوقه عباءة تدور حول العنق. والفن التدمري غني بالزخارف، وقد أضفى الفنان التدمري مسحة من الجمال والروعة على المنحوتات، ولا زالت التماثيل في المدافن تؤثر في زائري المدينة من السواح(٦٩).

كانت القبائل العربية هي ذات الثقافة السائدة في تدمر. ومن القبائل المستقرة في تدمر، قبائل بني عنوبات وقبائل بلتي وبلتا وبرسعة وقبائل جد بعل وزيد بعل وقبائل حنفي وحشاش، وكانت هذه القبائل تعيش ضمن أحلاف

فيما بينها، ولها مجالس خاصة بالقبيلة، وكانت المناوشات والخلافات تدب بينهم حول ملكية المراعي خارج تدمر.

كان عرب تدمر يعبدون أرباب ثلاثة هم: (اللات والعزى (عزيزة) ومناة) (منوة) وأشر (أسد) ومعن وأبجل شأنهم في عبادة هذه الأرباب شأن الأنباط والثموديين واللحيائيين وعرب الصفا في تمثيل أربابهم راكبين على الجمال والخيول بدلاً من ركوب الثيران والأسود عند اليونان.

كان العرب المتعبدون يضفون ألقاب (الرحيم والطيب والشكور) على آلهتهم. وقد عثرت البعثة السويسرية في معبد بعل شمين (رب السموات) على نص باليونانية يكرّم فيه سواد بن بوليدع بن سواد الرجل التقي بسبب المساعدات التي قدمها لتجار القوافل. وكان له تمثال منصوب في واجهة الأغورا (الساحة العامة). ووجد في معبد عشتار (عتاركاتيس) تمثال لشيخ القوافل (حجاج بن يرحبولا) وتمثال آخر لتيم بن أرصو بن تيم المدفون عام ١٣٢م.

والمعبد الموجود حالياً في تدمر يعود (لمعبد بل) القديم عام ٤٤ق.م، وقد جدد في أعوام تالية: منها التجديد عام ٣٢م. وهناك معبد للرب النبطي (شيع القوم) تعبده الجالية النبطية في تدمر، وهو الرب الصباحي الذي لا يشرب الخمر.

ومن أعياد أهل تدمر الشهيرة عيد ٤ نيسان عيد تكريس معبد بل وسمي هذا العيد باليوم الطيب، وصارت القبائل العربية تحج إليه ويطوفون في صحنه الذي تبلغ مساحته الكلية (٤ هيكتارات) وكان عيده يثير بهجة المدينة، حيث تتطيب النساء بالمسك ويلبسن أفخر الثياب والمجوهرات والحلي، ويظهرن مفاتن أجسادهن البضة. وفي الطواف يقوم الكهنة بالتراتيل والإنشاد في ثيابهم البيضاء، وهم يكشفون أكتافهم اليمنى وهم حليقو الرؤوس، ويتبعهم

خدام المعبد الذين يعزفون على الناي ويضربون الدفوف، ويحملون المباخر في ساحة المعبد، ويدخل الكهنة إلى قدس الأقداس، ويقيمون القداس الذي يحضره الجميع لسعة ساحة المعبد. ويأمر كبير الكهنة بنحر الأضاحي، ويقدمون للحجيج الشراب المحلى بالعسل والشواء من لحوم الضأن والجمال. وكانت ترافق العيد تمثيل بعض المسرحيات التي تمثل موت الآلهة وقيامهم، وفي نهاية العيد تحدث رقصات تهتكية تشترك فيها النساء والرجال.

هكذا كانت تدمر ولا زالت مدينة الفن والجمال على طريق العطور والتوابل.

مملكة الأنباط أول دولة عربية

الموقع والتاريخ:

كان الهلال الخصيب المجال الحيوي للقبائل العربية منذ الألف الثالث قبل الميلاد، بسبب موقعه الممتاز، وبسبب خصب أراضيه، مما دفع القبائل العربية والآرامية للاستقرار وتشكيل الممالك. ومن تلك الممالك دولة الأنباط التي تشكلت من استقرار القبائل المهاجرة من حدود نهر الفرات واستقرارهم في البتراء حوالي عام ٥٠٠ق.م. وكانوا يتكلمون لغة عربية شمالية واستخدموا الخط النبطي الآرامي وهو نفس الخط الذي استعمل في تدوين لغة القرآن الكريم(٧٠).

ساعد تكاثر السكان حول البتراء، والحجر ومدائن صالح وتيماء والعلا ويثرب ومكة، على تكوين دولة الأنباط، التي خلّفت آثاراً جليلة في النحت والري والزراعة والتجارة. وتدل النقوش التي وجدت في بحر إيجة في جزيرة كوس COS والنقوش التي اكتشفت في ميناء بوتيولي Poteoli قرب نابولي، والتي تعود إلى سنة ١١م، على نشاط تجاري بري وبحري بعيد المدى.

متى ظهرت دولة الأنباط للوجود؟

ذكرت الحوليات الآشورية (١٩ق.م) الحروب التي شنتها في بادية الشام على البدو القاطعين لطرق التجارة بين فلسطين والحدود المصرية في

شبه جزيرة سيناء حيث كان هناك طريقان يتحكمان بتجارة الجزيرة العربية والبحر الأحمر:

الطريق الأول: طريق البخور

يبدأ هذا الطريق من الساحل الجنوبي الغربي للجزيرة العربية، ويمتد نحو صنعاء ومكة ويثرب ثم معان والبتراء، وعندها يتفرع الطريق إلى طريقين:

أحدهما: نحو أفريقية عبر سيناء.

والآخر: نحو غزة وساحل المتوسط، نحو صور وأنطاكية.

الطريق الثاني: طريق الخليج العربي (طريق التوابل)

يبدأ من جنوب الخليج العربي ويصعد الفرات إلى دورا أوريوس ثم يتجه غرباً نحو تدمر ودمشق.

ويرتبط هذان الطريقان بعدة طرق فرعية منها طريق وادي الدواسر – الجرعاء Gerrha على ساحل الإحساء. والطريق الأول هو الطريق المفضل في التجارة الدولية، لأسباب منها قصره وقلة تكاليفه ولخلوه من العقبات والمشاكل الأمنية، ولغنى البضائع التي تعبره (الذهب والعاج من أفريقية) والعطور واللبان والمر من الجزيرة العربية، والزجاج والأرجوان والخمور والزيوت التي كان التجار الأنباط يحملونها للعالم القديم.

كان الأنباط عرب سكنوا بادية الشام في القرن السابع قبل الميلاد ثم سكنوا بعدها أرض الأدوميين واغتصبوها منهم في القرن الخامس قبل الميلاد. وكانت تجارتهم في البداية تقتصر على التوابل والبخور واللبان الآتية من حضرموت، وقد استغلوا موقع بلادهم لمصلحة مملكتهم (البتراء) ففرضوا

الضرائب على التجارة العابرة(٧١) ثم طوروا تجارتهم وأغنوها بكثرة البضائع وحملوا إلى مصر بضائع سورية و الجزيرة العربية، وحملوا إلى سورية بضائع مصر والجزيرة العربية وبضائع الهند وأفريقية. فدرّت عليهم هذه الوساطة أموالاً طائلة جعلتهم من الشعوب الغنية بالمال والمعرفة رغم فقر موارد بلادهم لانعزالها(٧٢).

وفي مطلع القرن الثاني قبل الميلاد استطاعوا مد سيطرتهم وحكموا دمشق وسهل البقاع وحوران وسواحل البحر الأحمر وتركوا عدداً من النقوش والنصوص الكتابية بالآرامية(٧٣). كانت بداية طرق تجارة الهلال الخصيب على أيدي الأنباط، وكانوا يستطيعون قطع طرق التجارة على البطالسة في مصر(٧٤). ذكر المؤرخ اليوناني بوليب أنه جرت معركة في رافيا بين السلوقيين والبطالمة خلال الحرب السورية الرابعة، واشترك إلى جانب الملك السلوقي أنطيوخوس الثالث (٢٢٣ - ١٨٧ق.م) شيخ عربي ومعه عشرة آلاف جندي يدعى (زبدي - أيل) من القبائل التي تتجول بين تدمر والبتراء.

تقع البتراء (سلع) عاصمة الأنباط في الجنوب الشرقي من البحر الأحمر، في منطقة وادي موسى (في شرق الأردن حالياً) وبفضلهم عرفت هذه المنطقة باسم (العربية الصخرية) في المؤلفات اليونانية والرومانية(٧٦).

حاول البطالسة السيطرة على بلاد الأنباط، وأرسلوا حملة احتلت أراضي اللحيانيين في شمال الحجاز وأنشأوا مستوطنات إغريقية للهيمنة على منافذ الطرق التجارية(٧٧) فلم يفلحوا، مما دفع السلوقيين إلى جذبهم إلى صفهم، فتحسنت التجارة مع سورية وعقدوا صفقات مع المدن السورية الساحلية صور وصيدا وأنطاكية، وبيروت(٧٨) وغيرها من المدن السورية.

اشتهرت دولة الأنباط في العالم القديم بسمعتها التجارية، وبدأ المؤرخون اليونان والرومان يؤرخون لهذه الدولة (المعجزة الاقتصادية). ذكرهم ديودورس الصقلي بأنهم كانوا قبل الميلاد كانوا يخفرون طرق التجارة في البادية السورية، وشمال الجزيرة العربية للآشوريين أولاً، ثم تحالفوا مع الآراميين وقاوموا الحملات الآشورية لأن الأنباط عرب وإن كتبوا بلغة الآراميين حلفائهم، وهم الذين طوروا الخط العربي المعروف بالخط النسخي(٧٩).

يذكر المؤرخون أن الأنباط كانوا يتكلمون اليونانية والآرامية لغة التجارة في زمانهم، وكانوا يعبدون آلهة تدمر وحران ومكة، وكانوا يحجون إلى مكة وحران وتدمر وهيرابوليس (منبج) و كان إلههم الكبير ذي الشري (إله الشمس). والقمر (سين) واللات والعزى ومناة وهبل يقدمون لها القرابين في معابدهم في البتراء، وكان معبد ذي الشرى قرب البتراء إلى جهة الجنوب وسميت الجبال القريبة منه (جبال الشراة).

والسؤال المطروح: لماذا لم يخلِّف الأنباط ثقافة توازي مقدار ثروتهم؟

لقد ألهتهم التجارة وحب جمع المال عن الكتابة والتدوين. ولأن موروثهم الشعري لم يحفظه الرواة، لأن البتراء قد هجرت منذ عام ١٠٦م، وتوزعوا في حوران وتدمر، ولم يبق إلا ما دوّنوه على الصخر أو نحتوه وضاعت معلوماتهم التجارية والإدارية. يقول لانكستر هاردينج: «كانت مؤسساتهم التعليمية والإدارية والقضائية قد بلغت درجة عالية من الرقي في الشؤون التجارية والمالية والفن المسرحي. وإن كنا لا نعرف عن مؤلفاتهم فالمسرح الذي خلفوه يدل على ذلك، وكانت المرأة عندهم ذات منزلة رفيعة، وتعامل باحترام وتقدير، ولها كافة الحقوق في المجتمع النبطي.»(٨٠)

كان المجتمع النبطي مجتمعاً ديمقراطياً لا عبودية فيه. فالملوك لا يستخدمون أقاربهم في أعمالهم أو أنهم كانوا يخدمون بعضهم بعضاً، على مآدب الطعام. يقول سترابون: «يمتاز الأنباط باعتدالهم، وجدهم حتى أنهم يفرضون عقوبة علنية على كل شخص تتناقص ثروته، وكلما زاد الشخص ثروته كلما ازداد منزلته الاجتماعية، فالثروة للمكانة الاجتماعية.»(٨١)

كانت الخيول قليلة عند الأنباط، وثروتهم الحقيقية هي الجمال. وكان الملوك يخرجون للحرب على ظهور الجمال، وهم يرتدون ثيابهم الأرجوانية الحمراء، ويتمنطقون بالسيوف فوقها. ومن ملوكهم المشهورين:

الحارث الأول (١٦٩ ـ ١٤٦ق.م):

قامت صداقة متينة بينه وبين بطليموس ملك مصر سنة ١٦٤ق.م، وقد كف الحارث عن مهاجمة السفن المصرية في البحر الأحمر. وفي زمنه لجأ إليه كبير حاخامات اليهود المدعو (جاسون) الذي طرده المكابيون من أورشليم فلم ينصره الحارث.

الحارث الثاني (١١٠ ـ ٩٦ق.م):

زادت صلته بالتجار العرب في حضرموت والهند، وضرب النقود باسمه، والتجأ إليه جنوس ملك المكابيين هرباً من محاصرة السلوقيين لأورشليم ولكن الملك الحارث لم ينصره أيضاً(٨٢).

الحارث الثالث (٨٧ ـ ٦٢ق.م):

أشهر ملوك الأنباط في زمنه. بلغت الدولة أوجها السياسي والتجاري، وانتصر على الملك السلوقي أنطيوس دونيسيوس قرب حيفا سنة ٨٦ق.م، وحرر دمشق من حكمهم سنة ٨٥ق.م. وفي أواخر حكمه احتل الرومان سورية سنة ٦٤ق.م.

ذكر المؤرخ إيبان في حوادث سنة ٤١ق.م أن كليوباترة عادت بحراً إلى مصر وأرسل أنطونيوس فرسانه إلى البتراء وأمرهم بنهبها.

تقلص نفوذ الأنباط وصاروا أتباعاً للرومان، وعندما حدث الخلاف بين الأخوة اليهود المكابيين (أرسطوبولس وهركانوس) ناصر الحارث الثالث هركانوس ولكن الإمبراطور الروماني بومبي تدخل وساعد أرسطوبولس، فتراجع الحارث وأبدى خضوعه وأصبحت تجارة الأنباط تحت سيطرة روما، ومنذ ذلك الوقت قال المؤرخون: (كل الدروب تتجه نحو روما).

الحارث الرابع (٩ق.م – ٤٠م):

كان هذا الملك مثقفاً يعرف عدة لغات (الآرامية والعبرية واليونانية) وفي زمنه ازدهرت البتراء، وفرض نفوذه على شمال الحجاز، وصارت تيماء والعلا ومدائن صالح من ممتلكاته، فاغتنت. وضرب العملة باسمه (الحارث ملك النبط – محب أمه).

تزوج حاكم القدس هيرودوس انتباس ابنته، وعندما أراد أن يتزوج عليها زوجة أخيه فيليبس، ثارت الحروب بينهم، وساعدت روما هيرودوس وقادت حملة على البتراء ولكنها فشلت. يقول الدكتور إحسان عباس: «نالت البتراء نصيباً كبيراً من العمران والثراء في عهد الحارث الرابع، حيث تم بناء أكبر معلَمين من معالم البتراء وهما: الطيطر، البناء المجبوب في الصخر، والمعبد، القائم في مركز المدينة ويعرف اليوم باسم (قصر البنت)(٨٣).

والحارث الرابع هو حاكم دمشق الذي قبض على بولس الرسول سنة ٣٧م. جاء في رسالة بولس إلى أهل كورنثوس: «في دمشق كان الوالي الحارث أبو مالك يحرس المدينة، ويريد أن يمسكني، فتدليت من طاقة السور

في زنبيل، ونجوت من بين يديه.» (الرسالة إلى كورونثوس الإصحاح ١١: ٣٢).

الملك رب إيل الثاني (٧١ - ١٠٦م)

آخر ملوك الأنباط. وعلى يديه انتهت دولة الأنباط بعد أن أمر الإمبراطور تراجان (٩٨ - ١١٧م) بإنهاء دولة البتراء وضمها إلى كورة بصرى الشام سنة ١٠٦م (الولاية العربية). هاجر سكان البتراء إلى بصرى وتدمر وإلى مدن الحجاز الأخرى، وزال كيانهم المستقل منذ ذلك الحين(٨٤). وكانت ذات مركبة، فهي عربية في لغتها، وآرامية في كتابتها وسامية في ديانتها، ويونانية رومانية في هندستها وفنها المعماري(٨٥).

قصارى القول :

انتهت دولة الأنباط، الدولة العربية التي امتد نفوذها التجاري إلى مناطق واسعة، فقد وجدت آثار تجارتهم في سلوقية (ميناء السويدية) قرب أنطاكية، والإسكندرونة وديلوس ورودوس وغيرها(٨٦).

انتقل مركز العرب الأنباط إلى أبناء عمومتهم في بصرى الشام منذ عام ١٠٦م، وأصبحت القبائل المسيطرة هي تحالفات الغساسنة، وهم من عرب اليمن من فرع الأزد نزحوا إلى بلاد الشام بعد حادثة سيل العرم (القرن الأول للميلاد). وظهرت للعرب دولتان: دولة تدمر والأخرى بصرى الشام.

ينسب حمزة الأصفهاني الغساسنة إلى جدهم عمرو بن عامر بن ماء السماء بن حارثة بن امرئ القيس (البطريق) بن ثعلبة بن مازن بن الأزد بن الغوث(٨٧).

واسم غسان نسبة إلى موضع للماء بين زبيد ورمع بأرض اليمن. يقول شاعرهم حسان ابن ثابت الأنصاري(٨٨):

إمــا ســألت فإنــا معــشر نجــب الأزد نــسبتنا والمــاء غــسان

جاء الغساسنة إلى دمشق، وتغلبوا على الضجاعمة من بني سليم بن حلوان من قضاعة، وصاروا عمالاً للروم، وكانت منهم قبائل بني السميذع، عاشوا إلى جوار الغساسنة ودفعوا لهم الجزية (الأتاوة) وارتبطوا بالدولة الرومانية(٨٩) وسيطروا على كل القبائل العربية ومنهم بني السميذع.

صارت سلطة الغساسنة تشمل كل القبائل العربية النازلة جنوب سورية والأردن. وكانت ديارهم تمتد ما بين الجولان واليرموك وقرب الشام في موضع على نهر بردى يعرف بجلق الشام. يذكر المسعودي: «كانت ديار ملوك غسان باليرموك والجولان وغيرهما من غوطة دمشق وأعمالها ومنهم من الأردن من أرض الشام.»(٩٠) وقد أكد ذلك المستشرق الألماني تيودور نولدله قال: «اتخذوا مدينة الجابية في شمال حوران، مركزاً لإمارتهم وكانت بصرى الشام وتدمر ودمشق مركزاً لجيوشهم.»(٩١)

منذ عام ٢٤٨م صار الغساسنة حكاماً على جنوب بلاد الشام، وكانوا شبه مستقلين خصوصاً بعد سقوط تدمر عام ٢١٣م حيث تحولت خفارة الطريق المستقيم (المنسوب لديوقليدنيوس) وهو طريق التوابل، المعروف بالقرآن الكريم (الصراط المستقيم).

مدينة الحضر المملكة العربية المجهولة

الموقع والتاريخ:

تقع هذه المدينة العريقة في القدم، على الطريق الصحراوي المعروف بطريق سميراميس. تقع على وادي الثرثار الذي كان نهراً ولا زال يفيض في الشتاء والربيع ويصب في نهر الفرات على بعد ٧٠كم شمال غرب بغداد. ودلت التنقيبات التي أجراها الأستاذ ناجي الأصيل (١٩٥١ ــ ١٩٥٤) على مدينة ذات نمط حضاري مركب امتزجت فيه العناصر العربية والآرامية واليونانية والفارسية.

بدأت القبائل الآرامية والعربية تغزو بابل منذ (١١١٦ ــ ٩٣٣ق.م) وتتجول في بادية الشام وبادية الموصل. وحاربت شالمناصر الثالث (٨٥٩ ــ ٨٢٤ق.م) وأسست الممالك الآرامية في دمشق وحماة وفي جبل البشري وفي مدينة الحضر. يقول الدكتور جواد علي: «إن القبائل العربية التي كانت تتجول في المنطقة، والتي كانت تخفر طرق القوافل منذ المرحلة الآشورية، صارت تحرس القبائل لصالحه، وتؤمن طرق التجارة الآتية من بابل والذاهبة نحو سنجار ونينوى ونصيبين وحران والرها ومنبج وأنطاكية والبحر المتوسط. وأثناء الصراع الروماني، ظهرت الحضر، وكانت هذه المنطقة تعرف باسم (باعربايا) أي ديار العرب.»(٩٢)

عندما خلع قورش سيده ملك ميديا (٥٥٩ق.م) وغزا ليديا وبابل (٥٣٨ق.م) أسس إمبراطورية امتدت حدودها من السند إلى المتوسط ومن جبال القوقاز إلى المحيط الهندي، ومن بعده احتل قمبيز (٥٣٠ ــ ٥٢١ق.م) مصر، وصارت عاصمة الدنيا برسيبوليس (اصطخر)، ونشطت التجارة وصارت الحضر إحدى المحطات التجارية الهامة، وسكنتها جاليات عربية وفارسية وآرامية، وصار طريق التجارة الآتي من الصين والهند عابراً الهضبة الإيرانية يمر بالحضر باتجاه الغرب يدعى (شاه راه) أي الطريق الملكي.وصار يصل إلى سارديس على الساحل الشرقي لبحر إيجة وبطول ١٥٠٠ميل. وهذا هو وطريق الحرير الأصلي بفروعه، وصارت الدولة الفارسية متعددة الأعراق والديانات والثقافات. يقول هيرودوت (٤٨٥ ــ ٤٢٤ق.م): «لا يوجد شعب يقبل العادات الأجنبية باستعداد تام مثل الفرس. وهم إذا سمعوا بأي نوع من أنواع الترف، فإنهم يجعلونه خاصاً بهم.»(٩٣) وذلك لأن المجتمع الإيراني صار مجتمعاً استهلاكياً يتمتع ببضائع العالم القديم كلها. وصار الحرير والعطور من أوليات المجتمع. وذلك بسبب الديانة الزرادشتية التي تمجد الحياة والنار الدائمة الوقود الذي يعتمد على البخور المستمر في المعابد، والذي كانت الحضر مركز تجارته في الشرق.

أصبح الدين الزرادشتي هو الديانة الأولى في مدينة الحضر. وقد قدم للمجتمع خدمات جُلّى، فهو يدعو إلى الفضيلة العملية. فعلى الإنسان ألا يفكر إلا بالخير، ولا يتكلم إلا الكلام الحسن، وألا يفعل إلا الفعل الحسن، وبدأ الصراع بين الخير والشر من أجل نصرة الخير.

ما هي أسس الديانة الزرادشتية؟

الإله الأعظم هو إله الخير (أهورامزدا) وإله الشر هو (أهرمن) والصراع بينهما سيستمر لمدة ١٢ ألف سنة ينتصر في نهايتها إله الخير (أهورامزدا). كل ذلك ورد في كتاب الأفستا Avesta أو الأبستاق الذي جاء به زرادشت.

من هو وزرادشت أو نبي الفرس؟

ولد زرادشت في العهد الأخميني (٥٨٠ق.م)، وكانت تعاليمه تدعو للخير، وتساعد على تطور المجتمع. وفي زمنه استمرت مراكب الهند تصل بلاد العرب عن طريق الخليج الفارسي وكثر التواصل بين اليونان وبلاد فارس، وسكنت جالية تجارية في الحضر. وعندما جاء الإسكندر المكدوني واحتل بلاد فارس (٣٣٣ق.م) اختلطت التعاليم الزرادشتية والفكر الهلنستي وظهرت الثقافة الهلنستية المتأثرة بالفكر الشرقي، ونشطت الحركة الفلسفية، وبدأت الديانة الإغريقية الوثنية تحل محل الديانة الزرادشتية لأن الشعوب على دين ملوكها.

قام أحد أمراء الساكا (الفرس) في إقليم باروثا (شرق بحر قزوين) وكان يدعى أرشاق (٢٤٨ ــ ٢٣٦ق.م) وأسس الحكم الفرثي وخلع الحكم السلوقي اليوناني، وخلفه أرشاق الثاني (٢٣٦ ــ ٢١١ق.م) وتوسع في التجارة وجعل عاصمته طيسفون على نهر دجلة، وخلفه الملك مهردار (٢١١ - ١٩٠ق.م) لقب نفسه (شاهنشاه) وجعل لغة البلاط اللغة اليونانية وظلت الكتابة بالآرامية، ونشطت الحركة الفلسفية والأدبية التي ظلت تستخدم اللغة اليونانية.

وسمى أحد ملوك الفرثيين (فيلهيلين) أي محب الهلينية. وأصبحت الحضر المدينة الثانية بعد طيسفون (المدائن)، وأصبحت اللغة اليونانية لغة

الفن والكهانة. وبنى ملوك الحضر المسارح والمعابد على النمط الإغريقي. وعندما احتل الرومان سورية عام ٦٤ق.م، ظلت الحضر دولة مستقلة. ولا نعلم عن تاريخها إلا ما أظهرته التنقيبات الأثرية.

ومن خلال التماثيل والرسوم البارزة والكتابات في المعابد، تبين لنا التأثير الإيراني واليوناني على شعب عربي، مما شكل حضارة مركبة.

كان الحاكم في الحضر يلقب بـ(مريا) أي السيد باللغة الآرامية. وكان أعضاء مجلس الشيوخ، يلقب الشيخ منهم بلقب (ربا) أي العظيم، وكان الكاهن أو السادن يطلق عليه لقب (رب ـ بيتا) أي صاحب البيت، وكان رئيس الكهنة يدعى (الأفكل) وكان خازن مال المعبد يدعى (الكاميريا)، وكانت الحضر من مدن الحج، مثل تدمر ومنبج وحران.

كانت الشمس أشهر آلهتهم، وأنشؤوا لها معبداً لتحج إليه القبائل في فصل الخريف، وقد أطلق الأستاذ فؤاد سفر على مدينة الحضر اسم مدينة الشمس. كانت المدينة مسورة ومحاطة بسورين مشيدين بالحجارة والجص وعليها سلسلة من الأبراج. كان طول السور الخارجي حوالي تسعة كيلومترات ونصف. ومن المعابد التي اكتشفت والتي من خلالها عرفنا ثقافة الحضر، والتكوين الطائفي والإثني الموجود في الحضر، في مدينة تجارية متعددة الثقافات والأعراق:

معبد الشمس:

هذا المعبد من أفخم المعابد، وهو مخصص لعبادة الشمس وحوله يطوف الحجاج، ترتفع جدرانه نحو ٢٥م وهو ذو أواوين مزينة بشتى الزخارف والتماثيل لحكام المدينة بالحجم الطبيعي، وكانت ذات مسحة امتزج

فيها الفن اليوناني بالفن الفارسي، ولم يخل من الطابع الآشوري أحياناً، رغم أن سكان الحضر كانوا من العنصر العربي، وكانت الكتابة على التماثيل بالآرامية.

كان النسر رمز لرئيس الآلهة (الشمس) وقد أقام هذا النصب شخص يدعى (عبد سميا بن وهوبا) أقامه في شهر كانون الأول عام ١٨٧م للتبرك والتقرب من رئيس الآلهة.

معبد بعلشمين (إله تدمري):

وجد في داخل المعبد تمثال للسيدة (إيل بنت جلبو) أقامه لها زوجها آشا بن شمس لأنها ماتت في سن الثامنة عشرة وكتب على التمثال: «من يمسه بسوء لعنته الآلهة وسيدنا وسيدتنا وابن سيدنا بعلشمين وعشتار، وعلى من قتلها وشمت بقتلها.

معبد عشتار (إلهة بابلية):

وجد في هذا المعبد تمثال للكاهنة مرتو أقامه لها ابنها (يدا بن عبد شبل بن يدا) الكاهن (وعبد لبوث) أخوه وضعه لحياتهما وحياة أبنائهما وحياة من هو صديق لهما.

معبد نرجال (إله سومري):

بناه أبناء قبيلتي (تيما وبلقاب) في السنة الثالثة بعد الميلاد، ووجد في داخل المعبد تمثال للإله ذو الشرى، كما وجد فيه تمثال للسيدة قيمي وجد اسمها على القاعدة وأنه وضع في أيلول سنة ١٣٨م. وقيمي بنت عبد سميا المحمود وزوجها بشر عقب الكاتب وأخته عبسة ليطيل الله حياتها وحياة كل صديق لهم.

معبد سين (إله حراني):

وجد فيه تمثال للإله آشور بزيه العسكري،وأمامه فتاة هي حارسة الحضر وعند قدميه نسران وعلى صدره رمز إله الشمس وعلى قفاه صورة مدوسا الإلهة اليونانية.

معبد الإلهات الثلاث:

وجد في المعبد تمثال الإلهة اللات مدججة بحربة وترس وخوذة عسكرية وعلى صدرها قناع الإلهة مدوسا اليونانية، وسمي المعبد المخصص للإلهات الثلاث اللات والعزى ومناة.

معبد الإلهات السبع:

وجد في المعبد تمثال للأميرة وشفرى بنت سنطروق الملك، ترتدي غلالة وتتزين بأجمل الحلي وعلى رأسها عصابة يتدلى منها خمار. صنع التمثال في شهر تشرين سنة ١٣٨م، وقد أقام هذا التمثال عبد عجيلي بن ستن وعلى أسفل التمثال كتب بالآرامية: «يا إلهي بل ارحمها» وبجانبها ابنتها سميا وعلى قاعدة تمثالها دوّن سمية طفلة وشفرى بنت سنطروق الملك.

معبد الإله هيراقل:

عثر في داخل هذا المعبد على تمثال للإله هيراقل بهيئة إنسان عاري الجسد واقف وبيمناه هراوة، ويحمل بيسراه فأساً، ويتدلى من جنبه الأيسر جلد أسد وعليه كتابة باللغة اللاتينية تشير إلى القائد الروماني (بترونيوس كونتيانوس) وهو الذي أقام هذا التمثال سنة ٢٤٠م لنصرة حلفائه الحضريون ضد الدولة الساسانية، ويرمز هذا الإله للنصر، وفي داخل مدينة الحضر كشف عن أربعة تماثيل لهذا الإله.

معبد النبلاء من أهل الحضر:

في هذا المعبد كشف عن تمثال للإله أورفيوس ورمزه المنجل المعلق بحزامه، كما كشف عن تمثال لإلهة الجمال أفرودويت واقفة وماسكة بيمناها عصا، وقابضة بيسراها على طرف ثوبها، ويزين رأسها تاج بهيئة هلال ذي أشعة.

المعبد ذو البوابة الكبيرة:

كشف داخل هذا المعبد عن تمثال للملك سنطروق،وعلى رأسه نسر، باسط جناحيه، يرمز على انتصارات الملك سنطروق على الإمبراطور تراجان سنة ١١٦م. ويلاحظ أن لباس الملك يتألف من سروال، ورداء مزركشين، وحزام ذو زخرفة بديعة، ومكتوب على قاعدة التمثال بالآرامية أنه مقدم للملك سنطروق العظيم.

من دراسة التماثيل الموجودة داخل المعابد نستدل على تعدد الديانات والثقافات بل تعدد الجاليات التجارية التي كانت توجد في الحضر، فهناك معبد الألهات السبع، ومعبد هيراقل وتماثيل لأفرودويت وأورفيوس وميدسا، وهذا يدل على شيوع الثقافة اليونانية بين السكان. وبوجود مسرح حجري مكشوف داخل المدينة دليل كاف على معرفة مجتمع الحضر بالشعر والأدب والفلسفة اليونانية، شعر الإلياذة والأوديسة، وغنى وعمق المشاعر الإنسانية. ووجدت مقطوعة لهسيود: «أفضل الرجال قاطبة من يتأمل نفسه في كل شيء، ومن يتبصر بالأمور ونتائجها ومن يستمع إلى النصح ليبلغ الكمال.»(٩٤)

وكانت على المسرح الحجري تمثل أعياد فيها للإله ديونيسيوس نصيب، وكانت تمثل أسطورة أورفيوس الذي ذهب إلى العالم السفلي بحثاً عن حبيبته مصطحباً معه قيثارته في جو مملوء بالروعة والجلال. كان هذا يمثل

في مناخ فكري ديمقراطي يسمح بحرية العبادة والتفكير. وكانت عبادة هيراقل تحتل حيزاً في حياة شعب الحضر. كان هيراقل ابن الحورية الجميلة (الكمين) ولكن زوجة زيوس هيرا المرأة الغيورة أغرت تنينين كبيرين ليقضيا على الطفل هيراقل ولكنه انتصر عليهما. وهذه أفروديت ربة الجمال أحبت الشاب أخيل وساعدته على خطف هيلين زوجة ملك طروادة. وكانت نتيجة هذه المعارك ملحمة الإلياذة ونتيجة زواجها من الراعي السوري أدونيس أنجبت له سبع بنات أطلق عليهن ربات الحسن، وكان لهن في الحضر المعبد الخاص بهن(٩٥).

وكانت الديانة العرفانية (الهرمسية) منتشرة في الحضر، يشترك فيها العرب واليونان والفرس، مما يجعل فلسفة فيثاغورس وأفلاطون شائعة بينهم.

في عام ٥٣ق.م استطاع الجيش الفرثي بقيادة أورود الانتصار على القائد الروماني كراسوس في زمن يوليوس قيصر. وقفت القبائل العربية في الحضر وحران والرها إلى جانب الجيش الفرثي، الذين في زمنهم وصلت قوافل تجار الحضر ووصلت عبر الهضبة الإيرانية إلى الصين، وإلى أطراف الجزيرة العربية. وعندما هاجم الإمبراطور تراجان مدينة طيسفون (المدائن) عاصمة الفرثيين، هبّ ملك الحضر معنو الأول لنصرته ودحروا تراجان، وارتفع شأن الحضر في المنطقة وقام الملك سنطروق الذي اتخذ لقب (ملك العرب) وهو الذي اتخذ النسر رمزاً للملكية وسك العملة الفضية كان النسر على الوجه الأول وإله الشمس على الوجه الثاني. ورسموه بهيئة شاب على رأسه هالة مشعة وكان هذا الضرب برخصة من مجلس الشيوخ في روما سنة ١٥٠م. وعندما حاول الإمبراطور سيفروس عام ١٩٤م فتح الحضر لم يستطع فتحها.

ازدهرت الحضر، وصارت تتحكم بطريق الحرير الذي زادت الحاجة إليه مع الخزف والتوابل والعطورات، وكثرت الخانات على الطرق التجارية. وفي عام ٢١١م قام الأمير أردشير بن بابك بثورة في خوزستان واستطاع السيطرة على عاصمة الدولة الفرثية طيسفون. وحاول احتلال الحضر ولكنها قاومته، إلا أنها لم تستطع مقاومة جيوش شابور بن أردشير عام ٢٧١م الذي حاصرها وقاومته المدينة بقوة أسوارها ولكن يقال: أن ابنة الملك ساعدت القائد الفارسي بفتح الأبواب السرية للحصن ودخل المدينة ونهبها، وزالت من الوجود دولة تجارية عريقة في القدم. وعندما زارها المؤرخ الروماني إميانوس ميرسيلنوس سنة ٣٦٣م، وكان مرافقاً للإمبراطور جوليان، وزار أطلال المدينة ومعابدها العظيمة وجدها قرية ثانوية.

ماذا حدث للطريق التجارية الملكية (شاه راه)؟

كانت في عهد ملوك الحضر عليه ٩٩٩ خاناً،وإن لم يكن هذا الرقم دقيقاً فهو دليل على الكثرة. وكان كل خان مصمماً على وجود فناء واسع مفتوح على الغرف المحيطة به، وفي وسطه بئر ماء عذب. الطابق الأول مخصص للحيوانات، وفي الطابق الثاني كانت الغرف مخصصة للمنامة والأكل والشرب وكل متع الليل، وبعد سقوط الحضر، كتب أحد المسافرين: «حينما وصلنا إلى الخان لم نجد مضيفاً، ولا فتيات صغيرات للترحيب بنا، كما لم نجد أثاثاً اللهم إلا حيطاناً عارية، فكل ما وجدناه منزل ليس فيه كأس خمر منعش، يطرد عنا وعثاء السفر، وبعد أن تناولنا بقايا الأطعمة التي كانت معنا، عمدنا إلى الراحة في لهف شديد وسط ضوء وأجراس الحمالين، وصهيل الخيول ونهيق الحمير وغناء الخدم وطنينهم(٩٦).

كانت القافلة تسير خمسة فراسخ في اليوم، وكان الجمل يحمل حوالي ٥٠٠ كغ، ويحمل جمل المقدمة جرساً ضخماً، وكذلك الجمل الذي يسير في المؤخرة. وكانت هدايا ملك الصين لملوك فارس ترسل مع القوافل، ويرسل معها رسول مزود بمكتوب: «من ملك الصين صاحب قصر الدر والجوهر، والذي في مربطه ألف فيل.» وكانت الهدية فارساً بفرسه من در منضد، كانت عينا الفارس والفرس من ياقوت أحمر، والسيف عليه الجوهر مرصعاً ومعه ثوب صيني من حرير عشاري فيه صورة الملك جالساً في إيوانه وعليه حلتان، وتاجه على رأسه، وهذه الصورة منسوجة بالذهب الأحمر، وأرض الثوب لازوردي، في سفط مذهب، وكانت تحمل الصندوق جارية مرسلة إلى ملك فارس تتلألأ جمالاً.

وأما هدية ملك الهند لكسرى، فكانت من العود الهندي يذوب في النار كالشمع، وجام ياقوت مقداره شبر في شبر، مملوء دراً، وعشرة أمنان كافور كالفستق وأكبر، وجارية طولها سبعة أقدام تضرب أجفان عينيها خديها، وغير ذلك من الهدايا.»(٩٧)

ماذا كان العرب يعرفون عن حضارة الحضر؟

إنهم كانوا يجهلون أخبار هذه المملكة، وكل ما قالوه، أورد الجاحظ عن المكوس والضرائب في الخبر التالي قال: «إن ملوك العرب (في الجاهلية) كانت تأخذ التجار في البر والبحر، وفي أسواقهم المكوس، وكانوا يظلمونهم حتى قال الشاعر جابر بن حنا التغلبي:

وفي كل أسواق العراق أتاوة ... وفي كل ما باع امرؤ مكس درهم

وقال الأصمعي في ذكر المكوس والسفن التي كانت تعشر(٩٨):

وأصابت من بعدهم آل هرماس   وعادت من بعد للساطرون
ملك الحضر والفرات إلى دجلة   شرقاً فالطور من عبدين
كل حمل يمر من فوق بعير   فله مكسة ومكس السفين

وعن حصن الحضر قال عدي بن زيد العبادي، شاعر الحيرة(٩٩):

وأخو الحضر إذ بناه   وإذ دجلة تجبى إليه والخابور
شاده مرمراً وكلله كلساً   فللطير في ذراه وكور
لم يهبه ريب المنون   قباذ الملك عنه فبابه مهجور

نجد مما مر بنا أن المؤرخين العرب لا معرفة وافرة لديهم عن مدينة الحضر، كالمؤرخين حديثاً. يقول فرج بصمجي: «ظلت دولة الفرثيين قوية ومعها دولة الحضر حتى عام ٢٢٤م عندما ثار على أرطبان الخامس الأمير الفارسي أسد شير الأول (٢٢٤ - ٢٤١م) واستولى على العاصمة طيسفون التي ذكرها المؤرخون العرب بنقوشها الملونة الزاهية، والتماثيل التي كانت تزيد واجهات القصر ورواشنه والكتابات المسطورة على جدران الإيوان بالآرامية والفهلوية القديمة وأخذ معها مدينة الحضر واندثرت أخبارها.»(١٠٠)

أما الأستاذ فؤاد سفر فله رأي آخر وهو: «على أثر غزو الإسكندر المكدوني للعراق ٣٣١ق.م واستقرت الحالة السياسية له، ونمت المدن وازدهرت التجارة، وظهرت شبكة من الطرق البابلية القديمة،وتشعبت إلى جميع الجهات، كانت الحضر من تلك المدن التجارية الهامة.»(١٠١) إنه قد بنى رأيه على معطيات علم الآثار والتاريخ العالمي الحديث.

دولة الحيرة التي انتصر العرب فيها على الفرس

الموقع والتاريخ:

تقع الحيرة على ملتقى طريق الحرير والتوابل، في موقع طيب الهواء، وكانت القبائل العربية والآرامية تتجول حولها وتخفر لها الطرق التجارية. سكنها الآراميون قبل الميلاد، ودعوها حيرتاHirta ومعناها المخيم والمعسكر. إلا أن الطبري يذكر أن مؤسسها الملك الآشوري بختنصر(١٠٢). حصلت الحيرة على فوائد كثيرة عن طريق التجارة والخفارة وصارت من كبرى مدن القوافل، واستفاد أهلوها من ضعف الدولة الفرثية. تحدّث الإخباريون العرب أن قبائل تنوخ هاجرت من البحرين، واستوطنت على مجرى نهر الفرات بين الأنبار والحيرة، وشكلت حلفاً يدعى حلف تنوخ(١٠٣)، وكانت تنوخ مجموعة قبائل من طي وأسد والخلاف (العباد) سكنوا خارج الحيرة فدعوا عرب الضاحية، ثم دخلوا داخل أسوار الحيرة واعتنقوا الدين المسيحي، وامتهنوا حرفة الزراعة، واختلطوا بقبائل بكر (فرع شيبان) وعنزة وبني عجل وتغلب وكونوا لنفسهم نسباً موحداً، وسلسلة نسب وهمية نسبوها إلى وائل بن أسد، ولم يظهروا على ساحة التاريخ إلا في العهد الساساني، واختلطت تغلب مع جماعة من النبط (السريان)، وكانوا يمتهنون الحرف العلمية كالصرافة والطب والصيدلة، وجاءتهم قبائل الأزد وقضاعة من اليمن وامتهنوا الحدادة والحياكة والدباغة وانضموا إلى حلف التنوخيين.

يرى الطبري أن تسمية (تنوخ) تعني التآزر والتناصر، وكانوا من قبل في الأنبار ثم انتقلوا إلى الحيرة، ونظموا طرق التجارة وسيطروا عليها(١٠٤). كانت التجارة من قبل بيد اليهود والفرس، ثم انتزعها منهم التنوخيون ونظموا القوافل بين الحضر والحيرة، والحيرة وتدمر، والحيرة وبصرى، والحيرة ومكة ويثرب. وكلما زادت ثروتهم ازدادوا تنظيماً وقوة، ومهارة في الأدب وقرض الشعر. وفي زمن شابور الأول (٢١٦ ــ ٢٤١م) اعترفت الدولة الساسانية بأمارة الحيرة بعد أن دمرت أمارة الحضر، وأرادت من الحيرة أن تكون منافسة لتدمر وبصرى في الجانب الروماني.

يذكر اليعقوبي أن أول من تملك على الحيرة من الأزد هو مالك بن فهيم، وأن حكمه دام مدة عشرين سنة(١٠٥)، ثم انتقل الحكم من بعده إلى جذيمة الأبرش، لا نعرف عنه إلا ما رواه الطبري عنه قال: «كان من أفضل ملوك العرب رأياً، وأبعدهم مفاراً، وأشدهم نكاية، وأظهرهم حزماً، وهو أول من استجمع له الملك بأرض العراق، وانضمت إليه قبائل العرب، وغزا بهم الجيوش.»(١٠٦) وهو أول من أدخل إلى الحيرة صنمين سماهما (الضيزنين) وكان قد جلبهما من الحضر، بعد خرابها، وكان يستنصر بهما على العدو وهما المعروفان بالحيرة بالفرقدين. وكان حكمه حوالي عام ٢٧٠م(١٠٧). ثم انتقل الحكم من بعده إلى ابن أخته عمرو بن عدي اللخمي الذي يعتبر بحق مؤسس الإمارة اللخمية في الحيرة، وتحالف مع الفرس ضد الدولة الرومانية وخلفه ابنه امرؤ القيس صاحب نقش النمارة (المتوفي ٣٢٨م) وهو أول من أقام تحالفاً بين قبائل العرب المجاورة مثل أسد ونزار ومذحج ومعد وربيعة ومضر(١٠٨)، وترك اسم التحالف القديم لكي يواجه تحالف آل جفنة (تحالف الغساسنة). ووصل بفتوحاته إلى بصرى الشام عاصمة الغساسنة، ووصل إلى

أسوار نجران (شرق السويداء) وعندما شعر بقوته انقلب على الفرس تحت إغراءات الرومان، وتحالف مع الإمبراطور جوليان المرتد (٣٦٠ ــ ٣٦٣م) ويقال أنه حاصر سابور في عاصمته طيسفون واستولى على خزائنه، وكان سابور يكره العرب، ويقطع رؤوسهم وينتزعها من أكتافهم فلقبوه (سابور ذو الأكتاف).

من أشهر ملوك الحيرة بعد ذلك:

- عمرو بن امرئ القيس (٣٢٨ - ٣٥٢م):

كانت أمه ماوية بنت عمرو من ملوك الغساسنة، حسب رواية المسعودي(١٠٩). كان عمرو محارباً شجاعاً، حكم مدة خمسة وعشرين سنة، وبعد وفاته تولت الحكم زوجته ماوية التي قابلت الرومان، ووصلت إلى حدود مصر، وأقامت معاهدة مع الإمبراطور فالنس (٣٧٠ ــ ٣٧٨م) وفرضت عليه تنصيب الأسقف موسى العربي على بصرى، وكانت من أتباع الطبيعة الواحدة (سريان أرثوذوكس) واستلم الحكم من بعدها ولدها النعمان الأول (٣٩٠ - ٤١٨م) وهو الذي عرف بالنعمان السائح، لأنه تنسك في أواخر حياته وكان من قبل محارباً شجاعاً، وينسب إليه بناء الخورنق والسدير، تنصر على يد الشاعر زيد بن عدي العبادي، وجاء إلى سورية وبنى ديراً في معرة النعمان ودفن فيه سنة ٤٥٠م وقبره قرب قبر عمر بن عبد العزيز، وسميت معرة النعمان باسمه.

- المنذر الأول بن النعمان(٤١٨ - ٤٦٢م):

اشترك هذا الملك بالحروب التي دارت بين الفرس والرومان، وكان إلى جانب الفرس، وقد غرق جيشه في الفرات سنة ٤٢١م ولكنه عاد الكرة وفك الحصار عن نصيبين سنة ٤٢٢م، وكان الملك يزدجرد يكرمه ويخلع عليه مرتين في السنة (عيدي النيروز والمهرجان).

فوضه الملك يزدجرد بحكم جميع العرب على طرفي الطريق الطويلة الآتية من مكة والذي يعرف بالصراط المستقيم، وهو الطريق الذي نظمه دقليانوس. وعندما تولى الحكم بهرام جور بن يزدجرد أراد الاستعانة بالمنذر ليخفف ضغط الروم وحاصر مدينة نصيبين وغرق جيشه، مما اضطر المنذر للعودة، والسعي لعقد صلح بين بيزنطة وفارس، وقد دام ذلك أمداً طويلاً.

- الأسود بن المنذر (٤٧١ - ٤٩٢):

وقعت بينه وبين الغساسنة حروب لا نعرف عنها الكثير، لأنها أقرب إلى الغارات منها إلى المعارك.

- المنذر بن المنذر (٤٩٢ - ٤٩٨م):

كان حكمه عهد سلام واستقرار، لذا كانت الأخبار عنه قليلة جداً.

- النعمان بن الأسود (٤٩٨ - ٥٠٢م):

لا تذكر الأخبار العربية عنه شيئاً، وكذلك المصادر السريانية وأظنه كان ضعيف الجسم مريضاً ولم يعمر طويلاً.

- امرؤ القيس الثالث (٥٠٢ - ٥١٢م):

لا يذكر عنه أي خبر تاريخي.

- المنذر بن امرئ القيس (المعروف بابن ماء السماء ٥١٢ - ٥٥٤م):

هذا الملك اشتهر عند العرب بصاحب اليومين (يوم البؤس ويوم النعيم) وقصته مع حنظلة بن عفراء والشاعر شريك بن عمرو معروفة وشائعة عند العرب يستخدمونها للوفاء وحفظ العهد(١١٠).

قام المنذر بمهاجمة سورية سنة ٥١٩م بتحريض من قباذ ملك الفرس. وفي سنة ٥٢٨م هاجم المدن السورية وبلغ أنطاكية، وأحرق عدة مدن وقرى وبلغ مدينة خلقيدونية قرب القسطنطينية، وتصدى له الحارث بن جبلة الغساني، وجرت بينهما معارك طاحنة أهمها (يوم حليمة) حيث قتل المنذر وولده سنة ٥٤٤م. وعندما تولى كسرى خسرو أنو شروان (٥٤١ ـ ٥٧٩م) خلع المنذر لأنه أبى اتباع دين زرادشت وكان مسيحياً، ووضع على الحيرة عمرو بن هند.

ولكن لأبي الفرج الأصفهاني رواية أخرى. قال: «وممن نبغ من أهل الحيرة، عدي بن زيد الشاعر، وعمل مترجماً في بلاط كسرى وكان يحسن العربية والفارسية والسريانية، وأرسله كسرى إلى ملك الروم بهدية ثمينة، فلما أتاه عدي أكرمه، وحمله على البريد ليطلع على سعة بلاده وعظمة ملكه، وقد مرّ عدي بدمشق ومما قاله:

رب دار بأسفل الجزع من دومة ... أشهى إلي من جيرون

قد سقيت الشمول بدار بشر ... قهوة مرة بماء سخين

قال الأصفهاني: «وفي غياب عدي بن زيد فسد أمر الحيرة، وعدي بدمشق، حتى أصلح أبوه زيد بن عدي بينهم، لأن أهل الحيرة كانوا ينوون قتل المنذر لأنه لا يعدل بينهم، فجاء أهل الحيرة إلى زيد بن حمار بن أيوب على زيد بن عدي وقالوا: أشر علينا! فقال لهم: تدعونه على حاله فإنه من أهل بيت الملك، وأنا آتيه وأخبره بأن أهل الحيرة اختاروا غيره. فأتى زيد بن المنذر وأخبره بما قالوه، وقبل ذلك وفرح، فقال زيد بن عدي:

نحن كنا قد علمتم قبلكم ... عمد البيت وأوتاد الأصار

- عمرو بن هند (٥٥٤ - ٥٧٤م):

كانت أمه هند بنت عمرو بن حجر الكندي. وكانت هند تدين بالنصرانية، ولها دير بالحيرة عرف باسمها (دير هند)(١١٢). وفي أيامه غزا عدة قبائل من العرب منها قبيلة تميم وألقى بقتلاها بالنار في معركة دارة الثانية(١١٣). وعرف عند الإخباريين العرب باسم المحرق. كما غزا تغلباً وطيئاً وأغار على بلاد الشام، وديار غسان بين عام ٥٦٦ ـ ٥٦٧م لتأديب الروم الذين أساؤوا إلى رسله في القسطنطينية ولكن قتله الشاعر عمرو بن كلثوم في حادثة مشهورة في كتب الأدب. قال ابن الكلبي: «قال عمرو بن هند يوماً لندمائه: هل تعلمون أحداً من العرب تأنف أمه من خدمة أمي؟ قالوا: نعم. أم عمرو بن كلثوم. قال: ولِمَ؟ قالوا: لأن أباها مهلهل بن ربيعة (الزير سالم) وبعلها كلثوم بن مالك أفرس العرب، وابنها عمرو وهو سيد قومه. فأرسل عمرو بن هند إلى عمرو بن كلثوم يستزيره، ويسأله أن يزير أمه معه. أقبل عمرو من الجزيرة إلى الحيرة في جماعة من بني تغلب، وأقبلت ليلى بنت مهلهل في ظعن من بني تغلب، وضرب لها برواق فيما بين الحيرة والفرات، ودخلت ليلى وهند في قبة من جانب الرواق. وكان عمرو بن هند أمر أمه أن تنحي الخدم، وجاءت المائدة وعليها الطرف، فقالت هند: يا ليلى ناوليني ذلك الطبق، فقالت ليلى: لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها، فأعادت عليها وألحت. فصاحت ليلى: واذلاه، يا لتغلب، فسمع ابنها عمرو بن كلثوم فوثب إلى سيف كان معلقاً بالرواق، فضرب به رأس عمرو بن هند، ونادى في بني تغلب، وساقوا نجائبه وساروا نحو رأس العين (الجزيرة)، وقال قصيدته الشهيرة:

ألا هبـــي بـــصحنك فاصـــبحينا ولا تبقـــي خمـــور الأنـــدرينا

أبـــا هنـــد فـــلا تعجـــل علينـــا وانظرنـــا نخبـــرك اليقينـــا

بأنـــا نـــورد الرايـــات بيـــضاً ونـــصدرهن حمـــراً قـــد روينـــا

- قابوس بن المنذر (٥٧٤ - ٥٧٨م):

خلف أخاه في الحكم، وقام بغزوات على حدود بيزنطة، وهاجم ديار الغساسنة وتصدى له الحارث بن المنذر الغساني، وقتل كثيراً من جيشه، وتابعه إلى الحيرة. وجرت بينهما معركة عين آباغ (قرب الحيرة) وتوفي قابوس موتاً طبيعياً.

- المنذر بن المنذر (٥٧٩ - ٥٨٣م):

كان للمنذر عشرة أولاد، يقال لهم الأشاهب من جمالهم، قال فيهم أعشى قيس:

وبنو المنذر الأشاهب فـــي الحيـــرة يمـــشون غـــدوة كالـــسيوف

فلما احتضر المنذر، أوصى بأولاده إلى قبيصة الطائي وملكه على الحيرة إلىٰ أن يرى كسرى رأيه، فمكث عليهم ملكاً أشهراً، وطلب هرمز بن كسرى رجلاً يملكه عليهم، فلم يجد أحداً يرضاه.

- النعمان بن المنذر (٥٨٣ - ٦٠٥م):

كان النعمان من بين إخوته أقلهم جمالاً، كان قصيراً أحمر الوجه، وأمه سلمى بنت وائل بن عطية الصائغ من أهل فدك. تربى النعمان في حجر عدي بن زيد فهم الذين أرضعوه وربوه.

خلا عدي بالنعمان وألبسه ثياب السفر، وأدخله على كسرى متقلداً سيفه. ولما دخل على كسرى سأله: هل تكفيني العرب؟ قال: نعم. ثم قال له: فمن لي بإخوتك؟ فقال النعمان: إن عجزت عنهم فإني عن غيرهم لأعجز، فخلع عليه هرمز بن كسرى، وألبسه تاجاً قيمته ستون ألف درهم فيه اللؤلؤ والذهب.

خرج النعمان حتى نزل منزل أبيه من الحيرة، وصار إذا ذكر عدي عند النعمان أحسن الثناء عليه، إلا أن فيه مكر وخديعة. وكان عدي عند كسرى، فاستأذن كسرى فأذن له. ولما جاء إلى الحيرة حبسه النعمان. (هذه رواية ابن الكلبي).

وأما رواية المفضل الضبي فإنه قال: إن عدي بن زيد لما قدم على النعمان صادفه لا مال عنده ولا أثاث، ولا ما يصلح للملك. فقال له عدي: كيف أضع بك ولا مال عندك؟ فقال النعمان: قمنا نمضي إلى ابن قردس (رجل من أهل الحيرة من دومة الجندل) فأبى أن يقرضهما مالاً وقال: ما عندي شيء! ثم أتيا جابر بن شمعون الأسقف وهو أحد بني الأوس بن قلام فاستقرضا منه المال، وهو ثمانون ألف درهم، وجابر هو صاحب القصر الأبيض بالحيرة.

أرسل النعمان ذات يوم إلى عدي، فأبى أن يأتيه، ثم أعاد رسوله فأبى أن يأتيه فغضب النعمان وحبسه. ولما علم هرمز بن كسرى، كتب إلى النعمان يأمره لإطلاق سراحه. وعلم النعمان بأمر الكتاب، وأرسل إلى عدي من يخنقه في السجن ثم دفنوه. ندم النعمان على فعلته، وعلم أنه احتيل عليه في أمره، وخرج النعمان في صيد فوقع نظره على شاب يقال له زيد، فقال

له: من أنت؟ قال: أنا زيد بن عدي. ففرح به فرحاً شديداً، وقرّبه وأعطاه، وجهّزه وكتب به إلى كسرى.

جعله كسرى على مكاتبة شيوخ العرب، وأعجب كسرى بنبوغه، فكان يكثر الدخول عليه والخدمة له. وكان الأكاسرة يبغون جميلات النساء، فأخبر زيد كسرى عن بغيته، عند النعمان بن المنذر، وطلب من كسرى أن يرسل معه من يفهم العربية. خرج زيد وبلغ الحيرة، وقال للنعمان: إن الملك قد احتاج إلى نساء لنفسه، وولده وأهل بيته، وأراد إكرامك بمصاهرته لك. قال النعمان: ما هؤلاء النسوة؟ فقال: هذه صفتهن قد جئنا بها، فقرأ زيد الصفة على النعمان، فشقت عليه، وقال لزيد: أما في مها السواد، وعين فارس ما يبلغ به كسرى حاجته؟ ثم كتب النعمان إلى كسرى: إن طلب الملك ليس عندي. وسأل الرسول الذي مع زيد، ما الذي قاله: قال أما كان في بقر السواد وفارس ما يكفيه حتى يطلب ما عندنا. وصل الخبر إلى كسرى فغضب، وقال للنعمان: أقبل فإن للملك حاجة إليك. وقبل ذهابه إلى كسرى وأودع سلاحه عند هانئ بن قبيصة الشيباني، وهانئ بن مسعود.(١١٥).

معركة ذي قار:

على أثر قدوم النعمان إلى المدائن حبسه كسرى ثم قتله، وطالب بدروعه وأسلحته التي أودعها عند بني شيبان. وأرسل كسرى إلى هانئ بن قبيصة يطالبه برد ودائع النعمان، وكان عددها ثمانمائة درع، وسبعة آلاف سيف، فأبى هانئ وغضب كسرى وأنذره:

إما استسلام بني شيبان لكسرى، وإما استلام الودائع، أو الرحيل من ديرة الكوفة (قرب الحيرة)، أو الحرب.

اجتمعت كلمة بني بكر على الحرب، وأرسل كسرى ثلاثة جيوش، جيش على رأسه المرزبان الأعظم (الهرمز التستري) وكان يقود ألف فارس من الأساورة، والجيش الثاني بقيادة (جلا يزين) في ألف من الرماة، والجيش الثالث: بقيادة إياس بن قبيصة الطائي في كتيبتين، وكتيبة ثالثة بقيادة دوسرة غلام النعمان، وكانوا من فرسان العرب الموالين للفرس.

طاف هانئ بن مسعود على قبائل العرب يطلب النجدة فناصرته بكر بن عجل، وبنو إياد وقيس بن عيلان، وبنو أسد، واجتمع العرب في ذي قار، وقرروا الصمود في وجه الفرس. وكانت نتيجة المعركة انتصار العرب على الفرس في معركة ذي قار. وسمع الرسول (ص) بهذا النصر فقال: «هذا أول يوم انتصفت فيه العرب على العجم وبي نصروا.» كانت معركة ذي قار سنة ٦٠٥م، وعلى أثر المعركة أقصى كسرى إياس بن قبيصة الطائي عن حكم الحيرة، وعين حاكماً فارسياً هو آذاديه بن ماهان ودام حكمه سبعة عشر عاماً(١١٦).

استعادت العرب حكم الحيرة، وعينوا عليهم (المنذر الغرور) سنة ٦٢٢م في السنة التي هاجر فيها الرسول (ص) إلى المدينة. وفي زمن خلافة عمر بن الخطاب خرجت جيوش العرب المسلمين بقيادة العلاء الحضرمي واستولوا على الحيرة. وقتل المنذر الغرور، وانهزمت جيوش عرب الحيرة، ثم جاء خالد بن الوليد واحتل الحيرة عنوة وفرض عليهم مائة ألف درهم يدفعونها كل عام، وشرط عليهم عوناً للمسلمين وعلى أهل فارس سكان الحيرة، وضمن لهم سلامتهم وحرية عبادتهم(١١٧).

حضارة الحيرة :

كانت الحيرة إحدى مدن القوافل الهامة على الطريق التجاري بين الشام والعراق والجزيرة العربية، وكانت مركزاً حضارياً متعدد الثقافات والألسن لكثرة الجاليات التجارية المقيمة فيها.

كان النعمان بن المنذر يبعث إلى سوق عكاظ في كل عام لطيمة (صرة مسك) وبخور فيبيعها ويشتري بثمنا البرود،والقصب والأدم والسيوف والدروع وغير ذلك من طرائف اليمن. وامتد نفوذه إلى البحرين وجبلي طيء غرباً. وعاش النابغة الذبياني في كنفه ومدحه بقصائد وصف فيها زوجة النعمان (المتجردة) ثم اعتذر له عن ذلك الوصف. ولكن النعمان حبسه وقتله. قال أبو حنيفة الدينوري: «كان كسرى وما زعمت من قتلي النعمان بن المنذر، وإزالتي الملك عن آل عمرو إلى إياس بن قبيصة، فإن النعمان، وأهل بيته، واطئوا العرب ومنعوهم من طاعتنا، فقتلته ووليت الأمر أعرابياً، لا يعقل من أمر الحكم شيئاً.»(١١٨)

كان العلم مزدهراً في بلاط آل عمرو. ذكر يوسف غنيمة: «كانت الحيرة تزخر بمدارس العلم. فقد نبغ فيها إيليا الحيري مؤسس دير مار إيليا في الحيرة. كما تلقى مار عبده دراسته اللاهوتية في إحدى مدارس الحيرة.»(١١٩) وذكر ياقوت الحموي أن الصبيان في الحيرة كانوا يتعلمون القراءة والكتابة في كنيسة النقيرة(١٢٠). ذكر الإخباريون العرب أن بلاد الحجاز عرفت الكتابة عن طريق الحيرة، وأن الخط الحيري هو الخط الكوفي، ومن الحيرة كانت القوافل تحمل البضائع ومعها الخبرات العلمية والمعتقدات الدينية. يقال أن أبا سفيان وقريش أخذوا الزندقة عن طريق تجار

الحيرة(١٢١). ونتيجة لتكدس الثروات صار أهل الحيرة يستخدمون أواني الفضة والذهب، وينامون على الفرش الحريرية، ولبسوا الفاخر من الثياب الحريرية والخز الكشميري. وإلى أهل الحيرة نسب نسيج خاص من الحرير عرف بالخوار واليملق. وكان ملوك وأمراء الحيرة يلبسون ثياباً تعرف (بأثواب الرضا) وهي جباب أطواقها من الذهب الموشى بالزمرد تدعى (بالمرفل) كما اشتهرت الحيرة بغنائها وموسيقاها. وفي الحيرة تطورت فنون العمارة أخذوها عن جيرانهم الفرس، فبنوا القصور والأديرة والكنائس، ومن تلك الخورنق والسدير وقصر سندار وقصر الفرس وقصر الزوراء، وقصر مقاتل. ومن الأديرة الدير الأبيض، ودير القديسين، ودير هند، وقد وصفت الحيرة لبياض قصورها (بالحيرة البيضاء) تعبيراً عن حسن ريازتها.

قال الأسود بن يعفر في ذكرى الخورنق والسدير:

ماذا أؤمل بعد آل محرق ... تركوا منازلهم وبعد أياد

أهل الخورنق والدير وبارق ... والقصر ذو الشرفات من سنداد

جرت الديار على مكان ديارهم ... فكأنما كانوا على ميعاد

ولقد غنوا بها بأنعم عيشة ... في ظل ملك ثابت الأوتاد

ويصف الأعشى بنات الحيرة الغانيات وهن يرفلن بالحرير والخز:

والبغايا يرفلن في أكسية ... ضامرات تحت الرجال

ثم يقول:

ترى الخز تلبسه ظاهراً ... وتبطن من دون ستر ذاك الحرير

وفي الإسلام ظهر من أبناء الحيرة العالم والمترجم حنين بن إسحق العبادي الذي ترجم كتب جالينوس في الطب، وترجم ابنه إسحق بن حنين كتب أرسطو، وترجم كتب أبقراط حبيش بن الأعسم وهم الذين ترجموا كتب الأوائل فغيروا الفكر العربي.

بصرى الشام عاصمة الغساسنة

كان الإخباريون العرب يجهلون تاريخ الغساسنة. ولكن المستشرق الألماني تيودور نولدكه بالرجوع إلى المدونات السريانية والبيزنطية كتب كتابه العظيم (أمراء غسان)، وجد أول ذكر لأبي شمر جبلة الغساني حكم حوالي ٥٠٠م، في بصرى الشام، وكانت بصرى عاصمة حوران منذ عام ١٠٦م عندما جعلها الولاية العربية بدلاً من البتراء، وصارت مركزاً تجارياً وأحد أسواق العرب الهامة في جنوب سورية. وجرى صراع بين الغساسنة والمناذرة ملوك الحيرة. وكان أول وأعظم ملوك بصرى الشام:

- الحارث بن جبلة الغساني (٥٢٩ - ٥٦٩م):

اشترك في المعارك التي نشبت بين الفرس والروم عام ٥٣١م، وكان في صف الفرس المنذر بن ماء السماء، ملك الحيرة، ودارت المعركة للسيطرة على الطريق التجاري (الطريق المستقيم). ادعى ملك الحيرة أن القبائل النازلة على طرفي الطريق هم من رعاياه. فنازعه الحارث بن جبلة ونشبت بينهم الحروب عام ٥٤٠م وفي النهاية عقدت معاهدة لمدة خمس سنوات (٥٣١ - ٥٤٦م) على أن تزيد الدولة البيزنطية الجزية للدولة الفارسية. وفي سنة ٥٤٤م تجددت المناوشات بين المناذرة والغساسنة، وانتهت الحرب بهزيمة الحارث، ووقع أحد أبنائه أسيراً، وقدم قرباناً للعزى(١٢٢). وفي سنة ٥٥٤م ثأر الحارث لابنه وهزم المنذر وقبض على

ولديه وقتلهما. وقتل المنذر قرب خالكيس جنوب حلب وعرف اليوم (بيوم حليمة) بنت الحارث التي طيبت عسكر أبيها وألبستهم الأكفان تحت الدروع(١٢٣). ولكن المناذرة لم يسكتوا على الضيم وأعادوا الكرة وقتلوا ابن أخي الحارث. كان الجارث مقرباً عند الإمبراطور جوستنيان وزوجته الإمبراطورة تيودورة، وهو الذي عين أسقف العرب يعقوب البرادعي(المتوفي ٥٧٨م).

- أبو بكر المنذر بن الحارث (٥٧٠ - ٥٨٣م):

نال حظوة لدى الإمبراطور البيزنطي، وأنعم عليه طيبريوس بن قسطنطين (٥٧٨ - ٥٨٢م) بلقب Rex وبالتاج، ولكن في سنة ٥٨٠م قام القائد البيزنطي موريس بحملة على فارس، ووجد الجسر المنصوب على نهر الفرات مهدوماً، فخاف، ولكي يبرر خوفه ونكوصه ادعى لدى الإمبراطور أن المنذر هو الذي هدم الجسر، باتفاقه سراً مع الفرس، ولكي يثبت المنذر صدق نواياه تجاه الإمبراطور هاجم الحيرة وأحرقها(١٢٤). ودعاه حاكم سورية فاغنوس إلى حفلة تدشين كنيسة حوارين وقبض عليه وأرسله إلى صقلية، وقطعت المعونات عن الغساسنة، ثم قبضوا على ولدي المنذر، وأرسل ولده النعمان إلى العاصمة القسطنطينية ثم عين ملكاً وتوفي المنذربعد سنة ٥٨٣مأبو حجر النعمان بن الحارث الأصغر (٥٨٣ - ٦١٤م) .

ضعف شأن الغساسنة فكان أبو حجر شيخ قبيلة تتجول في البادية حول قصره في الأندرين وقصر ابن وردان. وكان شاعرهم حسان بن ثابت يزورهم في ديارهم. قال حسان يصف أبو حجر بأنه: «قدم له العود المندى شاتياً مع حسن وجه وحسن حديث، ما رأيت طغى قط ولا عربدة، ونحن

يومئذ في الشرك، وجاء الإسلام فمحا الكفر وتركنا الخمر.» ثم خاطب حسان ولده ثابت: «وأنتم اليوم مسلمون تشربون هذا النبيذ من التمر الفضيخ من الرطب، فلا يشرب أحدكم ثلاثة أقداح حتى يذهب بعقله ودينه.»(١٢٥)

- جبلة بن الأيهم (٦٢٨ - ٦٣٥م):

آخر ملوك الغساسنة. قاتل الفرس إلى جانب هرقل (٦١٠ - ٦٤١م) واستعاد الصليب المقدس من الفرس وأعاده إلى القدس. وفرح المؤمنون المسيحيون والمسلمون سنة ٦٢٨م. وجرت معركة بينه وبين خالد بن الوليد في مرج الصقر جنوب دمشق. وقاتله في معركة أخرى قرب دومة الجندل، ثم أعلن إسلامه وزار المدينة، وفي الحج جرت له حادثة مشهورة، داس أعرابي على إزاره في الطواف، ولطمه جبلة وأراد عمر أن يقتص منه فهرب إلى الشام. وفي اليرموك كلف بقيادة الجيش الثالث ولكنه انسحب إلى القريتين هو وقائد الجيش الثاني واهان الأرمني. وكانا على المذهب اليعقوبي (سريان أرثوذوكس). انسحب واهان إلى حمص وانسحب جبلة بن الأيهم إلى القريتين وتركوا الجيش الأول بقيادة ثيودور الصقلي، وكسر الروم في اليرموك(١٢٦م).

ماذا خلف الغساسنة من آثار حضارية؟

كان استقرار الغساسنة على طريق القوافل التجارية في بصرى الشام وضمير والرصافة والقريتين والأندرن، وفي الجابية (قرب نوى) وكانوا قد اهتموا بالزراعة واستغلوا مياه الأمطار التي كانت تهطل على الجبال وجلبوها بواسطة أقنية فخارية كما فعلوا في برك المياه في حوران (بركة بصرى) وفي أذرعات. قال حسان بن ثابت يصف قصر الجابية: «لقد رأيت فيه عشر

من القيان خمس روميات يغنين بالسريانية وخمس يغنين غناء أهل الحيرة. وكان يفد إليه من يغنيه من مكة والمدينة، وكان إن جلس إلي الشراب فرش تحته، ونصب الآس والياسمين وأصناف الورود والرياحين، وضرب له العنبر والمسك في صحاف الفضة والذهب.»(١٢٧).

كل هذا بفضل الثراء الذي كان يحصل لهم من مكوس تجارة التوابل والعطور.

مراجع الفصل الثالث

دور القوافل العربية في التواصل الحضاري

١ ـ تاريخ سورية جـ١ ص٢٧٨، أسد الأشقر لبنان ١٩٧٨م.

٢ ـ رحلة إلى بابل القديمة ص١٩٢، إيفلين كلينغل ـ براندت، ترجمة: زهدي الداوودي، دار الجليل، بغداد ١٩٨٠.

٣ ـ أرض النهرين ص٥٩، إدون بفن، ترجمة: الأب إنستاس الكرملي، مطبعة المعارف بغداد ١٩٦١.

٤ ـ تاريخ الأدب السرياني ص٤٠ ـ ٤١، مراد كامل ومحمد حمدي البكري، دار المقتطف، القاهرة ١٩٤٩.

٥ ـ التنبيه والإشراف ص٦٩، المسعودي، تحقيق: عبد الله إسماعيل الصاوي، القاهرة ١٩٣٨.

٦ ـ الرُّها المدينة المباركة ص٧ ـ ٨، جورج سيغال، ترجمة: يوسف إبراهيم جبرادار، الرها، حلب ١٩٨٨.

٧ ـ المصدر السابق ص٢٥٥.

٨ ـ فتوح البلدان ص٢٥٠، البلاذري، تحقيق: عبد الله أنيس الطباع، بيروت ١٩٥٧.

٩ ـ الأعلاق الخطيرة جـ١ ص٤٢، ابن شداد، تحقيق: يحيى عبارة، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٧٦.

١٠ ــ فتوح الشام جــ٢ ص٨٣، الواقدي، القاهرة ١٩٥٥.

١١ ــ أحوال نصارى بغداد ص٧١، كوركيس عواد، بغداد ١٩٧١.

١٢ ــ مروج الذهب جــ٢ ص٢١٠، المسعودي، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة ١٩٤٨.

١٣ ــ تاريخ ميخائيل الكبير جــ٣ ص٢٥٦، ترجمة: المطران صليبا شمعون، دار ماردين، حلب ١٩٩٩.

١٤ ــ تاريخ الأدب السرياني ص٢٦ ــ ٣٢.

١٥ ــ الرها المدينة المباركة ص٩٤.

١٦ ــ المصدر السابق ص٣٩.

١٧ ــ تاريخ ميخائيل الكبير جــ١ ص١٤٣.

١٨ ــ الرها المدينة المباركة ص٤٢.

١٩ ــ المصدر السابق ص٤٨.

٢٠ ــ الملل والنحل جــ٢ ص٥٦، الشهرستاني، تحقيق: عبد العزيز محمد الوكيل، مؤسسة الحلبي، القاهرة ١٩٦٨.

٢١ ــ الآثار الباقية ص١٥٨، البيروني، تحقيق: إدوارد سخاو لايبزيج ١٩٢٣.

٢٢ ــ اللؤلؤ المنثور ص١٩٢، مار أفرام الأول برجوم، دار الرها، حلب ١٩٨٧.

٢٣ ــ تاريخ الأدب السرياني ص٦٤ ــ ٦٥.

٢٤ ــ المصدر السابق ص٦٩.

٢٥ ــ الرها المدينة المباركة ص١١١.

٢٦ ــ المصدر السابق ص١٣٠.

٢٧ ــ تاريخ ميخائيل الكبير جــ٢ ص٣٠٢.
٢٨ ــ المصدر السابق ص٣٠٦.
٢٩ ــ الموسوعة الإسلامية مجلد١٠ ص٢٧٥، هوينغمان، ترجمة: إبراهيم زكي خورشيد، القاهرة ١٩٥٤.
٣٠ ــ الرها المدينة المباركة ص٢٥٣.
٣١ ــ معجم البلدان مادة الرها، ياقوت الحموي، دار صادر، بيروت ١٩٥٥.
٣٢ ــ معجم البلدان مادة منبج.
٣٣ ــ تاريخ الوطن العربي القديم (بلاد الشام) ١١٠، جامعة دمشق ٢٠٠٢م.
٣٤ ــ تاريخ سورية (٣٠٠٠ ــ ٣٠٠ق.م) ص٨٤، هورست كلينغل، ترجمة: سيف الدين دياب، دار المتنبي، دمشق ١٩٩٨.
٣٥ ــ تاريخ هيرودوت (بالإنكليزية) جــ٢ ص٤٤.
٣٦ ــ الآلهة السورية ص٢٠، لوقيانوس السيمساطي، ترجمة: موسى ديب الخوري، دار الأبجدية، دمشق ١٩٩٢.
٣٧ ــ فيصل عبد الله ص١٨٧.
٣٨ ــ المصدر السابق ص١٩٧.
٣٩ ــ الآلهة السورية ص٢٣ ــ ٢٤.
٤٠ ــ المصدر السابق ص٢٥.
٤١ ــ المصدر السابق ص٢٦.
٤٢ ــ المصدر السابق ص٥٠.
٤٣ ــ المصدر السابق ص٣٠.
٤٤ ــ المصدر السابق ص٥٢.
٤٥ ــ المصدر السابق ص٣٦.

٤٦ ـــ المصدر السابق ص٢٦.

٤٧ ـــ المصدر السابق ص٤٢.

٤٨ ـــ المصدر السابق ص٥٦.

٤٩ ـــ المصدر السابق ص٥٤ ـــ ٥٥.

٥٠ ـــ المصدر السابق ص٥٤.

٥١ ـــ تاريخ العلم والأنسية الجديدة ص٣٤، جورج سارطون، ترجمة: إسماعيل مظهر، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٦١.

٥٢ ـــ الأعلاق الخطيرة جـــ١ ق١ ص٢٩٦، ابن شداد يحيى طبارة، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٧٦م.

٥٣ ـــ المصدر السابق جـــ١ ق١ ص٢٩٣.

٥٤ ـــ تدمر والتدمريون ص٦٨، عدنان البني، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٧٨.

٥٥ ـــ تاريخ العرب ص١١٢، فيليب حتي، دار غندور، بيروت ١٩٦٤.

٥٦ ـــ سورية ص٦، الأب هنري لامنس، المطبعة اليسوعية، بيروت ١٩٢١.

٥٧ ـــ محاضرات في تاريخ العرب جـــ١ ث٤٧، صالح أحمد العلي، مطبعة الإرشاد، بغداد ١٩٦٤.

58 – M. Rostovtself. Caravan Cities, p15, London 1932.

٥٩ ـــ المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام جـــ٣ ص١١٣، جواد علي، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٧٦.

٦٠ ـــ العرب قبل الإسلام ص١١٣، جرجي زيدان، مكتبة الحياة، بيروت.

٦١ ـــ تاريخ العرب القديم ص١٢٩، نبيه عاقل، جامعة دمشق، ١٩٩٢.

٦٢ ـــ جواد علي جـــ٣ ص١٢٣.

٦٣ ــ اضمحلال الإمبراطورية الرومانية ص١٧٢، إدوار جيبون، ترجمة: محمد علي أبو درة، القاهرة ١٩٦١.
٦٤ ــ المصدر السابق ص١٧٣.
٦٥ ــ عدنان البني ص٢٠٦.
٦٦ ــ تاريخ الكنيسة ص٢٣٤، أوسابيوس القيصري، ترجمة: القس مرقص داود، دار الكرنك، القاهرة ١٩٦٠.
٦٧ ــ محاضرات في النصرانية ص١٥٩، الشيخ محمد أبو زهرة، مطبعة يوسف، القاهرة ١٩٦٦م.
٦٨ ــ معجم البلدان، مادة تدمر.
٦٩ ــ تاريخ العرب قبل الإسلام ص١٦٠، أحمد رحيم هبو، جامعة حلب ١٩٨٠.
٧٠ ــ الحضارات ص٢٢٨، لبيب عبد الستار، دار المشرق، بيروت ١٩٧٤.
٧١ ــ آثار الأردن ص١٤٣، لانكستر هاردينج، تعريب: سليمان موسى، عمان ــ الأردن ١٩٦٥.
٧٢ ــ جواد علي جــ٣ ص١٥.
٧٣ ــ تاريخ سورية ولبنان وفلسطين جــ١ ص٣٤٨، فيليب حتي، ترجمة: جورج حداد وعبد الكريم رافق، دار الثقافة، بيروت ١٩٥٨.
٧٤ ــ العرب في الشام قبل الإسلام ص٣٢، محمد أحمد باشميل، دار الفكر، بيروت ١٩٨٧.
75 – J.Starky – supplement. P.1079 ملحق التوراة بالإنكليزية
٧٦ ــ العرب في العصور القديمة ص٣٤٥، لطفي عبد الوهاب يحيى، دار النهضة، بيروت ١٩٧٩.

٧٧ ـــ نبيه عاقل ص١٠٤.
٧٨ ـــ تاريخ العرب ص١٠٢، توفيق برو، دار الفكر، دمشق ١٩٨٤م.
٧٩ ـــ جزيرة العرب قبل الإسلام ص٢٠٤، برهان دلو، دار الفارابي، بيروت ١٩٨٩م.
٨٠ ـــ لانكستر هاردينج ص١٢١.
٨١ ـــ المصدر السابق ص١٢٠.
٨٢ ـــ تاريخ دولة الأنباط ص٤٠، إحسان عباس، دار الشروف، عمان ١٩٧٥.
٨٣ ـــ المصدر السابق ص٦١.
٨٤ ـــ تاريخ العربي القديم ص٩٢، شكران خربوطلي وسهيل زكار، جامعة دمشق ٢٠٠٠م.
٨٥ ـــ فيليب حتى جـــ١ ص٤٢٦.
٨٦ ـــ صالح أحمد العلي جـــ٢ ص٣٢.
٨٧ ـــ تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء ص٧٧، حمزة الأصفهاني، دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٦٢.
٨٨ ـــ صفة جزيرة العرب ص١٢٢، الهمداني، تحقيق: محمد علي الأكوع، الرياض ١٩٥٢.
٨٩ ـــ مقدمة ابن خلدون جـــ٢ ص٢٧٩، دار العودة، بيروت ١٩٨١.
٩٠ ـــ مروج الذهب جـــ٢ ص١٠٩.
٩١ ـــ أمراء غسان ص٥١، تيودور نولدكه، ترجمة: بندلي الجوزي وقسطنطين زريق، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٣٣.
٩٢ ـــ جواد علي جـــ١ ص٦١١.

٩٣ ــ إيران، ماضيها وحاضرها ص٣١، دونالد ولبر، ترجمة: عبد المنعم محمد حسنين، مكتبة مصر، القاهرة ١٩٥٨.
٩٤ ــ الكتابة مهنة مقدسة ص١٨، نبيل فرج، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٨.
٩٥ ــ الأدب اليوناني القديم ص٢٢، علي عبد الوافي، دار المعارف بمصر ١٩٦٠م.
٩٦ ــ إيران ماضيها وحاضرها ص١٦٥.
٩٧ ــ الذخائر والتحف ص٣ ــ ٤، القاضي رشيد الدين بن الزبير، تحقيق: صلاح الدين المنجد، التراث العربي، الكويت ١٩٨٤.
٩٨ ــ الحيوان للجاحظ جـ٦ ص١٤٨، تحقيق: فوزي عطوي، مكتبة المعارف، بيروت ١٩٦٧.
٩٩ ــ ديوان عدي بن زيد العبادي ص١١٢، المطبعة اليسوعية، بيروت ١٩٢٣.
١٠٠ ــ نبذة تاريخية عن طيسفون (المدائن) ص٤، فرج بصمجي، مطبعة الحكومة، بغداد ١٩٦٤.
١٠١ ــ مملكة الحضر (مدينة الشمس) ص٥، فؤاد سفر ومحمد علي مصطفى، وزارة الإعلام، بغداد ١٩٧٤.
١٠٢ ــ تاريخ الطبري جـ١ ص٥٥٨، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر ١٩٥٨.
١٠٣ ــ حمزة الأصفهاني ص٧٧.
١٠٤ ــ تاريخ الطبري جـ١ ص٦١.
١٠٥ ــ تاريخ اليعقوبي جـ١ ص٢٠٨، دار صادر، بيروت ١٩٦٠.

١٠٦ ــ تاريخ الطبري جـ١ ص٦١٣.
١٠٧ ــ أحمد رحيم هبو ١١٨.
١٠٨ ــ العرب في سورية قبل الإسلام ص٣٣، رينيه دوسو، ترجمة: عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص زيادة، دار الحداثة، بيروت ١٩٨٥.
١٠٩ ــ مروج الذهب للمسعودي جـ٢ ص٩٨.
١١٠ ــ كتاب الأغاني جـ٢٢ ص٨٨، أبو الفرج الأصفهاني، المكتبة المصرية، القاهرة.
١١١ ــ رنات المثالث والمثاني في روايات الأغاني جـ٢ ص١٥٨، أبو الفرج الأصفهاني، تلخيص: الأب أنطوان صالحاني، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٨٨٨م.
١١٢ ــ الحيرة المدينة والمملكة العربية ص٤٧، يوسف رزق الله غنيمة، بغداد ١٩٣٦.
١١٣ ــ البداية والنهاية جـ١ ص٥٥٣، ابن كثير، المطبعة الخيرية، القاهرة ١٣١١هـ.
١١٤ ــ كتاب المحبر ص٢٠٢، محمد بن حبيب، مكتبة المثنى، بغداد ١٩٤٢.
١١٥ ــ رنات المثالث والمثاني جـ١ ص١٦٨.
١١٦ ــ تاريخ الطبري جـ٢ ص٢١٣.
١١٧ ــ نبيه عاقل ص١٨٨.
١١٨ ــ الأخبار الطوال ص١٠٩، أبو حنيفة الدينوري، تحقيق: عبد المنعم عامر، القاهرة ١٩٦٠.
١١٩ ــ يوسف غنيمة ص٥٤.

١٢٠ ـ ياقوت الحموي معجم البلدان مج٥ ص٢٠١، طبعة مرجليوث ليدن، ١٩٢٧.

١٢١ ـ كتاب المعارف ص٢٦٦، ابن قتيبة الدينوري، طبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٤.

١٢٢ ـ جواد علي جـ٤ ص٥٩.

١٢٣ ـ أمراء غسان ص٢٠.

١٢٤ ـ حمزة الأصفهاني ص٧٨.

١٢٥ ـ رنات المثالث والمثاني جـ١ ص٨٠ ـ ٨١.

١٢٦ ـ أمراء غسان ص٥٧.

١٢٧ ـ الشعر والشعراء ص١٦٧، ابن قتيبة، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار المعارف بمصر ١٩٦٩م.

الفصل الرابع

صلة الجزيرة العربية بالهلال الخصيب حضارياً

مدخل البحث: علاقات الجزيرة العربية بوادي الرافدين ومصر وسورية

- الجزيرة العربية في المصادر الكلاسيكية.
- التواصل الحضاري بين عرب الشمال وعرب الجنوب.
- مكة، أهم المراكز التجارية والدينية.
- مدينة (يثرب) أهم مدن الحجاز الحضارية.
- الوضع الاجتماعي والاقتصادي في الحجاز قبل الإسلام.
- أسواق الحجاز في الجاهلية والإسلام.
- طرق الحجاز التجارية بعد القرن الرابع الهجري.
- مدن وموانئ الخليج العربي في الكتابات الكلاسيكية والرحلات العربية والأجنبية.
- مراجع.

مدخل البحث

التصور العام عن شبه الجزيرة العربية أنها أراض صحراوية لا تصلح إلا لحياة البداوة. والصواب أن شبه الجزيرة العربية ذات أراض متنوعة، فيها الصحارى والواحات الخصبة التي تنتج الشعير والحبوب والنخيل، وكان ما يفيض عن حاجتها ينقل إلى المدن المجاورة. وكانت أراضي الحماد لقلة الأمطار لا تنبت إلا الأعشاب والشجيرات الرعوية، التي تعيش عليها الغزلان وحمار الوحش والطيور البرية، وكانت تعيش فيها تشكيلة رعوية، وكان الجمل هو عماد حياتهم المعاشية.

يحد شبه الجزيرة العربية من الجنوب بحر العرب، ومن الشرق الخليج العربي، ومن الغرب البحر الأحمر، حيث السهول الواسعة على سواحله تليها جبال السراة. وسواحل البحر في الغالب ضيقة في الاتساع من الجنوب إلى الشمال حتى تبلغ أقصى ضيق لها عند العقبة، وهذه السواحل حارة رطبة في الغالب تصعب فيها الحياة، ولكنها كانت مسالك للجزيرة العربية(١). بينما إلى الشرق من تضاريس جبال الحجاز، يصبح المناخ معتدلاً، والهواء الشرقي (الصبا) طيباً عذباً، فالطائف بلد زراعي، وهي مصيف ينتج الفاكهة والكرمة والحبوب، ويثرب (المدينة) حاضرة زراعية وتجارية، بينما مكة الواقعة في واد غير ذي زرع تعيش على استقبال الحجاج في المواسم التجارية.

علاقات الجزيرة العربية بوادي الرافدين وبمصر:

منذ عهد سرجون (شيروكين) الأكادي (٢٣٧١ - ٢٢٣٠ق.م) كان هناك تواصل بين الجزيرة العربية وأطراف الهلال الخصيب. استطاع عالم اللغة السومرية لاندبرجر، تبيان أن اللغة السومرية تشتمل على كلمات سامية (عربية) وهذه الكلمات حضارية، مثل فلاح ومحراث، وصانع زجاج، وصانع تعدين، توارثوها من حضارة العُبيد جنوب وادي الرافدين، وكان لهم ملوك ومدن توارثها السومريون. ثم إن هؤلاء الساميين انتشروا بعد ذلك حول ساحل الجزيرة العربية الشرقي على الخليج(٢).

لقد عثر في البحرين (ديلمون) على نفس آثار الحضارات التي عثر عليها في بلاد ما بين النهرين (العراق) وتتميز حضارتها بأنها تجارية بحرية وبرية. وكان لعمان Magan دور خاص في تجارة الهند منذ الألف الثاني قبل الميلاد. فقد كانت مصدر تجارة النحاس والفضة اللذان يصدّران إلى بلاد ما بين النهرين. وفي الألف الثاني قبل الميلاد، انتقل مركز التجارة العالمي آنذاك من الساحل الشرقي (الخليج) إلى البحر الأحمر، مع ازدهار الحضارة المصرية والسورية. جاء في بردية نفرتي الكاهن المصري من بلاط أمنس الأول ١٨٩٢ق.م صوّر فيها مأساة الدلتا من فوضى واضطراب البدو تنبأ بعودة (أميني) المنقذ ليخلص البلاد من الآسويين ولسحق سكان الرمال (الجزيرة العربية). فالإله آتوم (الإله التام) قادر على ذلك.

وقد قرر العالم الإنكليزي جاردنر وجود صلات بين الجزيرة العربية ومصر من خلال علاقة اللغة العربية باللغة المصرية القديمة. وقد أكد ذلك العالم المصري عبد المحسن بكر في كتابه قواعد اللغة المصرية، استمرار

التواصل اللغوي بين اللغة المصرية القديمة واللغة القبطية الممثلة بالكلمات الآرامية والعربية. وأعطى مثالاً على ذلك (سن/ أخ)، و(سنت/ أخت)، و(سجم/ سمع) و(نب/ رب) و(يرح/ القمر)(٣).

كان تاريخ الجزيرة العربية القديم يلفه الغموض والأساطير والخرافات. وإذا كان موضوع التاريخ هو الجهد الإنساني في شتى المجالات، فإن هدف التاريخ وعي الإنسان لنفسه. وهذه المعرفة لا تتم إلا في الكشف عن أغوار التاريخ البعيدة. وبما أن تاريخ العرب لم يدون وإنما تناقلته شفاه الرواة، في عصر خيّمت عليه الأساطير وأخبار الجن والآلهة الوثنية، ولكن العلامة جرجي زيدان دافع عن التاريخ العربي القديم بقوله: «لم يختص العرب بإدخال الخرافات على التاريخ، فقد كان ذلك شأن كل الأمم القديمة.»(٤)

كان الجاحظ من أوائل العلماء العرب الذين أشاروا إلى الآثار الكتابية المدونة على الصخر وسماها (المهارق) حين تكون كتب دين أو كتب عهود وميثاق أمان. قال: «وكانوا يجعلون الكتابة حفراً في الصخور ونقشاً في الحجارة أوحلقة مركبة في البنيان، فربما كان الكتاب هو الناتئ. وربما كان الكتاب هو الحفر، إذا كان الأمر تلويحاً لأمر جسيم، أو عهداً لأمر عظيم، أو موعظة يرتجى نفعها، أو إحياء شرف، يريدون تخليد ذكره، أو تطويل مدته، كما كتبوا على قبة غمدان، وعلى عمود مأرب، وعلى ركن المشقر.»(٥)

التنقيب الأثري الحديث :

لا زالت آثار الجزيرة العربية مطمورة تحت الأتربة، وأول تنقيب أثري منتظم قام به الدكتور عبد الرحمن الطيب الأنصاري في عام ١٩٧٠ في قرية الفاو، فوجد آثار مدينة تجارية على طريق البخور ترتاده قوافل الحمير

والجمال، وقال ذكرها من قبل الحسن ابن أحمد بن يعقوب الهمذاني بقوله: «إذا تيامنت شربت ماء عادياً يسمى (قرية) إلى جنبه عدة آبار وكنيسة منحوتة في الصخر.»(٦) قال الأنصاري: «وهذا الوصف ينطبق على قرية الفاو التي يتداخل ويتقاطع فيها وادي الدواسر بحاجز طويق في طريق قناة تدعى (فم القناة) أي الفاو.»

ماذا كشف التنقيب الأثري؟

وجدوا في الفاو قبر معاوية بن ربيعة ملك قحطان ومذحج. وهذا الملك العظيم لا ذكر له في المصادر العربية المدوّنة. ودلت التنقيبات الأثرية أن القمر كان إله أصحاب القوافل. ولهم تماثيل تذكرنا بتماثل أهل تدمر والأنباط والحضر. ووجدوا فخاراً مستورداً من البتراء حوالي أعوام ٥٠ ـــ ٣٠ق.م) كما عثروا على سوق القرية (الآجورا) وفيه دكاكين متخصصة للبيع والشراء. وأسماء أصحاب هذه الدكاكين، مما يعطينا فكرة عن نوع البضاعة التي كانت تباع وتشترى، وإلى التقنية التي كانت في ذلك الزمن. يقول الدكتور الأنصاري: «وجدنا في أحد الدكاكين وكان هذا الدكان لخطاط القرية ورسامها، وجدنا فيه رسوماً لرحلة صيد على الجمال. كما وجدنا كلمة (ملك) مكتوبة على تمثال أحد الشخصيات لعله لمعاوية بن ربيعة.»(٧) الذي كان ملكاً على كندة بن ثور بن عفير بن عدي بن الحارث بن مرة بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ. أما مذحج فهو مالك بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ(٨). هذه السلسلة الوهمية لا تدعمها المصادر التاريخية وإنما تناقلتها شفاه الرواة من جيل إلى جيل وجرى عليها التحريف والاختزال والإضافة، مما أفقدها صحتها.

وفي عهد الإسلام صار المسلمون الورعون بدافع الإيمان يهدمون الآثار الوثنية عن قصد وتصميم كي لا تذكرهم بالعصر الجاهلي البغيض. فهدموا آثاراً عظيمة مثل كعبة نجران وهي كنيسة من نوع الباسليكا، وقد ذكرها الأعشى في شعر(٩):

وكعبـــــــة نجران حتم علـــي حتـــــى تنــــاخي أبوابهـــــا

تـــزور يزيـــد وعبـــد المـــسيح وقســـساً هـــم خيـــر أربابهـــا

إذا الحبــــــــرات تـــلـــوا بهـــا وجــــــروا أســـافل هدابهـــا

وقال الأعشى في حق الآثار التي هدمت نتيجة الإهمال، يخاطب ناقته متألماً(١٠)

ففـــــي ذا للمؤتـــسي إســـوة ومأرب قـــضى عليهـــا العـــرم

رخـــــام بنتـــه لهـــم حميـــر إذا جـــاءه مـــاؤهم لـــم يـــرم

فـــأروى الـــزرع وأعنابهـــا على سعة مـــاؤهم إذ قـــســـم

فطاروا ســـريعاً ومـــا يقـــدرون منـــــه شـــرب صـــبي فطـــم

وهدوا من الآثار العظيمة كنيسة القليس التي بناها في صنعاء ملك اليمن أبرهة بن الصباح من الرخام المجزّع الملون، والحجارة المنقوشة بالذهب، بناها من بقايا قصر بلقيس(١١). وهذه عادة ملوك العرب قديماً وفي الإسلام من بعدهم. يقول الجاحظ:

«إن من شأنهم (العرب) أن يطمسوا آثار من قبلهم، وأن يميتوا ذكـــر أعدائهم، فهدموا بذلك السبب أكثر المدن والحصون، التي كانت أيـــام العجـــم

والجاهلية، وعلى ذكر ذلك في أيام الإسلام، كما هدم عثمان صومعة غمدان، وكما هدم الآطام التي كانت في المدينة.»(١٢) قال الجاحظ ذلك على سبيل التهكم والسخرية: «هذا هو فعل الحكام، فما بالك بفعل العامة والجهلة الذين رموا العصر الذي سبقهم بالجهل، وقد صدق المثل القائل: رمتني بدائها وانسلت.».

ولكن دلتنا التنقيبات الأثرية أنه كان في الجزيرة العربية حضارة متقدمة، لا ما ذكروا عنها، أنها مرحلة جاهلية، لم ينصفها إلا القرآن والشعر الجاهلي. قال المستشرق الروسي كراتشكوفسكي: «ربما أنه الوحيد من نوعه في الأدب العالمي، حفظ لنا الشعر العربي الجاهلي، آثاراً فريدة، ومادة لا تنضب من هذا القبيل.»(١٣)

الجزيرة العربية في المصادر الكلاسيكية:

جاء في شعر هوميروس (القرن ٩ق.م) أعظم شعراء اليونان أول ذكر للبان والمر والقرفة التي تجلب إلى اليونان من بلاد العرب، وكانت للاستهلاك المتزايد من الطيب والتوابل في ذلك الوقت حيث كانت هذه المواد سلعة ضرورية لاستهلاك المعابد وفي الأعياد والاجتماعات والاحتفالات الرياضية، بل وفي كل مناسبة(١٤).

أرسل بطليموس فيلادلفيوس (٢٨٥ ــ ٢٤٦ق.م) البحار أرسطون ليكشف له سواحل الجزيرة العربية المطلة على البحر الأحمر، حتى مضيق باب المندب ليقطع طريق التجارة عن السلوقيين (حكام سورية). وحفر قناة تصل النيل بالبحر الأحمر لقطع طريق الطيب والتوابل عن الأنباط الذين كانوا يسيطرون على مدينة ديدان (العلا) جنوب ملكة الأنباط.

كتب العالم ثيوفراستوس تلميذ أرسطو والمتخصص بالنبات، وتكلم عن اللبان والمر، وأعطانا معلومات كافية عن تجارة العرب في البر وعن مراكبهم في البحر وعن التجار الساكنين في مدينة الإسكندرية والذين يعدون أغنى الجاليات.

وكتب من بعده كتاب يونانيون من أهل الإسكندرية أذكر منهم:

- إيراتوستين الإسكندري (٢٧٥ - ١٩٤ق.م):

كتب كتاباً في الجغرافية، ووضع خريطة قسم فيها بلاد العرب إلى ثلاثة أقسام:

١- بلاد العرب الصحراوية Arabia Eremon:

وهي البلاد الممتدة على ساحل البحر الأحمر من البتراء وحتى جيزان بطول ٢٥٩٠كم، وتغلب عليها الصحارى وتتخللها واحات تزرع فيها الحبوب والنخيل.

٢- بلاد العرب السعيدة Arabia Fudaemon :

وهي أرض اليمن، تزرع مرتين في العام وفيها النخيل والطرفاء، وتنتج حضرموت المر واللبان ومن شرقهم تجلب مادة القرفة، وفيها ثلاثة طرق لنقل البضائع بين قتبان وحضرموت. وسكان هذه البلاد العرب المعنيون والسبئيون والقتبانيون والحضارمة. وتوجد لديهم كل أصناف الطيور والدواجن إلا الدجاج والإوز.

٣- أرض الخولتيين Choulotion:

سكان دومة الجندل وما حولها، والأنباط والإجرائيون Agraei سكان العلا ومدائن صالح ومنها ينطلق طريق نحو بابل ترتاده القوافل بطول ١٠١٨كم وتنعدم على هذه الطرق المياه إلا مياه الآبار التي يعرفها العرب البدو رعاة الإبل.

المؤرخ أجاثراخيديس الإسكندري حوالي ١١٦ق.م:

كتب كتاباً هاماً سماه (الطواف حول البحر الإرثيري "الأحمر"). وصف فيه سواحل الجزيرة العربية كدليل للملاحين والتجار، ليعرفهم بالمسالك المرجانية والمدن الصالحة لرسو مراكبهم. وذكر فيه الطيب هو من نتاج سبأ البلد الغني، ويسهب في وصف البذخ والترف الذي يعيش فيه حكامها والقصور الرخامية المتعددة الطوابق التي يسكنونها. وذكر ملاحظة هامة أنهم سكوا العملة الذهبية منذ القرن الثالث قبل الميلاد على نمط العملة الأثينية. وكانت قوافلهم تصل إلى غزة وأرض فلسطين، وكانوا يتبعون الوزن البابلي في معاملاتهم.

المؤرخ أرتيميدورس الإسكندري: حوالي ١٠٤ق.م

أصله من أثينا وهاجر إلى الإسكندرية ليدرس في جامعتها. واعتمد في كتاباته الجغرافية على الكتابات التي سبقته ثم أضاف إليها مما سمعه من التجار والجاليات العربية الموجودة في الإسكندرية. وتكلم عن سبعة أقوام من العرب هم الأنباط والإجرائيون والمازيتيون والسبئيون والدبائيون والمعنيون والجرهائيون (سكان الإحساء).وفصّل في كيفية انتقال التجارة بين القبائل العربية والصعوبات التي تعترضهم في خفر القوافل. ووصف بعض القبائل التي تعمل بالزراعة كأهل سبأ الذين بنوا السدود الكبيرة، وبرعوا في تقسيم المياه. وقال إن للأنباط إلى جانب قوافلهم البرية لهم مراكب تجوب المتوسط والبحر الأحمر وتصل تجارتهم إلى أثينا وروما والإسكندرية وأنطاكية. وكان أهل هذه البلاد يتكلمون العربية واليونانية يقصد التجار منهم.

المؤرخ إسترابون حوالي ٣٠ق.م

كتب إسترابون أعظم كتاب عن الجغرافية، عرّف بالتفصيل عن الأماكن الشهيرة بالجزيرة العربية. كان الجزء الأول من كتابه أقرب إلى الدليل السياحي للتجار ولرجال السياسة وللقادة العسكريين. ذكر فيه أن الأنباط كانوا يتبعون نظاماً ملكياً أقرب إلى النهج الديمقراطي(١٥). وجاء في كتابه الحملة التي قادها إيليوس جالوس أول والٍ روماني على مصر. وكان صديقاً شخصياً لإسترابون، وهو الذي حدثه عن دوافع أغسطس القيصر الروماني للسيطرة على مداخل البحر الأحمر، ولإخضاع العرب الأنباط وجذبهم إلى جانبه وهم الذين جنوا ثروات هائلة من تجارة الطيب والتوابل والأحجار الكريمة. وقد وعده الأنباط بالوصول إلى مكة ولكنهم حنثوا بوعدهم وخانهم الأمير النبطي صالح (Syllaeus) الذي رافق الحملة فأضل الطريق عن قصد، لذلك نال جزاءه القتل.

وتكلم استرابون عن شخصية الملك النبطي عبادة الثالث (Obados) وعن ضعف شخصيته.

المؤرخ الروماني بلينوس الأكبر (٢٣ – ٧٩م)

ألف كتاباً في التاريخ الطبيعي (الجغرافية) تناول فيه شؤون الجزيرة العربية. وهذا الكتاب أول كتاب له هدف علمي خالص، فهو ويصف الجزيرة العربية بأمانة، مقدراً مساحتها وثرواتها معتمداً على وثائق وسجلات جامعة الإسكندرية. ويشير إلى السواحل وما فيها من رؤوس وخلجان وكثرة الجزر المرجانية على ساحل البحر الأحمر، ويتحدث عن السكان والقبائل ويذكر بعض الأحداث التاريخية. ويذكر طول الطرق بين مدن القوافل البرية

والصعوبات في نقل اللبان والطيب والقرفة، كما يتكلم عن أثمان الطيب وأنواعه، ووسائل غشه عندما يصل إلى شواطئ المتوسط، ويذكر أن السبئيين والأنباط أصبحوا من رعايا روما المخلصين.(١٦)

الجغرافي العظيم كلاوديوس بطليموس (٩٠ - ١٦٨م)

ولد في صعيد مصر وعاش في الإسكندرية . وكتب كتابه الدليل الجغرافي عام ١٥١م. ورسم فيه صورة للعالم القديم وخريطة معتمداً على جغرافية مارينوس الصوري (٢٠٠ - ١٢٠ق.م) وصححها طبقاً لقياسات إيراتوستين وهيبارخوس النيقي، الذي اعتمد على الحسابات الرياضية، ولم يكتف بروايات التجار مثلما فعل سلفه مارينوس لأن التجار كانوا يضيفون إلى المسافات ويهولون ما يلاقونه في ارتيادهم الطرق من أجل منافعهم المادية. وفي كتابه أول وصف دقيق لطريق التوابل الآتي من حضرموت باتجاه تدمر، وطريق الحرير الذي ينطلق من شرق الصين باتجاه روما. وجعل خط العرض ٣٦° الذي ينطلق من جزيرة ساردیس ويتوجه نحو الصين، هو طريق الحرير. أما طريق التوابل، جعله عندما يصل إلى تدمر وينطلق نحو مدينة يثباكوس (مدينة الثورة) ومنها إلى حران. أما توجهه نحو الجنوب من بعد تدمر يقطع جبال سالمانوس Salmanos (جبال حوران) وتوجه نحو الجنوب إلى البتراء، ومنها إلى العربية الصحراوية ويتابع إلى ملتقى خط العرض ٣٠´ ٣٠° وخط الطول شرقاً، ويصف كل المدن التجارية الواقعة على خط العرض ٧٠° شرقاً ويذكر تدمر وبصرى الشام والبتراء ومعان والعلا (ديدان) ودومة الجندل ويثرب ومكة والطائف ونجران ثم يصل إلى صنعاء حتى حضرموت وهذه الطريق أول من وصفها وسماها طريق

الطيب والتوابل هو بطليموس الذي جعل طريق التوابل يبدأ من مدينة صحار جنوباً. كما رسم بطليموس على خريطته أنهر كثيرة وسلاسل جبال وعدداً كبيراً من أسماء المدن التي تغيرت فيما بعد(١٧).

التواصل بين عرب الجنوب وعرب الشمال:

لم تعق الصحارى والجبال تحركات القبائل والتجار. وإن أدت إلى قيام دويلات منفصلة بعضها عن بعض. وقد دفنت بعض هذه المدن في بطون الأرض ولم تظهر أخبارها وهي تنتظر التنقيب الأثري كما هو الحال في مدينة الفاو، التي تعد نقطة تلاقي ثقافات عرب الجنوب وعرب الشمال والحبشة وسورية كلها التي تواجدت في هذه البقعة من الأرض.

ظهرت دول مختلفة في اليمن أهمها دولة معين وسبأ وقتبان وحضرموت. وكان لهذه الدول أنظمتها الخاصة وتجاراتها على طول الطريق المحاذي للبحر الأحمر والمؤدي إلى فلسطين وجنوب بلاد الشام. وحوالي منتصف القرن ٥ ق.م ذابت دولة معين في دولة سبأ، وصارت لهم علاقات مع الآشوريين. وعندما دون اليهود التوراة، كانت هذه العلاقات على أشدها، فجعل اليهود أن لهم صلات تجارية وحضارية مع دولة سبأ من قبل، علاقة الملك سليمان مع الملكة بلقيس. كان السبأيون يلقبون ملكهم بالمكرب أي الكاهن الأكبر، حتى بعد أن تحولوا من دولة دينية إلى دولة مدنية، وعندما استلم الحكم في سبأ ملوك من حمير وبنوا سد مأرب تولى الحكم ملك يهودي يدعى ذو نؤاس فاضطهد اليهود المسيحيين وأحرقهم بالنار حوالي عام ٥٢٥م، مما دفع الأحباش إلى احتلال اليمن، وأهملت الزراعة وانهار سد مأرب عام ٥٤٢م، وتراجعت التجارة البرية وتحولت الطرق التجارية نحو

الساحل الشرقي للخليج العربي، وزادت الصلات التجارية مع فارس التي أرسلت قوات لتحرير اليمن من الأحباش وحكم اليمن سيف بن ذي يزن. كان الإله الأكبر عند عرب الجنوب هو (إل) الإله الكنعاني، وكان الثالوث الإلهي المقدس عندهم (إله نجمة الصبح "الزهرة" والقمر والشمس) ولكن أكبر كل هذه الآلهة هو الإله (إيل) الذي لا يمثل بشكل لأنه رمز القوة.

كان للمعابد دور كبير في الحياة الثقافية والاقتصادية والاجتماعية عند العرب. وكان هناك ترتيب كهنوتي، الكاهن الأكبر وخدام المعبد، وهناك الزوار والحجاج وبغايا المعبد، وهن كاهنات مقدسات قد أهنّ أنفسهن بالبغاء من أجل الإلهة الزهرة (١٨). وكان هناك حج وسعي وطواف، والإحرام جزء هام من شعائر الحج. وكان الحج يتم حول معبد مأرب البيضاوي الشكل. وقد كشفت البعثة الأمريكية برئاسة جاك ركمانز في عمان المعابد المربعة التي تختلف عن المعابد في اليمن، حيث كان يوجد في المعبد مذبحان وبئر إلى جانبه صهريج لتأمين مياه السقاية كما في البيت الحرام مكة(١٩). وكانت لدى أهل سبأ صناعة الحلي وصياغة الذهب والفضة، ولدينا مصباحاً برونزياً رسم على سطحه الأعلى صورة جدي يقفز، ولدينا أختام عليها صور معارك بين حيوانات وآلهة، تذكرنا بالتواصل الحضاري بالأختام الآشورية والبابلية.

كوّن عرب الشمال حضارتهم بالتعاون والتواصل مع عرب الجنوب. ووجدت لديهم مراكز إدارية ودينية مثل مكة (ماكروبا) ويثرب (المدينة) والطائف، ولم تختف هذه المدن لاستمرار طرق التجارة تنقل البضائع بين اليمن وبلاد الشام والعراق ومصر ومن هذه الطرق:

- الطريق التجاري الغربي:

يوازي البحر الأحمر، ويأتي من صنعاء وحضرموت ويستمر نحو الشمال ماراً بمدائن صالح والعلا ودومة الجندل والبتراء ثم إلى بصرى الشام وتدمر.

- الطريق التجاري الشرقي:

يمتد من عمان Magan جنوباً ويمر بالبحرين (Dilimun) ثم يتجه نحو الجرهاء ثم ينحرف نحو الغرب ليمر بالحيرة وبصرى الشام ودمشق وتدمر.

وعلى هذين الطريقين قامت دويلات الحدود العربية.

عندما قضى تراجان (٩٨ ــ ١١٧م) على دولة الأنباط وجعل بصرى مركزاً للمقاطعة العربية، قضى بذلك على أول دولة عربية (البتراء) بلغت أوج ازدهارها في الفترة السابقة لاحتلال سورية عام ٦٥ق.م، ووحدت بين المدن المحيطة بها. وساهمت في تطور وازدهار المدن التالية حين سقوطها (بمكة ويثرب، وبصرى وتدمر والحيرة والحضر).

مدينة مكة

كانت مكة المحطة الرئيسية على الطريق التجاري الغربي (طريق الطيب والبخور) في منطقة حجرية جرداء، لا زرع فيها ولا حولها، وكان اقتصادها يقوم على واردات الحج والتجارة وعلى نبع ماء (ماء زمزم). وقد اختلط تاريخها بالخرافات والأساطير المتضاربة.

تذكر بعض الروايات أن مكة كانت قائمة منذ عهد آدم. وأن بناء الكعبة كان منذ أيام إبراهيم الخليل (١٧٥٩ق.م) مستشهدين بقوله تعالى: (إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة). وبكة اسم آرامي يعني الأرض المنخفضة.

ويربطون بين مكة ودعاء إبراهيم لربه: (وإذ قال إبراهيم ربِّ اجعل هذا البلد آمناً). ولكن ابن إسحق في كتابه عن السيرة لا يؤكد هذا، يقول: «وقد زعم بعض أهل العلم نشر الله تعالى بني إسماعيل بمكة بين أخوالهم من بني جرهم، وكانوا إذ ذاك الحكام وولاة البيت، وكانوا كذلك بعد (ثابت بن إسماعيل) فلما ضاقت عليهم مكة، انتشروا وانبسطوا في الأرض، وابتغوا المعاش والتفسح في الأرض، حتى ملكوا البلاد ونفوا عنها العماليق، ومن كان ساكناً بلادهم.»(٢٠)

ثم استقرت خزاعة في مكة وفي زمنهم أصبحت مكة أكبر مدن الحج خصوصاً بعد زوال دولة تدمر ٢٧٣م. ونظموا أمور البيت وجدوده وزوده بأصنام جديدة جلبوها من بلاد الشام أو من الحضر، وحفروا الآبار على طرق التجارة والحج.

وزالت سيادة خزاعة عن الحج عندما تزوج قصي بن كلاب جليلة بنت حليل بن حبشية الخزاعي، وكان سيد خزاعة. ولما مات خلفه قصي على البيت، وقسم مكة أرباعاً وأسكن قريشاً منازلهم في بطائح مكة حول البيت، وأسكن بقية قريش والأحابيش وثقيف في ظواهر مكة وسموا قريش الظواهر. كانت قريش لقاحاً يحكمها مجلس شيوخ قبلي، تدار أمور مكة من (دار الندوة) فما تنكح امرأة ولا رجل من قريش إلا في دار الندوة، ولا يعقد لواء حرب أو سلم إلا فيها، ولا يختن غلام إلا بها. وكان أمر سفر القوافل وإعطاء الإيلاف يقرر بها(٢١). وصارت قريش تجتمع في دار الندوة للخير والشر، وكان أصحاب الرأي من هم فوق الأربعين يجتمعون بها. وكانت الزعامة فيها لبني عبد الدار وبيدهم أربع وظائف: (الحجابة، والسقاية، والرفادة، واللواء)(٢٢).

ونتيجة الثراء واختلاف مصالح الناس انقسم المجتمع المكي إلى قسمين وظهر حلفان:

حلف المطيبين:

جميعهم من أفخاذ قريش، عقدوا في مكة حلفاً من بني أسد بن عبد العزى، وبني زهرة بن كلاب، وبني تميم بن مرة، وبني الحارث بن فهر بن مالك، وبني عبد مناف، وطالبوا بإعادة توزيع الوظائف السابقة الذكر.

حلف الأحلاف:

لم يكن هذا الحلف من قريش فقط، بل من كل أهل مكة، وعقدوا بينهم تحالفاً لمضاهاة الحلف الأول وكانوا بزعامة بني مخزوم، وبني سهم، وبني عدي بن كعب، وبني عبد الدار زعماء مكة. وعارضوا تغيير أي شيء عقده وأوصى به قصي بن كلاب وتحالفوا ألا يتخاذلوا، ولا يسلم بعضهم بعضاً، حتى ولو أدى ذلك إلى فنائهم.(٢٣)

ولكن نتيجة الصراع الذي دام عدة عقود، استقر الرأي بينهم إلى أن يكون بيد الأحلاف (الحجابة واللواء والندوة) وتظل بيد المطيبين (السقاية والرفادة) وتعطى خفارة القوافل للأحابيش برئاسة أبو عامر المعروف بالراهب(٢٤) وكان رجلاً مسيحياً، وكانت مثله بني أسد بن عبد العزى نصارى قريش.

وأصبحت مكة قبل البعثة المحمدية، بعد أن هاجر إليها بعض النصارى الذين اتهمهم الإمبراطور جوستنيان (٥٢٧ ــ ٥٦٤م) بالمانوية ونفاهم إلى الجزيرة العربية، وكان معظمهم من أصحاب الحرف اليدوية لأن العرب كانت تأنف من الصنعة. وفتح عداس غلام عتبة بن ربيعة دكاناً للحدادة

ولصناعة السيوف، وأصله نصرانياً من أهل نينوى (٢٥)، ومعه عمل العاص بن هشام والوليد بن المغيرة وهما من أشراف قريش وصارا يعملان بالحدادة(٢٦).

كانت مكة تستورد الحبوب من الطائف مما دفع تجار قريش إلى استثمار فائض أموالهم بالزراعة في أرض الطائف، وصارت مكة والطائف تعرفان بالقريتين(٢٧).

واشتهرت الطائف بصناعة الخمرة وصناعة الزبيب ودباغة الجلود. وصارت تعيش في اقتصاد مركب من الزراعة والتجارة والحرفة. وصار أمية بن خلف يعمل بصناعة الفخار من أجل تأمين مستلزمات الزيت والدبس والخمرة.(١٥٦)

وأصبحت مكة بحاجة إلى سلطة تتولى أمور الناس المعاشية، فظهر حلف الفضول.

ما هو حلف الفضول؟

تذكر المصادر العربية أن عرب اليمن تفرقوا بعد خراب سد مأرب، وهذا خبر فيه خلاف عند المؤرخين. فهاجر ثعلبة بن عمرو بن عامر وقومه إلى مكة، وأقاموا فيها وصارت تجارة مكة بيد أهل اليمن. يذكر مونتغمري وات: «أن التجارة بين مكة واليمن صارت حكراً بيد أهل اليمن، وأنها بين مكة وبصرى الشام صارت حكراً لقريش وأن حملة أبرهة بن الصباح كانت من أجل السيطرة على تجارة الشام.» ولكن حملته فشلت بسبب الطاعون الذي أصابه وجنده سنة ٥٧٣م وعاد إلى اليمن خائباً وعلل أهل مكة سبب فشله إلى قدرة الله الذي يحمي هذا البلد الأمين بفضل أمانتهم وعدلهم. وكان أبرهة يركب

فيلاً، وبعد نصف قرن من الزمن نزلت سورة الفيل على الرسول الكريم: ﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل؟ ألم يجعل كيدهم في تضليل؟ وأرسل عليهم طيراً أبابيل! ترميهم بحجارة من سجيل، فجعلهم كعصف مأكول﴾.

وعلى أثر فشل الحملة جاء رجل إلى مكة وباع سلعة إلى العاص بن وائل السهمي في الطائف فماطله الثمن حتى يئس الرجل فجاء إلى مكة وأخبر الناس بظلامته، فلم تنصفه قريش، فاجتمع بعض العقلاء من قريش بدار عبد الله بن جدعان وكان عبد الله من كبار التجار وله مصالح كبيرة في مكة من ذلك له جواري يساعين بالزنا، وهذه من صناعات أشراف قريش(٢٩) وطالب المجتمعين بنصرة المظلوم من الظالم، وأظهروا للناس حلف الفضول وكان بزعامة بني هاشم والمطلب ابني عبد مناف، وزهرة بن كلاب، وتيم بن مرة، وبني الحارث بن فهر. ولم يشترك معهم بنو عبد شمس وبنو نوفل(٣٠). وقام أصحاب هذا الحلف بخفارة القوافل، وعقدوا الاتفاقات التجارية (الإيلاف) مع ولات المدن، وصارت الرفادة والسقاية لبني هاشم وهي تقديم الطعام والشراب للحجاج ضيوف الله، يضيفونهم أيام منى في كل موسم، وكان الحاج بعد ذلك يشتري منهم الدقيق، ويعطيهم من كل ذبيحة فخذها، ويجمعون ذلك كله بعد يوم النحر ويقدمونه للحجاج مجاناً(٣١).

وكان الماء ينقلونه قبل الحج على الإبل ويسكبونه في حياض من أدم ثم يضعونها في منّاء مكة، ويسقون بها الحجاج، أما زمزم فلكونه ماء مراً، فإنهم ينقعون فيه الزبيب ليصبح حلواً سائغاً، وكان عبد المطلب يجلب الزبيب من كرمه في الطائف.

وأصبح الأحابيش من أنصار حلف الفضول وكان على رأسهم الحليس واسمه عبد مناة بن كنانة وكان نصرانياً ومعه عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى، وابن عمه ورقة بن نوفل بن أسد(٣٢) وكان الرسول يناصرهم قبل نزول الرسالة عليه.

ديانات أهل مكة:

يرتبط الدين بفكر أهل المدينة الذين يعيشون بها، وبمدى تطور العصر الحضاري، وللدين دائماً وظيفة هي مساعدة الناس على تماسهم الاجتماعي، وإعطاء الإنسان الأمان، والغريب أن الاعتقاد الديني يبقى ثابتاً رغم أنه نشأ في مراحل سابقة ولكنها متخلفة حضارياً، إلا أنه اعتقاد يبقى ثابتاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. ولكن الناس لا يقتفون ديناً واحداً لأن الاعتقاد يأتيهم عن طريق التواصل الحضاري من مسافات بعيدة، وما ظهر للناس مرة وآمنوا به يبقى مستمراً ولو بعد حين.وكان في مكة ثلاثة أديان هي:

دين الحنفية:

الأحناف هو الصابئة الذين كانوا على دين إبراهيم، وكانوا في مكة وحران، وقرب البصرة في دست ميسان (المندائية) ويطلق السريان لفظة الأحناف على الوثنية في حران، والأحناف يدعون إلى دين الفطرة الأولى قبل نزول الوحي الإلهي على الرسل. وقد أمر الإمبراطور جوستنيان أن لا يبقى من الأحناف في سلطان الروم إلا اعتمد وتنصر أو قتل(٣٣)، فهربوا إلى بصرى الشام ومنها إلى مكة، وحملوا معهم طقوسهم ومعتقداتهم، وكانوا أكثر رقياً من أحناف مكة الذين لا يعرفون إلا عبادة الأوثان، وجرت بين أحناف حران وأحناف مكة مناظرات حول الروح وخلودها والمادة التي هي منبع

الشر، وعلى عكسها الروح التي هي مصدر الخير والصلاح. ولكن الروح عندما لبست ثوب الجسد صارت كالحمامة الواقعة في شبكة الصياد، والشبكة هي الجسد الفاني(٣٤). وكان أحناف مكة يزعمون أن البيت بناه لهم إبراهيم الخليل، بينما يزعم أحناف حران أن البيت هو بيت زحل، وقد بني منذ أيام نوح عليه السلام. قال موسكاتي: «هناك أتباع للمذهب الغنوصي (العرفاني) وهم الذين يدعون الحنوفون وقد خلدتهم نقوش القبور والقصائد الجاهلية.»(٣٥)

والأحناف هم الذين نشروا االكهانة بين العرب. قال الجاحظ: «إنهم يسمعون في الجاهلية من أجواف الأوثان همهمة، وهذه فتنة، وما أشك أنه كان للسدنة حيل للتكسب، والأعراب لا يتحاشون من الإيمان بالهاتف، بل يتعجبون من رد ذلك.»(٣٦) وكانت للأحناف الغلبة في مكة لولا أن معظمهم من الغرباء، ومن قبائل لا سطوة لهم كقريش.

دين النصرانية:

عرفت مكة دين النصرانية، عندما أرسل الإمبراطور الروماني كونستانيوس سنة ٣٥٦م أول سفارة إلى جنوب الجزيرة العربية برئاسة الأسقف ثيوفيليوس الإسكندري، فأنشأ ثلاثة كنائس، واحدة في ظفار والثانية في عدن والثالثة في نجران، وكانواعلى مذهب أصحاب الطبيعة الواحدة. وفي نجران عيّن الأسقف فيميون وكان سريانياً، وفي نجران بنى ملك اليمين أبرهة بن الصباح كنيسة القليس التي تعد من عجائب الأبنية عند العرب، وأهل نجران كانوا مسيحيين وهم الذين عذبوا بنار الأخدود.

يذكر الإخباريون العرب، أن أبرهة بن الصباح أراد هدم الكعبة، فخرج إليه رجل من أشراف اليمن يقال له (ذونفر) ودعا قومه إلى حرب أبرهة،

فهزمه أبرهة وأخذه أسيراً، وحبسه عنده، ووصل إلى أرض خثعم فعرض له نفيل بن حبيب الخثعمي، فهزمه أبرهة وأخلى سبيله شريطة أن يدله على الطريق. وحينما وصلوا إلى الطائف عرض أبرهة على مسعود بن معتب مع رجال من ثقيف: «أيها الملك نحن عبيدك سامعون لك، مطيعون، وليس بننا هذا البيت الذي تريد، البيت الذي تريده بمكة، ونحن نبعث معك من يدلك عليه، فتجاوز عنهم.»(٣٧)

وصل أبرهة إلى مكة راكباً الفيل، وقابل عبد المطلب رسول أبرهة حناطة الحميري، وعرضوا عليه أموال تهامة على أن يرجع عنهم ولا يهدم البيت، فأبى أبرهة، وعاد عبد المطلب إلى قريش وأخبرهم بالخبر، وقال أن للبيت رب يحميه، وخرج من مكة، وأصيب جيش أبرهة بمرض لعله الطاعون أو الكوليرا، فتراجع ونجا البيت.

كان مسيحيو نجران يختلفون عن نصارى مكة الذين يقولون أن المسيح عبد الله ورسوله، وأنه من روح الله وليس هو الله، ولأنه طاهر لم يرتكب خطيئة حمله الله إليه، ولم يصلب ولكن شبه لليهود أنه قد صلب. ولكن مسيحيو نجران يقولون أن المسيح هو ابن الله الحق، وقد صلب ومات وقام من الموت بعد ثلاثة أيام وكان دمه فداء للبشرية للخلاص من الخطيئة الأولى.

كان ورقة بن نوفل قس النصارى بينما كان عثمان بن الحويرث رجلاً مسيحياً نصبه الإمبراطور البيزنطي هرقل (٦١٠ ـــ ٦٤١) أسقفاً على مكة. يقول ابن هشام: «كان عثمان من جملة من تنصروا وصارت بينه وبين هرقل صلات، واتفق معه أن يدفع له من يدخل الشام من قريش، ولكن وجهاء قريش النصارى رفضوا ذلك ووقف في وجهه الأسود بن أسد بن عبد العزى،

وخرج عثمان وعاد إلى الشام، ومات هناك على يد عمرو بن جفنة الملك الغساني.»(٣٨)

ولكن العرب المسلمين لم يفرقوا بين النصارى وبين المسيحيين، لأنهم لا يعرفون المسيحيين وإنما يعرفون النصارى الذين أسقفهم ورقة بن نوفل وكان ابن عم خديجة بنت خويلد زوجة رسول الله (ص) وعندما مات ورقة حزن عليه الرسول حزناً شديداً.

عبادة الأوثان:

عبادة الأوثان عبادة قديمة، تزاولها كل الشعوب القديمة في مصر والهلال الخصيب والهند وغيرها من البلدان وكانت جرهم في مكة ويعبدون الأوثان، وعندما أجلتهم خزاعة عن مكة أبقوا على عبادة الأوثان من أجل الحج، وكانت إلى مكة تأتي قوافل الحجيج من أقاصي البلاد، فقال شاعر جرهم: (٣٩)

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا   أنيس ولم يسمر بمكة سامر

بلى نحن كنا أهلها فأزالتنا   بها حرم آمن، وفيها المشاعر

فسحت دموع العين تبكي لبلدة   بها حرم آمن، وفيها المشاعر

وفي زمن عمرو بن لحي سيد خزامة، جلب من ساحل البلقاء تمثالين أحدهما لرجل وآخر لامرأة، من حمة أتاها فاستحم بها فبرأ، فقال لأهلها: ما هذان الصنمان؟ قالوا: نستغيث بهما المطر، ونستتصر بهما على العدو! فجلبهما ووضعهما حول البيت، في مكان الصفا والمروة، وصار السعي بينهما من شعائر الحج، ومع مرور السنين نسجت حولهما الأسطورة التالية: «يقال أن رجلاً من جرهم اسمه (أساف بن يعلي) كان يتعشق (نائلة بنت زيد) من جرهم من أرض

اليمن، فأقبلا حجاجاً، ودخلا الكعبة، فوجدا غفلة من الناس، وفي خلوة في البيت، ففجر بها فمسخا، ووجدوهما مسخين، فعبدتهما خزاعة وقريش ومن حج البيت من العرب، وكانت تقدم القرابين أمامهما حتى ظهور الإسلام.»(٤٠)

كانت هذه التماثيل موجودة في كل مدن الحج القديمة، وأمامهما تنحر القرابين وقد فصلت في شعائر هذه العبادة في معبد هيرابوليس.

كانت الكعبة مملوءة بالأصنام وأعظمها صنم هبل. يقول ابن عباس: «أنه جلب من هيت من أرض الجزيرة، وكان من عقيق أحمر على صورة إنسان مكسور اليد اليمنى، أدركته قريش فجعلوا له يداً من ذهب، وكان أول من نصبه خريمة بن مدركة بن الياس بن مضر، لذا كان يقال له (هبل خزيمة).

أما تمثال ود، فقد حمله عوف بن عذرة بن قضاعة، وضعه في دومة الجندل، وسمى ابنه عبدود. قال ابن الكلبي: «كان تمثال ود، تمثال رجل كأعظم ما يكون عليه حلتان، متزر بحلة ومرتد بأخرى، وعليه سيف قد تقلده، وتنكب قوساً، وبين يديه حربة فيها لواء (علم) وجعبة فيها نبل.»(٤١) هذا الوصف للتمثال ينطبق على تماثيل ملوك الحضر، الموجودة الآن في متحف بغداد.

كانت قريش تعبد ثالوثها المقدس (اللات والعزى ومناة) وكانوا يقولون في الطواف حولها: اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، إنهن الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترجى. وقال أوس بن حجر لمن يحلف باللات والعزى:

وباللات والعزى ومــن دان دينهــا   وبــــالله أن الله مــــنهن أكبــــر

وعندما نزلت سورة النجم(١٩ - ٢٣) قال تعالى: (أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، ألكم الذكر وله الأنثى؟ تلك إذاً قسمة ضيزى! إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم، ما أنزل الله بها من سلطان.)

كانت هذه الأصنام توجد في مدن القوافل العربية، وقد نقلت من أماكن بعيدة قارن هيرودوت بين اللات العربية وجعلها صنو الآلهة أورانيا إلهة علم الأنواء، وكانت اللات صخرة مربعة بالطائف، وكان سدنتها من ثقيف، وكانت ثقيف تخص اللات كخاصة قريش للعزى، وقد ادعى ابن الكلبي أن رسول الله قال: (لقد أهديت للعزى شاة عفراء، وأنا على دين قومي.(٤٢)

إن اللات هي إلهة الشمس عند الصفويين، وهي إلهة همدان وهي كوكب الزهرة عند عرب الشمال وقريش، وكانت قريش وعرب الشمال يسمون (تيم اللات) وكانت الأصنام يطاف بها في مكة فيشتريها الأعراب، ويخرجون بها إلى بيوتهم. وما من رجل في قريش إلا وفي بيته صنم إذا دخل يتمسح به، وإذا خرج يتبارك به، وكان أهل اليمن يقفون في يوم عرفة في غير موقف قريش لأنهم كانوا يعبدون الصنم يعوق، وكانت حمير ومن والاها يعبدون نسراً. وعندما أسلم عكرمة كان يطوف على بيوت قريش، ويكسِّر الأصنام لأن أبوه كان يعملها في الجاهلية ويبيعها.(٤٣)

هذه العادة، وضع التماثيل الصغيرة في البيوت كانت موجودة لدى الشعوب القديمة، وقد دلت التنقيبات الأثرية على شيوع هذه العادة، وكانت تعمل من الطين ثم تشوى في النار. كان صنم العزى سادنه أفلح بن النصر السلمي، وعند الاحتضار دخل عليه أبو لهب ليعوده وهو حزين، فقال له: ما لي أراك حزيناً؟ قال: أخاف أن يضيع العزى من بعدي! قال أبو لهب: «ن تظهر العزى، كنت قد اتخذت عندها يداً بقيامي عليها، وإن يظهر محمداً على العزى، وما أراه يظهر فإنه ابن أخي.»(٤٤)

وكان بين الأحناف وعبدة الأوثان صراع ديني. قال شاعر الأحناف مخاطباً عمرو بن لحي الخزاعي:

يـــا عمـــرو لا تظلـــم بمكـــة إنهـــــا بلـــــد حـــــرام

ســـائل بعـــاد، أيـــن هـــم؟ وكــــذلك تحتــــرم الأنـــام

وبنـــــي العمـــــاليق الـــــذين لهـــم بهـــا كـــان الـــسوام

دين قريش:

كان عرب الشمال يتقربون إلى الأصنام لتقربهم إلى الله زلفى، وكانت لهم طرق متعددة في العبادة، وكانت حسب رواية عبد الله بن عباس على دينين:

الدين الأول دين الحمس:

سميت الحمس حمساً، لتشددهم في دينهم، وكانت قريش من الحمس وكانوا إذا أنكحوا عربياً امرأة منهم اشترطوا عليه، أن كل ولد يولد له أن يكون من الحمس، وكان الحمس يعظمون الأشهر الحرم، أشهر الحج وأيام التجارة لا يقاتلون فيها.

وكان الحمس يطوفون بالبيت وعليهم ثيابهم، وكان أهل المدر منهم إذا نووا الحج نقبوا نقباً في ظهر البيت، ويدخلون منه ويخرجون، ولا يدخلون من باب له سقف، ولم تكن نساؤهم ينسجن ولا يغزلن الشعر، ولا يسلئن السمن إذا أحرموا، ولا يأكلون الزبد، ولا يلبسون الوبر ولا الشعر، ولا يستظلون به ما داموا حرماً، وإنما يستظلون بالأدم وعندما احترقت الكعبة وهدمها الوليد بن المغيرة، وبناها، صارت قريش تخلع النعل والخف إعظاماً لها، إلا أن الرسول خالفهم، وصار المسلمون يلبسون الخف، والحمس هم قريش وخزاعة وثقيف.(٤٥)

وكان دعاء الحمس والحلة جميعاً(لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك)

الدين الثاني دين الحلة:

كان الحجاج الذين يأتون إلى مكة من خارج قريش، وكانوا إذا دخلوا مكة، تصدقوا بكل ثوب وحذاء لهم. وكانوا يطوفون حول البيت في ثياب جديدة، والفقراء منهم يطوفون بالبيت عراة في النهار والليل، أما النساء فيطفن في الليل. والوقوف في عرفة في بداية الحج. والحلة هم، تميم وعقيل وسليم وكل قيس بن عيلان ما عدا عدوان. وتلبية الحلة كتلبية الحمس (لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك).

يثرب (المدينة) أهم مدن الحجاز الحضارية

كانت يثرب مجتمعاً متعدد الثقافات والعروق والديانات. وكانت إحدى المحطات التجارية الهامة في الحجاز، وكانت في صراع مع مكة، وقد توطن فيها اليهود العرب من بني النضير وبني القينقاع وكونوا جاليات لهم في حصون تحيط بيثرب أهمها (حصن خيبر). وهاجرت إليهم قبائل عربية من اليمن بعد خراب سد مأرب قبائل الأوس والخزرج، وامتزجوا بالقبائل اليهودية السابقة وآمنوا بدينهم، وعملوا في الزراعة لتوفر المياه في يثرب، وصاروا المنافسين الأكثر خطورة على تجار قريش(٤٦) لتصديرهم الحبوب والتمور. وكان منهم الحدادون الذين يصنعون ما يحتاج إليه الفلاحون ويصدرون أدوات الحراثة والفؤوس والسيوف، وقد اشتهر منهم خباب بن الأرث الذي كان قيناً (حداداً) يعمل في صناعة السيوف(٤٧). وكان يهود بني قينقاع يعملون بصياغة الذهب والحلي ولهم سوق خاص بهم يعرف بسوق الصاغة(٤٨) وكان تجار بني سليم يبيعون السمن في أسواق المدينة.

سكن الأوس في الحي الجنوبي من يثرب بينما سكن الخزرج في الحي الواقع في الشمال الغربي من يثرب مجاورين بني قينقاع. وفي حيهم الكنيس والمدراس. وفيه كان علماء اليهود وأحبارهم يتذاكرون ويتدارسون تفاسير التوراة والتلمود ويقضون فيما شجر بينهم(٤٩). وكان مالك بن العجلان سيد الحيين الأوس والخزرج بعد أن قتل زعيم اليهود ابن فطيون وخرج إلى الشام يطلب نصرة ملوك غسان(٥٠) ونصروه فسميت قبائل اليمن بالأنصار.

ولكن جرى صراع بين الأوس والخزرع بمساعي اليهود، وصارت السيادة للأوس وكان سيدهم أبو عامر عبد بن عمر بن صيفي بن النعمان المعروف بالراهب، قد اعتنق المسيحية بتأثير الغساسنة، مما أثار حفيظة الخزرج وسيدهم عبد الله بن أبي سلول العوفي الذي كان ذا ميول يهودية، وكاد أن يصبح ملكاً على يثرب لولا الهجرة المحمدية سنة ٦٢٢م.

دخل الرسول يثرب في شهر تموز سنة ٦٢٢م، واستقبله الأهالي بالترحيب.

والسؤال المطروح: ماذا فعل الرسول حين وصوله إلى يثرب؟

خاطب الناس بلغة تصالحية، وكتب صحيفة وطد فيها التآخي الاجتماعي داخل المدينة وضواحيها، منطلقاً أن الدين لله، وأنه لا إكراه في الدين، وأن المؤمنين إخوة لا فرق بين اليهودي ولا النصراني ولا المسلم ولا المشرك. وان هذا الأمر يترك لله يوم الآخرة، قال تعالى: «إن الذين آمنوا، والذين هادوا والنصارى والصابئين والمجوس والذين أشركوا، إن الله يفصل بينهم يوم القيامة.» سورة الحج: ١٧. ودون صحيفة حدد فيها حقوق المهاجرين والأنصار واليهود والنصارى، وحدد الواجب على كل طرف مشترك في الصحيفة مما حفظ لهم دينهم وأموالهم، على أن لا ينصروا

مشركاً على مؤمن، لأن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم، وأن يثرب حرام جوفها على أهل هذه الصحيفة، وأن الجار كالنفس، وأن الله جار لمن برّ واتقى. ثم ألقى خطبة بعد أن بنى جامع قباء قال فيها: «أما بعد أيها الناس، قدّموا لأنفسكم، تعلمن والله ليصعقنّ أحدكم ثم ليدعن غنمه ليس لها راع، ثم ليقولن له ربه – وليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه ــ ألم يأتك رسول فبلغك؟» عمّ الاطمئنان قلوب الجميع.

وعلى الصعيد الاجتماعي والاقتصادي ماذا فعل الرسول؟

شكّل الرسول قافلة تجارية مشتركة بين جميع السكان الأنصار والمهاجرين وانطلقت إلى الشام فكانت أول جمعية تعاونية، بالمفهوم الحديث، وعندما عادت القافلة من بصرى الشام، وسمع الناس الأجراس، وكان الرسول يصلي بالناس، فانفضوا من الصلاة تاركين الرسول وحده بالمسجد مع ست عجائز أرامل، ولكن الله خاطبه: «وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضّوا إليها، وتركوك قائماً. قل: ما عند الله خير من اللهو والتجارة، والله خير الرازقين.» سورة الجمعة: ١١.

غيّر الرسول اسم يثرب وسماها المدينة، لكي تضاهي مكة التي تدعى القرية، وهكذا بدّله الله بالقرية مدينة، كوّن فيها أول حكومة إسلامية، ومنها انطلقت رايات الجهاد، باتجاه العالم كله. حاول الرسول قطع طريق التجارة على قريش، فكمن لهم في بدر وقاتلهم وانتصر عليهم. ولكن قريش في السنة الخامسة للهجرة (٦٢٧م) جاءت تغزو المدينة ولكنها فشلت وعرفت المعركة (بغزوة الخندق)،وقويت معنويات المسلمين، وصاروا يهددون أطراف الدولة البيزنطية، ونقل مشركو قريش خبر المسلمين إلى الإمبراطور هرقل، وكان

على دومة الجندل أكيدر بن عبد الملك الكندي وكان يدين بالمسيحية، وصار يعترض قافلة المدينة فغزاهم الرسول، وكان بين المدينة ودومة الجندل ثلاثة عشر يوماً، ولكن الأكيدر هرب عندما سمع بخبر غزوة المسلمين لدياره، احتلت الدومة صلحاً، ومكث الرسول فيها عدة أيام، ثم عاد إلى المدينة بعد أن استخلف فيها ابن أم مكتوم(٥١).

اعتز الرسول بهذا الانتصار،وخذل اليهود وزعيم الخزرج نصير اليهود عبد الله بن أبي سلول الذي جاهر بالقول: ليخرج محمد والمسلمون من بلادنا ويعودون إلى مكة، فأوحى الله تعالى: (قال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا، أو لتعودن في ملتنا.) سورة إبراهيم: ١٣. فرد الله عليهم: (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون.) سورة الممتحنة: ٨. وصار اليهود يظهرون العداء والمكر للرسول ويجهرون بالقول ضده، فقام الرسول بحملة على حصونهم وغزا حصن خيبر وفتحه الإمام علي رضي الله عنه وهنا تغيّر الخطاب القرآني: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾. سورة آل عمران: ٨٩.

صار الرسول يتحيّن الفرصة ويمهد لفتح مكة، وإذا بالوحي الإلهي يبشره: «وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق.» سورة الحج: ٢٧. وعلى أثر فتح مكة في السنة ١٠هـ/ ٦٣٠م أصبحت الجزيرة العربية كلها خيارات مفتوحة أمام الرسول (ص) وأرسل الرسول قادته إلى اليمن وعمان واليمامة والبحرين، وكلها قبلت في الإسلام.

كيف كان الوضع الاجتماعي والاقتصادي في الحجاز قبل الإسلام؟

كان في الحجاز عدة تشكيلات اقتصادية تسيطر على الوضع الاجتماعي والطبقي، (الرعي والفلاحة والصيد والحرفة والتجارة) وكان معظم الناس يعيشون في قبائل وأحلاف.

وكانت القبائل تتجول في البوادي تبحث عن المراعي وعيون المياه. وهذه القبائل لا تمايز طبقي فيما بينها. وكان نتاجها الحيواني لا يكاد يكفيها. وما يزيد عن حاجتها تبيعه في الأسواق لتجلب من المدينة ما يلزمها. وأفضل من صور هذه الحالة هو العلامة ابن خلدون الذي قال: «اعلم أن المعاش هو عبارة عن ابتغاء الرزق والسعي في تحصيله وكسبه وله وجوه وأصناف. والمعاش:

- إما إمارة، وهذه ليست بمذهب طبيعي في المعاش، لأنها تعتمد على أحوال الجبايات السلطانية.

- وإما أن يكون من الحيوان الوحشي باقتناصه وأخذه برمية من البر أو البحر ويسمى ذلك اصطياداً.

- وإما أن يكون من الحيوان الداجن باستخراج فضوله المتصرفة بين الناس في منافعهم كاللبن واللحم من الأنعام، والحرير من دودة القز، والعسل من النحل، أو يكون من النبات في الزرع والشجر بالقيام عليه وإعداده لاستخراج ثمره بالفلاحة والحراثة.

- وإما أن يكون الكسب من الأعمال الإنسانية كالحرف والصنائع المختلفة.

- وإما أن يكون بالتقلب بالبضائع في البلاد وعرضها في الأسواق وذلك يسمى تجارة(٥٢).

وكانت مهمة الإنسان العربي إنتاج ما يعيله ويعيل أسرته، وتأدية ما عليه من أتاوات وفرائض، فالإنتاج كانت غايته الإبقاء على النشاط الحيوي للإنسان، وكانت غاية الاقتصاد في البادية والحاضرة الريع العيني، هي الحالة الأساسية، أما الريع النقدي فكان الحالة الاستثنائية، ولكن كان البدو يحتقرون الحرفة، وينظرون لأصحابها بالدونية، والمكانة العليا للمحارب الذي يشترك بالغزو والنهب والسلب، وكان الفلاح يعاني من اضطهاد البدو له.

ومع ذلك كان في الحجاز ثلاث طبقات:

- **طبقة الأحرار:**

لم يكن في البادية أحرار وعبيد، فالقبيلة كلها أحرار، ولا يوجد تمايز طبقي بينهم وكذلك في المدينة كان التجار والحرفيون يشكلون الطبقة الحرة المنتجة، كالصناعة وصنّاع السيوف.

- **طبقة الفقراء:**

وهؤلاء يوجدون بكثرة في البادية وكانوا يدعون بالصعاليك، وقد ظهر بينهم فرسان وشعراء كالشنفرى وعروة بن الورد وعنترة، ولا زالت أخبارهم تروى بين الأعراب والحضر. أما في المدينة فكان معظم الحدادين والنجارين والدباغين وصانعي الفخار والنساجين والحاكة والرعاة في البادية.

- **طبقة العبيد والإماء:**

لم يكن هؤلاء يشكلون طبقة كما هي حالة الرقيق في اليونان، وإنما كان شيوخ القبائل وكبار التجار يشترون عبيداً ليشتغلوا خدماً في البيوت أو يحرسون الشيخ، ولم يكن لهؤلاء أدوات إنتاج خاصة بهم، وإنتاجهم غايته حفظ حياتهم واستمرار نوعهم.

وضع المرأة والأسرة:

كانت الأسرة تتبع النظام الأبوي، فأفراد القبيلة يعتقدون أنهم أبناء جد واحد، وهذا أساس العصبية، وكانت اليد العليا للرجل، لأنه هو الذي يعيل الزوجة والأولاد، وكانت بعض النسوة لهن مكانة في المجتمع أو في القبيلة، كما حال خديجة بنت خويلد، كانت صاحبة تجارة وتسهم بالقافلة، أو كالشاعرة الخنساء، وعرف بعض الرجال بأسماء أمهاتهم مثل: ابن أم مكتوم، وعمر بن هند، وعمرو بن كلثوم وغيرهم.

كان وضع المرأة في مجتمع مكة متميزاً، ولكن الإسلام حد من حرية المرأة الحرة الثرية، ورفع شأن المرأة الأمة المؤمنة. وكانت المرأة في الجالية لها الحق في تزويج نفسها لمن تشاء، ولكن بموافقة الولي الذي لم يكن ليحد من حريتها.

جاء الإسلام ونظم عملية الزواج والطلاق، وكان الزواج ذا أنواع متعددة أذكر منها:

- زواج المتعة:

هو زواج كامل الأركان، فيه صداق، وإيجاب وقبول، والتعهد بما ينتج عنه، إلا أنه يحدد بزمن معين. وإذا انتهى أجل الزواج تم الطلاق والفرقة وكان للتجار زوجات في مدن الشام واليمن، أو لتجار اليمن زوجات في مكة والمدينة. وعادة زواج المتعة سارية بينهم. ويقال أن الرسول (ص) حرّم زواج المتعة أثناء حصار خيبر. وبما أن الإمام علي (ع) كان مشغولاً بالفتح لم يحرم زواج المتعة، والذي حرمه هو الخليفة عمر بن الخطاب، بعد وفاة الرسول وأثناء خلافته.

- نكاح الخدن:

يكون الرجل صديقاً للمرأة وتحمل منه، وينسب الولد لأبيه، وكان أهل الحجاز يستحلونه، ويحرمون الزنا وما ينتج عنه.(٥٣)

أسواق الحجاز في الجاهلية والإسلام:

تكلمنا من قبل عن الطرق التجارية في الهلال الخصيب ومصر، وعن طريق الحرير الآتي عبر الهضبة الإيرانية، والتقائه بطريق التوابل والبخور الآتي من الحجاز وشبه الجزيرة العربية، وقد حمل معطيات الحضارات القديمة، من دين وفلسفة وفن. ولم تكن الحجاز بمعزل عن ذلك التواصل الحضاري. قال أرنولد توينبي: «وإذا اعتبرنا الحجاز امتداداً طبيعياً لسورية من جهة الجنوب، لأمكن إدخال الإسلام في نطاق العقائد الدينية التي ظهرت في تلك البقعة، اليهودية والمسيحية.»(٥٤) كان رأي توينبي صائباً لأن المدينة المنورة ومكة كانتا إحدى المحطات التجارية الهامة في الحجاز، على طريق التوابل والبخور والعطور، وكانت تتحكم في تجارتها قريش واليهود، وكانت صلاتهم مع بصرى الشام والحيرة وصنعاء وعمان متواصلة وقد انتقل إليهما الإرث الحضاري القديم في الهلال الخصيب، قبل أن يعتنق عمرو بن عدي ملك الحيرة المانوية، وأن يتعلم أبو سفيان الزندقة (المانوية) من الحيرة من خلال سفراته التجارية المتكررة(٥٥). وكان ذلك يتم عن طريق الإقناع، وهذه سمة التجارة. وعندما قامت الدولة العربية الإسلامية وأصبحت دولة عالمية (إمبراطورية) قامت بلمّ شعث الحضارات السابقة (الفارسية والبيزنطية) فحققت للبشرية وحدتها المرتجاة التي لا يمكن أن تتحقق من دون مشاركة الوحي الإلهي، وإلا أصبح التاريخ عند كل امرئ مجرد حكاية

يرويها أبله(٥٦). أطلق الإسلام طاقات المجتمع العربي من عقالها، لتستجيب لتحديات المستقبل، وتم انتقال المفاهيم الفكرية بين الأمم والأجيال المتلاحقة، إما عن طريق الصراع بين الفرق والمذاهب المختلفة، وهذا ما نسميه صراع الأجيال والامتداد الثقافي عبر الزمان، أو عن طريق فرض الشرائع والقوانين الإنسانية.

لم تكن أسواق الجزيرة العربية موحدة البضائع بل كانت تختلف باختلاف الطرق التي تحمل إليها الصادرات والواردات وطبقاً لهذه النظرة يمكننا القول أنه كان في الجزيرة العربية طريقان:

- طريق البخور والطيب:

يمتد من موانئ اليمن الجنوبية العربية (حضرموت وعدن) وعلى طول السواحل البحرية أو بواسطة القوافل البرية، من اليمن ونجران باتجاه مكة ويثرب والبتراء وبصرى ودمشق. ومن البتراء يتفرع طريقان:

- أحدهما: يمر عبر سيناء باتجاه غزة ومنها إلى إفريقية.

- والثاني: يستمر نحو الشمال باتجاه القدس ومنها إلى صور وأنطاكية.

وعلى هذه الطرق هناك أسواق، صنعاء ونجران وعكاظ ومكة وحباشة والمشقر ويثرب ودومة الجندل وحجر (مدائن صالح) ودير أيوب وبصرى الشام وأذرعات (درعا) ودمشق وتدمر.

وفي هذه الأسواق أماكن متخصصة للعطارين والبزازين، والذهب والفضة وسوق البزورية، وفي هذه الأسواق كانت تعقد مجالس للخطابة ومناشدة الشعر، والبيع والشراء، ومجالس الشراب، فهي مجالس ثقافية موسمية، وتغلب على هذه الأسواق تجارة البخور والطيب إلى جانب السلع الأخرى.

- **طريق التوابل والحرير:**

يبدأ هذا الطريق من عمان إلى البحرين، ويساير الخليج العربي في البحر وفي البر، ويوصل إلى الأبلة (البصرة) ومنها إلى الحيرة (الكوفة) ويكمل الطريق باتجاه بصرى الشام وتدمر، وفيه أسواق منها سوق صحار والشحر وأبين وظفار وفي هذا السوق كل واردات الهند والصين، والغالب تجارة التوابل والحرير.

وكانت الأسواق العربية كلها الغربية والشرقية لها نظام واحد، حين يتبايع الناس ويشترون، كانوا يتبادلون البضائع والخبرات والمعارف وكل ما كان يثير الفضول من أحاجي تحتوي على حل مسائل رياضية أو معارف علمية، ولكن أسواق الحجاز تمتاز بخاصية تتفرد بها هي أنها تقام في الأشهر الحرم (ذي القعدة وذي الحجة وصفر ورجب الفرد) ولا يجوز في هذه الأشهر القتال أو الصيد أو الأخذ بالثأر، وكانت هذه الأسواق لها مواقيت، رحلة الصيف إلى الشام والعراق ومصر، ورحلة الشتاء إلى اليمن والحبشة.

كيف كان يجري البيع والشراء في الأسواق العربية؟

كانت هناك ثلاثة طرق:

١ - طرقة الرمي بالحصى أو العصا: كأن يقول البائع للمشتري، ارم هذه الحصاة فعلى أي ثوب أو سلعة وقعت فهي لك بدرهم أو شاة(٥٧).

٢ - طريقة المنابذة: كأن يرمي أحد الرجلين بسلعته وينبذ إليه الآخر سلعته، ولا ينظر أحدهما إلى سلعة الآخر، فيكون ذلك بيعها من غير نظر(٥٨).

٣ - طريقة الملامسة: بيع الثوب أو السلعة عن طريق الملامسة، بأن يكون مطلوباً. ويقول البائع للمشتري: بعته لك بكذا، ويكون لك الثوب مقام النظر، ولا يكون لك خيار إذا رأيته(٥٩).

كانت هذه الطرق في المزادات الموسمية، وعندما جاء الإسلام أبطل هذه البيوع الفاسدة، وأصبح البيع قائماً على العرض والطلب، والمساومة بين البائع والمشتري. والبيع بالخيار.

سوق عكاظ:

كان هذا السوق على طريق صنعاء، قرب الطائف، وهو سوق لقيس بن عيلان وثقيف، وكان يبدأ بهلال ذي القعدة، فإذا هل الشهر خرجوا من الطائف إلى سوق عكاظ، ثم يتوجهون منه إلى سوق المجنة، وهو سوق بأسفل مكة على بعد بريد منها، وهذا السوق لكنانة في أول صفر نحو سوق ذي المجاز وهو سوق لهذيل عن يمين الموقف من عرفة.

كانت سوق عكاظ سوقاً عربية لا تخضع لأي نفوذ أجنبي كأسواق هجر وعمان (تخضع لفارس) وسوق بصرى وغزة (تخضع للبيزنطيين). وأهمل سوق عكاظ في الإسلام سنة (١٢٩هـ/ ٧٤٨م) وبعد قيام سوق المربد في البصرة، وظل هذا السوق يقوم ما كان يقوم به سوق عكاظ، وانتهى سوق المربد في خلافة محمد الأمين (٢٠٤هـ/ ٨٠٨م). روى أبو علي القالي عن محمد بن أبي نصر أنه رأى مجنوناً قاعد على ظهر الطريق إلى المربد، فكلما مر به ركب قال:

ألا أيها الركب اليمانيون عرجوا ... علينا فقد أمسى هوانا يمانيا

نسائلكم: هل سال نعمان بعدكم؟ ... حبذا بطن نعمان واديا

كانت للأسواق عند العرب وظيفة معرفية، فقد كان النابغة الذبياني حكم الشعر في عكاظ. وقد تكلم أبو الفرج الأصفهاني (٨٩٧ ـ ٩٦٦م) عن علوم العرب وآدابهم في سوق عكاظ قال: «فأما علم العرب، الذين كانوا يتفاخرون

به فعلم لسانهم، وأحكام لغتهم، ونظم الأشعار وتأليف الخطب في عكاظ. وكان لهم معرفة بأوقات المطالع وأوقات مغارب النجوم، وعلم بأنواء الكواكب وأمطارها، على حسب ما أدركوه بفرط العناية، وطول التجربة، لاحتياجهم لمعرفة ذلك في أسباب المعيشة، لا على طريق تعليم الحقائق.

– أما علم الفلسفة فلم يمنحهم الله شيئاً منه، ولا هيّأ طبائعهم للعناية به.

– أما الشعر فكان ديوان العرب، ومنتهى حكمتهم، والمنظوم من كلامهم، والمقيّد لأيامهم، والشاهد على أحكامهم، به يأخذون وإليه يصيرون.»

وعن المعرفة المتوفرة في وسق عكاظ قال الصفدي: «بل ما كان للعرب ما تفخر به إلا السيف والضيف والبلاغة، وكانوا كل حول يتقاطرون إلى سوق عكاظ، يتبايعون، ويتناشدون، ويتفاخرون، ويتعاكظون، وقد بلغ من كلف العرب بالشعر أن عمدت إلى سبع قصائد من الشعر، (المعلقات السبع) كتبوها بماء الذهب في القباطي المدرجة، فقيل لها المذهبات وقيل لها المعلقات لأنها كانت تعلق بأستار الكعبة.

فإن قيل: هل كان العرب يكتبون؟ قلنا إن العرب كانوا يكتبون ويقرؤون قبل الإسلام، وكانت اللغة الآرامية هي اللغة المتداولة بينهم، ومنها طوروا الخط الكوفي أو الكرشوني (القرشي).

قالوا: أما الكتابة فحكوا أن ثلاثة نفر من طيئ كانوا على دين عيسى، وضعوا الخط السرياني (الآرامي) وقاسوا هجاء العربية على هجاء السريانية، فتعلمه قوم من الأنبار (الحيرة) وجاء الإسلام في مكة وليس أحد يكتب بالعربية غير بضعة عشر إنساناً.»(٦٠)

أرى أن هذا النص لا يتطابق مع السياق التاريخي. لقد كانت مكة مدينة تجارية وفيها جاليات متعددة، وكانت الكتابة فاشية بين التجار، فكيف أنه لا

يوجد في مكة إلا بضعة عشر إنساناً يقرأ ويكتب، إنه من نوع الهجوم المبطن على الثقافة العربية قبل الإسلام ليقولوا كان العصر عصر ظلام وجاهلية، وأن الإسلام سبب نهوض هذه الأمة. نعم، للإسلام دور كبير، في تسريع خطى التقدم، ولكن هذا لا ينفي وجود تطور حضاري ومعرفي قبل الإسلام وكانت الأسواق في الجاهلية تسهم بالتقدم الثقافي. قال أبو عمرو بن العلاء: «كان الشاعر في الجاهلية يقدم على الخطب لفرط حاجتهم إلى الشعر، الذي يقيّد مآثرهم واتخذوا الشعر مكسبة، ورحلوا إلى الأسواق، وتسرعوا إلى أعراض الناس وصار الخطيب عندهم فوق الشاعر.»(٦١)

كان سوق المربد في الجهة الغربية من البصرة إلى البادية، وكان فيه محبس الإبل ومربطها، وفيه بيادر التمر، في هذا المكان القذر، الكثير الذباب، كان علماء البصرة يتناظرون مع علماء الكوفة والأعراب، وكان يتواجد في هذا السوق جلّ علماء العربية أمثال: (خالد بن صفوان التميمي، والخليل بن أحمد الفراهيدي وأبو عمرو بن العلاء، وسيبويه، والجاحظ، كانوا يتناشدون الأشعار، ويحكمون الأعراب، لضبط القواعد، ويستمعون إلى متى بن بشر، والسيرافي وأبي سليمان السجستاني، حول تأثير المنطق اليوناني في النحو العربي، وكان الحوار هو سبيل العلماء والتجار إلى المعرفة.

كيف أصبح حال الوضع الاقتصادي والاجتماعي بعد الإسلام؟

ازدهرت طرق القوافل التجارية داخل الجزيرة العربية،وحرمت بعض المدن مثل اليمامة من التجارة مع بلاد فارس، مما أضعف حال العباد، وصاروا يعتمدون على جباية الزكاة. وبعد وفاة الرسول (ص) عام (١١هـ/ ٦٣٣م) وصارت المدينة تستحوذ على زكاة بني حنيفة وبني تميم، قامت حروب الردة، وتضايق بعض سادات العرب وضُعفت حالتهم التجارية،

وضيقت عليهم الدولة الخناق. قال أبو العلاء المعري: «وكان ربيعة بن أبي أمية بن أبي خلف الجمحي، جرت له مع أبي بكر الصديق خطب، فلحق بالروم ويروى أنه قال قبل رحيله:(٦١)

لحقت بأرض الروم غيـر مفكـر بترك صلاة من عـشاء ولا ظهـر

فلا تتركوني من صـبوح مدامـة فما حرّم الله السلاف مـن الخمـر

إذا امترت تـيم بـن مـرة فـيكم فلا خير في أرض الحجاز ولامصر

فإن يك إسلامي هو الحق والهـدى فـإني قـد خليتـه لأبـي بكـر

هنا شعر أبو بكر الصديق بضرورة فتح البلاد المجاورة للتخلص من الأزمة الاقتصادية الداخلية. وأعلن الجهاد، وتوفي فجأة ولكن عمر بن الخطاب خلفه فأكمل الفتوح.

وبدأ اليهود يثيرون الفتن بين المسلمين في المدينة وما حولها في الحصون التي كانت لهم فأمر عمر بإخراجهم من مدن الحجاز، فهاجروا إلى عمان واليمن وقليل منهم إلى أرض الشام. وشق ذلك على بعض اليهود، فقال شاعر يدعى سديد بن أدكن الخيبري(٦٣):

يصول أبو حفـص علينـا بـدرة رويـدك المـرء يطفـو ويرسـب

فلو كان موسى صادقاً ما ظهـرتم علينا، ولكـن دولـة ثـم تـذهب

ونحن سبقناكم إلى المين فـاعرفوا لنا رتبة البادي الذي هـو أكـذب

مشيتم على آثارنـا فـي طريقنـا وبغيتكم في أن تـسودوا وترهبـوا

قتل الخليفة عمر بن الخطاب، بتدبير خارجي، بعد أن فتح سواد العراق، وبلاد الشام ومصر، واتسعت رقعة الإسلام، وكثرت الأموال التي

بدأت تنهال على المدينة المنورة، وصارت قريش ترى أن سواد العراق كله بستانها، وأن الدنيا ملكها، واستلم عثمان بن عفان الخلافة، فتسلطت بنو أمية على أمور المسلمين وأموالهم، وقتل عثمان بثورة شعبية، من فقراء المسلمين، وتولى الخلافة علي بن أبي طالب، ونقل العاصمة إلى الكوفة، لأن المدينة لم تعد تصلح مكاناً للعاصمة، وقامت صراعات داخلية بين المسلمين من مصالح اقتصادية وقبلية، وجرت حربين (الجمل وصفين) وقتل الإمام علي وتولى معاوية الحكم وجعل الخلافة وراثية، ونقل العاصمة إلى دمشق. وفي زمن أمية فتحت السند والهند وبلاد ما وراء النهر، وإفريقية والأندلس، كل ذلك حدث بعد قرن من وفاة الرسول (ص) فتكونت الإمبراطورية العربية، التي سيطرت على تجارة العالم القديم.

ماذا حدث للمسلمين من الناحية الفكرية والعقائدية؟

على أثر السقيفة، وتعيين أبي بكر الصديق، وانعزال الإمام علي في منزله، وانحاز سلمان الفارسي ومعه نفر من أصحاب محمد(ص) أمثال عمار ابن ياسر وأبي ذر الغفاري وحذيفة بن اليمان، وعبد الله بن مسعود، والمقداد ابن الأسود، وأبي الدرداء، ومعهم لفيف من الصحابة، أطلق عليهم عمر بن الخطاب اسم (النجباء من آل محمد) انحازوا إلى الإمام علي. ووقفت حلقة فكرية أخرى مناوئة لهم مثل أبي هريرة وكعب الأحبار وشعبة بن المغيرة، والعلاء الحضرمي وزيد بن ثابت، وأبي سفيان انحازوا إلى عثمان، وصاروا يتعرضون لكتاب الله بالتفسير. وكانت مواضيع النقاش بين الحلقتين الفكريتين تدور حول ذات الله وحقيقة توحيده، وحرية الإنسان وحقيقة إرادته، وعن عدل الله، والجنة والنار، وهل يمكن رؤية الله يوم القيامة؟ كان كعب الأحبار، وعبد الله بن سلام وأبو هريرة، يستخدمون موروثهم اللاهوتي الإسرائيلي

السابق، ويضعون الأحاديث وينسبونها لرسول الله، ومن أخطر المسائل التي تعرضوا لها حقيقة الوحي الإله، ومسألة العقل الإنساني في مواجهة الحكم. وكادوا أن يفتنوا الناس، لولا وقوف عمر بن الخطاب ومنع أبا هريرة من الحديث في المدينة، وأجبر كعب الأحبار بالنزوح إلى بلاد الشام.

وفي زمن عثمان بن عفان، بدأ جمهور من المسلمين يحكّمون العقل، ويطالبون الناس بتقبل حقيقة الوحي، وابتدعوا طريقة لفهم وتأويل النصوص الظاهرة، لأن لكل نص ظاهر لا بد له من باطن يرافقه. قال أبو العلاء المعري: «كانت عقول العرب في الجاهلية، تجنح إلى رأي الحكماء، وما سلف من كتب القدماء، إذ كان أكثر الفلاسفة لا يقولون بنبي، وينظرون إلى من زعم ذلك بعين الغبي.»(٦٤)

كثرت الفرق الإسلامية التي صارت تعشش في أطراف الدولة الإسلامية، فاليمن كانت معدن للمتكسبين والمحتالين بالدين، وظهر جماعات يزعم كل قائم بها أنه القائم المنتظر، ويجبي الأموال. ومن هؤ لاء المنصور بن رستم بن الحسين بن حوشب النجار المعروف بالصناديقي. ظهر في بلاد همدان من اليمن عام (٢٧٠هـ/ ٨٨٤م) مدعياً أنه القائم، وكانت القيان تلعب بالدف وتقول: (٦٥)

خذي الدف يا هذي والعبي	وبثي فضائل هذا النبي
تولى نبي بني هاشم	وقام نبي بني يعرب
فما نبتغي السعي عند الصفا	ولا زورة القبر في يثرب
إذا القوم صلّوا فلا تنهضي	وإذا صاموا فكلي واشربي

فكيـــف حللـــت لـــذاك الغريـــب وصـــــرت محرمـــــة لـــــلأب

ألـــيس الغـــراس لمـــن ربـــه ورواه فـــي عامـــه المجـــدب

ومـــا الخمـــر إلا كمـــاء الـــسحاب طلـــق، فقدســـت مـــن مـــذهب

وعلى الجانب الشرقي من شبه الجزيرة العربية، على الطريق الثاني (طريق التوابل والعطور) ظهرت فرقة القرامطة، وكانوا يزعمون، أن إمامهم يخرج من هذا البيت (هجر) في البحرين، ويقيمون على باب ذلك البيت فرساً بسرج ولجام، ويقولوا لعوامهم (هذه الفرس لركاب المهدي، يركبها متى ظهر).

وفي أطراف العراق، وفي مركز حضاري قديم (البصرة) ظهرت فرقة تحكّم العقل هي فرقة المعتزلة، وتجعل العقل شاهد على صحة الوحي الإلهي، والعقل عندهم هو الذي يحسن ويقبح الأشياء، وظهرت بمصاحبة هذه الفرقة طائفة صوفية يرون أن الحقيقة لا يمكن الوصول إليها بالذوق والتجربة الروحية، فالحب هو الذي يدفع بالنفس الإنسانية للتقرب من الله، ويستخدمون بعض الشطحات للتعبير عن وجدهم الروحي.

كان ذلك يتم في مجال الوحي الإلهي، وظهر في القرن الرابع الهجري تيار عقلي صرف يعلي شأن العقل على الوحي الإلهي، كالفيلسوف والطبيب أبو بكر محمد بن زكريا الرازي (المتوفي ٩٢٥م) الذي اعتبر أن الديانات من نوع الميتافيزيقا وأن مواضيعها لغو لا مقابل له في الواقع، وأن الدين هو عزاء للبؤساء، ولكي يخلص الناس من شعورهم بوحدتهم وعزلتهم في هذا العالم الرحب والظالم معاً. وطالب الدين بالتنازل للعلم في معرفة وتفسير العالم،وأن الحقيقة المطلقة صعب إدراكها، ولكن علماء الكلام ردوا عليه وعلى أمثاله من الدهريين الذين لا يملكون الحقيقة المطلقة التي جاءنا بها الوحي الإلهي.

كيف يمكننا التوفيق بين العقل والنقل؟

جرت محالات جادة للتوفيق بينهما. ولكن كل تلك المحاولات حظيت بالإخفاق والفشل الذريع. فأبو حامد الغزالي (المتوفي ٥٠٥هـ/ ١١٠٩م) يكتب كتاباً لإلجام العوام عن علم الكلام. وذلك رداً على المعتزلة لتعليتهم شأن العقل، وكتاباً ضد الفلسفة سماه (تهافت الفلاسفة) جعله لردع الفلاسفة، ولكن بأدلة مستمدة ومستعارة من كتب الفلاسفة، من كتابات يحيى النحوي. وقام الفيلسوف الأندلسي ابن رشد بالرد على الغزالي بكتاب سماه (تهافت التهافت) ولا زال السجال قائماً.

طرق الحجاز بعد القرن الرابع الهجري:

أصبحت مدن الحجاز تكاد تكون خالية بعد القرن الرابع الهجري، إلا بعض المدن ظلت معمورة بفضل الحج، وزالت الأسواق القديمة منذ منتصف القرن الثاني الهجر، عندما هاجرت معظم القبائل العربية إلى البصرة ووالكوفة وإلى سقي الفرات.

زال سوق عكاظ وذي المجنة وصار بدلاً منها سوق المربد (قرب البصرة). وأصبحت طرق الحج غير مأمونة بسبب تعديات الأعراب، الذين كانوا يتجولون في البوادي، إما خوفاً من عقاب الدولة مثل القرامطة، أو أن بعض القبائل لم تستطع مفارقة حياة البداوة. وأصبحت الدولة عاجزة عن حماية الطرق القديمة.

كتب أبو الفداء بن كثير في حوادث سنة (٣١٧هـ/ ٩٢٩م): «خرج ركب العراق وأميرهم منصور الديلمي، فوصلوا إلى مكة سالمين، وتوافت الركوب، من كل مكان، وجانب وفج، فما شعروا إلا بالقرمطي قد خرج

عليهم في جماعته يوم التروية، فانتهب أموالهم واستباح قتالهم وهو يقول: (أنا الله وبالله، أنا أخلق الخلق وأفنيهم أنا) . وأمر أن تدفن القتلى في بئر زمزم، وهدم قبة زمزم، ثم أمر بأن يقلع الحجر الأسود، وجاء رجل قرمطي وضرب الحجر الأسود بمثقل في يده وقال: أين الطير الأبابيل؟ وأين الحجارة من سجيل؟ ثم قلع الحجر الأسود، وأخذوه إلى بلادهم، فمكث عندهم ٢٢ سنة حتى ردوه سنة ٣٣٩هـ /٥٩١م، بعد أن كتب المهدي الفاطمي إلى أبي طاهر الجنابي زعيم القرامطة، بأن يعيدوا الحجر الأسود فأعادوه.»(٦٦)

وسأتخذ رحلة ابن جبير (محمد بن أحمد الكناني) نموذجاً لمسير الطرق في القرن السادس الهجري. زار الحجاز (٥٨٠هـ /١٠٨٥م) ووصف جهات الحجاز وما بها من فرق وشيع، وقد تفرقوا على مذاهب شتى، وما يلاقيه الحاج من غرامة وضنك حتى عودته إلى بلاده.

رحلة ابن جبير في الحجاز:

قال: «عن طريق البحر، راكب هذا السبيل راكب خطر ومعتسف غرر ولكن أهوال البحر والأمواج أهون من أهوال الطريق البري». جاء إلى الإسكندرية بحراً من المغرب. ثم اجتاز الطريق نحو القاهرة في البر، ثم انتقل بنهر النيل من القاهرة إلى قوص ومنها إلى ميناء عيذاب نحو مدينة جدة.

وصف الطريق بين جدة ومكة:

نزل ابن جبير في ميناء جدة في شهر آب سنة ١٠٨٥م، فوجدها قرية ضئيلة الشأن، أكثر بيوتها أخصاص من القصب، وفيها فنادق مبنية من الحجر والطين، وفي أعلاها بيوت من الأخصاص المسقوفة، بالخشب ليستراح بها في الليل من أذى الحر الشديد. ومن الآثار التي شاهدها ابن

جبير، قبر أمنا حواء، ولكنه شك في صحة القبر، فقال: «ليس عندنا نص من القرآن المجيد، ولا من الحديث النبوي الصحيح، وسكان جدة من الأشراف العلويين (حسينيون وحسينيين وجعفريين) وأنهم يعيشون في شظف من العيش لضمور اقتصاديات جدة المدينة القديمة ذات صهاريج الماء، وهي جباب تحفظ مياه الأمطار، وهي تعود إلى زمن الفرس، ويباع الماء العذب للناس، وكان يُغلى ويُصفى مما علق به من قذورات من تراب وغيره.» إذن تراجعت الحالة الاقتصادية في جدة، لانقطاع سبل التجارة القديمة.

وصف مكة المشرَّفة:

دخل إلى مكة يوم الخميس (٢٠ آب ١٠٨٥م) دخلها من باب العمرة، وبدأ بوصف الكعبة المشرفة، من سقفها المجلل بالحرير الأسود، وجوانبه الأربعة من الحرير الأخضر، وهي واقعة في وسط المسجد الحرام، وفي وسط الحرير الأخضر، رسم بالحرير الأحمر مكتوب (إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة) وكسوة الكعبة كلها أربع وثلاثون شقة تأتي من مصر. ثم يخرج إلى الأسواق فيبدي لنا تعجبه من الرخاء في الأسواق، ومن كثرة الأطعمة والأرزاق، والحلوى والفواكه والحبوب بأنواعها. ولكن ابن جبير يتعجب من تحويلهم للمسجد الحرام إلى سوقاً تجارية للبيع والشراء. وهذا برأيه لا يتفق مع الشرع الحنيف، مع أن كل المعابد القديمة كانت سوقاً (حران، ومنبج، وتدمر) بل إن إبراهيم الخليل ناجى ربه قال: «فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون.» فالحج وظيفته الأساسية هي جلب المنافع التجارية للمدينة التي يحج إليها وكانت البضائع تعرض في باحة المعابد القديمة.

كان الطريق إلى مكة ملتقى الصادر والوارد. ولم يكن لها من المتاجر إلا أوان الموسم. ففيها أثناء الحج مجتمع أهل المشرق والمغرب، وفيها يباع من الذخائر النفيسة كالجواهر والياقوت وسائر الأحجار الكريمة، ومن أنواع البخور كالمسك والكافور والعنبر والعود، والعقاقير الهندية، إلى الأمتعة العراقية واليمانية والسلع الخراسانية، والبضائع المغربية، والأسواق النافعة، تعم جميعها بالمنفعة. كل ذلك في ثمانية أيام بعد الموسم.

من وصف ابن جبير ندرك أن المنافع تجلب إلى مكة فقط وقت الحج، وحركة القوافل ضعفت عما سبق، لأن الطرق البرية فيها من الوعورة والخطر ما أبعد التجار عنها. ولكن الجانب الشرقي من الجزيرة العربية (طريق الخليج) أصبح هو العامر، وغدت مراكب الهند هي التي تحمل الصادر والوارد بين البصرة وسيراف وعمان.

ولأعطيك فكرة عن وعورة الطرق التجارية القديمة، أنقل لك ما جاء في وصف الطريق عند ابن جبير بين مكة والمدينة.

يوم الرحيل إلى المدينة المنورة:

قال ابن جبير: «كان مسيرنا من مكة نحو المدينة من محمل حج العراق بالزاهرة، وهو على نحو ميلين من مكة، فأقمنا بالزاهرة ثلاثة أيام، وفي يوم الخميس ٢٢ ذي الحجة الموافق ٣ نيسان أقلع موكب الحج، على تؤدة ورفق، بسبب البطء والتأخير. ونزلنا على نحو ٨ أميال بمقربة من بطن مرة وهو واد خصيب كثير النخل ذو عيون فوارة، سيالة تسقى منها أرض تلك الناحية، وعلى هذا الوادي قرى كثيرة، وعيون ماء، ومنه تجلب الفواكه إلى مكة. ثم أقلعنا ظهر يوم السبت ٢٤ ذي الحجة الموافق ٦ نيسان ونزلنا

بمقربة من عسفان ثم أسرينا إليها نصف الليل، وصبحناها بكرة يوم الأحد ٧ نيسان، وهي بسيط من الأرض بين جبال، (يقصد عسفان) وبها آبار معينة (شحيحة) تنسب إلى الخليفة عثمان، وشجر المقل فيها كثير، وبها حصن عتيق البنيان، فاجتزناها بأميال، ونزلنا مريحين، فلما كان الوقت بعد صلاة الظهر أقلعنا إلى خليص فوصلناها بعد العشاء، وهي بسيط من الأرض، كثيرة حدائق النخل، وبها عين فوارة، قد أحدثت لها أخاديد في الأرض مسربة يستقي منها على أفواه كالآبار. وأصبح الناس مقيمين يوم الاثنين للإرواء، واستصحاب الماء، فلما كان يوم الاثنين بعد الصلاة أقلعنا من خليص مرتحلين، وتمادى سيرنا إلى العشاء الآخر، ونزلنا وأخذنا غفوة خفيفة ثم ضرب الكوز (الكرس) فأقلعنا وأسرينا إلى الضحى من النهار، ثم نزلنا مريحين إلى أول ظهر يوم الثلاثاء، ثم أقلعنا من منزلنا فوصلنا إلى وادي السمك، فنزلناه مع العشاء الآخرة، وأصبحنا به مقيمين يوم الأربعاء لتجديد حمل الماء من مستنقعات به، فأقلعنا منه أول ظهر الأربعاء، ثم اجتزنا مع الليل عقبة وهي محجرة كؤود، ذهب فيها من الجمال عدد كثير، ثم نزلنا في بسيط من الأرض، ونمنا إلى نصف الليل، ثم رحلنا في صحراء ذات رمال، فمشت فيها الجمال دون مقطرة لانفساح طريقها، ثم رحلنا في صحراء ذات رمال، ثم نزلنا مريحين يوم الخميس ٢٩ ذي الحجة (١١ نيسان) وبيننا وبين بدر مقدار مرحلتين، فكان أول الظهر رحلنا إلى مقربة من بدر فنزلنا بائتين، ثم قمنا قبل نصف الليل فوصلنا بدراً وقد ارتفع النهار، وبدر قرية فيهاحدائق نخل متصلة، وبها حصن مرتفع فوق ربوة، يدخل إليه من بطن واد بين الجبال، وببدر عين فوارة وموضع القليب الذي كان بإزائه الوقعة الإسلامية التي أغرت الدين، وأذلت المشركين، هو اليوم نخيل، وعن يسار الداخل منها

إلى الصفراء، وعند نخيل القليب مسجد وبين بدر والصفراء بريد، والطريق إليها في واد، بين جبال تتصل بها حدائق النخيل والعيون فيها كثيرة، وهو طريق حسن، واستهل هلال ليلة السبت ١٤ نيسان (٥٨٠هـ/ ١٠٨٦م) ثم أقلعنا، ونزلنا بالصفراء بعد صلاة العشاء الآخرة، فأصبحنا يوم السبت مقيمين مريحين، ليتزود الناس منها بالماء، ويأخذون استراحة إلى الظهر، ومنها إلى المدينة المنورة ثلاثة أيام. وأقلعنا ظهر يوم السبت، وتمادى السير بنا إلى بعد صلاة العشاء الآخرة، والطريق في واد متصل، بين جبال فنزلنا ليلة الأحد ١٠ نيسان ١٠٨٦م، ثم أقلعنا نصف الليل، وتمادى سيرنا، إلى الضحى من النهار فنزلنا بئر ذات العلم وتعرف (بالروحاء) وهي بئر بعيدة مهوى الرشاء، لا يكاد يلحق قعرها، وهي معينة (شحيحة الماء) ورحلنا منها بعد صلاة الظهر من يوم الأحد، وتمادى بنا السير إلى بعد صلاة العشاء الآخرة، فنزلنا شعب علي وأقلعنا منه نصف الليل إلى تُربان ومنها تبصر المدينة المنورة، فنزلنا ضحى يوم الاثنين ١٦ نيسان بوادي العقيق وعلى جانبه مسجد ذي الحليفة من حيث أحرم رسول الله. والمدينة من هذا الموضع على خمسة أميال،ونزلنا بظاهر المدينة في عشي ذلك اليوم، ودخلنا الحرم المقدس، لزيارة الروضة المنورة.»(٧٠)

عرضت مراحل الطريق لأبين للقارئ، مدى الصعوبة التي كان يلاقيها التجار في الزمن القديم، وكانت المسالك مع العراق وسورية في نفس الصعوبة التي يلاقيها المسافر في أرض الحجاز. يصف لنا ياقوت الحموي (المتوفي ١٢٣٨م) الطريق بين مكة والكوفة أول مرحلة هي قرية فيد وهي بلدة في نصف الطريق، يودع الحجاج فيها أزوادهم، وما يثقل من أمتعتهم،

فإذا رجعوا أخذوها، ووهبوا لمن ودعوها عنده شيئاً من ذلك، وهم مغوثة للحجاج في مثل ذلك الموقع المنقطع، ومعيشة أهل فيد من ادخار العلوفة، طول العام إلى أن يقدم موكب الحجاج ثانية فيبيعونها عليهم. (٧١)

وتغير التركيب السكاني لأهل المدن، مدينة خيبر كانت بلدة عامرة وكان أهلها من اليهود العرب، ثم أصبحت كما يقول عنها ابن سعيد المغربي: «وأهلها سود وهم مسلمون وكانوا عبيداً لعلي بن أبي طالب.»

مدن الحجاز في القرن (١٥م):

سأتعرض لوضع مدن الحجاز الاجتماعية والاقتصادية في القرن ١٥م من خلال وصف الرحالة الأجانب، بعد أن ذكرت وصف الرحالة العرب.

الرحالة لودفيجودي فارتيما:

أرسله ملك البرتغال بدرو دي كوفيلها عام ١٤٨٧م إلى الجزيرة العربية، لأنه يحسن الكلام بالعربية، للتحقق من إمكانية الذهاب إلى الهند عبر البحر الأحمر، فكتب دي فارتيما سنة ١٥٠٣م: «وعقدت العزم على رؤية المقاطعات، والممالك التي لم يقم أجدادنا بزيارتها إلا فيما ندر.» وعندما وصل إلى الحجاز قال: «واعلموا أن معظم هؤلاء ما عدا زعماؤهم يركبون الخيل بلا سروج، ويرتدون نوعاً من القمصان الطويلة (جلابيب) ويحملون رماحاً من القصب الهندي (الخيزران) طوله بين (١٠ ــ ١٢ شبراً) وينتهي طرفه بقطعة من حديد. والحروب بين قبائل الحجاز قائمة دائماً، وحينما يرتحلون، يحملون نساءهم وأولادهم وخيامهم على ظهور الجمال، وخيامهم مصنوعة من الشعر والصوف الخشن. وأنه شاهد على الطريق حوالي أربعة أو خمسة آلاف يهودي وهم شبه عراة، يتراوح طول الواحد منهم (١٥٠ ــ

١٨٠سم) وأصواتهم شبيهة بأصوات النساء، ولونهم أميل إلى السواد، ولا يأكلون إلا لحم الغنم، ولا شيء لديهم غيره، وهم مختونون، ويجهرون بهويتهم أمام الغرباء. وعندما يتمكنون من إلقاء القبض على أحد المسلمين يسلخون جلده حياً.» علق العلامة حمد الجاسر على وجود اليهود بقوله: «ربما كانوا من بقايا العشائر التي كانت في خيبر.»(٧٢)

وقد أكد الرحالة جوفان فاسلدن من مواليد نورمبرغ، واتخذ لنفسه اسم الرحالة عبد الكريم وزار الحجاز سنة ١٦٠٤م قال: «ما يزال يقيم هناك عدد من اليهود الذين يعتقدون أن ما من شيء يسر الله أكثر من ذبح حاج يؤم مكة، وقام أمير الحج إلى قتل بعض اليهود الذين اتهموا بخطف ثلاثة حجاج من القافلة.»(٧٣)

أظن هذه التهمة التي ألصقها الرحالة الغربيون باليهود، هي مجرد فرية، لأن الرحالة العربي ابن المجاور وصف اليهود أنهم كانوا أذلاء في الجزيرة العربية ويخافون من سطوة المسلمين ويتظاهرون بأنهم مسلمون.

مدن وموانئ الخليج العربي

قلنا إن الحضارة هي حوار مستمر بين الشعوب والأمم قديماً وحديثاً، ومعظم هذا الحوار نشأ على جوانب الطرق البرية، وعبر الموانئ البحرية. وقد ذكر الجغرافيون الغربيون أن أهم طرق التجارة العالمية هي:

- الطريق الأول (الطريق السوري باتجاه الهند):

يبدأ من ساحل مدينة بروفانس الفرنسية، بحراً ليصل إلى أنطاكية، على الساحل الشرقي للمتوسط، ثم تحمل البضائع براً حتى تصل إلى بلدة بالس (مسكنة) على الفرات إلى بغداد والبصرة ثم تتابع الرحلة طريقها في الخليج

العربي، لترسو في موانئ من أهمها ميناء سيراف،وبعده تكمل السفن طريقها في بحر العرب، والمحيط الهندي إلى الهند والصين، معتمدين على الرياح الموسمية، وقد شاع اسم السفن العمانية المعروفة (بالدلو) والسفن الهندية المعروفة (بالبوارج).

- الطريق الثاني (طريق مصر نحو الصين):

يبدأ من سواحل أوربا أيضاً ويعبر البحر المتوسط إلى الإسكندرية ومنها إلى مدينة الفرما لينتقل براً إلى مدينة القلزم (السويس) ثم تنقل البضائع في النيل حتى مدينة قوص، ومنها تنقل بالبر نحو البحر الأحمر، لتتابع سيرها نحو مضيق باب المندب ثم تتوجه نحو عمان وهناك تكمل دورتها في الخليج العربي أو تكمل طريقها إلى بحر العرب والمحيط الهندي إلى جنوب شرق آسيا والصين.

- الطريق الثالث (طريق الحرير نحو روما):

هذا الطريق البري المعروف بطريق الحرير، والذي يبدأ من الصين شرقاً، ويعبر الهضبة الإيرانية، ويذهب شمالاً من جنوب بحر قزوين وروسيا نحو روما، أو بفرعه الجنوبي نحو سورية وأنطاكية ثم باتجاه روما.

يرى المؤرخ أرنولد توينبي أن الإمبراطور العظيم (تسين ـــ هوانغ ـــ في) هو مؤسس الإمبراطورية الصينية وباني طريق الحرير التي تشعبت عن عاصمته باتجاه الغرب، وقد استخدم هذا الإمبراطور هيئة منظمة للتفتيش الدوري على الطريق(٧٤).

سأقتصر في هذا الفصل على تبيان دور الخليج العربي في الحضارة العالمية، وفي الفصل التالي سأبين تاريخ طريق الحرير البري. وطريق

الخليج العربي هو طريق الحرير البحري. يقول الجغرافي المسلم ابن الفقيه في كتابه (البلدان): «إن أكثر السفن الصينية تحمل من البصرة وعمان، وتعبّأ بسيراف، وذلك لكثرة الأمواج في هذا الخليج، وقلة الماء العذب، في مواضع منه، فإذا عبئ المتاع، استعذبوا الماء، إلى موضع منه يقال له مسقط، وهي آخر عمان، وبين سيراف وهذا الموضع، نحو ٢٠٠ فرسخ، وفي شرقي هذا البحر فيما بين البلاد سيف، وفي غرب هذا البحر جبل عمان، فإذا جاوزته السفن، صار إلى موضع يقال له صحار عمان، فتختطف السفينة منها إلى بلاد الهند»(٧٥)

تاريخ موانئ الخليج العربي:

دلت الحفريات الأثرية على أن هذه الموانئ كانت قديمة، ومستخدمة منذ الألف الخامسة قبل الميلاد. فقد عثر في موقع (سيشور) جنوب عمان على تماثيل وأدوات زراعية ومقاشط، فمنذ تلك الفترة استطاع الإنسان الزراعة وتدجين الماشية والماعز، وعاش في اقتصاد مركب (زراعي ـ رعوي) من الأدلة على ذلك وجود الرحى الحجرية، وكان الطعام الأساسي السمك، وشيدت القبور وعثر على أدوات جنائزية مما يدل على الاعتقاد بوجود حياة أخرى.

وفي موقع وادي (عندام) حيث استطاع الإنسان العماني تحويل مجاري السيول والينابيع إلى قنوات مكشوفة تحمل الماء إلى أحواض تستخدم للزراعة المروية، خلال الألف الثالثة قبل الميلاد(٧٦). كما عثر في وادي (سمد) في عمان على بقايا سدود مشيدة من حجارة لا تزال ممتدة عبر مسايل المياه، وظيفتها سد السيول للاحتفاظ بما يكفي من الماء لكي تمكث في الأرض

وجعلها رطبة، وهكذا بنيت القرى الأولى، واستخدمت كتل حجرية ضخمة في تشييد البنايات الشبيهة بالحصون وإلى جانبها وجدت الحواكير الزراعية مما دل على تطور زراعي وتقنية في تعدين النحاس الذي صنعت منه بعض الأدوات المفيدة(٧٧) وصناعة السفن التي صارت تمخر عباب الخليج.

ظهر الاستيطان الكثيف على الساحل الغربي للخليج العربي خلال الألف الثالث قبل الميلاد. وعم جميع مناطق سفوح الجبال ابتداء من (واحة البريمي) حتى بلدة (عبرى) على حافة الربع الخالي على بعد ٣٥٠كم عن ساحل الخليج. ويمكننا تصور أن كافة الوديان وبعض الواحات ذات الينابيع كانت مأهولة بالسكان، وفي هذه الفترة استأنس الإنسان الجمل وصار أداة للنقل بين الخليج والبحر الأحمر، وكانت (عبرى) مركزاً هاماً لنقل البخور وواللبان والتمور والجلود والنحاس بواسطة قوافل الجمال عبر الصحراء، ولا نعلم عن النقل البحري إلا بأزمنة لاحقة، فقد عثرنا في (عبرى) على آثار آنية تعود إلى عام ٢٠ق.م رومانية المنشأ مما دل على عمق الروابط التجارية بين البحرين العظيمين الخليج والبحر المتوسط.

اعتمد الأثريون خلال تنقيبهم الأثري على خرائط بطليموس الإسكندري (٩٠ – ١٦٨م) أكثر من اعتمادهم على خرائط المكوك الفضائي تشالنجر الذي صور الموقع عام ١٩٨٤. ودلت التنقيبات الأثرية على وجود بساتين، وبقايا جذوع نخيل،وعظام حيوانات ومباخر وعملات، والغريب أنه لم يعثر في الموقع على عظام بشرية، على الرغم من أن مدينة (عبرى) كانت مركزاً لصناعة العطور والأدوية يوم كانت العطور أثمن من الذهب.

وفي إمارة أم القيوين اكتشفت آثار في موقع (تل أبرق) تعود إلى ستة آلاف سنة، تمَّ العثور برئاسة العالم الأسترالي دان بوتس Dan Potse (جامعة

سدني) أن الموقع كان بلدة مسكونة حتى القرن الأول ق.م. يقول دان بوتس: «وجدنا قطعاً من السيراميك المستورد من الصين وأوعية حجرية يظهر أنها من مصر، وأثقالاً من الحجر كانت تستخدم كأوزان، وأختاماً أسطوانية مستوردة من بابل وإيران وديلمون (البحرين) ومن السند، ومن أهم الآثار الحصن الدائري المبني من الحجارة والطين يبلغ قطره ٤٠م وارتفاعه ٧,٥م، واكتشف عند قاعدة البناء قبر دائري. وكانت آثار أبنية القرية تحيط بالحصن.

وكان السكان على ما دلت الآثار يعيشون في أكواخ خشبية أو في خيام على شكل (أعشاش). وقد حفروا بئراً عميقة وأحاطوه بمنصة بنوها من الحجارة والقرميد، وهناك زراعة منزلية (حواكير). وكان مورد السكان المعاشي معتمداً على النقل البحري. ولكن يبدو أن هناك فوارق حضارية بين مدافن عمان العائلية، ومدافن البحرين (ديلمون) الفردية(٧٨). وفي البحرين عثر على أختام وأوزان هندية، دلت على النشاط التجاري من عهد سرجون الأكادي (٢٣٧٥ - ٢٣٣٠ق.م) وعلى آثار مدينة ذات شوارع مستقيمة عرض الشارع أربعة أمتار، وتمتد من الشمال إلى الجنوب تسمح بهبوب الرياح الشمالية الباردة، وعلى جانبي الشارع شيدت بيوت من الحجارة والطين.

وعثر في مدينة لكش (العراق) على رقم تجاري دل على مبادلة تجارية بين زوجة الحاكم (اللوجال آندا) للحنطة والشعير والخشب تبادله بالنحاس مع تاجر من أهل ديلمون، وكانت عمان هي مصدر النحاس، ودلت الرقم المكتشفة في لكش على تصدير الصوف المستورد من إيبلا وتبادله مع ديلمون بالفضة، وكانت إيبلا تستخدم الوزن (المن Manna) الديلموني في معاملاتها التجارية.

ونقرأ في نصوص متأخرة نسبياً من عهد نارام سين (٢٢٥٠ق.م) عن غزوة لعمان (Makkan) واستسلام ملكها (مانّو ـ دانو) ومعناه في الأكادية (من له القوة) ودفعه فدية من النحاس(٢٠٦).

وعن علاقات سورية بمدن الخليج العربي، اكتشف في ماري على وثائق ترجع إلى زمن الملك شمسي أدد الأول وولده يسمح أدد حاكم ماري من بعده، وهذه الرقم الثلاثة هي:

– الرقم الأول: نص تجاري يصف قافلة تجارية قادمة من ديلمون بواسطة البر.

– الرقم الثاني: استقبال وفد من ملك ديلمون، وكان الوفد قاصداً العاصمة الآشورية (نينوى).

– الرقم الثالث: تعبر عن احتجاز رسول قادم إلى ماري من ديلمون.

وبالمقابل عثر في ديلمون على لوح طيني من العصر الكاشي يذكر آلهتين يطلق على الأولى سيدة الخبز، وعلى الثانية سيدة الشرب كان مصدرهما من مدينة ماري.

وكان أهل عمان والبحرين يستخدمون الأشهر البابلية. جاء في رقم عثر عليه في ديلمون (البحرين) يصف مجيء الأخلامو (الآراميين) إلى بلدهم، وما صحب ذلك من نهب وسرقة للتمور. وفي نص من عهد سرجون الأكادي يذكر أن ملك ديلمون عوفير كان يعيش في جزيرة وسط البحر الأدنى. وفي وثيقة أخرى تدل على أن ديلمون كانت تابعة إدارياً إلى دولة آكاد وأن ملك ديلمون (أيا دايان) كان تابعاً له، ويلاحظ أن اسم الملك يدخل فيه اسم الإله السومري (أيا) وكانت لغة التدوين في البحرين وعمان لغة سامية منذ الألف الثالث ق.م(٧٩).

وعلى أثر استيلاء كورش العظيم (٥٣٨ق.م) على الهلال الخصيب وفارس ومصر، وإعادته الإمبراطورية الأكادية، نشطت التجارة ولعب الخليج (البحر الكبير أو الأسفل) دوراً مهماً في الحضارة العالمية، وصار شريان التجارة بين الهند والشرق الأقصى والجزيرة العربية، وصار يعرف (بخليج العراق) وفي عهد قمبيز بن كورش (٥٢٨ ــ ٥٢١ق.م) أطلق على الخليج اسم (الخليج الفارسي) لكثرة السفن الفارسية الذاهبة والغادية فيه إلى الهند، وهي تحمل بضائع الجزيرة العربية وتدخل بحر العرب والبحر الأحمر، ثم تنقل هذه البضائع عبر البر إلى نهر النيل، وقد فكر قمبيز بحفر القناة القديمة ليصل النيل بالبحر الأحمر،وفعلاً أعاد فتحها واستخدمها مما جعل السفن الفارسية تدور حول شبه الجزيرة العربية. وفي زمن الملك الأخميني داريوس الأول، أرسل الربان أسكيلاس الحراني للقيام برحلة استكشافية عام ٥١٠ق.م فأبحرت في نهر السند وعادت من بحر العراق (الخليج الكبير).

أما بالنسبة للطرق البرية، فقد أصلحت وسهلت العقبات وحفرت الآبار وعمرت الخانات ووضعت المسالح لخفارة طرق القوافل، ووضحت معالم طريق الحرير.

وفي هذه المرحلة تطورت الزراعة، واستخدم الفلاح العماني نظام الري المعروف بالأفلاج (السرب) وهو نظام معقد في استنباط المياه الجوفية في الزراعة، لأن هذه الأفلاج تقتضي بناء شبكة من الأنابيب لنقل المياه النقية تحت الأرض. ويتفاوت طول الفلج ما بين عدة كيلومترات، وحتى ستين كيلومتراً، كما هو الحال في فلج (الماكلي) الذي يعود تاريخه إلى العهد الأخميني.وظلت هذه التقاليد في استنباط المياه توارث لدى أهالي عمان حتى

الوقت الحاضر. وعند العرب كانت من أشهر القبائل العربية التي تعمل في حفر الأفلاج قبيلة العوامرة الأزدية.

إن تطور الزراعة أدى إلى قيام حضارة مزدهرة تطورت فيها الحرف والصناعات المتنوعة، كتعدين النحاس وصناعة الأواني وصناعة السيوف، وصياغة الحلي ونظم الأحجار الكريمة، ونسج الصوف والكتان وحياكة الثياب، وذكروا أن الرسول الكريم كفّن في ثلاثة أثواب، ثوبين صحاريين ثم أدرج في بردة حبريمانية، والثياب الصحارية هي ثياب من القطن الأبيض وكانت تنسج بموضع يعرف بسحولا من صحار عمان(٨٠).

وفي عام ١٨٨٠م عثر تيودور بنت على قبور تعود إلى العهد الفارسي (الأخميني) أحدها، قبراً عملاقاً مكوناً من طابقين عثر عليه في البحرين (ديلمون) ولكنه لم يعثر في تلك القبور على العظام البشرية، وأفترض أنها منهوبة أو أنها دفنت في أماكن أخرى(٨١).

موانئ الخليج في الكتابات الكلاسيكية:

لأهمية الخليج العربي في تجارة الطيب والعطور والتوابل، اطلع هيرودوت على سجلات الرحلة التي قام بها الملاح سيلاكس الحراني عام ٥١٠ق.م، قال: «كان الأقدمون يتصورون البحر الأحمر وبحر العرب بحراً واحداً.» ووصف الرياح الدورية (الموسمية) التي تظهر في المحيط الهندي والتي تهب من شباط وحتى آب من الجهة الجنوبية الغربية دافعة السفن باتجاه الهند، وفي الأشهر الأخرى من أيلول وحتى كانون الثاني تهب الرياح من الجهة الشمالية الشرقية باتجاه شبه جزيرة العرب، وظلت أسرار هذه الرياح عند البحارة العرب(٨٢).

وعندما فتح الإسكندر المكدوني بلاد السند (٣٣٣ق.م) أرسل بعثتين لاكتشاف الطرق البحرية التي سلكها البحار سيلاكس، ودوّن الرحلتين العالم ثيوفرستيس الإثيني عام ٢٨٥ق.م في مؤلفه عن النباتات، قال: «يكوّم كل واحد من أهل عمان نصيبه من الصبر والبخور، ويتركها في عهدة رجال يقومون بحراستها، بعد أن يكون قد نصب على كومته لوحة كتب وزن الكومة، وثمن الكيلة (المن) الواحد، ويقبل بعدها التجار، فإذا أحدهم اشترى الكومة ، أخذها ووضع ثمنها مكان البضاعة، ثم يأتي كاهن المدينة فيأخذ ثلث الثمن للإله، تاركاً ما تبقى لصاحب البضاعة، ويظل المال حتى يأتي صاحب البضاعة ويأخذ الثمن(٨٣).

إن أفضل من كتب عن سواحل الخليج المؤلف المجهول صاحب كتاب (دورة حول بحر إرتيريا)، وصف الطرق البحرية والبرية التي تربط ما بين مملكة سبأ والبتراء من جهة، وما بين عمان وحضرموت والجرعاء على الخليج العربي من جهة أخرى، ويصف تجار سبأ الذين يأتون إلى عمان على زوارق من جلد، فينقلون أقوى العطور وأفضل التوابل إلى البلدان المجاورة.

أما ديودور الصقلي فقد ذكر في كتابه (الجغرافية الطبيعية)، وصفاً لأشجار البلسم والقرفة التي تنمو على طول ساحل بحر العرب، والبلسم نبتة من نوع خاص لطيف المنظر، وهي حينما تقطع سريعة الذبول ولكنها ذات عبق لطيف. وكانت تجلب من داخل بلاد عمان (الجبل الأخضر) من غابات كثيفة تنمو فيها أشجار البخور والصبر الضخمة، وأشجار النخيل والكافور والتنبول وغيرها من الأشجار ذات الروائح العطرية.

وينقل الرحالة سترابون عمن سبقه، أن السبئيين جمعوا ثروات طائلة من المتاجرة من الطيوب، فبنوا القصور الرخامية العالية، واقتنوا أواني الطبخ

الذهبية والفضية ومزهريات وأكواباً كبيرة ذات أغطية، وكانت مساكنهم قصوراً بادية الفخامة(٨٤). ويذكر استرابون أن مدينة الجرهاء (قرب العقير) تقع على خليج عميق سكنها الكلدانيون والعرب، ويعيش أهلها في بيوت مشيدة من حجارة الملح (كلسية) وتجارة القوافل عندهم تبدأ من حوالي ٦٠٠ ميل عن بابل ويتاجر أهلها بالطيب والبخور الذي تحمله قوافلهم إلى بالس (مسكنة) على الفرات في سورية.

وكتب إيزارور الكرخي (كرخ ميسان) عن المنازل الفرثية سنة ٢٦ق.م. وذكر أن جالية تدمرية تسكن في بلدة ميسان تعمل بالتجارة، وتجهز القوافل التدمرية بالبضائع الهندية كالبخور والحرير واللؤلؤ، وتصدر الخمور والأرجوان المصبوغ في مدينة تدمر. وذكر إيزادور الكرخي: أن الإمبراطور تراجان (٩٨ ــ ١١٧م) وقف عام ١١٦م عند ساحل الخليج قرب كرخ ميسان، فرأى سفينة ذاهبة إلى الهند، وتذكر ما فعله الإسكندر الكبير، فتنهد متأسفاً لكبر سنه الذي يمنعه من العبور إلى تلك البلاد.

وذكر أهل الحيرة أن تاجراً من أهل الحيرة عاش خلال القرن السادس الميلادي وقام بعدة رحلات إلى الهند، وبعد أسر القراصنة لسفينته دخل دير الكرخ (كرخ ميسان).

حدث تغير ديمغرافي في عمان على أثر انهيار سد مأرب عام ١٢٠م حيث هاجرت قبائل من الأزد إلى عمان. ولحق بهم بعض قريش بزعامة (سامة بن لؤي) ومعهم قبائل من مضر، وتحالفوا مع الأزد، وهاجرت بعض القبائل المتحالفة ساحل إفريقية الشرقي باتجاه الصومال(٨٥). لقد كان لوحدة الجنس واللسان أثر في تطوّر التجارة.

ذكر المسعودي أن وحدة الجزيرة العربية، تعود إلى وحدة اللسان، يقول: «كانت بلاد الكلدان والعراق، وديار ربيعة، وديار مضر، والشام وبلاد العجم اليوم برها ومدرها وتهامة والحجاز واليمامة والعروض والبحرين، والشحر وحضرموت وعمان. وهذه جزيرة العرب كانت كلها ديار واحدة ولسانها واحد (سرياني) وهو اللسان الأول لسان آدم ونوح وإبراهيم وغيرهم من الأنبياء، وإن إبراهيم الخليل كان سريانياً. أما إسماعيل ابن إبراهيم إنما تكلم بالعربية، عندما عاش وأمه هاجر مع جرهم في مكة، وإنما يعرب بن قحطان سمي بذلك لإعرابه عن المعاني بالعربية.»(٨٦)

من هذا النص نستطيع التعميم أن اللسان العربي، أدى إلى ثقافة عامة مشتركة، وكانت القبائل العربية وهي تنقل البضائع تنقل معها المعارف والخبرات، مما ساعد في تكوين حضارة واحدة هي الحضارة العربية في أطراف الهلال الخصيب وشبه الجزيرة العربية.

الخليج العربي في ظل الإسلام:

أطلق الرحالة بليني (٦٢ ــ ١١٣م) على الخليج الفارسي اسم الخليج العربي، عندما وصف مدينة المحمرة (خاراكس) قال: «تقع مدينة المحمرة على الطرف الأقصى من الخليج العربي (سينوس أرابيكوس).» وقد أكد بروكلمان ندرة المصادر عن تاريخ الخليج وعمان، وأشار إلى أنه لم يعثر على مصادر مهمة حتى بداية القرن الثامن عشر الميلادي. ويعلل سبب ذلك لتطرف عمان وعزلتها عن المراكز العربية والإسلامية، أو لأنه لم يظهر في عمان والبحرين مؤرخون بارزون ولم يبق إلا ما كتبه العمانيون(٨٧).

كان إسلام عمان في حياة الرسول (ص) عند وجه عمرو بن العاص (١١هـ/ ٦٣٣م) إلى جيفر وعباد ولدي الجلندري بن مسعود الأزدي، صاحب عمان يدعوهما للإسلام، فأسلما، إذ كان أهل عمان من السباقين إلى الإسلام. وعندما فتح العرب الأبلة وأنشأوا مدينة البصرة عام (١٧هـ/ ٦٣٩م) صار الخليج العربي مسدوداً في وجه التجارة الفارسية. يقول الأستاذ عادل الألوسي: «يمكننا القول أن فتح الأُبلة كان له مغزاه الاستراتيجي، لأنه يهدف إلى حصار الفرس الساسانيين اقتصادياً بسد منفذ مهم من منافذ تجارتهم.»(٨٨)

أصبح الخليج العربي في العصر العباسي مركزاً لتجارة العالم، وصار تجار الخليك يمتلكون زمام مياهه، ويجوبون بحار الهند والصين وإفريقية. وعندما نوى الخليفة العباسي المنصور بناء بغداد عام (١٤٥هـ/ ٧٦٣م) قال مستشاروه: «وأنت يا أمير المؤمنين على الفرات ودجلة، تجيئك الميرة من الغرب في الفرات من الشام والجزيرة ومصر، وتحمل إليك طرائف الهند والبصرة وواسط في دجلة، وتجيئك ميرة أرمينية وأذربيجان، وما يتصل بها، وتجيئك ميرة الموصل وديار بكر وربيعة ومضر.»(٨٩).

وفي القرن الثالث الهجري، أصبحت البصرة وسيراف وصحار أهم موانئ الخليج العربي، وصارت السفن النهرية تصل إلى بغداد تنقل السلع إليها وإلى ما وراءها. ومنها تنقل إلى موانئ المتوسط، لتصل بعدها إلى كافة أنحاء أوروبة. قال ابن حوقل: «إن تجار الإسلام يحملون اللؤلؤ والديباج والجزع والياقوت من الخليج،والمسك والعود والكافور والدارصيني من الهند والصين، فربما دخلوا بتجاراتهم إلى القسطنطينية ليبيعوها في بلاد الروم، أو ربما صاروا إلى بلاد الفرنجة.»(٩٠).

أهم الموانئ الواقعة على الخليج العربي:

لم يكن العرب والمسلمين أقل باعاً في الملاحة من الأمم الأخرى. بل كان لهم قصب السبق داخل البحار العميقة منذ الألف الأول ق.م. وفي المرحلة الإسلامية صيّر بنو العباس عمان والبحرين عملاً واحداً سموه (عمالة العراق) وأصبحت للبحرين أهمية كبرى لقربها من مراكز التجارة الرئيسية، لتوسطها بين بغداد والممتلكات العربية في المشرق، إلا أنها سقطت بيد القرامطة، كما سقط ساحل عمان بيد الخوارج (الأباضية) في القرنين التاسع والعاشر الميلادي، وبدأ نزوح القبائل العربية، باتجاه الساحل الشرقي للخليج العربي، وظهر ميناء سيراف (قيس).

مينائي عمان ومسقط:

إن موقع مينائي (مسقط وعمان) في أقصى الجزيرة العربية، قريباً من خط الاستواء يجعل المناخ الحار والرطب هو المسيطر دائماً، ما عدا المناطق المرتفعة في (الجبل الأخضر) المتاخم للربع الخالي حيث يسود المناخ الصحراوي، وحيث تهب على هذه المنطقة في فصلي الخريف والصيف رياح شرقية هي الرياح الموسمية، وتكون عادة مصحوبة بزخات المطر الصيفية Monsoon Rains على الجبل الأخضر مثل وادي الغور، وفلج معلا ويسقط البرد أحياناً بحجم كبير يدعو للاستغراب.

أما على سواحل مسقط فالأمطار قليلة، لأن الجبل الأخضر يحبس الغيوم الكثيفة، وليوزع أمطارها على أهله، وأحياناً نجد القمم العالية مكسوة بالثلج الأبيض. وفي ظفار تتعرض المنطقة للرياح الموسمية الجنوبية الغربية، فتهطل الأمطار الصيفية، وتنمو الأحراش، وتكثر المراعي.

يمارس أهل عَمان ومسقط الصيد البحري، وأحسن مواسم الصيد عندهم هو فصل الشتاء، حين تبرد مياه البحر، فتندفع الأسماك إلى جهة الشاطئ طلباً للدفء، فيصاد السمك المعروف باسم (القرش) الذي يجفف ويملح ويصدر قديماً وحديثاً للصين.

في عمان تنعدم الأنهار، ولكن تكثر الوديان التي تسيل مياهها في مواسم المطر، لذلك قامت لديهم طرق مبتكرة لخزن المياه واستنباطها، هي طريقة الأفلاج (قنوات تحت الأرض).

تعتبر صحار قصبة عمان المؤدية إلى الصين. بينما تعتبر مسقط مركزاً لصيد اللؤلؤ وفيها مغاصات معروفة، وهناك ميناء، توأم لميناء مسقط إنه ميناء (صور) الذي قال عنه الأستاذ أمين الريحاني: «بناه الفينيقيون (العرب الكنعانيين) الذين كان لهم نشاط تجاري في الألف الأول ق.م وهم الذين أنشؤوا صور على اسم مدينتهم السورية.»(٩١) وأشار الطبري إلى وجود ميناء رابع هو ميناء دبّا ويسميه المصر والسوق العظمى، وإن لم يضارع أهمية الموانئ العمانية الأخرى(٩٢).

ما هي أهم صادرات هذه الموانئ؟

كانت تصدر التوابل بأنواعها للبصرة خاصة، كالفلفل والكافور والقرنفل والعود والمسك والعنبر واللبان الذي تنتجه ظفار.وتستورد الأخشاب الثمينة كالأبنوس والسدر والخيزران، والأحجار الكريمة كالياقوت والدر والعقيق والزمرد والذهب والعاج من سواحل إفريقية الشرقية وكذلك العبيد، وتصدرها للبصرة، ونتيجة سوء الاستغلال قامت ثورة الزنج في البصرة (٢٥٤هـ/ ٢٧٠م).

ومن السند كانوا يجلبون الزط للخدمة في البيوت وفي ورش البصرة والكوفة وبغداد. وكانوا من أمهر النساجين وحاكة الثياب الحريرية. وهم الذين جلبوا الجاموس من السند للعمل الزراعي، وكانوا يصدرون للهند الخيول العربية.

هاجرت إلى عمان جالية يهودية منذ أيام الخليفة عمر بن الخطاب، وكانت تعمل في التجارة والصرافة، وتقطن عمان ومسقط وظفار ونزوى وعبرى، ولأنهم من عرب الأزد، كانوا منفتحين على المسلمين، ويتصاهرون معهم، وقد أسلم أكثرهم طوعاً واختياراً.

وفي القرن العاشر الميلادي، سيطر الخوارج الأباضية على إقليم عمان، إلا أنهم نجحوا نجاحاً ملحوظاً في تحقيق هدفهم في السيطرة على الخليج وتأمين استقراره، وضمان استمرار المواصلات البحرية فيه، مما ساعد على ازدهار التجارة أكثر من قبل(٩٣). وبفضل تجار عمان أصبح البحر الحبشي (المحيط الهندي) كما يقول المسعودي: «هو بحر الصين والسند والهند، والزنج والبصرة، والأيلة وفارس وكرمان، وعمان والبحرين، والشحر واليمن، وأيلة والقلزم، من بلاد مصر والحبشة، ومنه يأتي الطيب والأفاوية، والكافور والعود، والقرنفل والصندل والجوزبوا (جوز النخيل) والقاقلة والكبابة.»(٩٤) كل ذلك بفضل دعوة الأباضية السمحة تجاه الأفارقة السود.

كانت مراكب الهند تسمى البوارج وفي زمن المعتصم (٢١٨ ــ ٢٢٧هــ) استطاع عسكر بغداد التغلب على الإباضية في ساحل فارس وعمان، وفي ناحية البصرة، وتم إجلاء الزط عن البطائح، وكانوا قد قطعوا الطريق، وسفكوا الدماء.

من هم الأباضية، وما هي دعوتهم؟

هم فرقة من الخوارج تبعوا إمامة عبد الله بن أباض التميمي. عاش عبد الله في زمن الخليفة معاوية وعبد الملك بن مروان، وكان يدعو الطاعة لله في الجماعة الإسلامية، ولا طاعة للجبارة الذين لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر، والإمامة حق واجب على عباد الله لإقامة الحدود، وإنصاف المظلوم، والحكم بالعدل بين عامة الناس، وأجمعوا على صحة إمامة أبي بكر وعمر وعثمان رضوان الله عليهم، وأجمعوا على إمامة علي وبايعوه، وقاتلوا معه في صفين، ولما شك علي في مقاتلة معاوية، أنكروا عليه ذلك، وسألوه الرجعة إلى حرب معاوية وترك التحكيم ومتابعة القتال في صفين، فلما لم يستجب لرأيهم قاتلوه في معركة النهروان وعرفوا بالخوارج. وكان منهم عبد الله بن أباض الذي استجاب لدعوة أبي عبيدة مسلم بن كريمة الأزدي، وكان محمد بن المعلا الفهمي أول من قام بالدعوة في عمان وجهر بالدعوة الأباضية وتلاه الربيع بن حبيب الفرهودي المضري. وانتشرت الدعوة في عمان وصار زعيمهم جابر بن زيد الأزدي الذي كان يرسل دعاته باسم (حملة العلم) يحملون تعاليم عبد الله بن أباض.

وكانت أول جالية عمانية ظهرت في إندونيسية تبشر بالدين الإسلامي سنة (٢٢٦هـ/ ٨٤٠م) في مملكة بارلاك، وأول سلطان مسلم أعلن إسلامه عن قناعة تامة (مولانا عبد العزيز شاه) كان الدعاة الأوائل من تجار الأزد.

ولا زالت في اللغة الإندونيسية مصطلحات تجارية من اللغة العربية، وقصص وأساطير عربية مثل روايات ألف ليلة وليلة، وكان أهل عمان يعرفون عند أهل إندونيسية بفرسان البحر(٩٥).

وكان لأهل عمان الفضل في نشر الإسلام على الساحل الشرقي لإفريقية في الصومال وزنجبار وموزنبيق والسودان، كما نشط دعاة الأباضية في الهند والصين وتايلاند والفيليبين. ولعبت الدعوة الأباضية دوراً مهماً في حركة الثقافة العربية، كما هو وارد في شعر الخوارج. وأما مؤلفاتهم فكانت سرية، والعلني منها دمر عن قصد من جانب فكر الدولة السنّي. وكذلك دعاة الشيعة كما فعل أبو عبد الله الشيعي الذي أحرق المكتبة المعصومة بتاهرت والتي كانت تزخر بعشرات الكتب والمدونات والمصنفات، كما أتى أبو عبد الله الشيعي على تراث الصفريّة في سلجماسة في المغرب سنة (٢٩٧هـ/ ٨٠١م)(٩٦).

وقد أشار ابن النديم إلى العديد من الكتب التي ألفها الخوارج، وتاريخ عمان الثقافي مرتبط بالخوارج الأباضية. فقد ألف عنهم كل من المدائني وأبو عبيدة معمر بن المثنى، إلا أن ابن النديم لم يذكر أسماء الكتب التي ألفها الأباضية. وذكر بعض المؤرخين عرضاً بعض المؤلفات أمثال خليفة بن خياط والبلاذري في كتابه أنساب الأشراف، واليعقوبي في تاريخه والطبري في تاريخه، وذلك حين يذكرون الثورات التي هزت المجتمع الإسلامي، ولم تكن عمان تنفصل عن البصرة وبغداد ثقافياً.

الموانئ العمانية التي وصفها ابن بطوطة:

سأتعرض لوصف الطرق البرية والبحرية، ومقدار المشقة التي كان التجار والمسافرون يتعرضون لها، وسأتخذ نموذجاً، وصف ابن بطوطة للمدن والموانئ العمانية.

ابن بطوطة هو محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي، ولد في طنجة عام ٧٠٣هـ/ ١٣٠٤م ودرس الأدب والفقه على يد والده، وفقهاء مدينته، وأعدته الأسرة لكي يكون قاضياً جرياً على تقاليدها. وفي الحادية والعشرين من

عمره توجه نحو المشرق قاصداً الحج، وبعدها استمر في الارتحال، وقضى في رحلته من غرب إفريقية إلى شرق آسيا حوالي ٢٨ عاماً، قطع خلالها ما يعادل ١٢٠ ألف كم. دوّن ابن بطوطة أخبار رحلته في كتاب سماه (تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) ولكن كاتب السلطان أبي عنان المريني اختصرها. وعرفت تلك الرحلة باسم رحلة ابن بطوطة.

مات ابن بطوطة في سنة (٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م) واعتبرت رحلته أعظم ما خلفه أدب الرحلات، من حيث دقة الوصف، وصحة الخبر. وسأتعرض للموانئ العمانية التي مر بها ابن بطوطة.

مرسى حاسك:

قال ابن بطوطة: «وصلنا إلى مرسى حاسك، بعد أن ركبنا البحر، نريد عمان، في مركب صغير لرجل يعرف بعلي بن إدريس المصيري (من أهل جزيرة مصيرة). ونزلنا بمرسى حاسك، وبه ناس من العرب، صيادون للسمك، ساكنون هناك، وعندهم شجر الكندر، وهو وشجر رقيق الورق، وإذا شرطت الورقة قطرت منها ماء شبه اللبن، ثم عاد صمغاً، وذلك هو اللبان، وهو كثير جداً هناك، ولا معيشة لأهل هذا المرسى إلا صيد السمك، وسمكهم يعرف (باللخم) وهو يشبه كلب البحر، يشرح ويقدد ويقتات به، وبيوتهم من عظام السمك، وسقوفها من جلود الجمال».

جبل لمعان:

قال: «غادرنا مرسى حاسك وبعد أربعة أيام وصلنا إلى جبل لمعان، وهو وفي وسط البحر، وبأعلاه رابطة مبنية بالحجارة وسقفها من عظام السمك، وبخارجها غدير ماء يجتمع من المطر».

جزيرة الطير:

قال: «وركبنا البحر ووصلنا بعد يومين إلى جزيرة الطير، وليست بها عمارة فأرسينا المركب، وصعدنا إلى الجزيرة، فوجدناها ملآنة بطيور تشبه طيور (الشقاشق) إلا أنها أعظم منها، وجاءنا الناس ببيض تلك الطيور، فطبخوها وأكلوها، واصطادوا جملة من تلك الطيور وطبخوها دون ذكاة (ذبح) وأكلوها. وكان أهل السفينة يصطادون بالغدو والعشي سمكاً يسمى بالفارسية (شيرماهي) أي أسد السمك، وهو يشبه الحوت (سمك القرش) وهم يقطعونه ويشوونه، ويعطون كل من في المركب قطعة، لا يفضلون أحداً على أحد، حتى ولو كان صاحب المركب، ويأكلونه بالتمر، وأكلت في ذلك المركب نوعاً من الطعام، لم أذقه من قبل ولا بعد، صنعه بعض تجار عمان وهو من الذرة من غير طحن، وصب عليها عسل التمر (السلا) وأكلناه.»(٩٧)

مدينة ظفار:

قال: «وصلنا إلى مدينة ظفار، فاستقبلنا عبيد السلطان بالترحاب وصعدوا المركب، ومعهم الكسوة كاملة لصاحب المركب ووكيله وهو كاتب. وأتى بثلاثة أفراس ركبوها إلى دار السلطان. ومدينة ظفار من أقذر المدن، والسوق خارج المدينة، بربض يعرف بالحرجاء، وهو من أقذر الأسواق وأشدها نتناً، وأكثرها ذباباً لكثرة ما يباع من الثمرات، ومن العجائب أن دوابهم ومواشيهم يعلفونها من سمك السردين، وزراعتهم الرئيسية الذرة، يسقونها من آبار بعيدة الماء، وكيفية سقيهم أنهم يضعون دلواً كبيراً، ويتحزم عبد منهم بحبل ويجر الدلو على عود كبير مرتفع عن البئر، ويصبون الماء

في صهريج ويسقون منه. والمرض الغالب على أهلها، المرض المعروف بداء الفيل وهو انتفاخ القدمين.»[٩٨]

مدينة الأحقاف:

قال ابن بطوطة: «هي على مسيرة نصف يوم من مدينة ظفار، ولها بساتين فيها الموز والتنبول والنارجيل المعروف بجوز الهند. وفي المدينة قبر (هود بن عابر) وأكثر رجالهم مبتلون بالأدر (الشذوذ الجنسي) والعياذ بالله، وهم يشدون الفوط في أوساطهم ورؤوسهم مكشوفة لا يجعلون عليها عمائم، ويسجدون على سجادة الخوص، وأكلهم الذرة.»

جزيرة مصيرة وقرية صور:

قال ابن بطوطة: «جزيرة مصيرة جزيرة كبيرة لا عيش لأهلها إلا صيد السمك، وقد كرهتهم لأنهم يأكلون الطير من غير ذكاة (ذبح).

أما قرية صور، فهي قرية كبيرة، وصلنا إلى مرساها على ساحل البحر، ومنها رأينا مدينة قلهات، وكان بيننا وبين المدينة مهاوٍ وخنادق. ثم وصلنا إلى باب المدينة، وصبحنا الموكل بالباب، وقادنا إلى أمير المدينة وعرف منه القادم إلى المدينة، ومن أين قدم؟

مدينة قلهات:

تقع على ساحل عمان، وهي مدينة حسنة الأسواق، ولها مسجد من أحسن المساجد، حيطانه ملفحة بالقاشاني. والمدينة مرتفعة عن سطح البحر،والمسجد من عمارة الصالحة بيبي مريم (أي المرأة الحرة). وأكلت في هذه المدينة سمكاً لم آكل مثله في إقليم من الأقاليم، وكنت أفضله على جميع اللحوم، والأرز يجلب إليهم من أرض الهند. وأهل مدينة قلهات أهل تجارة،

ومعيشتهم مما تأتي به مراكب الهند، وكلامهم ليس بالفصيح مع أنهم عرب، وأكثرهم خوارج (أباضية) ولكنهم لا يقدرون إظهار مذهبهم لأن طاعتهم لسلطان مدينة هرمز، وهو من أهل السنة، وتجلب إليهم الفاكهة من قرية طيبى، وبها الموز المعروف بالمرواري (الجوهر) بالفارسية وهو كثير بها. وبها التنبول، ولكن ورقه صغير، والتنبول يؤخذ من شجر القوفل، وهو شبيه جوز الطيب، ويجعله الإنسان في فمه ويعلكها، ثم يؤخذ ورق التنبول، فيجعل عليها من النورة ويمضغها مع القوفل، وخاصة أنه طيب النكهة، ويذهب بروائح الفم، ويهضم الطعام، ويقطع لغث العطش ويعين على الجماع.»(٩٩).

مدينة عمان:

قال ابن بطوطة: «ثم قصدنا بلاد عمان، فسرنا ستة أيام في صحراء، ثم وصلنا عمان في اليوم السابع، وهي هضبة ذات أشجار وبساتين، وحدائق ونخل وفاكهة كثيرة من جميع الأصناف، ووصلنا إلى قاعدة هذه البلاد وهي (مدينة نزوى) تقع في سفح (الجبل الأخضر) تحف بها البساتين والأنهار، وفيها مسجد جامع، يأتي إليه كل إنسان بما عنده من طعام، ويأكلون جميعهم في المسجد، ولأهلها نجدة وشجاعة، والحرب قائمة بين قبائلهم أبداً، وهم أباضية المذهب، ويصلون الجمعة ظهراً أربعاً، فإذا فرغوا قرأ الإمام آيات من القرآن، ونثر كلاماً أشبه بالخطبة، يتعرضون فيه لأبي بكر وعمر، ويسكت عن علي وعثمان وإذا ذكروا علياً كنوا عنه وقالوا: ذكر عن الرجل، ويترحَّمون على الشقي اللعين، (عبد الرحمن بن ملجم) ويقولون عنه: العبد الصالح قامع الفتنة.

ونساء أهل نزوى يكثرن الفساد، ولا غيرة عند أزواجهن ولا إنكار.»

قال ابن بطوطة: «كنت عند السلطان أبي محمد بن تيهان الأزدي (وهو سني المذهب) فأتته امرأة صغيرة السن، حسنة الصورة، بادية الوجه، فقالت له: يا أبا محمد، طغى الشيطان في رأسي. فقال لها: اذهبي واخزيه. فقالت: لا أستطيع وأنا في جوارك يا أبا محمد. فقال لها: اذهبي وافعلي ما شئت. فذكر لي لما انصرفت عن السلطان: إن هذه ومن تفعل مثلها، وتكون في جوار السلطان، وتذهب للبغاء لا يقدر أبوها أو أخوها ولا زوجها أن يغيروا عليها، وإن قتلوها، قتلوا بها لأنها في حماية السلطان وجواره.

كان السلطان رجلاً كريماً وشجاعاً، ومن عاداته أن يجلس خارج باب داره، في مجلس له هناك، ولا حاجب له ولا وزير، ولا يمنع أحداً من الدخول إليه، ويكرم الضيف على عادة العرب، ويعين له مدة الضيافة، ويعطيه على قدره، وله أخلاق حسنة، ويؤكل على م مائدته لحم الحمار الأهلي، ويباع لحمه في السوق، لأنهم قائلون بتحليله، ولكن يخفون ذلك على الوارد إليهم ولا يظهرونه بمحضره.»

وكان عبد الله بن عباس لا يحرم أكل لحم الحمر الأهلية(١٠٠).

من المعروف تاريخياً أنه منذ سنة (٦٦٠هـ/ ١٢٦١م) سيطرت مملكة هرمز على عمان، ولكن ظلت الإمامة الأباضية تنعتهم بالملوك الجبابرة. وبلغ التذمر ذروته بسبب سوء سيرة الحكام النبهانية، وكذلك سطوة مملكة هرمز على عمان الساحل، إلا أن الصراع النبهاني الأباضي اشتد فاستنجد الإمام الأباضي أبو محمد عمر بن الخطاب الخزرجي، بأمير الجبور أجود بن زامل الذي أرسل له جيشاً لنجدة الأباضية سنة (٨٩٣هـ/ ١٤٨٧م)، ولكن ظلت

الحرب سجالاً بين الأباضية والنبهانية، وصار الأباضية يؤدون الحماية للجبور على شكل مواد عينية من الحاصلات الزراعية العمانية، وظل نفوذ الجبور على عمان حتى الاحتلال البرتغالي لعمان سنة (٩١٣هـ/ ١٥٠٧م)، على أن الذين خلّصوا عمان من الاحتلال البرتغالي سلاطين عمان اليعاربة (وهم أباضية) سنة (١٠٣٤هـ/ ١٦٢٤م).

مدينة هرمز:

يقول ابن بطوطة: «ثم سافرت من بلاد عمان إلى مدينة هرمز في صيف عام (٧٣٢هـ/ ١٣٣٤م). وهرمز تقع على ساحل الخليج وتسمى (موغ ستان) وتقابلها في البحر هرمز الجديدة، وبينهما في البحر ثلاثة فراسخ. ووصلنا إلى هرمز الجديدة وهي جزيرة مدينتها تسمى (جرون) وهي مدينة حسنة كبيرة، ولكن لها أسواق خاملة، وهي مرسى الهند، ومنها تحمل سلع الهند إلى العراق وفارس وخراسان. والسلطان يسكن هذه المدينة. والجزيرة التي فيها المدينة (جرون) وعلى بعد مسيرة يوم توجد جبال الملح (ملح الداراني) ومنه يصنعون الأواني المزينة، والمنارات التي يضعون السرج عليها، وهناك سباخ.

وطعام أهل هرمز السمك والتمر المجلوب إليهم من البصرة وعمان، ويقولون بلسانهم الفارسي (خرما وماهي لوت باد شاهي) ومعناه بالعربي: (التمر والسمك طعام الملوك). والماء في هذه الجزيرة له قيمة، لأن السباخ فيها مالحة، وعيون الماء فيها هي صهاريج يجتمع فيها ماء المطر، وهي على بعد من المدينة، ويأتون إليها بالقرب فيملؤونها على ظهورهم ثم يحملونها إلى البحر، ويعودون بها في القوارب إلى المدينة.

ومن العجائب التي رأيتها في مدينة هرمز، أن الجامع فيما بينه وبين السوق يوجد رأس سمكة، كأنه رابية، وعيناه كأنهما بابان، فترى الناس يدخلون من أحدهما ويخرجون من الأخرى(١٠١).

وقرب جزيرة هرمز جزيرة تدعى اليوم (جزيرة قشم)، وهي على الساحل الشرقي للخليج، وهي ذات تربة زراعية خصبة، وفيها وادي زراعي غني بالمزارع والمياه العذبة والآبار، كما ينبت على أرضها العشب والكلأ، وفيها عرب من عشيرة بني لام (طيء) وشيوخهم القواسم.

مدينة سيراف (قيس):

سكان هذه المدينة خليط من عرب بني سقاف وهم الذين يغوصون على اللؤلؤ، وفيها عجم من الفرس. وإلى هذه المدينة ينسب الرحالة سليمان السيرافي، الذي بدأ رحلته نحو الصين عام ٨٥١م، وكان ينقل البضائع في البداية إلى عمان، ثم صار من بعدها ينقل البضائع إلى موانئ الصين.

يقول سليمان السيرافي: «إن الرحلة من الصين تبدأ من سيراف، حيث تحمل الأمتعة إليها من البصرة وعمان وغيرهما، وتعبأ في السفن الصينية، فإذا عبئ المتاع بسيراف، استعذبوا منها الماء، ويقلعون إلى مسقط وهي آخر بلاد عمان، والمسافة بين سيراف ومسقط حوالي ٢٠٠ ميل، وفي شرقي هذا الخليج سيف بني السقاف وجزيرة ابن كاوان، وفي هذا البحر (الخليج) جبال عمان، وفيها الموضع الذي يسمى (الدردور) وهو مضيق بين الجبلين، تسلكه السفن الصغار، وتتجنبه السفن الصينية، وفيها الجبلان اللذان يقال لهما (كسّر وعويّر) وليس يظهر منهما فوق الماء إلا اليسير، فإذا جاوزناهما صرنا إلى موضع يقال له صحار عمان، فنستعذب الماء من مسقط من بئر بها، ومن

هناك تخطف المراكب إلى الهند إلى كولم ملي Quilon. والمسافة من مسقط إلى كولم ملي حوالي شهر عند اعتدال الريح.»(١٠٢)

مدينة خانفو (كانتون):

يقول سليمان السيرافي: «فإذا وصلت إلى خانفو، رأيت أهل الصين، أهل ملاهٍ وأهل الهند يعيبون عليهم ذلك، فهم لا يشربون الخمر، ولا حتى الخل يذوقونه لأنه نوع من الخمر، وليس ذلك ديناً لكنه أنفة. ويقولون: كيف يدبر الملك ملكه وهو سكران؟

وجزاء السرقة القتل عند أهل الصين، وطعام أهل الصين الأرز والحنطة، وهم يعبدون الأصنام ولكن لا لحى لهم. وهم يزعمون أن الأصنام تكلمهم، عن طريق كهنتهم، وهم لا يذبحون الحيوان الذي يريدون أكله. وليس أهل الصين بأهل فرش ولا أثاث ولكنهم أهل بناء، وحيطان بيوتهم من الخشب، ويتزوجون أكثر من واحدة. وهم أصحاب كتب دينية قديمة، وأهل حكمة وفلسفة. وبلاد الصين أطيب هواء، فهم أقل أمراضاً، وهم أشبه بالعرب باللباس، ويركبون الدواب، ويلبسون الأقبية والمناطق، بينما يلبس أهل الهند لباس أهل عمان فوطتين ويتحلون بأسورة من ذهب، ويضعون الأقراط في آذانهم. ومن عوائد أهل الهند القمار بالديكة، ويحرقون موتاهم ويذرون رماد الميت في الأنهار.

وأهل الصين أهل حذاقة وفن. وإن رجلاً منهم صور سنبلة يقف عليها عصفور في ثوب حرير، لا يشك الناظر إليها أنها سنبلة، وأن عصفوراً عليها، فبقيت هذه اللوحة معروضة مدة أمام قصر الملك، ثم اجتاز بها رجل أحدب فعابها. أدخل الرجل الأحدب إلى الملك، وأحضر صاحب اللوحة، فسأل

الملك الرجل الأحدب عن العيب في اللوحة، فقال: المتعارف عند الناس جميعاً أنه لايقع عصفور على سنبلة إلا أمالها، والمصور أثبت العصفور فوقها، والسنبلة منتصبة، فأخطأ، فصدّق الملك الرجل الأحدب، ولم يثب صانعها بشيء.»(١٠٣)

ما الفائدة الثقافية من هذه الرحلة؟ أطلعتنا على طرق التجارة البحرية وعن الملاحظات الشخصية، والتزامه بالموضوع وعدم الخروج عنه. عرفنا بتقاليد ومعارف أهل الصين والهند. علق الدكتور حسين فوزي على الرحلة: «أطلعنا التاجر سليمان على عادات أهل الصين وتقاليدهم في الطعام والشراب، وهو أول من أشار إلى عادة شرب الشاي في الصين وأشار على عادة سادت اليوم، فالشاي كان عندهم نوع من العشب يشربونه في الماء الساخن، ويباع عندهم منه الشيء الكثير في جميع مدنهم ويسمونه (ساخ) وأشار إلى عادة أخرى أخذنا بها اليوم، طريقة البصم بالأصابع عوضاً عن الإمضاء. قال سليمان: «وهذا أمر مألوف في الصين.»(١٠٤)

رحلة التاجر بزرك بن شهريار:

كان التاجر بزرك من أهل مدينة رام هرمز. قام برحلته من بلدة سيراف، ومرّ ببلاد عمان ووصل إلى الهند والصين وسجل ما رآه في كتاب سماه (عجائب الهند) روى فيه ما أخبره به البحاران عبهرة واسماعيلويه.

رحل إلى الصين سبع مرات وفي آخر مرة عاد وجلس في مركبه عدة أيام وأملى على كاتبه قصص أعالي بحر الصين، التي شاهدها والتي سمعها. ومن تلك القصص القصة الطريفة التي رواها له اسماعيليويه وكان من أهل سيراف قال: إنطلق من عمان في طريق التجارة بين بحر فارس وبحر

الصين وكان مقصده قنبلة (مدغشقر) ولكن عاصفة دفعته إلى ساحل سفالة (جنوب موزانبيق) فثار الخوف في قلبه وقلوب رجاله، لأن أهلها كانوا يأكلون لحوم الناس. وعندما قبض عليهم أخذوهم إلى البر، وأرغموهم على البقاء بضعة أشهر، وعندما سمح لهم الملك بالعودة، ركب هو وسبعة من غلمانه الزورق، وصعدوا إلى السفينة ورفعوا المراسي وأخذوا الملك وخدمه مأسورين وباعوهم في جملة الرقيق وهم نحو مائتين، وبيع الجميع في عمان. كانت غاية القصة وصف الجانب الغربي من بحر العرب وأثر الرياح الموسمية في توجيه المراكب وفيها (قصة الغول الأسود) تجاوزت عنها لأنها تشبه القصة التالية التي رواها له (عبهرة) وكان من أهل البصرة، وقصته أشبه بقصة السندباد من حيث الأهوال والفرج الذي يأتي من بعد الشدة، وهي قصة خيالية.

قال عبهرة: «انكسر المركب، وهبطنا على جزيرة صغيرة في البحر ومكثنا مدة، وإذا بطائر كبير وقف بجانبي وتعلقت بساقه، فطار فوق البحر، ونزل في جزيرة أخرى.» أقبل عبهرة على القرية، وكلم أهلها فلم يفهموا ما يقول، وحبسوه مع ثمانية من رجال كانوا قبله، وجاؤوا بترجمان وسألوه عن حاله فأخبرهم أنهم من أهل مركب (فلان) وقد خرجوا من الضف إلى الزابج وأسروا وكانوا نحو عشرين رجلاً، وأخذوا بعضهم وأكلوهم. فلما كان الغد جاؤوا بسمسم وموز وعسل وضعوه عندنا، فأكلنا مقدار ما يسد رمقنا، وأخذوا منا أحسننا حالاً، ودهنوه بالسمن، ثم أقعدوه بالشمس مقدار ساعتين، ثم اجتمعوا عليه وقطعوه، وشووه وأكلوه، ونحن نرى. ومكثنا على هذه الحال أياماً، فلما جن الليل هربنا من السجن ومشينا ونحن نأخذ الطريق على الكواكب، ومشينا على الساحل، فوصلنا إلى غوطة حسنة، فيها ماء عذب طيب، وعزمنا على البقاء حتى يعثر علينا مركب، ومات معظمنا وبقينا أربعة أشخاص.

ومع مضي الأيام عثرنا نحن على مركب خلق قذف به الموج، وبه بعض الموتى، فاحتلنا في رميهم في البحر، وغسلنا القارب، وصنعنا حبالاً من خوص النارجيل، وشراعاً من ليف، وملأنا بطن القارب من الفاكهة، والماء العذب، وسرنا نحو خمسة عشر يوماً ووصلنا إلى قرية من قرى (الضف) وخبرنا الناس، بأخبارنا، ورجعت إلى البصرة بعد أربعين سنة قضيتها بالسفر في البحار.

جزيرة البحرين وساحل هجر:

قال الرحالة علي بن الحسين المسعودي: «وصحار هي قصبة عمان، وبينها وبين البحرين مسيرة عشرة أيام رمال ودهاس، وفي بعض الأماكن ماء ورمال وإلى بلاد الفلج وهي على ثلاثة أيام من اليمامة، وإلى يبرين وهي من أطيب بلاد الله وأكثرها عمائر ونخلاً وشجراً، وهي اليوم لا أنيس بها في هذا الوقت (٣٤٠هـ/ ٩٥١م) بعد أن هاجمها أبو سعيد الجنابي القرمطي.» وتذكر المسعودي قول جرير:

فقلت للركب إذ جد المسير بنا … يا بعد يبرين من باب الفراديس

وباب الفراديس أحد أبواب دمشق، وكانت القوافل تسير محملة بالبضائع في العصر الأموي، وكان أبو سعيد الجنابي أخذ في القطيف وهجر(١٠٥). وكانت هجر أهم الموانئ ومراكز التجارة والإدارة على حد سواء، على ما كانت عليه قبل الإسلام(١٠٦).

وهناك ميناء دارين على ساحل البحرين، وهو ميناء عقير، ولكنه فقد مكانته أثناء حكم القرامطة للبحرين، وشاع المثل السائر (خراب دارين).

كانت معيشة سكان البحرين على تجارة صيد اللؤلؤ.

كيف كان اللؤلؤ يصاد؟

ذكر الشريف الإدريسي طريقة صيده في كتابه (نزهة المشتاق) ذكر فيه أن أهم جزر البحرين (جزيرة أدال)، أي جزيرة ديلمون (Dilimon) وهي على أربعة مراحل من بحر العرب، طولها ستة أميال في عرض ستة أميال، وحاضرة جزيرة أدال اسمها (البحرين) وهي مدينة عامرة وفيها غاصة اللؤلؤ، يقصدها التجار من جميع أنحاء الأرض، ومعهم المال الوفير، وهم يترقبون شهوراً طوالاً موسم الغوص.

يستأجر التجار الغواصين مقابل أجر معلوم، ويكون الغوص في شهري آب وأيلول وقبل هذا إذا كانت المياه صافية، وتخرج المراكب من الميناء، بما ينيف على مئتي دونج (قارب صيد) وهي فلك أكبر من الفلك العادي، ويقسم التجار سطحها إلى خمس أو ست يلنجات (حجرات) منفصلة، ومع كل غواص رفيق مساعد اسمه (المصفّي) له نصيب في الكراء، ويخرج مع الغاصة أدلاء يعرفون مواضع الأصداف. فإذا خرج الغاصة من جزيرة أدال قادهم الدليل إلى الموضع المعلوم، فإذا وجد المكان مناسباً، أمر بطي الشراع وإنزال المراسي ويبدأ الغواصون بالعمل.

يبلغ عمق قيعان الصيد من اثنين إلى ثلاث باعات، ويستر الغواص سوأته ويسد خياشمه بالحلنجل، وهو دهان من المومياء المذاب مع زيت السمسم ومعه سكين وكيس، ويحمل حجراً وزنه أربعة قناطر، أو ما أشبه، معلق بخيط رفيق متين، وهو يُلقى في الماء من ناحية المركب، ويمسك المصفّي بهذا الخيط، بينما يقف الغواص على الحجر، ويمسك الحبل بيديه، متأهباً للقفز في البحر، ثم يترك المصفّي الحبل فينزل والحجر سريعاً إلى قاع

الماء، وهو واقف على الحجر ممسك الحبل بيديه، فإذا وصل إلى القاع، جلس وفتح عينيه، وجمع كل الأصداف التي حوله، فإذا ملأ الكيس انتهى عمله، وصعد إلى البحر ليتنفس، ثم يغوص ثانية. وطالما دامت الأصداف فهو يكرر النزول والصعود، ويستمر العمل حوالي ساعتين، ثم يصعد الغواصون، ويلبسون ملابسهم وينامون، ويأخذ المصفي في فتح المحار بحضور التاجر، الذي يجمع ما يخرج ويسجله في زمّام (دفتر). يأكل الجميع قبل الغروب وينامون طول الليل حتى يبدأ العمل في اليوم التالي بعد الإفطار. ويكرر الغواصون العمل اليومي على طول الموسم.

وتسلم الأكياس إلى الوالي بمجرد مغادرة السفن، ويأتي يوم البيع، فيجتمع التجار، ويكسر الختم، وتفرغ اللآلئ في ثلاثة أنواع من الغرابيل ذات الثقوب المختلفة اتساعاً، ثم تباع الكمية بالمناداة، وتدفع أجور الغاصة، ومساعديهم نقداً، ويأخذ صاحب سيراف أتاوة معلومة يدفعها له التجار، ويحتفظ والي أدال باللآلئ النادرة ليرسلها للخليفة.

تُعلّم حرفة الغوص في فارس (بسيراف) ويدفع للتمرن عليها بعض المال، وفي بحر فارس (الخليج) ٣٠٠ موضعاً مطروقاً، ومغاصات هذا البحر أغنى وأكثر غلة من مثيلاتها بالهند واليمن(١٠٧).

كانت سيراف من أكبر موانئ الخليج، وقيل عنها أنها خزانة فارس، ومن أشهر تجارها محمدج بن بابشاد. ويذكرون أن ملك الهند أمر أن ترسم له صورة لأنه بندر التجار (شاه بندر). وقد ذكر ابن حوقل أنه قابل رجلاً من سيراف يتاجر في البصرة، يملك ثلاثة آلاف ألف دينار (أي ثلاثة ملايين دينار)، ومع ذلك لا تجد التاجر الغني منهم يتميز عن أجيره باللباس، ولكن

لهم مبالغة في البناء. وكانت سيراف تشتهر بصناعة الفوط من القز الذي تلبسه النساء. وفي سنة (٣٦٦هـ/ ٨٧٩م) أصابت سيراف هزة أرضية فهدمت المدينة، وهرب أهلها إلى البصرة والأهواز.

مدينة دامك :

حين يصل إليها السائح يجدها ضمن بلاد فارس، وإن كان حاكمها هو الأمير سلمان بن سلطان بن ناصر شيخ عشيرة كعب. وأصلهم من عمان من الأباضية، ولكن المير سلمان اعتنق المذهب الشيعي، وتزوج امرأة فارسية، وهكذا لم يعد العرب يعتبرون هذه الأسرة في عداد الأسر العربية العريقة(١٠٨).

تاريخ مدينة البصرة :

كان إنشاء مدينة البصرة عام (١٤هـ/ ٦٣٥م) أيام الخليفة عمر بن الخطاب. وفجأة صارت الميناء الأول على فم الخليج الشمالي، وتراجع ميناء الأبلة، وأصبحت البصرة دهليز الصين دون عمان، وخزانة فارس (سيراف) وخراسان(١٠٩).

يقال أن البصرة بنيت على أنقاض مدينة قديمة هي مدينة خارسين (Kharcene) بناها الإسكندر ٣٣ق.م وأنزل بها جالية مكدونية. وصار هؤلاء تجاراً، واستقر بعضهم في جزيرة فيلكة (الكويت) وقد عثر في آثارها على عملة يونانية تعود إلى خلفاء الإسكندر السلوقيين. وعندما زاد عدد سكان الجزيرة بنوا مدينة ودعوها Apollogo وهي التي عرفها الفرس باسم الأبلة. وكان سابور بن أردشير يحب الثقافة اليونانية، وظهر في هذه المدينة الفيلسوف الأفلوطيني بيشر. وازدهرت المدينة تجارياً خصوصاً عندما نقل

إليها سابور ذو الأكتاف جاليات سريانية من أرض الجزيرة وأسكنهم مدن كور الأهواز، فتناسلوا وقطنوا تلك الديار(١١٠) وصار الإقليم يدعى دست ميسان.

وأمر عمر بن الخطاب واليه غزوان بن عتبة بناء البصرة سنة (١٤هـ/ ٦٣٥م) وصارت ميناءاً تجارياً مزدهراً. وانتقل إليها كثير من العرب اليمانية والقيسية. وعندما وفد أنس ابن حجيّة على المدينة سأله الخليفة عمر: كيف حال المسلمين في البصرة؟ قال: انثالت عليهم الدنيا فهم يهيلون الذهب والفضة. وأصبحت البصرة مدينة الدنيا، ومعدن تجارتها وأموالها كما يقول اليعقوبي(١١١). وقد ذكر الجاحظ أن خراج البصرة أكثر من خراج نصف العراق، وكانت البصرة مدينة تجارية فيها جاليات من الفرس والسريان واليهود والصابئة المندائية، وكان يغلب على أهلها المذهب السني.

وفي البصرة ظهرت المذاهب الكلامية، فهم أهل الاعتزال وتحكيم العقل، ومنهم بدأت ترجمة كتب أرسطو إلى العربية، ترجمها عبد الله بن المقفع، وترجم كتاب كليلة ودمنة عن السريانية عن ترجمة الراهب السرياني (الهندي) بودا وكان ذلك سنة ٦١٠م. بينما ترجمها ابن المقفع سنة ٧٥٢م، وظهر في البصرة مذهب النحو البصري المتأثر بالمنطق اليوناني. سأل بعضهم الخليل بن أحمد الفراهيدي عن العلل التي يعلل بها في النحو، هل أخذتها عن العرب أم اخترعتها؟ فقال: «إن العرب نطقت على سجيتها وطباعها، وعرفت أنا مواقع كلامها، وعللت بما عندي أنه علة، فإن سنحت لغيري علة، كما عللته من النحو، وكانت أليق مما ذكرت فليأت بها.» وفي البصرة ظهرت الأحاديث الموضوعة والمتضاربة. قال الفرس: «إن الله أنزل الوحي بالعربية، حين يغضب، وينزله بالفارسية حين يرضى.» فرد عليهم

العرب وقالوا: «أبغض الكلام إلى الله تعالى بالفارسية، وكلام الشيطان الخوزية وكلام أهل النار البخارية، وكلام أهل الجنة العربية.»(١١٢)

كان تجار البصرة الأوائل من الفرس، وكانت مدينتهم تدعى (دهشتا باذأردشير) ولكن المثنى بن حارثة الشيباني قد خربها، وجعلها مركزاً للسفن الفارسية، التي تحمل الحرير الصيني والأصباغ الهندية، والأنسجة العمانية وعطور اليمن والورق البردي من مصر، وهذا السبب في تدهور البحرية الرومانية في الخليج العربي حسب تعليل رينو المستشرق الفرنسي(١١٣).

وأصبح العرب هم التجار الكبار في الخليج العربي في القرن الثاني الهجري، وكان من أوائل هؤلاء التجار ابن وهب القرشي.

رحلة ابن وهب القرشي إلى الصين:

كان هبار بن الأسود بن وهب القرشي من ذوي الثروة في البصرة. وخرج من البصرة عندما غلب عليها الزنج (٢٧٠هـ/ ٨٨٤م) هاجر إلى سيراف ومن سيراف سافر إلى الصين ودوّن هناك رحلته التي قال فيها: «وقصدت ملك الصين الأعظم الملقب (باليغبور ابن السماء) فسافرت إلى حاضرته خمدان وهي على مقدار شهرين من خانقوه (كانتون) وعندما عرف الملك أني عربي ومن أهل بيت نبي العرب أكرمني وسألني عدة أسئلة، ثم أطلعني على مجموعة من الرسوم، بينها صور للأنبياء الأربعة (نوح وموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام).

كانت العاصمة خمدان، مدينة جميلة فيها شارع طويل يقسمها قسمين: قسم يقطنه الملك والأعيان ورجال الحكومة الكبار يقع في الجانب الأيمن المؤلف من القصور الباذخة والحدائق الغناء.

وقسم يقطنه أبناء الموظفين والتجار والطبقات الفقيرة يقع في الجانب الأيسر من الشارع.

وفي الصباح يقبل خدم الطبقة الحاكمة والأعيان، في بكرة الصباح إلى الحي الأيسر، حيث يوجد السوق، فيبتاعون لوازمهم ويعودون إلى قصور مواليهم، قبل أن تشرق شمس النهار، ثم تنقطع الصلة بين سكان الحيين.

وتعرض ابن وهب القرشي إلى تكوين رجال الحكومة الذين كانوا يختارون غالباً من الأشخاص المتعلمين والذين جاوزوا سن الأربعين، وأصبحوا من ذوي الخبرة والحنكة والكفاءة التي تؤهلهم للقيام بجلائل الأعمال، وبرهنوا على استقامة في السلوك وحب العدل، وكره الرشوة، وامتازوا إلى جانب هذا كله بإرادة قوية لا ترضى بتضحية الحق الصريح لمصلحة كبار الملاكين.

ويبدي ابن وهب ملاحظة جديرة بالتفكير والاعتبار، وهي أن التعليم كان إجبارياً في الصين، وأن الحكومة كانت تنشئ أنصاباً للعظماء في الساحات العامة، تنقش عليها بعض الحكم، وهناك لوحات طبية نقشت عليها أسماء الأمراض وإلى جانبها الأدوية (العشبية) تعطى للفقراء مجاناً على حساب الدولة، وأن الدولة كانت تعطي معونة لكبار العاجزين عن العمل لكبر سنهم، وأن الملك كان يبيع المواد الغذائية للشعب أثناء المجاعات، من عنابر الحكومة بأسعار زهيدة كلما حدثت مجاعة، ولم يكن لهؤلاء دين وإنما يحكمون العقل في أمور معاشهم ويرون في العقل دليلاً للوصول إلى الحق(١١٤).

رحلة علي بن الحسين المسعودي (المتوفي ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م):

عاش المسعودي في بغداد في بداية حياته ثم رحل في سبيل العلم والمعرفة، فذهب إلى فارس أولاً وزار كرمان واصطخر، ثم وصل رحلته إلى الهند، فزار المنصورة والمولتان، وتجول في الهند، وجاء إلى الدبيل (كراتشي) إلى بلاد عمان، وزار مدن الخليج العربي والبحر الأحمر، وكتب أخبار رحلاته في عدة كتب لم يبق منها سوى كتابين هما: (مروج الذهب ومعادن الجوهر) وكتاب (التنبيه والإشراف). أكمل ملاحظاته إلى الجزيرة وأذربيجان ثم عاد إلى مصر وتوفي في الإسكندرية.

رحلة محمد بن أحمد المقدسي (المتوفي عام ٣٨٠هـ/ ٩٩٣م):

كان هذا العالم من أهل مدينة القدس. طاف في بلاد الشام واليمن وبلاد فارس وخراسان وخوارزم شاه والخليج العربي. ووضع كتابه سنة (٣٧٥هـ ٩٨٨م) ويعتبر كتابه من الوثائق العلمية التي تتدث عن الوضع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي لكل بلد زاره.

الرحالة ابن حوقل النصيبيني (المتوفي ٣٦٧هـ/ ٩٧٨م)

ولد في بلدة نصيبين عام (٣١١هـ/ ٩٢٣م) ودرس العربية والسريانية، وأحب أن يكمل علمه فزار بلاد الجزيرة والشام وبغداد (عام ٣٢٥هـ) ثم زار مصر والمغرب والأندلس والسودان (٣٣٦ ـ ٣٤٠هـ) ثم زار أرمينية وأذربيجان (٣٤٤هـ) ثم زار فارس وخراسان (٣٥٠ ـ ٣٥٨هـ) وزار ما وراء النهر (٣٦٢هـ) ووصل إلى صقيلية (٣٦٣هـ) وكان إلى جانب كونه عالماً جغرافياً كان يمارس التجارة. التقى بالأصطخري في بغداد وحضه على تدوين أخبار رحلاته ووضع كتاباً سماه (المسالك

والممالك أو صورة الأرض) وكان يميل إلى الفاطميين، واتهمه البعض أنه كان يقوم برحلاته بأمر الدعوة الفاطمية وكان هو من كبار الدعاة. وتوفي في الأسكندرية.

مشاهدات كريستن نيبور في البصرة عام ١٧٦٥م:

يعتبر هذا الرحالة الدانمركي من أعظم الرحالة العلماء في كل العصور، ولأهميته سأتعرض لحياته العلمية. ولد عام ١٧٣٣م في مقاطعة فريسلاند في أقصى شمال ألمانيا لأب يعمل في الزراعة. وكان كريستن ذو موهبة وذكاء خارق مما دفع والده إلى إرساله إلى المدرسة اللاتينية. وعندما مات والده تعلم في مدرسة المساحة، وذهب إلى جامعة هامبورغ، ثم تطوع في الجيش الدانمركي ودرس في سلاح الهندسة الرياضيات والفلك والجغرافية الفلكية ورسم الخرائط. وفي عام ١٧٥٧م لفت الملازم الشاب كرستن البلاط الدانمركي، فوقع عليه الاختيار للاشتراك في البعثة المسافرة لاكتشاف شبه الجزيرة العربية ومنح راتباً شهرياً. انطلقت البعثة عام ١٧٦١ وذهب من القسطنطينية إلى مصر. وفي الباخرة بدأ يتعلم مبادئ العربية فأتقنها، وطاف مصر واليمن والهند وفارس والعراق وسورية وفلسطين وعاد إلى كوبنهاجن في تشرين الثاني عام ١٧٦٧م بعد أن قضى في البلاد العربية مدة سبع سنوات وكتب كتاباً في وصف البلاد العربية في ثلاثة مجلدات.

تزوج كرستن نيبور عام ١٧٧٣م ورزق بابن وبنت واسم ابنه بارتولد جورج نيبور وقد صار أستاذ التاريخ الروماني والسفير في الفاتيكان. وفي عام ١٧٧٤م نشر كرستن المجلد الأول من كتابه ويتضمن رحلته ومشاهداته في مصر واليمن. وقد ترجم هذا الجزء الدكتور مصطفى ماهر بمصر عام

١٩٧٧م. والمجلد الثالث وصف رحلته للهند وفارس والعراق، ترجمه الأستاذ سعاد هادي العمري، ونشر ما يخص العراق عام ١٩٥٥م وبقي المجلد الثاني الذي يتضمن رحلته في سورية وفلسطين لم يترجم إلى العربية بعد.

دلت مشاهدات كرستن نيبور على سعة ثقافته في التاريخ القديم، ومعرفته الواسعة بالجزيرة العربية، وكان يحب العرب والمسلمين. توفي كرستن نيبور في مدينة ميلدورف عام ١٨١٥م. ونشر ولده المجلد الثالث من رحلته عام ١٨٣٧م. يذكر ولده أن والده كان يحب العرب والمسلمين، وكان يزوره السفير الليبي، (عبد الرحمن آغا) وقد فكر أن يزور شمال إفريقية، ولكنه أحجم عن ذلك بسبب مرضه.

وصف البصرة:

قال نيبور: «تقع البصرة على الضفة الغربية لشط العرب، وقد كانت من قبل مدينة تجارية عظيمة، ولكن وضعها الاقتصادي صار يتدهور باستمرار تبعاً للوضع السياسي للمنطقة، خصوصاً بعد استيلاء نادر شاه الصفوي عليها (١٦٢٦ - ١٦٣٦م) ومن بعده زاد الأمر سوءاً في العهد العثماني، بسبب الأمراض والفيضانات وكثرة الحروب العشائرية حولها، وكان الطاعون من أخطر الجائحات، إذ كلما بدأت المدينة بالازدهار في تجارتها وعيشها، كلما وقعت جائحة.

هجرت المدينة بعد جفاف النهر الذي كان يمر بها نتيجة للإهمال من قبل الإدارة العثمانية السيئة، ولم تزدهر إلا منذ أربعين سنة حوالي عام ١٧٢٥م في زمن أحد أعيان المدينة المدعو (سيّاب باشا) الذي نال الولاية من الأتراك، وكان شخصاً يتمتع بمزايا حميدة كحبه للأجانب والتجارة وتسلم

الحكم من بعده ولده (علي باشا) ومن بعده حفيده (حسين باشا) المتسلم الحالي، وهو الذي قام بتوسيع مدينة البصرة، وجدد الأسوار ومدها حتى النهر (شط العرب) وبذلك أصبحت أكثر البساتين وحقول الحبوب ضمن أسوار المدينة الجديدة، وشيد جامعاً في قرية المنياوي الملاصقة للبصرة، وساعد السكان على ازدهار التجارة والزراعة.

ومن آثار البصرة القديمة محلة تدعى الزبير فيها مقام عدة صحابيين وتابعين مثل الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد وهما اللذان قاتلا علي بن أبي طالب في موقعة الجمل لذا هدم نادرشاه الشيعي مقاميهما (عام ١٦٢٦م) وهناك قبة يرقد تحتها الحسن البصري ومحمد بن سيرين، وهناك جامع علي برمكي وجامع صفران(١١٥).

أما البصرة الجديدة فإنها تحتوي على سبعين محلة في كل محلة من (٣٠٠ - ٤٠٠) بيتاً، وبعضها الآخر يتراوح (١٠ - ٢٠) بيتاً. ومن الأفضل تقدير كل محلة وسطياً بمائة بيت، وبذلك يصبح عدد السكان حوالي خمسين ألفاً.

معظم بيوت البصرة مبنية باللبن المجفف بالشمس، والقليل جداً ما كان مبنياً من الطابوق المفخور بالنار والكلس. وأما قصر الباشا فهو حصن بناه من الطابوق المفخور بالنار.

والمذهب الديني السائد في المدينة هو المذهب السني، وفيها أقلية شيعية، بعضهم هاجر من إيران، وصاروا يشتغلون بالتجارة. وهناك عدة عائلات نصرانية (كلدان ونساطرة وأرمن) وهناك ما يقارب مائة عائلة يهودية تعرف محلتهم باسم (محلة اليهود). وهناك بعض العائلات الأوربية تعمل بالتجارة، منهم الإنكليز الذين يعملون بتجارة الأقمشة والجوخ، وبعض التجار الفرنسيين والإيطاليين (البنادقة) يتاجرون مع حلب وبغداد.

وكان اليهود وسطاء جيدين في تجارة القهوة التي يستوردونها من اليمن (من مخا وصنعاء) ويصدرونها إلى بغداد وحلب. وفي البصرة تقطن بعض العائلات (المندائية) وهم يدعون أنهم نصارى من أتباع يوحنا المعمدان. وأخبروني أن اسمهم (ناصوراي دي يحيا) وهم يعملون في صياغة الفضة والذهب وعلاقاتهم جيدة مع العرب المسلمين، ولهم كتاب بالآرامية يدعى (الكنزورا). ومن الشخصيات البارزة والأعيان الباشا حسين بن علي الكعبي المتسلم الحالي. وهو عربي الأصل يدعي من بني كعب، وهناك القبودان (القائد العسكري) وهو يترأس الجندرمة الانكشارية، أصله تركي، ويستطيع المتسلم استدعاءه كما يستدعي الدفتردار.

وهناك بقية الأعيان العرب والأتراك، كالشاهبندر ونقيب الأشراف من آل الحسن وهو السيد (طالب النقيب) وابنه درويش قواسي هو ا لكردان باشا، يحكم الديوان، وهو محترم عند القبائل العربية المتواجدة على طريق القوافل بين (البصرة – بغداد – حلب) ومن الأعيان المفتي الحنفي والقاضي التركي الذي يرسل من الآستانة (إسطنبول) كل عام. كان العرب يسيطرون على تجارة القوافل البرية والنهرية، أما التجار الأجانب (الأوربيون) فهم المسيطرون على تجارة الهند مع (بومبي وكوجورات) ويدفعون رسوماً جمركية ٣% عن كل بضاعة تجلب من الهند، في حين يدفع كافة التجار من الأقوام الشرقية ٧% رسوماً جمركية(١١٦).

ما هي أهم البضائع الموجودة في سوق البصرة؟

كانت البضائع الأوربية متوفرة كالقماش الذي يستورده التجار الإنكليز، قماش المخمل البسيط والمخطط، والمقصب بالذهب والفضة، والساتان والتافتة

والساعات التي يستوردها الفرنسيون والكريستال والبنادق والمسدسات التي يستوردها الإيطاليون والفرنسيون.

وهناك البضائع الحلبية كالصابون والأقمشة القطنية (البوشي) والشالات، والكجة والعباءات والزجاج.

وبضائع عربستان (الأهواز) الجمال والغنم والخيل الأصيلة والفوط والفضة.

والبضائع العمانية كاللؤلؤ، والسمك المقدد والقرنفل وشجر العود والكافور والكبريت والكركم والزنجبيل وخشب الصندل والقهوة اليمانية يستوردها التجار اليهود.

والبضائع الإيرانية شالات الكشمير، والكاشاني، والكهرمان، (حجر صمغي) والفراء، وأقمشة حريرية مستوردة من الهند والصين، والزعفران والنفط الأبيض، والكركم، وحجر جهنم، وماء الزهر، والفواكه المجففة، والتبغ، كان العرب والفرس يستوردونها ويصدرونها إلى بغداد وحلب.

البضائع الهندية والأندونيسية: التي تستوردها شركة الهند الشرقية، الموسلين والحرير والأقمشة الملونة والشالات الكشميرية والخزف الصيني والسكر والشاي والفلفل الأسود.

وأكثر تجارة البصرة وبغداد تنقل بواسطة المراكب والسفن النهرية، وهي تعادل من حيث الحجم سفينة مسطحة القعر، وتذهب بعض هذه السفن إلى حلب عن طريق مسكنة. وهناك الأطواف النهرية التي تأتي من الموصل بواسطة نهر دجلة، ومن حلب (مسكنة) بواسطة نهر الفرات، وهذه الأطواف مصنوعة من جذوع الأشجار وتسحب إلى أعالي الفرات ودجلة، أو تأتي بالراحة إذا كانت آتية مع تيار النهر، ويمكن استخدام النهر لمدة سبعة أشهر في السنة.

القوافل البرية بين البصرة وبغداد وحلب:

كانت التجارة بين بغداد والبصرة وحلب نشطة، وكانت تحمّل على البغال أو تحمل في العربات أو على ظهور الجمال والحمير، وكانت أجرة الحقة، تتراوح بين (١٠ ــ ٢٠ قرشاً) للأقمشة الحريرية والشالات واللؤلؤ، تحمل من الشام (دمشق) إلى بغداد أو من حلب إلى البصرة، وكانت الرحلة تستغرق حوالي (١١) يوماً بين دمشق وبغداد وحوالي (٢٠ يوماً) بين حلب والبصرة وكانت القبائل العربية مع خفارتها للقافلة تقدم العلوفة.

كان عرب البصرة من قبائل كعب والمنتفق وبني خالد، وكان يطلق على من يسكن من القبائل داخل البصرة اسم (الحضيري). وكان إنتاج البصرة الرئيسي هو التمر. ويصنف التجار التمر نوعان (بارد وحار) والبارد هو الصنف الجيد، يأكل من قبل الإنسان وله أنواع عديدة (٢٧ صنفاً) أفضها الخستاوي والأشرسي، وأصابع العروس، والخيارة، والفارسي.

أما التمر الحار وهو الزاهدي ويستعمل لصناعة الكحول، وصناعة الدبس، أو علفاً للحيوانات. وكانت المرأة المرضع إذا تخاصمت مع زوجها تهدده بأكل التمر الزاهدي مما يمرض الطفل.

كان الانكشارية هم الذين يحفظون الأمن داخل المدن. وكان على التاجر والجمال والآغا، أن يدفعوا لهم أتاوة سنوية (معلومة) ولهم إشارات ورموز منها (القازان) القدر وهو عندهم مقدس يحملونه معهم، ويخشون من استيلاء العدو عليه. وكان قائدهم (القابودان) يسكن (القرنة) بلدة عند ملتقى دجلة بالفرات، أما الضباط والجنود فيسكنون البصرة الجديدة.

وصف الطريق البري بين البصرة وحلب:

كانت القافلة لا تنطلق إلا إذا سنحت لها الفرصة، إن لم يكن القتال بين القبائل العربية، أو بين القبائل والباشوات الأتراك، وكان قائد قافلة البصرة (الكروان باشي) رجلاً مستقيماً إنه درويش ابن السيد طالب النقيب، وكانت تحترمه كافة القبائل العربية.

كان السائح الأجنبي لا يمكنه السفر إلا مع القافلة، ويلاقي كثير من الصعوبات إذا كان غير مطلع على اللغة المحكية، ولم يكن معتاداً على المعيشة في ظل العادات الشرقية، وإلا كانت رحلته محفوفة بالمخاطر.

وإذا لمح الأعراب أحد السواح يرافق القافلة، فماذا يحدث للقافلة؟ يتقدم بعض الأعراب نحو الكروان باشي، ممتطين الخيل، بينما على القافلة الوقوف عن السير طيلة مدة التشاور، وليس بإمكان أحد إطلاق النار، حتى إذا اقتربوا وهددوا بالنهب، وفي أغلب الأحيان تستغرق المداولات وقتاً طويلاً ويتوصلون إلى اتفاق بموجبه على السائح أن يدفع مرة ثانية مبلغاً لا يقل عما طلب منه في بداية الرحلة.

وتصعب الرحلة بالنسبة للشيعة واليهود الذين يتعرضون على الأغلب لمعاملة سيئة، لكونهم منسوبين للمذهب الآخر وأفضل سفر على طريق (حلب – البصرة) بمصاحبة عرب بني خالد الذين يجلبون في كل عام مجموعة من الجمال إلى بازار حلب ويمرون عبر طريقهم قرب البصرة لأن مقامهم كان في القرين (الكويت). وكذلك القافلة التي يقودها درويش آغا (الكروان باشي). لأنه يعرف كافة شيوخ العرب وكان يحمل معه الهدايا لشيوخهم (التبغ والقهوة) وأحياناً السكر والكوفية والتمور الفاخرة.

كان كروان باشي بغداد، يدفع للباشا أربعة آلاف دوقية لو سمح له بقيادة قوافل الزوار الإيرانيين، الذين يسافرون لزيارة الأماكن المقدسة، في الشام (دمشق). يقول كرستن نيبور: «وقد أكد لي بعض ذوي الخبرة، إذا نهبت قافلة كبيرة فإن الذنب يعود في ذلك إلى مرشد القافلة».

كان بعض التجار يحملون معهم حماماً زاجلاً، يرسلونه من مكان بعيد، لتطمين عوائلهم بسلامتهم، والحمامة التي تترك صغارها في الدار فإن رجوعها أمر محقق على ما أكده لي بعض أهل البصرة، وأن أفضل الحمام الزاجل نوع خاص يوجد في بغداد، وقد أكده لي كذلك أحد التجار الإيطاليين في البصرة، أنه استخدم ذلك الحمام(١١٨).

إن تربية الحمام في بغداد والبصرة والرقة عادة قديمة ذكرها لنا الجاحظ في كتابه الحيوان قال: «لا تقيم الحمام (الزاجل) معهم في دورهم إلا بعد أن يعلّموه ويدرّجوه من طور الوحشي إلى طور الأنسي، ومن الحمام (الأصيل) يباع الزوج الواحد بخمسمائة دينار. والحمام يستدل على موضعه بالعقل والمعرفة والعناية، وهو قابل للتدريب. ذكر لي زهير بن معمر، إذا درّب الحمام في الرقة ونقل إلى الدروب شمال أنطاكية، وما فوق الدروب من بلاد الروم، عاد إلى بلده الأصلي الرقة، مستدلاً بالنجوم في الليل، وفي النهار يلتزم بطن الفرات أو بطون الأودية التي قد مر بها من قبل، وهو يرى ببصره انحدار الماء، ويتعرف بالريح، وبقرص الشمس في السماء، فربما يرحل به شمالاً وجنوباً مئات الفراسخ، ولكنه يعود.»(١١٩)

الطريق بين البصرة وبغداد:

إن أقصر طريق من البصرة إلى بغداد، يمر خلال البادية كان يزخر بعشائر مطير والظفير وشمر وعنزة، وكانت التجارة خلال مكوثي في البصرة عام ١٧٦٥م متردية بحيث لم يستطع التجار تأليف قافلة قوية إلى الحد الكافي، فوصف لي رجل بدوي ارتاد الطريق بين البصرة وحلب، أكثر من عشرين مرة عبر البادية وعدد لي مراحل الطريق كما يلي: (الزبير – كويبدة – شكرة – الخنقة – القصير (قلعة قديمة متهدمة) – وادي أبو المعاريس – عيون صيد – أم القرون (حوض ماء قديم حفرته زبيدة) – عقرقوف – الهيس – الفلوجة ومنها إلى بغداد.

الطريق بين البصرة وحلب:

الطريق المختصر الذي وصفه لي الكروان باشي، وبعد التزود بالماء الذي يكفي لأربعة أيام وتتبع المحطات التالية: الزبير – كويبدة – خنقة – القصير – وادي المعاريس – سلمان – الغضاري – القايم – مشهد علي – الحسيان – الأخيضر – رأس العين – الكبيسة – عقلة حوران – ثغب الجاموس –المانعي – البردان – الرطبة – جب غنم – صواب الصرايم – السخنة – الطيبة (قربها جبل) – الكديم – قصر الحوير – قاع أبو فياض – صهاريج – جبل شبيث – الحصن – حقلة – عين سفيرة (عين الذهب) – حلب.

هذه هي أهم مراحل الطريق الذي يقطع خلال شهر كامل.

قصارى القــول:

أن الكتاب الذي وضعته سميته (حضارات طرق التوابل والعطور) لاعتقادي أن كل حضارة لا تولد من فرغ، وإنما هي تحصل نتيجة الحوار

والتواصل الذي يحصل بين الشعوب والأمم القديمة والحديثة، ويتم ذلك عن عدة طرق منها: طرق التجارة وتستخدم فيها تبادل البضائع والخبرات، أو عن طريق الحج والسياحة الدينية ويتم التواصل عن طريق الإيمان، أو عن طريق الحروب، ويتم التواصل بالقهر والغلبة، والتهجير، وأخيراً عن طريق الكتابة والتأليف، وهذا أرقى أنواع التواصل.

وختاماً أشكر كل من ساعدني في تأليف هذا الكتاب وإنجازه. والشكر الخاص لزوجتي وفاء المحمد أم قتيبة التي قدمت لي الراحة والاعتناء أثناء تأليفي الكتاب الذي تم بعون الله ومنته.

الرقـــة، ١٥/ ٣/ ٢٠٠٥م

* * *

مراجع الفصل الرابع

١ ـــ مكة والمدينة في الجاهلية وفي عهد الرسول ص١٤، أحمد إبراهيم شريف، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٧١.

2 – G. Biby. Looking at Dilimun. P.78, Pelican book, London 1972.

٣ ـــ قواعد اللغة المصرية في عهدها الذهبي ص٤٢، عبد المحس بكير، القاهرة ١٩٧٧.

٤ ـــ العرب قبل الإسلام ص١٠، جرجي زيدان.

٥ ـــ كتاب الحيوان للجاحظ جـــ٧ ص٦٨.

٦ ـــ صفة جزيرة العرب للهمداني ص٢٩٧.

٧ ـــ أضواء على دولة كندة جـــ١ ص٦، عبد الرحمن الطيب الأنصاري، مطابع جامعة الرياض ١٩٧٩.

٨ ـــ نهاية الأرب في فنون العرب جـــ١ ص٣٧٦، شهاب الدين النويري، القاهرة ١٩٥٤.

٩ ـــ ديوان الأعشى ص١٧٣.

١٠ ـــ المصدر السابق ص٤٣.

١١ ـــ نهاية الأرب جـــ١ ص٣٨١.

١٢ ـــ كتاب الحيوان للجاحظ جـــ١ ص٧٣.

١٣ ـــ تاريخ الأدب الجغرافي عند العرب ص٤٢، قسطنطين كراتشكوفسكي، ترجمة: صلاح الدين هاشم عثمان، الكويت ١٩٧١.

14 – Bury. A History of Greece, p.367, London 1949.
15 – G. Sarton, History of science. P.230, Newyork 1953.
16 – Plinus, Historia Naturalis XII. P.51, London 1930.

١٧ ـ اكتشاف جزيرة العرب ص٣٥، جاكلين بيرين، ترجمة: قدري قلعجي، دار الكاتب العربي، بيروت ١٩٦٣.

١٨ ـ الحضارات السامية القديمة ص١٦٠، سبيتنو موسكاتي، ترجمة: السيد يعقوب بكر، دار الرقي، بيروت ١٩٨٦.

١٩ ـ المصدر السابق ص٢٠٠.

٢٠ ـ أخبار مكة جـ١ ص٤٣، أبو الوليد الأزرقي، الرياض ١٣٧٢هـ.

٢١ ـ سيرة ابن هشام جـ١ ص١٣٢، تحقيق: مصطفى السقا ورفاقه، دار إحياء التراث، بيروت/ لبنان.

٢٢ ـ أخبار مكة جـ١ ص١١٠.

٢٣ ـ أسد الغابة جـ١ ص٤٥٤، ابن الأثير، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٢٤ ـ المغازي جـ١ ص٢٠٧، الواقدي، تحقيق: مارسدن جونز، مؤسسة الأعلمي، بيروت.

٢٥ ـ سيرة ابن هشام جـ٢ ص٦٢.

٢٦ ـ كتاب المعارف ص٥٧٥.

٢٧ ـ الممالك والمسالك ص١٣٤، ابن خرداذبة، مطبعة بريل ١٨٨٩.

٢٨ ـ الممالك والمسالك ص٢٤، الأصطخري، تحقيق: محمد جابر الحسيني، القاهرة ١٩٦١.

٢٩ ـ كتاب المعارف ص٥٧٥.

٣٠ ـ المصدر السابق ٥٧٦.

٣١ ــ مروج الذهب جــ٢ ص٢٧٦.
٣٢ ــ أخبار مكة جــ١ ص٦٧.
٣٣ ــ تاريخ اليعقوبي جــ١ ص٢٩٨.
٣٤ ــ كتاب العنوان ص٣١٩، أغابيوس المنبجي، تحقيق: لويس شيخو اليسوعي، بيروت ١٩٠٨.
٣٥ ــ الملل والنحل جــ٢ ص٧٤.
٣٦ ــ موسكاتي ص٢١٧.
٣٧ ــ كتاب الحيوان جــ١ ص٦١.
٣٨ ــ أخبار مكة جــ١ ص٨٧.
٣٩ ــ سيرة ابن هشام جــ١ ص٢٢٢.
٤٠ ــ أخبار مكة جــ١ ص٥١ ــ ٥٢.
٤١ ــ كتاب الأصنام ص٩، ابن الكلبي، تحقيق: أحمد زكي باشا، القاهرة ١٩١٤.
٤٢ ــ المصدر السابق ص١٩.
٤٣ ــ أخبار مكة جــ١ ص٨٧.
٤٤ ــ المصدر السابق جــ١ ص٧٦.
٤٥ ــ المصدر السابق جــ١ ص١١١.
٤٦ ــ تاريخ اليهود في بلاد العرب ص٩، إسرائيل لفيتستون، القاهرة ١٩٢٧.
٤٧ ــ أنساب الأشراف جــ١ ص١٧٦، البلاذري، تحقيق: محمد حميد الله، دار المعارف بمصر ١٩٦١.
٤٨ ــ سيرة ابن هشام جــ٣ ص٥١.

٤٩ ــ تاريخ المدينة المنورة جــ١ ص٣٠٦، ابن شبّة النميري، تحقيق: فهيم محمد شلتوت، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٧٢م.

٥٠ ــ تاريخ العرب في الجاهلية ص٣٩٤، عبد العزيز سالم، دار النهضة، بيروت ١٩٧١.

٥١ ــ كتاب وفاء الوفا جــ١ ص١٧٨، نور الدين بن علي السمهوري، دار إحياء التراث، بيروت ١٩٨٤.

٥٢ ــ التنبيه والإشراف ص٢١٥.

٥٣ ــ مقدمة ابن خلدون ص٢٣٩، كتاب التحرير، القاهرة ١٩٦٦.

٥٤ ــ المرأة في التاريخ العربي ص١٨٥، ليلى صباغ، منشورات وزارة الثقافة، دمشق ١٩٧٥.

٥٥ ــ مختصر دراسة التاريخ جــ٤ ص٢٠، أرنولد تويبني، ترجمة: محمد فؤاد شبل، الإدارة الثقافية، القاهرة ١٩٦٤.

٥٦ ــ تاريخ الحيرة ص٤٩٤، عارف عبد الغني، دار كنعان، دمشق ١٩٩٣.
- تويبني جــ٤ ص١٩.

٥٧ ــ أسواق العرب في الجاهلية والإسلام ص٤٦، سعيد الأفغاني، دار الفكر، دمشق ١٩٦٠.

٥٨ ــ المصدر السابق ص٤٨.

٥٩ ــ المصدر السابق ص٤٩.

٦٠ ــ مجاني الأدب في حدائق العرب جــ٢ ص٣١٧، الأب لويس شيخو اليسوعي، بيروت ١٩٣٢.

٦١ ــ البيان والتبيين جــ١ ص٢٦٣، الجاحظ، تحقيق: محمد عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي بمصر ١٩٦٠.

٦٢ ــ رسالة الغفران ص٤٤٠، أبو العلاء المعري، تحقيق: عائشة عبد الرحمن، دار المعارف القاهرة ١٩٦٣.
٦٣ ــ المصدر السابق ص٤٤١ ــ ٤٤٢.
٦٤ ــ المصدر السابق ص٤٤٠.
٦٥ ــ المصدر السابق ص٤٣٨.
٦٦ ــ المصدر السابق ص٤٤٢.
٦٧ ــ البداية والنهاية جـ١١ ص١٦١، الحافظ ابن كثير، مكتبة المعارف، بيروت ١٩٧٧.
٦٨ ــ رحلة ابن جبير ص٤٨، طبعة دار التراث، بيروت ١٩٦٨.
٦٩ ــ المصدر السابق ص١٤٣ ــ ١٤٩.
٧٠ ــ معجم البلدان لياقوت الحموي، مادة فيد.
٧١ ــ اكتشاف جزيرة العرب ص٤٠ ــ ٤١.
٧٢ ــ المصدر السابق ص١٠٠.
٧٣ ــ مختصر دراسة التاريخ جـ٣ ص٣٨، أرنولد توينبي.
٧٤ ــ كتاب البلدان ص١٣٥، ابن الفقيه، تحقيق: دي خويه، ليدن ١٨٩٠.
٧٥ ــ الخليج العربي في التاريخ القديم ص١٧، سامي سعيد الأحمد، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد ١٩٨٩.
76 – M. Tosi. On The Distribution of Natural Resorce in Ancient Oma'n, p.187 London 1977.
77 – Lamberg. Death in Diliniun. P43, London 1976.
٧٨ ــ سامي سعيد أحمد ص٥٣.
٧٩ ــ المصدر السابق ص٧٣.
٨٠ ــ التنبيه والإشراف ص٢٤٤.

٨١ ــ سامي سعيد الأحمد ص٣٥.
٨٢ ــ اكتشاف جزيرة العرب ص٣٣ ــ ٣٤.
٨٣ ــ المصدر السابق ص٢٩.
٨٤ ــ المصدر السابق ص٣١.
85 – R. Compland. East Africa and It Inveders p.16 London 1933.
٨٦ ــ التنبيه والإشراف ص٦٩ ــ ٧٠.
٨٧ ــ عمان في العصور الإسلامية الأولى ص١٦، عبد الرحمن العاني، بغداد ١٩٧٧.
٨٨ ــ تجارة العراق البحرية ص٦٣، عادل الألوسي، بغداد ١٩٧٢.
٨٩ ــ تاريخ بغداد ص٢٣، الخطيب البغدادي، بغداد ١٩٣١.
٩٠ ــ المسالك والممالك ص٤٤، ابن حوقل، تحقيق: دي خويه ليدن ١٨٧٢.
٩١ ــ ملوك العرب جــ٢ ص٢٢١، أمين الريحاني، بيروت ١٩٤٣.
٩٢ ــ تاريخ الطبري جــ١ ص٤٣٣.
٩٣ ــ ببلوغرافيا في تاريخ عمان، مجلة المورد ص٢٧٥، فاروق عمر، بغداد ١٩٧٤.
٩٤ ــ التنبيه والإشراف ص٤٦.
٩٥ ــ مقدمة في دراسة مصادر التاريخ العماني ص٢٢٨، فاروق عمر، بغداد ١٩٧٩.
٩٦ ــ الحركات السرية في الإسلام ص١٦، محمود إسماعيل، بيروت ١٩٧٣.
٩٧ ــ تحفة النظار ص١٦٩، ابن بطوطة، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة ١٩٦٤.

٩٨ ـ المصدر السابق ص١٦٤.

٩٩ ـ المصدر السابق ص١٧٢.

١٠٠ ـ بداية المجتهد ونهاية المقتصد جـ١ ص١٥٨، ابن رشد، المطبعة التجارية، القاهرة ١٩٥٥.

١٠١ ـ تحفة النظار ص١٧٣.

١٠٢ ـ أدب الرحلات ص٢٧، أحمد أبو سعد، دار الشرق الجديد، بيروت ١٩٦١.

١٠٣ ـ المصدر السابق ص٣٥ ـ ٣٩.

١٠٤ ـ المصدر السابق ص٤١.

١٠٥ ـ التنبيه والإشراف.

١٠٦ ـ صفة جزيرة العرب ص١٣٦.

١٠٧ ـ أدب الرحلات ص٩٩ ـ ١٠٠.

١٠٨ ـ دولة البوسعيد في عمان ص٥٨، جمال زكريا قاسم، مكتبة القاهرة الحديثة ١٩٦٨.

١٠٩ ـ أحسن التقاسيم ص٤٣٦، المقدسي، تحقيق: دي خويه، ليدن ١٩٠٦.

١١٠ ـ مروج الذهب جـ٢ ص١٨٥.

١١١ ـ تاريخ اليعقوبي ص٣٢٣.

١١٢ ـ كتاب الاقتراح ص١٤٥، السيوطي، مطبعة السعادة ١٣٥٨هـ.

١١٣ ـ اللآلي المصنوعة جـ١ ص٤٤، السيوطي، طبعة بولاق، القاهرة.

١١٤ ـ الجاحظ حياته وآثاره ص٢٢، طه الحاجري، دار المعارف بمصر ١٩٦٩.

١١٥ ـ أدب الرحلات ص٤٢ ـ ٤٣.

١١٦ ـ مشاهدات نيبور في العراق ص٢٦، ترجمة: سعاد هادي العمري، دار المعرفة، بغداد ١٩٥٥.

١١٧ ـ المصدر السابق ص٤٥.

١١٨ ـ المصدر السابق ص٥٢ ـ ٥٣.

١١٩ ـ المصدر السابق ص٥٤.

١٢٠ ـ كتاب الحيوان جـ١ ص٤٧٦.

* * *

الفهرس

الصفحة

الفصل الأول

الهلال الخصيب هو مهد الحضارات الإنسانية

الصفحة

الصفحة

الفصل الثاني

حضارة بلاد الشام هي حضارة المدن السورية

الصفحة

الصفحة

الفصل الثالث

دور القوافل العربية في التواصل الحضاري بين الشرق والغرب

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الفصـــل الـــرابع

صلة الجزيرة العربية بالهلال الخصيب حضارياً

الصفحة

الصفحة

الطبعة الأولى / ٢٠٠٧

عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة